د. محمد الجوادى

فى ضوء القمر

مذكرات قادة العمل الوطنى السرى
والاغتيالات السياسية
(١٩١٠ ـ ١٩٢٥)

عبد العزيز على

عبد الفتاح عنايت　　　أحمد رمضان زيان



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

فى ضوء القمر : مذكرات قادة العمل الوطنى السرى والاغتيالات السياسة (١٩١٠ ـ ١٩٢٥) محمد الجوادى . . .

ط١ . ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨م

٣٢٨ص ؛ ١٧ × ٢٤سم .

تدمك 7- 12 - 6278 - 977 - 978

١ - مصر ـ الأحوال السياسية .

٢ ـ مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث

أ. الجوادى، محمد (المؤلف) . ٣٢٠,٠٩٦٢

رقم الإيداع ٣١٢٩ / ٢٠٠٨م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 12 - 7

فى ضوء القمر

الطبعـــــة الأولى
١٤٢٩ هـ - يناير ٢٠٠٨ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٢٥٦٥٩٣٩
المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٣٨٠٧١ - ٢٣٩١٣٠٧٢
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

الفهـــرس

إهـــداء

إلى العلامة الجليل

الأستاذ الدكتور عبد الحميد مدكور

تحية لروح الفداء والولاء والوفاء.

د. محمد الجوّادي



هـذا الكتـاب

نتناول فى هذا الكتاب مجموعة من مذكرات رجال العمل الوطنى الفدائى السرى الذين تمكنوا من تحقيق عدد لا يستهان به من الإنجازات التى تستهدفها مثل هذه الأجهزة التى يحمل أصحابها أرواحهم على أكفهم من أجل تحقيق ما آمنوا به ونذروا أنفسهم له من أهداف وطنية، ولا يستطيع أى باحث منصف فى التاريخ أن يتجاهل الدور الكبير الذى لعبته هذه التنظيمات السرية فى زعزعة وجود الاستعمار البريطانى فى مصر، وفى ترويع المتعاونين معه، وإذا جاز لنا أن نؤرخ بداية نجاحات هذا التنظيم ونهايته، فإننا نستطيع أن نقول إن أول عمل نجح فى الحقيقة كان هو اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى فى فبراير ١٩١٠م، وإن آخر عمل كان هو اغتيال سردار الجيش السير لى ستاك فى نوفمبر ١٩٢٤م.

وعلى مدى هذه الفترة التى تقترب من خمسة عشر عامًا نجح هذا التنظيم السرى الذى ربما لا يتذكر الناس اسمه، وربما لا يجمعون على أن اسمه كان هكذا، نجاحات متوالية تدل بوضوح على ملكات خاصة وقدرات مذهلة تمتع بها أعضاؤه الذين كانوا من أجيال متقاربة ولم يكونوا من جيل واحد، وكانوا من ثقافات متباينة ولم يكونوا من طائفة واحدة، وكانت مستوياتهم العلمية والمهنية والوظيفية والثقافية مختلفة، لكن حب الوطن كان بمثابة العقيدة التى وحدتهم بعدما جمعتهم، وقد مكنتهم هذه العقيدة من تحقيق ما حققوا، وما كان من الممكن لهم أن يحققوه فى فترة تالية لو أن الحادث الأخير لم يمكن السلطات الغاشمة من رقابهم.

وإنى أميل إلى القول بأن إرجاع المسئولية عن بعض الفشل الذى واجه هذا التنظيم يعود إلى زعماء الحركة الوطنية المصرية بمن فيهم سعد زغلول نفسه، وبمن فيهم أحمد ماهر والنقراشى وغيرهما من الذين كانوا على علاقة عضوية أمينة بهذه المنظمات، وعندى أنه يستوى فى هذا الفشل أن يصل التنظيم إلى خطأ فى تقدير الأمور، أو فى فهم مدى المساحة المتاحة أمامه للعمل، أو توقيت قيامه بالخطوات الحاسمة، كما يستوى أيضًا أن تعجز الحركة الوطنية، وقد أصبحت السلطة فى يديها، عن أن ترعى الفدائيين البارزين رعاية تتناسب مع ما بذلوه من أجل الوطن، وأن تتابعهم حتى تطمئن على سلامة موقفهم القلبى، وجهازهم النفسى بعد تعرضهم لمحنة السجن والاعتقال والأحكام الشديدة المتعنتة، ويدفعنى إلى أن أضمن هذه المقدمة مثل هذه الجزئية الأخيرة يقينى من أن نجيب الهلباوى الذى دمر هذا التنظيم وبأبخس الأثمان لم يكن فى الأصل فاسدًا ولا مريضًا ولا خائنًا ولا عميلاً، ولكن ظرفًا حاسمًا دفعه إلى هذا الاتجاه وهو ما تصوره، وقد يكون مخطئًا من نكران زعماء الوطن لجميله، أو عدم انتباههم إلى تقديره بما كان يستحقه فى الوقت المناسب، أو بعد الوقت المناسب بقليل، ولا يمكن لنا أن ننسى أن هذا الذى تورط كان فى الأصل رجلاً فدائيًا، أبلى بلاء بارزًا، وتعرضت رقبته للمقصلة، وقضى فى السجن سنوات طوالاً.

لهذا السبب فإنى لا أوافق الدكتور عبد الخالق لاشين موافقة تامة فيما ذهب إليه فى مقدمة كتابه عن أن عنف وضراوة البريطانيين كانت السبب الوحيد فى النكسة التى أصيب بها هذا التنظيم، ومع أن هذا السبب مهم، لكنه سبب غير كفيل بنفى مسئولية زعماء الحركة الوطنية بمن فيهم سعد زغلول نفسه كما قلت.

وربما كان من المفيد هنا أن أنقل نص رأى الدكتور لاشين الذى سجله فى تقديمه لكتاب «الثائر الصامت» حيث قال:

«وإذا كانت النهاية التى انتهى إليها العمل الفدائى السرى، والتى أصابت الحركة الوطنية فى مقتل.. بارتكاب حادث مقتل السردار فى نوفمبر ١٩٢٤م، ليس فقط قد أطاحت بوزارة الشعب التى كان يرأسها سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩م وقائد الجماهير المصرية، بل وأهم من ذلك أنها كشفت خلايا العمل السرى فى مصر.. كما

مر بنا . . والتى ظلت بعيدة عن أعين السلطات وعلمهم لفترة طويلة . . مما نجم عنه التنكيل بالقائمين بها ، بل تصفيتها . . فإن ذلك كله ربما لا يرجع إلى خطأ فى ذلك النوع من أساليب العمل ، أو إلى قصور ذاتى فيه بقدر ما يعزى إلى عنف وضراوة الاحتلال البريطانى . . وضعف القيادات الرسمية المصرية ، كما يعزى أيضًا إلى أن أحد المصريين من ضعاف النفوس قد وضع نفسه طائعًا مختارًا تحت خدمة الاحتلال وممثليه . . فكشف بذلك النقاب للمرة الأولى عن تشكيلات العمل السرى ورجاله بعد أن عجزت كل السلطات ، سواء البريطانية أو المصرية ، عن التعرف عليها أو الوصول إليها . . الأمر الذى أودى بحياة صفوة نادرة من خيرة شباب الأمة وأبنائها وشل حركتها لفترة قادمة» .

وإنى أرجو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنى لإنجاز مشروع كتاب ثان شرعت فيه عن مذكرات رجال العمل الوطنى السرى المنتمين للوفد المصرى ، وسوف نرى ـ إن شاء الله ـ فى مدارستنا لتلك المذكرات التى كتبها هؤلاء الوفديون تداخلاً كبيرًا مع كثير من الأحداث التى تحدث عنها الفدائيون المنتمون للحزب الوطنى فى مذكراتهم ، وإن كنا نرى ـ بالطبع ـ كثيرًا من الاختلاف فى الرؤية التى تحكم الحديث عن النشاط الفدائى ، وفى الزواية التى يتحدثون منها عما حدث ، لكن هذا الاختلاف فى الرؤية والزاوية لا يستطيع أن يغير من الحقائق الكبرى المتعلقة بجوهر هذا النشاط الفدائى والعمل الوطنى السرى .

ولعل أولى هذه الحقائق هى ما يتصل بالدور الحاسم لخلايا العمال فى ثورة ١٩١٩م ، فقد قامت هذه الخلايا بالجزء الأكبر من الإنجاز ، وكان أداؤها مبعث فخر واعتزاز ، وقد وصل هذا الفخر والاعتزاز إلى حد أن جميع مَنْ كتبوا مذكراتهم عن هذه الفترة كانوا حريصين على الإشارة إلى العلاقة بهؤلاء ، سواء أكانت هذه العلاقة علاقة زمالة ، أم علاقة توجيه ، وسواء أكانت هذه العلاقة عضوية أم تنظيمية فحسب ، بل إن الدكتور سيد محمد باشا ، وهو من أقطاب العمل السرى الوفدى يكاد يقصر الدور الوطنى الفدائى على هؤلاء العمال الأبطال الذين حرص الجميع على أن ينسبوا دورهم الفذ إلى أنفسهم ، ومع أن سيد باشا نفسه كان من هؤلاء الذين حرصوا على

نسبة العمال إلى تنظيمه، فإنه يجاهر بهذه الحقيقة التى تتعلق بحصر جوهر هذا الإنجاز الوطنى الكبير فى إنجاز هؤلاء العمال الأبطال الذين ذهبوا إلى لقاء ربهم شهداء بالأحكام التى صدرت فى قضية مقتل السردار، وذلك على الرغم من إنكارهم وعدم اعترافهم على طول الخط.

كذلك، فإننا نرى بكل وضوح أن المثالية كانت عاملاً حاكمًا لكل تصرفات هؤلاء العمال الأبطال، ونحن نرى المثالية فى أخلاقهم الدينية، وفى أخلاقهم الوطنية على حد سواء، كذلك نرى المثالية متمثلة فى الإيثار والإباء والعزة والكرامة والحماسة، ونراها أيضًا فى الولاء والبراء على حد سواء، ونراها تعبر عن نفسها بأنها إيمان طبيعى بما يجب أن يكون، قبل أن تكون تساميًا عما هو كائن، ولهذا فإننا نرى اندفاع هؤلاء الأبطال إلى العمل الفدائى يمضى فى صورة أداء الواجب، ويكاد يخلو من الإحساس بالخروج عن المألوف، ومن الإحساس بالتفرد أو البطولة، وهذا فى رأيى هو قمة ما يمكن للعمل الوطنى أن يصل إليه.

وإنى لأرجو للقارئ أن يسعد بهذا الكتاب كما سعدت، وأن يسعد بقراءته على نحو ما سعدت بكتابته، وأن يستمتع بقراءة ما يحتويه على نحو ما سبقته أنا إلى هذا الاستمتاع الذى لاشك فيه.

وأرجو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه، وأن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يذهب عنى ما أشكو..

د. محمد الجوادى

ملخص البـاب الأول

الثائر الصامت.. مذكرات عبد العزيز على

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * يتحدث عن تكوينه الدراسى والتعليمى مقدمًا صورة شيقة تعبر عن طبيعة التعليم المتميز الذى كان يحظى به الجيل الذى ولد فى نهاية القرن الماضى (ولد عبد العزيز على فى ١٨٩٥م) * يجيد تحليل العوامل التى أدت إلى تفوقه فى الدراسة، وفى ممارسة الحياتين العامة والسياسية فيما بعد * لا يقدم هذا التحليل منفصلاً عن سياق الأحداث التى يرويها، وإنما هو يستدعى هذا التحليل الجيد حين يجد الموقف الذى يعرضه يتطلب مثل هذا الاستدعاء للكشف عن سر التفوق فى شخصيته وفى أدائه * على سبيل المثال يروى ما لاتزال ذاكرته تحتفظ به من مظاهر تقدير أساتذته له، وما لاتزال ذاكرته أيضًا تحتفظ به من عناصر الجدية فى التربية والتعليم فى ذلك الوقت، بل إنه يروى مظاهر تقدير زملائه له لما لمسوه من أخلاقه الرفيعة * يقدم حديثًا تفصيليًا مهمًا عن التكوين العلمى لطلاب مدرسة التجارة العليا فى أول عهدها، وكانت تسمى فى ذلك الوقت مدرسة المحاسبة والتجارة العليا، ونفهم من حديثه عن المدرسة أنها كانت تعد خريجيها بحرفية عالية لتولى الوظائف المالية والإدارية فى الحكومة والقطاع الخاص على حد سواء * الشاهد أن تكوينه كان تكوينًا مثاليًا من عدة نواح، فهو مؤمن بلا تعصب، متدين بلا تنطع، مثقف بلا تفلسف، مجاهد بلا يأس، ونحن نراه محبًا للرياضة، ونراه أيضًا محبًا للفن، ميالاً إلى تقصى أحواله حتى فى رحلاته المتعددة التى حدثنا عنها فى هذا الكتاب. لكننا نرى بذرة هذا الاهتمام وقد نشأت فى أثناء دراسته الابتدائية * يحدثنا عن الوظائف التى عمل بها وتنقل فيها بحريته دون أن يناله الفشل فى أىٍّ منها، وسنرى فى عرضنا لجهوده فى ثورة ١٩١٩م أنه نُقل من وظيفته الحكومية إلى وظيفة أخرى فى الترسانة حيث أشعل ثورة العمال، ثم صمم على الاستقالة من الحكومة سنة ١٩٢١م * يتحدث عن فضل أستاذه أحمد عبد الوهاب فى إلحاقه بالعمل ببنك مصر، كما يتحدث عن الرؤساء الإنجليز والمصريين الذين عمل تحت رئاستهم فى بنك مصر، ويشير أيضا إلى محاولة الجمع بين عمله فى البنك وممارسة التجارة من خلال مكتب خاص به * يحدثنا عن استقالته من البنك بسبب تخوف طلعت حرب غير المباشر من نشاطه الفدائى، ومحاولة حمايته وحماية البنك من متابعة البوليس بأن

ينقله إلى وظيفة أعلى فى فرع بنى سويف، لكن عبد العزيز على يرفض هذا العرض، ويفضل عليه أن يستقيل من البنك * من الطبيعى لرجل فى مثل هذه الكفاءة والاستقامة أن ينفتح أمامه بسهولة باب العمل فى القطاع الخاص بعد عمله فى الحكومة ثم فى البنوك، وذلك من خلال شركة نصير التى عمل فيها تسع سنوات متتالية * يحدثنا فى موضع آخر عن المرحلة الرابعة فى حياته الوظيفية، وهى عودته إلى العمل الحكومى * لا يتحدث عن ترقياته الحكومية إلا عرضًا حين يتحدث عن أدائه لفريضة الحج * لا نراه متيمًا بالحديث عن إنجازاته كوزير أو كمدير أو كموظف صغير، إنما هو رجل مجد مجيد يبذل كل جهده من أجل النجاح والتفوق فحسب، لكننا نراه مع هذا حريصًا على أن يفخر بأنه كان أول مَنْ سن التقليد الذى أصبح سائدًا الآن فى افتتاح المكاتبات الحكومية بالبسملة، وختمها بالسلام * يتحدث عن بعض العوامل المبكرة التى كانت سببًا فى نمو عقيدة الحزب الوطنى فى نفسه * التقدير الذى حظى به هذا الرجل ممن عرفه، وهو تقدير سرعان ما يتسلل إلى نفس وعقل أى قارئ لمذكراته * ننقل بعض ما يذكره الدكتور عبد الخالق لاشين فى مقدمته لهذه المذكرات * المذكرات نشرت فى دار المعارف سنة ١٩٧٨م، وفى متنها إشارة إلى أنها تمثل الجزء الأول * يشير بكل وضوح إلى أن نشر مذكرات بعض زملائه فى العمل الوطنى كان بمثابة الدافع المشجع له على نشر مذكراته * يتحدث عن دخوله فى دور الحماسة لإتمام مذكراته بفضل مجموعة من العوامل يأتى فى مقدمتها ما أحسه فى الحوار الذى أجراه معه أحد الباحثين المتميزين فى مركز التاريخ، ثم ما أحسه من خلال لقائه بجمع كبير من أساتذة التاريخ الحديث فى اجتماعاتهم الأسبوعية * يشير إلى الدور الذى قام به الدكتور عبد الخالق لاشين خلفًا للدكتور محمد أنيس * ما ترويه هذه المذكرات عن النشاط الوطنى السرى الذى شهدته مصر طيلة النصف الأول من القرن العشرين * عبد العزيز على يشير بكل وضوح إلى علاقة هذه التنظيمات السرية الفدائية بالحزب الوطنى، بل إنه يذهب إلى أن «جمعية التضامن الأخوى» نشأت على يد الحزب الوطنى نفسه، وهو يربط بين نشأة هذه الجمعية وحرص أقطاب الحزب الوطنى على إيفاد بعض شبابه للخارج للتزود بالثقافة والمعرفة فى جو من الحرية كى يعودوا قادة للفداء من أجل الوطن، وهو يكتب فصلاً بعنوان «لابد للحق من قوة تسانده» * يبدو لى أن فقرة من المذكرات قد فقدت فيما بين الفقرتين الأخيرتين، وتتضمن حديثه عن مصير فكرة إيفاد بعض الشبان للخارج * يحدثنا بفخر عن انضمامه إلى «جمعية التضامن الأخوى»، وأن هذا الانضمام جاء بعد ترشيح ومراقبة سرية لتصرفاته * يروى لنا كيف أخذ مسئولو جمعية التضامن الأخوى البيعة منه، فنرى إرهاصًا شديد الشبه ببيعة الإخوان المسلمين التى اشتهر أمرها بعد ذلك، وهى البيعة التى دلتنا مذكرات عبد العزيز كامل أنها كانت تشى بالتأثر ببعض الظلال الماسونية فى فكر العمل السرى!! * يقدم تفصيلات مهمة عن دور الحزب الوطنى فى تعبئة الجهود المصرية من أجل الإسهام فى حرب طرابلس بالجهاد وجمع الأموال التى مولت جهاد الليبيين (الطرابلسيين) ضد الإيطاليين فى هذه الحرب * المؤلف يعبر عن رأيه أن هذا الدور كان بمثابة أقوى الأدوار غير الحكومية التى سبقت صحوة الشعب فى ثورة ١٩١٩م * ينتقل من هذه العموميات إلى الحديث عن دور جمعية التضامن الأخوى

فى هذه الحملة، وفى هذا الإطار يثنى عبد العزيز على صديقه الدكتور إسماعيل صدقى الذى كان يخفى الضباط الأتراك فى عيادته، وعلى مجموعة أخرى من أقطاب هذه الجمعية التى نشطت بعد هذا فى مجال العمل الوطنى وتركت بصمات لا تنسى * يصل إلى الحديث عن الدور «الشبابى» الذى قدر له هو نفسه أن يقوم به فى توفير بعض الدعم المصرى الشعبى للمجاهدين المسلمين الذين خاضوا الحرب الطرابلسية * من الطريف أنه يبدأ فى وصف دوره ببيت من الشعر، وهو يشير إلى حقيقة أن أهل الريف خميرة صالحة لا تحتاج إلا إلى التوجيه الصالح الصادق، ولهذا فإنهم سرعان ما لبوا دعوته * يصور أو يلخص حديثه عن الأحداث الفدائية التى قدر له أن يشهدها أو أن يشارك فيها أو أن يرى نتائجها، وسنقدم هذا الحديث متسلسلاً فى الزمن، ومتعاقبًا بعضه وراء بعض من دون استطراد إلى آرائه فى الأحزاب السياسية أو الجماعات أو الاتجاهات، وهو ما سنناقشه فى موضع آخر، ومن دون استطراد إلى التاريخ العام أو إلى تاريخ الشخصيات، أو إلى الحوادث الأخرى، وهو ما سنناقشه أيضًا فى موضع ثالث، ومن دون خروج إلى ما يقطع حبل تواصل العمليات الفدائية فى ذهننا ونحن نقرأ تفصيلاتها بأنفاس لاهثة * نتأمل ما يستعرض به عبد العزيز على صدى مقتل بطرس غالى (١٩١٠م) فى نفوس الوطنيين، وفرحة أمثاله بحصر الاتهام والمحاكمة فى القائم بالاغتيال وحده * يروى بعض التفصيلات التى أحاط بها مما يخص بدايات عمل المجموعة الفدائية على يد إمام واكد، وأسماء الأهداف البشرية التى وضعت هذه المجموعة فكرة التخلص منها من أجل تحرير الوطن * يقدم تلخيصًا للطريقة التى أجهض بها البوليس محاولة رجال العمل الوطنى السرى لاغتيال مجموعة من القيادات المصرية والبريطانية، يقدم تلخيصًا سريعًا للأحكام التى صدرت فى هذه القضية التى سميت «مؤامرة شبرا» والتى كانت تستهدف ـ حسبما أذاع البوليس ـ قتل مجموعة من كبار المسئولين فى مصر بمن فيهم الخديو عباس حلمى واللورد كتشنر ورئيس الوزراء محمد سعيد باشا ومحمد مجدى باشا والمستر ولبروظلو المستشارون فى محكمة الاستئناف * يروى أن إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام قدموا إلى المحاكمة أمام محكمة مصر الابتدائية التى حكمت عليهم بأحكام قاسية * يتصدى من وجهة نظر شخصية تمليها الكرامة والعزة والانتماء الوطنى للتعقيب على ما أشيع فى أعقاب صدور الأحكام فى قضية «مؤامرة شبرا» من أن المؤامرة كانت ملفقة، معبرًا عن رأيه فى أنه يميل إلى نفى صحة شائعة تلفيق هذه المحاولة الفدائية، كما يعبر عن ميله إلى الاعتراف بوقوع الفدائيين فى بعض الأخطاء التى مكنت البوليس السياسى من الإمساك بهم * يقدم تلخيصًا للحوادث الفدائية الثلاث التى وقعت فى عام ١٩١٥م، وكانت منها اثنتان استهدفتا اغتيال السلطان حسين كامل فى عام ١٩١٥م، على حين استهدفت المحاولة الثالثة اغتيال وزير الأوقاف إبراهيم فتحى باشا * يشير إلى أن هذه الحوادث التى شهدها عام ١٩١٥م جاءت بعد حادث وحيد فى ١٩١٤م استهدف اغتيال الخديو عباس حلمى قبيل خلعه، وقد قتل بطل هذا الحادث فى أثناء محاولة تنفيذ الاغتيال * المحاولة الأولى تنتهى بإعدام بطلها * يقدم تفصيلات مهمة عن ثانى المحاولات التى شرع فيها الحزب الوطنى، والتى استهدف بها أيضًا اغتيال السلطان حسين كامل، وقد كان لهذه

المحاولة ذكر متصل فى التاريخ لسبب طريف، وهو أن بعض الذين حكم عليهم فيها أصبح لهم شأن فى العمل الوطنى السياسى، فمنهم شفيق منصور الذى أعدم فى حادث قتل السردار، ومنهم نجيب الهلباوى الذى وشى بالوطنيين وأوقع بهم، ومنهم محمود عنايت الأخ الأكبر لأبناء عنايت (عبد الحميد وعبد الفتاح وعبد الخالق) * المحاولة الثالثة من محاولات الاغتيال فى ١٩١٥م: محاولة اغتيال غير مشهورة لإبراهيم فتحى وزير الأوقاف، وقد نتج عنها إعدام الموظف الذى شرع فيها * يشير مستعينًا بالوقائع إلى مدى ما لعبته المرأة المصرية من دور خفى فى دعم جهود الحركة الوطنية منذ ما قبل ثورة ١٩١٩م، وهو يذكر أن زوجته، وكانت لاتزال خطيبة له، صحبته إلى مكتب شفيق منصور حيث حصل منه على السلاح وأخفته فى صدرها، فلما أوقفا للتفتيش تمالك أعصابه وشاركته ثباته حتى مرّ السلاح بأمان * ندرك من هذه المذكرات مدى ما كانت أعصاب عبد العزيز على تحظى به من ثبات انفعالى وتدريب جيد منذ مرحلة مبكرة، حتى إنه كان قادرًا على الثبات الحقيقى فى مواجهة مفاجآت العدو الغاشم * يروى أن شعبة «جمعية التضامن الأخوى» التى كان ينتمى إليها قد انفرط عقدها، وأنه بدأ فى تكوين شعبة جديدة من إخوان عنايت * يشير إلى أن زمالته لأحمد عنايت فى مدرسة التجارة العليا هى التى هيأت له معرفة إخوته (عبد الخالق وعبد الحميد وعبد الفتاح)، وأنه فكر فى الاستعانة بهم فى تكوين الشعبة * يبدو من حديثه أنه كان هو صاحب الفكرة التى انضم إليها عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت، ومع ما فى هذا الأمر من منطقية فإننا نفاجأ بأن مذكرات عبد الفتاح عنايت لا تتضمن أى إشارة ولو من بعيد لهذا المعنى، بل إن عبد الفتاح عنايت لا يورد ذكر عبد العزيز على فى أى حديث عن الأعمال السرية ولا غير السرية، وربما كان السبب فى هذا أن عنايت لم يكن يريد أن يمس عبد العزيز على بأى جملة قد تجلب له المتاعب!! وربما كان هذا شبيهًا بموقف عبد الفتاح عنايت من أخيه عبد الخالق عنايت، وربما أن فى الأمر خبيئة لا ندرى عنها شيئًا حتى الآن * يتحدث عن السبب الذى دعاه هو وإخوانه إلى التفكير فى إشراك العمال، ونفاجأ فى حديثه بما يدل على أن العمال كانوا قد سبقوا من تلقاء أنفسهم إلى أعمال فدائية، وأن انضمامهم إلى «جمعية التضامن الأخوى» لم يكن السبب فى تنبههم لأسلوب الاغتيال، وربما كان لنا أن نفكر الآن بطريقة الافتراضات ونقول إن اتصال جمعية التضامن الأخوى بالعمال كان سببًا فى انتهاء أسطورة العمل الفدائى الذى تولاه هؤلاء العمال بالفطرة بنجاح ساحق، فى حين أن تعاونهم مع جمعية التضامن الأخوى قادهم فى النهاية إلى حبل المشنقة، بسبب مؤامرة الهلباوى، واعترافات عنايت وشفيق منصور ومحمود إسماعيل، على حين ظل العمال كما نعرف مصممين على الإنكار، ومع هذا فإننا لا ننكر حقيقة أن ثقافة أعضاء «جمعية التضامن الأخوى» قد أضفت أبعادًا مهمة فى اختيار الشخصيات وتدبير الخطط المثيرة * تتضمن المذكرات بعض الملامح التنظيمية لهذا النشاط السرى، ومع أن جوهر هذا الحديث شائع فى الأدبيات التى تناولت هذه الأحداث وهذا النشاط، فإننا نرى فى حديث عبد العزيز على أبعادًا إيمانية ونفسية سامية * الإنجليز كانوا واعين تمامًا لخطورة صاحب المذكرات * يقدم ملخصات موجزة للاغتيالات السياسية التى استؤنفت منذ ٢ سبتمبر ١٩١٩م،

ونحن نلاحظ أن عبد الفتاح عنايت لم يشر فى مذكراته إلى هذه الحوادث الخمس التى يشير إليها عبد العزيز على، ولهذا تفسيران، فإما أن عنايت لم يشر إلا إلى ما شارك هو نفسه فيه، وإما أن عنايت لم يشر إلا إلى المحاولات التى تستهدف بريطانيين حرصًا منه على ألا يشير إلى الحوادث التى وجهت طلقات الرصاص والقنابل فيها إلى المصريين، ولهذا استثناء واحد حرص عنايت على أن يشير إليه وهو مصرع زهدى وعبد الرازق من باب الخطأ، وهو الحادث الذى يشير عنايت إلى أنه جعلهم يصوبون مسلكهم فى توجيه أسلحتهم ورصاصهم نحو البريطانيين فحسب * تلخيص عبد العزيز على لحوادث الاغتيال المتعاقبة فى هذه الفترة * نأتى إلى بعض محاولات الاغتيال الفردية * عبد العزيز على يسجل أن بعض هذه المحاولات باءت بالفشل، لكنه سرعان ما يلقى على قرائه بجملة يبدو منها وكأنه لم يكن يدرى الغرض من هذه الحوادث على وجه التحديد * يعاود الحديث عن المحاولات الفدائية فيشير إلى حادث قتل فيه أحد المارة من باب الخطأ، ومن العجيب أن نقرأ فى نص عبد العزيز على لفظ «الجانى» فى الإشارة إلى الفدائى * من أهم ما تتضمنه المذكرات حديث صاحبها التفصيلى عن مشاركته بنفسه فى محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم، وهو يشير بكل وضوح إلى أنه يزيح الستار عن أسرار هذه المحاولة التى قل مَنْ يعرفها على حد تعبيره، ونحن نرى أن مجرد الإقدام على هذه المحاولة يمثل جرأة متناهية، وجسارة منقطعة النظير لأنها تتم بينما الهدف محاط بكل ما هو ممكن من احتياطات التأمين التى تضمن القبض على المشاركين فى المحاولة إن لم تضمن إجهاض المحاولة نفسها، وهو ما حدث بالفعل * من الجدير بالذكر أنه كان يصور محمد توفيق نسيم تصويرًا قاسيًا * من الجدير بالذكر أيضًا أن هذه المحاولة تمت فى شهر رمضان الكريم * نصل إلى اللحظات الحاسمة التى كان عليه هو وزميله أن ينفذا الخطة، ويلفت نظرنا الوصف التفصيلى الدقيق الذى يقدمه عبد العزيز على لما قام به فى ذلك اليوم * يسجل اعترافًا بالخطأ الذى وقع فيه شريكه الشهيد إبراهيم حسن مسعود، لكنه يسجل أيضًا اعتزازه ببطولة هذا الزميل الفدائى الذى لم يعترف عليه ولا على أحد من زملائه، وظل على هذه الرجولة حتى حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم * الفقرة التى ختم بها حديثه عن هذه المحاولة متضمنًا ثناءه الجم على إبراهيم مسعود * يشير بكل تفصيل إلى خطته البديلة التى وضعها بنفسه بعد أن تغيرت الظروف * نلاحظ رباطة جأشه، وذكاءه فى تصرفه، وقدرته على تحويل الخطة بما يحفظ عليه حياته ويدخره ذخرًا لمحاولات فدائية أخرى. . وقد نجح * حديثه عن الدور الذى قدر له أن يضطلع به فى ثورة ١٩١٩م، ويمكن تلخيص هذا الدور فى أنه كان له شأن فى إضراب الموظفين، وأنه كان له شأن فى إضراب العمال وحريق الترسانة، وأنه كان له شأن فى الحرب الإعلامية الهادرة التى واكبت الثورة * من المفيد هنا أن نذكر أنه، شأنه شأن الغالبية من موظفى مصر الوطنيين، شارك فى إضراب الموظفين الشهير، وأنه كان حريصًا على ألا يعود إلى عمله (بعد هذا الإضراب) إلا فى اليوم التالى للتاريخ الذى حدده الحاكم العسكرى، وهو يذكر أنه احتك برؤسائه الإنجليز بسبب عودته فى اليوم التالى لانتهاء إضراب العمال، كما أنه يلخص لنا نمطين من أنماط تعامل رؤسائه الإنجليز معه * فى مقابل النمط العدوانى الذى مثله المستر براون، نرى نمطًا

آخر من معاملة الاستعماريين متمثلاً فى سلوك المستشار المالى باترسون * يقدم تفصيلات مهمة عن دوره فى إشعال إضراب الترسانة، ومن الطريف أن العمل فى الترسانة كان نوعًا من أنواع العقاب(!!) * يتحدث عن وصول الأمور إلى حد تقديمه لاستقالته من الحكومة بسبب تعنت رؤسائه الإنجليز معه بسبب حرصه على أداء واجبه الوطنى * يقدم حديثًا موجزًا عن جهوده فى الخطابة الجماهيرية فى أثناء ثورة ١٩١٩م، وعن استعارته ملابس شقيقه، وعن توظيفه لمنزل العائلة ليكون أحد مراكز توزيع المنشورات * نعود إلى تيار الأحداث الفدائية وقد عاد ليمضى فى سبيله بعد أن انتهت حوادث ثورة ١٩١٩م إلى ما انتهت إليه * يشير إلى بعض المحاولات الفدائية الأخرى التى تركزت فى إلقاء القنابل على المعسكرات البريطانية * يشير إلى أن الشعبة الفدائية التى كان ينتمى إليها بدأت منذ ١٨ فبراير ١٩٢٢م [أى قبل صدور التصريح المعروف بتصريح ٢٨ فبراير بعشرة أيام] مرحلة جديدة موجهة ضد كبار الإنجليز فقط، ونحن نلاحظ أن هذا التاريخ هو بالضبط تاريخ اغتيال مستر براون، ومعنى هذا أن قرار الشعبة اتخذ قبل هذا الوقت بقليل، وبالطبع قبل اليوم الذى بدأ فيه التنفيذ وليس فى اليوم ذاته، كما أننا نلاحظ أن عبد العزيز على لم يشر إلى الحادثة الأسبق التى أشار إليها عبد الفتاح عنايت فى مذكراته، وهى حادثة مقتل الجندى البريطانى فى ميدان رمسيس * ينفرد بالإشارة إلى ما لم يشر إليه عبد الفتاح عنايت من مشاركة عبد الخالق عنايت فى هذه الحادثة قبل سفره إلى النمسا لدراسة الطب، وهكذا يصبح فى أيدينا ما يدل على أن هذا الشقيق كان فى الأصل فدائيًا مثل أشقائه الثلاثة: محمود، وعبد الحميد، وعبدالفتاح * نجد فى روح مذكرات عبد الفتاح عنايت ما يدل على أن هذا الرجل كان فدائيًا دون أن تسجل مذكرات شقيقه له دورًا فى العمليات الفدائية، لكن عبد العزيز على يصرح بوضوح هنا بأن عبد الخالق عنايت شارك فى قتل المستر براون قبل أن يسافر إلى النمسا لدراسة الطب * يقدم وصفًا تفصيليًا لواقعة قتل المستر كيف فى ٢٤ مايو ١٩٢٢م، ويلفت نظرنا فى روايته أن عبد العزيز على يشير إلى ما لم يتنبه عبد الفتاح عنايت إلى الإشارة إليه، وهو أن السيدة التى تصادف وجودها فى موقع الحادث وتعقبت إبراهيم موسى قد احتفظت فى مخيلتها بصورة إبراهيم موسى حتى استطاعت التعرف عليه عقب حادث مقتل السردار، ونلاحظ أيضًا أن عبد العزيز على يكتفى فى وصفها بأنها إنجليزية، بينما يشير عبد الفتاح عنايت إلى أنها كانت ترتدى زى الممرضات * ينفرد فى إشارته إلى حادثة قتل المستر بيجوت فى ١٥ يونيو ١٩٢٢م بما ينسبه إلى نفسه من أنه تمكن من اتباع طريقة للتشويش على أصوات طلقات الرصاص، وأن أخاه أحمد على - وكان حينئذ طالبًا بمدرسة القضاء الشرعى - استجاب له وأجر موتوسيكلاً لهذا الغرض، وأن هذه الحيلة أثبتت نجاحها * يشير إلى واقعة قتل المفتشين بعنابر السكة الحديد والجنود بهمشة وشبرا ومهاجمة إيدن بالاس ومحال اللهو بالقنابل، وهو يبنى هذه الأفعال للمجهول، وإن كان يوردها فى سياق حديثه عن أعمال جماعتهم * يشير إلى محاولة قتل المستر براون رئيس مصلحة البساتين فى ١٢ أغسطس ١٩٢٢م، وهى المحاولة التى أسفرت عن قتل سائقه، وإصابته هو وأكثر من فرد من أفراد أسرته * نلاحظ أن حديثه عن هذه الواقعة يتسم بالإيجاز إذا ما

قورن بالتفصيلات الكثيرة التى أوردها عبد الفتاح عنايت * يحرص على أن يعتذر بوضوح وصراحة عن تورط الشعبة الفدائية التى ينتمى إليها فى قتل إسماعيل بك زهدى وحسن عبد الرازق باشا، وهو يشارك عبد الفتاح عنايت الاعتراف بأن المقصود بهذه الحادثة كان عدلى باشا ورشدى باشا * يتحدث بكل فخر عن الآثار التى ترتبت على حوادث القتل السياسى * يطلعنا على مفارقة فى غاية الأهمية تتمثل فى حرص البوليس على إظهار نجاحه فى اكتشاف القائمين بحوادث الاغتيال السياسى وتورط هذا البوليس فى إلصاق التهمة بطباخ، ويعبر عبد العزيز على عن أسفه من أن يلجأ البوليس إلى هذه الطرق من التهديد والإغراء حتى يحصل على اعترافات بالجملة، ويصدروا أحكامًا ظالمة بناء على هذه الاعترافات الباطلة، وهو يضع لهذه الواقعة عنوانًا معبرًا ودقيقًا: «إعدام أبرياء» * من الجدير بالذكر أن إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته التى نشرت عام ١٩٨٢م فى مجلة «روز اليوسف» قد أشار إلى هذه الواقعة، لكنه ذكر أن «نظير» كان فدائيًا، ولم يكن مجرد طباخ، وأنه كان يعرف القتلة الحقيقيين، لكنه لم يعترف على هؤلاء القتلة وتقبل الإعدام بنفس راضية * حين يصل إلى رواية حادث مقتل السردار، فإننا نجده يقدم سببًا إضافيًا دعا جماعته إلى الإقدام على محاولتهم الناجحة التى تمكنوا فيها من قتل سردار الجيش المصرى، وهو يذكر أنهم قاموا بهذا الحادث انتقامًا من الإنجليز الذين ضربوا المستشفى والكلية الحربية بالخرطوم بالقنابل، وهدموهما على مَنْ فيهما، وهو ينعى على حكومة سعد زغلول تخاذلها فى مجابهة هذا الاعتداء * يشير إلى ما ذكره عبد الفتاح عنايت فى مذكراته من أن خطة اغتيال السردار كانت بديلاً أشجع لخطة أقل خطورة منها تستهدف اغتيال سكرتير عام حكومة السودان، وأن المصادفة هى التى أتاحت فرصة أضخم من فرصة كانت مخططة!! * من الضرورى هنا أن نشير إلى أن مقر وزارة الحربية التى كان السردار يمارس عمله فيه هو ما أصبح الآن مقر وزارة الدولة للإنتاج الحربى * من الجدير بالذكر أنه يشير إلى أنه كان هو المكلف بإعطاء الإشارة بركوب السردار سيارته، وربما لا يتضارب هذا مع ما يرويه عبد الفتاح عنايت من أنه هو (أى عنايت) كان المكلف بإعطاء هذه الإشارة، فالأمر يحتمل أن تتم الإشارة على مراحل متعاقبة، وربما ظل عبد الفتاح عنايت متمسكًا بنسبة هذا الدور إلى نفسه فقط حتى يحافظ لعبد العزيز على على النجاة التى أصابها بإنكاره المتصل، وهنا ربما يثور سؤال طريف عن أحقية المنكر فى الدور إذا ما كان إنكاره قد ضمن له براءة ونجاة من الإعدام!! * يقدم تفصيلات فى غاية الأهمية عن موقف شفيق منصور من محاولة اغتيال السردار * عبد العزيز على ينفرد برواية هذه التفصيلات * يتضح مما يرويه أن شفيق منصور أيًا كانت دوافعه كان متبصرًا للوقائع وللعواقب، وهو ما يبدو أن عبد العزيز على كان هو الآخر واعيًا بها، وذلك على النقيض من عبد الفتاح عنايت الذى يذكر فى مذكراته أنه لم يكن يتصور أن يؤدى الحادث إلى ما أدى إليه بالفعل * فقرة يصرح فيها تصريحًا خطيرًا يلقيه إلينا بكل وضوح ويشير فيه إلى أن هدفهم من مقتل السردار كان يستهدف أيضًا إسقاط سعد زغلول من مكانته التى اجتمعت له فيها رئاسة الوفد ورئاسة الحكومة * يتحدث عن سخرية القدر التى جعلت شفيق منصور يزور زميله أحمد ماهر فى مكتبه بوزارة المعارف بالقرب من موقع الحادث * على الرغم من أن شفيق

منصور أعدم بسبب مقتل السردار، فإن عبد العزيز على يجاهر بأنه (أى شفيق منصور) برىء من دم السردار براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وأنه لم يشارك فى الحادث على الإطلاق * يحدثنا بتفصيلات حية عن أدائه لدوره فى حادث مقتل السردار على نحو دقيق * يقدم أيضًا فى هذه المذكرات التى تأخر نشرها حتى نهاية السبعينيات تفصيلات أدق من تلك التى تناولتها المذكرات الأخرى كافة، وعلى سبيل المثال فإنه يتحدث بدقة شديدة عن بعض الخيوط التى كانت كفيلة بالإمساك بالمسئولين عن حادث مقتل السردار، ومنها سقوط طربوش عبد الحميد عنايت ومعرفة رقم السيارة التى ركبها منفذو المحاولة * يشير إلى دور البطولة والفداء الذى لعبه سائق التاكسى الذى أصر على ألا يتعرف على أحد ممن عرضوا عليه، وبقى فى السجن شهورًا حتى مات * نشير إلى أن مذكرات عبد الفتاح عنايت لم تتحدث عن دور هذا السائق، ولا عن اتهامه وسجنه من قريب أو من بعيد، وربما كان خروجه من الاتهام بسبب موته سببًا فى نسيان عنايت لدوره * يشير إلى محاولات رجال البوليس السياسى المتعددة للوصول إلى أى خيط كفيل بأن يدلهم على المسئولين عن قتل السردار، ويلقى الضوء على محاولتهم الفاشلة فى إسناد التهمة إلى أفراد جمعية اللواء الأبيض السودانية * فى موضع آخر من المذكرات يشير إلى ما واكب قصة السردار من حبك البوليس السرى مؤامرة ضد مجموعة شباب الوفد، وهو لا يفيض فى تفاصيل هذه المؤامرة مكتفيًا بالإشارة العاجلة * يبدو دهاء عبد العزيز على فى انتباهه إلى ما يمكن أن يكون خديعة من السلطات حين قبضت على بعض الفدائيين وتركتهم حتى حين، متيحة الفرصة لنفسها لمراقبتهم عن بعد * يستعرض بطريقته الذكية، دور محمد نجيب الهلباوى فى كشف السر الذى أحاط بمصرع السردار، ونحن نراه موافقًا على التحليل السائد القائل بأن الهلباوى قام بهذا الدور بعد أن عانى الحياة بعد خروجه من السجن فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين كامل * نراه يلخص المأساة الإنسانية التى عاشها نجيب الهلباوى حين وجد نفسه متعطلاً بلا وظيفة بعد خروجه من السجن الذى بقى فيه ثمانية أعوام، مشيرًا إلى بعض الذين لم يبذلوا الجهد من أجل مساعدة الهلباوى مما يسر للبوليس السياسى إلقاء شباك الغدر عليه وتوظيفه فى الإيقاع بأبطال حادث قتل السردار سير لى ستاك، ومع تقديرنا لما يرويه عبد العزيز على فإننا نذكر أن إبراهيم عبد الهادى باشا يشير فى مذكراته إلى أن وزارة سعد زغلول هى التى أفرجت عن الهلباوى، وأن هذه الوزارة عينته فى وظيفة شريفة!! * يلخص بطريقة بديعة الخطة التى اتبعها «المجرم» نجيب الهلباوى فى الإيقاع بالخلية الفدائية العظيمة، ونحن قد نتوقع بالطبع ألا يكون هذا التصوير الدقيق الذى يقدمه عبد العزيز على هو التصوير المطابق تمام المطابقة لما حدث، إذ يمكن بالطبع أن تمضى مثل هذه الأمور فى سبل متعددة حتى تعود إلى الخط الكفيل بالوصول إلى الحقيقة، لكننا مع هذا نستطيع أن نعتمد تمامًا على أن الفكرة التى قدمها عبد العزيز هى أقرب الأمور إلى الحقيقة فيما يتعلق بهذه الوقائع * لا نرى تعارضًا كبيرًا بين رواية عبد العزيز على المتقنة والمشوقة والدقيقة، ما رواه محامون محايدون كمحمود كامل فى «ذكريات محام»، أو ما رواه الفدائيون الآخرون حول هذه الوقائع، وإن كان تسلسل الوقائع بالطبع يعكس عقيدة الراوى فى إلقاء التبعة على مَنْ يعتقد فى

مسئوليته عن الإيقاع بزملائه، ونحن نرى عبد العزيز على يشير إلى ما لم يشر إليه عبد الفتاح عنايت من خطورة اعترافات الأخير (أى عبد الفتاح عنايت نفسه)، ومع هذا فإن عبد العزيز على يلتمس العذر لعبد الفتاح عنايت وشقيقه، بل إنه يشير على نحو ما سنرى إلى بطولة عبد الحميد عنايت وإيثاره حين عدل عن اعترافاته من أجل إنقاذ عبد العزيز على حين رأى موقف عبد العزيز على جيدًا بسبب إنكاره المتصل * من المفيد أن نقرأ هذا التصوير الذى يقدمه لخطة الهلباوى فى الإيقاع بالأخوين عنايت، ومن الإنصاف أن نذكر أن حديث عبد العزيز على عن هذه الجزئية يتميز عن حديث عبد الفتاح عنايت وغيره من رواة الحدث بأنه يتضمن تصويرًا دقيقًا للتطور الطبيعى للعلاقة على نحو ما يجيد الروائى المتميز بناء الموقف على مدى الزمن * ينفرد بذكر واقعة لقاء الشقيقين عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت مع نجيب الهلباوى فى حجرة من حجرات فندق كان سليم زكى يقيم فى الحجرة الأخرى منه، ومع ما فى هذا التصرف من شبهة السذاجة فإنه يأتى متسقًا مع الإطار الذى رسمه عبد العزيز على للأخوين، وما كانا عليه من براءة وقلة خبرة بالحياة وصغر السن * نأتى إلى تصويره للخطوة التى كانت حاسمة فى إلقاء القبض على عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت متلبسين، ونحن نرى الهلباوى وقد تمكن من حبك القصة والإيقاع بالشقيقين على نحو ما روى عبد الفتاح عنايت نفسه، كما نرى تصويرًا دقيقًا لتوريط محمود راشد دون مناسبة، وذلك بإحضار السلاح من بيته * يكاد عبد العزيز على يتفق مع الرواية التى قدمها عبد الفتاح عنايت حول إجراءات القبض عليه وعلى شقيقه فى القطار المتجه إلى مرسى مطروح، بيد أن عبد العزيز على يشير إلى أن القطار وقف فى محطة محددة على حين ذكر عبد الفتاح عنايت أن القطار وقف فجأة فى وسط الصحراء * يتطرق إلى الحديث عن بعض خطط البوليس التى بدأ فيها بعد أن أصبح فى يده مفتاح القضية، ويشير إلى القبض عليه هو نفسه، كما يشير إلى الواقعة التى أوردها محمود كامل فى مذكراته نقلاً عن البوليس السياسى، وهى واقعة إصدار عدد من جريدة «المقطم» تحمل خبرًا مزورًا، ومن الجدير بالذكر أن عبد الفتاح عنايت لم يشر إلى اسم الجريدة، وكذلك محمود كامل، أما عبد العزيز على فقد أشار صراحة إلى أنها كانت جريدة المقطم، وهو موقف طبيعى من هذه الجريدة المعروفة بتوجهاتها ضد الحركة الوطنية * يتحدث عن دور شفيق منصور فى قضية اغتيال السردار، وقد رأينا من قبل أنه قد جاهر ببراءة شفيق منصور من هذه القضية، ومع هذا فإننا نرى عبد العزيز على ناقدًا لموقف شفيق منصور وناقمًا عليه * تصويره لمعارضة شفيق منصور فى فكرة القيام بالحادث قبل تنفيذه بيوم واحد، ورأينا تعليل عبد العزيز على لهذا بأن شفيق منصور كان ينظر إلى استراتيجية الأمر من ناحية مصلحة الوفد الذى كان شفيق منصور قد ارتبط به بعلاقة عضوية * وزارة المعارف كانت تشغل فى ذلك الوقت المبنى الذى تشغله الآن وزارة التموين فى شارع قصر العينى (التى أصبحت الآن قطاعًا فى وزارة التضامن الاجتماعى)، وهو مبنى قريب جدًا من موقع اغتيال السردار * يضيف بعد هذا انتقاده لموقف شفيق منصور الذى يصوره على أنه فقدان السيطرة على أعصابه بسبب التعذيب والتهديد، مما دفعه إلى تقديم تقرير تفصيلى عن حوادث الاغتيال منذ ١٩١٠ وحتى ١٩٢٤م، فضلاً عن تقديمه

لأسماء أعضاء الجمعية من شعبتى القاهرة والإسكندرية، بمن فيهم أحمد ماهر والنقراشى * يقدم معلومات دقيقة عن موقفه هو فى التحقيق، وهو يشير إلى توفيق الله فى إنكاره التام لعلاقته بالتنظيم، وذكائه فى التخلص من نقاط الارتباط المباشر بالواقعة، وذلك عن طريق تصوير الأمور تصويرًا أقرب إلى الطبيعة منه إلى التآمر، وهو يروى حواراته مع النائب العام نفسه على نحو دقيق * نصل معه إلى موطن الإيقاع الذى حاول الباشا المحقق أن يتخذه سبيلاً إلى إثبات التهمة عليه، ونرى فى إجابات عبد العزيز على قدرة فائقة على المناورة واصطناع البراءة، مما كان له أكبر الأثر فى نجاته * قدرته على تصوير علاقته بأقطاب الجماعة الفدائية تصويرًا يبدو قريبًا من الحقيقة، كما يكفل له النجاة من الاتهام * يروى بكل التقدير الموقف النبيل لزميله فى العمل الفدائى محمود راشد الذى ضرب مثلاً رائعًا فى الوفاء والإيثار، وعدل عن اعترافاته على عبد العزيز على لما وجد أن بالإمكان أن ينجو صديقه من الاتهام، ولست أدرى هل كانت عبارة السيد مصطفى بك عشرة لسان من محقق لبق بارع كما يقول عبد العزيز على، أم أنها كانت، وهذا ممكن ووارد، محاولة نبيلة من المحقق لكى يلقى بطوق النجاة لبعض المتهمين الوطنيين * يشير إلى المواجهة التى جرت بينه وبين شاهد آخر من شهود الإثبات، ولسنا ندرى السبب فى حرص عبد العزيز على عدم ذكر اسمه، وإن كان هو نفسه قد أشار فى موضع آخر وفى واقعة أخرى إلى أنه حاول أن يتذكر اسمه فلم يفلح، لكننا نعجب بقدرة عبد العزيز على على اتخاذ المواقف الذكية الكفيلة بتوفير النجاة له، وربما كان الأجدر أن نعجب بتوفيق الله له * يردف هذه القصة بالقصة الحقيقية لمعرفته بهذا المرشد الذى لم يذكر اسمه، ولماضى هذا المرشد فى الإيقاع برجال الحركة الوطنية والتجسس عليهم لمصلحة البوليس السياسى * من العجيب أننا نرى فى تصوير عبد العزيز على لشفيق منصور وتصرفاته اتهامًا واضحًا بالسذاجة والغفلة، إذ إنه لما أراد التخلص من هذا المرشد السرى بناء على نصيحة عبد العزيز على فإنه تخلص منه بأن ابتلى به صديقًا آخر من رجال المجموعة الفدائية * إشارته إلى الموقف النبيل الذى وقفه عبد الحميد عنايت حين عدل عن اعترافاته من أجل صالح عبد العزيز على، وهو يذكر أنه لم يعرف هذه الحقائق إلا بعد أن أفرج عنه * نراه حريصًا كل الحرص على أن يكرر امتنانه وتقديره لأعضاء الشعبة من العمال الذين تماسكوا تمامًا رغم كل الإرهاق والعنف والتعذيب، ولم يعترف عليه واحد منهم فى أثناء التحقيقات * الفقرة التى يلخص فيها بتركيز شديد موقف زملائه الذين أعدموا تنفيذًا للحكم فى قضية مقتل السردار * تنفرد هذه المذكرات بتقديم تفصيلات مهمة عن التفكير فى اغتيال الخائن محمد نجيب الهلباوى بدس السم له فى الشراب، ويذكر بكل تفصيل حقيقة دوره فى هذه المحاولة * نأتى إلى ما يرويه عن سبب توقفه عن محاولة دس السم لنجيب الهلباوى * يحرص على أن يشير إلى أنه ظل محتفظًا بزجاجة السم حتى أهداها فى ١٩٦٤م لفريق الإخوان المسلمين الذين كان قد بدأ فى تشجيعهم ضد نظام عبد الناصر * علاقته بالعمل السرى والاغتيالات السياسية لم تتوقف بصدور الأحكام فى قضية السردار * العلاقة قد تواصلت بعد اثنى عشر عامًا، وإن لم تكن الجماعة المسئولة عنها هى الجماعة نفسها التى أتمت محاولات الفترة الأولى (١٩١٠ - ١٩٢٤م) * نرى فى المذكرات حديثًا تفصيليًا عن كثير من هذه

الأعمال الجديدة بدءًا من ١٩٣٧م وحتى ١٩٥٢م، لكننا لا نرى ملامح التنظيم واضحة بالقدر الذى كانت واضحة فيها قبل ١٩٢٤، ولسنا نستطيع أن نزعم أننا ندرك السر الحقيقى فى تعامل عبد العزيز على مع المجموعات الجديدة من أقطاب العمل الفدائى على هذا النحو نصف الغامض * المذكرات تتضمن اعترافًا بدوره فى تدبير الانفجارات التى حدثت بالسينما الواقعة إلى جوار جمعية الشبان المسيحية ١٩٣٧م، وإصابة الجنود البريطانيين والسلطات البريطانية بالذعر * يتحدث (فى مواضع متفرقة من مذكراته) عن بعض حوادث الاغتيال التى قام بها المنتمون للحزب الوطنى أو المتشبعون بأفكاره فى تحريم المفاوضة إلا بعد الجلاء(!!)، ومنها محاولات اغتيال سعد زغلول، وأحمد ماهر، وأمين عثمان * يتحدث عن مصرع أحمد ماهر، فيقدم تعريفًا مشرقًا بشخصية محمود العيسوى ويحرص على نسبته إلى الحزب الوطنى، ولا يتناول ما كان يثار عن علاقته بالإخوان المسلمين * ينفرد فى حديثه عن اغتيال أحمد ماهر برواية حقيقة مهمة، وهى أن محمود العيسوى وحده هو الذى سهّل إدانة نفسه باعترافه، ذلك أن جسم الجريمة لم يعثر عليه!! * يتحدث عن واقعة اغتيال أمين عثمان التى ألصقت فى أذهان الكثيرين وفى أدبيات التاريخ المصرى المعاصر بمجموعات متطرفة، أو بالوفد نفسه، أو بالحرس الحديدى، أو بالضباط الأحرار، ونفاجأ بأن عبد العزيز على يقدم أدلة قوية وتفصيلات دقيقة تجعل المحاولة من مسئولية شباب الحزب الوطنى * يلخص تاريخ حياة أمين عثمان من وجهة نظر الحركة الوطنية السرية، فلا يشير إلى علاقته بالوفد، ولا إلى جهوده فيما سبق توقيع معاهدة ١٩٣٦م، أوفى أجهزة الحكومة، وإنما هو يركز كما هو متوقع على تصوير شخصيته على النحو الكفيل بإدانة الرجل واستجلاب الغضب عليه * سرعان ما يصل من هذا التصوير إلى مواقف أمين عثمان التى سبقت اغتياله ذاكرًا بعض ما عجّل بقرار اغتياله من تأسيسه لجماعة النهضة وتصريحه الشهير، وهما أمران معروفان، لكنه يضيف إلى هذين الأمرين المعروفين أمرين آخرين هما: تقديمه تبرعًا للبريطانيين لإعادة بناء قراهم التى دمرتها الغارات الألمانية فى الحرب العالمية الثانية، وتردد الأنباء عن ترشيحه ليشكل وزارة بريطانية الطابع، وهى رواية غير مؤكدة فى المصادر الأخرى * يقدم فى هذه المذكرات وصفًا موجزًا ودقيقًا لعملية اغتيال أمين عثمان، ويحرص فيما يرويه على ذكر اسم المهندس الذى أبلغ قسم عابدين بشكوكه فى حسين توفيق * يحرص على أن يشير إلى أن بعض مَنْ شاركوا (بالتدبير والتخطيط والتنفيذ) فى اغتيال أمين عثمان لم يتهموا من الأساس!! * ينسب الفضل فى تخطيط العملية وإدارتها إلى الأستاذ سعد كامل وشباب الحزب الوطنى! وهكذا ينزع عبد العزيز على الفضل فى العملية عن المجموعات التى دأبت أدبيات تاريخنا المعاصر على نسبة الواقعة إليها * يبدو بوضوح أنه يلمح إلى أنه كانت له هو نفسه علاقة ما بهذه العملية الجريئة * يعود ليؤكد على حقيقة أو مفارقة أن البوليس لم يتهم مَنْ قام بالتدبير والتخطيط لاغتيال أمين عثمان * تنفرد مذكرات عبد العزيز على بتقديم تفصيلات مهمة عن تهريب حسين توفيق إلى السعودية، ومن الانفرادات التى يقدمها ذكره أن هذا التهريب قد تم بمساعدة الأمير فيصل (الملك فيصل بن عبد العزيز)، وهو يذكر بالتحديد الأدوار التى لعبها كلٌ من سعد كامل، وعصمت

سيف الدولة، ومحمد إبراهيم كامل، وإحسان عبد القدوس، وقد أصبحوا جميعًا نجومًا فى الحياة السياسية، بل إن محمد إبراهيم كامل عين وزيرًا للخارجية بعد نشر هذه المذكرات * ينفرد بحقيقة أخرى، وهى أن والد حسين توفيق نفسه رفض تمويل نفقات هرب ابنه وطلب من مهربيه أن يقنعوه بتسليم نفسه * شباب المجموعة الفدائية لجئوا إلى حيلة أخرى وهى استكتاب حسين توفيق تفصيلات غير دقيقة لاختفائه، ونشر هذه التفاصيل بخط يده فى «أخبار اليوم» مقابل مكافأة كبيرة، مما مكنهم من الحصول على المال اللازم لتهريبه عبر القصير * عبد العزيز على يحرص بهذه الرواية على نفى ما شاع ولايزال يذاع من أن الملك فاروقًا كان على علاقة بتهريب حسين توفيق!! * يروى ما يدل على نيته المبكرة قتل سليم زكى حين يصل إلى الحديث عن مصرعه فى سياق روايته لتسلسل الأحداث التاريخية * نأتى إلى المرحلة التى خرج فيها نشاط الجماعات المرتبطة بالحزب الوطنى السرية إلى نطاق العلانية بعد أن هبت مصر كلها من أجل الدفاع عن حقوقها بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦م * ونرى عبد العزيز على يتحدث عن جهود شباب الحزب الوطنى فى بعث المقاومة الوطنية فى القنال بعد إلغاء المعاهدة، مشيرًا إلى الأدوار التى قام بها كلٌّ من يوسف حلمى، وماهر محمد على وغيرهما * يتحدث عن قرار «شعبى» غير مشهور اتخذه شباب الحزب الوطنى بقتل مَنْ يفاوض الإنجليز، ونحن نفهم بالطبع سر إهمال الحديث عن هذا القرار فى الأدبيات التى صدرت بدءًا من عهد الثورة، ذلك أن رجال الثورة أنفسهم فاوضوا البريطانيين وعقدوا معهم الاتفاقات * حرصه على الإشارة إلى طبيعة نمو العلاقة بين عصمت سيف الدولة وبين رشاد مهنا وعبد المجيد فريد، والجهود التى بذلها هو نفسه مع ثلاثتهم فى سبيل تنظيم المقاومة وتدريبها على الأسلحة * يذكر بكل وضوح أنه شكل كتيبتين تضم كل واحدة عشرين متطوعًا، وأنه كان هناك قائدان مدنيان للكتيبتين، ونحن نلاحظ أن مجموعة العسكريين التى شاركت فى هذا العمل تنتمى إلى ما يسمى فى أدبيات تاريخ الثورة «تنظيم ضباط الطيارين» * حين يحدثنا عن مشاعره فى يوم حريق القاهرة، فإننا نجده بنظرة المفكر المثقف الواعى يلقى بالمسئولية على النظام كله ولا يحدد هذه المسئولية فى فصل واحد فقط، على نحو ما فعل غيره فى إسناد الفعل إلى الملك أو الإنجليز أو الإخوان أو الجماعات الراديكالية * يصرح فى هذه المذكرات بأن حادث حريق القاهرة جعله يتشوق ويتحرق إلى أن يستأنف نشاط الاغتيالات السياسية ليخلص مصر من بعض الذين يجب أن تتخلص منهم * نلخص للقارئ من سطور عبد العزيز على نفسه ما يشير به إلى اعتقالاته، وهو يذكر أن الاعتقال الأول الذى تعرض له كان نتيجة وشاية مرشد من مرشدى البوليس السرى * يروى تفاصيل اعتقاله فى المرة الأولى * يورد تفاصيل عن اعتقاله فى المرة الثانية * يورد تفاصيل عن سبب اعتقاله فى المرة الثالثة * يتحدث عن مهارته فى خلق قنوات اتصال بينه وبين أهله فى الفترة التى اعتقل فيها فى سجن الأجانب، حيث كان مسموحًا له باستحضار الطعام من بيته، وإن لم يكن مسموحًا له بلقائهم * التفصيلات التى يوردها عبد العزيز على تجعلنا ندرك بوضوح مدى قسوة فقدان الحرية فى مثل هذه الظروف، وإن كنا نستمتع أيضًا بذكاء صاحب المذكرات وقدراته * يشير إلى أنه رزق بابنه وهو فى سجن الاستئناف، وأن مدير السجن الذى كان

عضواً فى جمعية التضامن الأخوى سمح له بالاحتفال بهذه المناسبة التى كانت فألاً حسنًا، حيث لم تمض أيام إلا وقد أفرج عنه * نأتى إلى الاعتقال الرابع، وهو الذى كان بسبب الاتهام فى قضية مقتل السردار، ونحن نلاحظ أنه سجل لنا ما لم يسجله غيره من تفصيلات القبض عليه فى تلك المرة، ونلاحظ مما يرويه مدى العصبية التى كانت تسيطر على البوليس فى معالجته للأمر، وقد وصلت هذه العصبية إلى البحث عن الأسلحة فى صفائح المسلى، وجوالات الأرز، وإلى نزع بعض البلاط، فضلاً عن اعتقال أشقاء أربعة معًا * لا تحول مرارة التجربة بينه وبين الاعتراف بالمزايا النسبية لسجن الأجانب، ونحن نعرف أنه لم يعد لهذا السجن وجود، ومن الطريف أنه كان يقع فى قلب القاهرة وفى شارع رمسيس * ملامح الرضا عن تمكنه من توظيف خبرته السابقة لتقليل وطأة الاعتقال على نفسه * يتأمل تجربته مع السجن فيصدر فى هذا التأمل عن نفسية واثقة مطمئنة * يصور اعتقاله على أنه كان رحلة روحية يقطعها بالعبادة وذكر الله، وهو يحدثنا بسعادة حقيقية عن استشعاره قرب الإفراج عنه، وعن تحقق ما استشعره، وعن سجوده لله شكرًا على تثبيته * شارك مشاركة فعالة فى «الحرب الإعلامية» التى شنها الحزب الوطنى، والتنظيمات التى ارتبطت به، على وجود البريطانيين فى مصر، وقد رأينا فى حديثه عن جهده فى ثورة ١٩١٩م ملامح من هذا النشاط * لم يحدثنا عن كل تفصيلاته، وإن كان لم يبخل علينا ببعض ملامحه * يحرص فى مذكراته على أن يتحدث بإفاضة معقولة عن نشاطه فيما أسماه «الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل»، وهى جماعة سياسية لا تحظى بشهرة واسعة فى أدبيات التاريخ المصرى الحديث، وإن كان حديث عبد العزيز على كفيلاً بإلقاء أضواء كافية عليها * حريص على أن يذكر أن نشاط هذه «الوحدة» لم يكن انشقاقًا عن الحزب الوطنى، وإنما كان نشاطًا موازيًا يستهدف علاج الآثار السلبية لتعدد الأحزاب واختلافها فى قضايا الوطن، وما ترتب على هذا التعدد من ضعف العقيدة الوطنية على حد تشخيص صاحب المذكرات * يذكر أسماء زملائه الذين شاركوه تأسيس هذا النشاط والعمل من أجله، ونحن نلاحظ بوضوح أن هذه الجماعة الجديدة نشأت بعد أن تمكنت السلطات من إخماد النشاط السرى الذى كانت تقوم به الخلية السرية التى فقدت أرواحها بسبب الحكم فى قضية مقتل السردار * يتحدث عن سلسلة المنشورات الأسبوعية المنشورة التى ظلت هذه الهيئة السياسية تصدرها طيلة ما يقرب من اثنى عشر عامًا، ومن الضرورى أن نفرق بين ما يقصده بلفظ المنشورات وما يقصده بلفظ النشرات، فالمنشورات كانت تكتب بتوقيع لجنة شباب الحزب الوطنى. . إلخ، أما النشرات فكانت هى تلك التى يصدرها عن جماعة الوحدة القومية * يورد النصوص الكاملة لبعض هذه الأدبيات المهمة * يورد ضمن مذكراته نص المنشورات الأربعة الأولى وتواريخها، وإن كنا نلاحظ أنه أرخ المنشور الثالث بتاريخين هما: تاريخ يومين متتالين هما ١٦ و١٧ ديسمبر ١٩٣٤م * يورد فى مذكراته نص هذا الخطاب الذى بعث به إلى القادة العرب * من أعظم ما تدلنا عليه هذه المذكرات ما نفهمه من أمثلة دالة على التوحد الذى كان قائمًا بين النشاط الوطنى فى مصر وحركات التحرر الوطنية فى البلاد العربية * ما يرويه عبد العزيز على فى مذكراته عن علاقته بالمكتب الثقافى لبيت المغرب، وكيف تطورت هذه

العلاقة التى بدأت كعلاقة وظيفية إلى علاقة وطنية، وكيف كان زوار هذا البيت يتأهلون فى الجامعة الحرة التى نظم برامجها الأستاذ أحمد أمين * ليس غريبًا أن نرى فى قائمة الأسماء التى يذكر أنها كانت تحضر المحاضرات الثقافية فى هذا المكتب مجموعة من شخصيات عهد الثورة المتميزين، منهم حسين أبو زيد، والباقورى، والبغدادى، ورشاد مهنا، ووجيه أباظة * يعترف فى فخر خفىّ بالدور الوطنى الذى تمكن به أن يوظف موقعه فى مكتب المغرب لخدمة الحركات الوطنية فى مصر والبلاد العربية * يتحدث بأسى عن الظروف التى أوقفت عمل المكتب، ونحن نراه لا يهاجم، بما فيه الكفاية، دور القنصل الإسبانى فى هذا الإيقاف أو التوقف * دور هذا الرجل فى التعاون مع الهيئات الوطنية الأخرى * يخصص من مذكراته فصلاً غير طويل للحديث عن اتصالاته بالهيئات الوطنية المتعددة، ويبدؤه بالحديث عن صلته بالإخوان المسلمين وجماعة شباب محمد * يلقى بأضواء كاشفة وكافية عن علاقته المبكرة بالإخوان المسلمين، وهى علاقة بدأت منذ عهد الشيخ حسن البنا وتطورت فى اتجاه قيام عبد العزيز على بدور المشورة والتوجيه لتنظيمات الإخوان * يصل فى روايته إلى موضع اتفاقه مع الشيخ حسن البنا على التفكير فى بدء الإخوان نشاطًا فدائيًا بإشرافه، لكنه يحرص فيما يرويه على أن يورد قصة إحساسه ببعض الجمود الفكرى الذى كان حائلاً بين بعض الإخوان المسلمين وبين الانخراط فى مثل هذا النشاط السرى * يروى ما يعده بمثابة سر، وهو أنه هو الذى أشار على عبد الحكيم عابدين بعدم العودة من الحج حتى لا يتعرض لما تعرض له أقرانه من الإخوان المسلمين فى ١٩٥٤م * يقدم تفصيلات وافية عن نشاط جماعة «شباب محمد» التى أسسها الأستاذ حسن يوسف منشقًا عن الإخوان المسلمين * يلخص فى فقرات قليلة وبقدرة فائقة قصة نشأة جماعة شباب محمد وسبب نشأتها، بل يورد - وهذا هو المهم - النص الكامل للبيان الذى أصدرته هذه الجماعة حين انفصلت عن الإخوان المسلمين * يبدو، والله أعلم، أن عبد العزيز على كان متعاطفًا إلى أقصى حد مع جماعة شباب محمد، وإن لم يستدع هذا منه موقفًا مباشرًا ضد الإخوان * ننتقل إلى ما سجله من أوجه الخلاف بين جماعتى الشبان المسلمين وشباب محمد على نحو ما تضمنها بيانهم الأول الذى اختفى مع الزمن، لكن هذا الرجل احتفظ به وقدمه فى هذه المذكرات * يقدم فى مذكراته قائمة تضم أسماء أبرز رجال الإخوان المسلمين الذين انفصلوا عن الحركة مكونين جماعة شباب محمد * نلاحظ بين أسماء هؤلاء اسم الدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الشهير فى جامعة الإسكندرية، وهو الذى عمل مستشارًا سياسيًا لمجلس قيادة الثورة فى بداية عهد حركة ٢٣ يوليو، ويقال حسب رواية الأستاذ يوسف الشريف أنه كان أخًا فى الرضاع للرئيس عبد الناصر، لكنه اضطر إلى أن يترك هذا المنصب عندما آثر الزواج بإنجليزية، إذ لم يكن الرئيس عبد الناصر موافقًا على فكرة أن يكون من بين المقربين منه مَنْ يتزوج بإنجليزية * يفخر فى هذه المذكرات (ولا نقول يعترف) بالدور الذى لعبه فى مؤازرة مجموعة «شباب محمد» بالعونين المادى والمعنوى * يصل إلى أن يشير إلى أن الجماعة هيأت له مخبأ سريًا للسلاح لم يعرف بأمره أحد * يقول إنه اصطفى من بينهم اثنين ضمهما للجمعية الفدائية السرية * حديثه عن علاقته بالجماعات والأحزاب التى تأسست من خلال النجاح الذى أحرزه

مشروع القرش * نشير إلى حقيقة أنه يربط بين نجاح فكرة صنع الطرابيش وبين الجو الذى هيأ لهذا النجاح من خلال نجاح إسماعيل صدقى فى إحداث نهضة صناعية بمصر فى أثناء حكمه الدكتاتورى (١٩٣٠ -١٩٣٣م)، وهو ما يدلنا على مدى الإنصاف الذى كان يتمتع به هذا الرجل، وهو ما جعله يعترف لصدقى بالفضل على الرغم مما هو معروف من عداوة كل الوطنيين لصدقى، ولا ننسى بالطبع أن صدقى كان هو وزير الداخلية الذى قاد الجهود البوليسية التى أدت إلى كشف سر مقتل السردار * يؤصل للفكرة التى اقتنع بها وهى الفكرة القائلة بأن نجاح مشروع القروش ومصنع الطرابيش كانا السبب فى تكوين جمعية مصر الفتاة (١٩٣٣م) وتحولها إلى حزب (١٩٣٧م) * يشير بوضوح إلى دوره هو شخصيًا فى مساعدة أحمد حسين ومجموعته بالرأى، وإلى زيارته لهم * يحرص على أن يصور مدى التعاون الذى مضى فى سبيله مع جريدة «الصرخة» التى أصدرها حزب مصر الفتاة * يضرب مثلاً على التعاون المشترك مع حزب مصر الفتاة بما قاما به معًا من توزيع المنشور الذى حمل عنوان «تحية لامبسون» * يشير باختصار إلى دوره الذى حاول أن يساند به كيان حزب مصر الفتاة فترة اضطهاد هذا الحزب فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال جمعية الشبان المسلمين (وقد كان هو نفسه عضوًا فى مجلس إدارتها) فى احتضان أنشطة حزب مصر الفتاة فى أثناء إغلاق السلطات لمقرهم * لا يقف الأمر عند حد تعاونه الشخصى مع حزب مصر الفتاة، وإنما هو يلمح إلى العلاقة الحسنة التى ربطت بين الحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة * يقدم اعترافات واضحة بمسئولية مصر الفتاة عن محاولة قتل النحاس باشا * علاقة صاحبها بالتنظيمات السرية التى وجدت فى القوات المسلحة * يجاهر فى هذه المذكرات بعقيدته التى نضجت فى ذلك الحين من أن الجيش لابد أن يشارك فى الحركة الوطنية، وأن يخرج من عزلته، وأن يبدأ هذا السبيل بتكوين تنظيم سرى من ضباط الجيش يتولى الاغتيالات السياسية باعتبارها وسيلة فعالة، وهو يعبر عن هذا المعنى بألفاظ لا تنقصها الصراحة * يروى كيف بدأ هو نفسه السبيل فى محاولة تكوين التنظيمات السرية داخل الجيش المصرى * يشير بكل صراحة إلى أن وجيه أباظة كان نواة العسكريين الذين اشتركوا فى تأسيس هذا التنظيم * يصرح بأسماء الضباط الذين وثق فيهم ورآهم أهلاً لتكوين الخلية الثانية من خلايا تنظيم الضباط السرى * أول مَنْ فكر فيه قد استشهد فى حرب فلسطين، وأن الثانى توفى فى حادث سيارة، وأن الثالث الذى بقى على قيد الحياة صار فى السبعينيات قائدًا عامًا للقوات المسلحة ووزيرًا للحربية ونائبًا لرئيس الوزراء * يشير إلى لقاء وحيد جمعه باثنين من الضباط هما الرحمانى وصادق، ويبدو أن هذين الضابطين هما محمد كامل الرحمانى، وأحمد فؤاد صادق * من الطبيعى أن يأتى ذكر الاتصال بالرئيس السادات الذى كان بمثابة قاسم مشترك فى كل التنظيمات السرية التى تكونت ونشطت فى هذه الفترة، والذى كان اسمه معروفًا على نطاق واسع بين الجماعات الراديكالية، ومن الطريف أن عبد العزيز على يشير إلى أن اللقاء تم بناء على رغبة السادات نفسه، وليس بناء على مبادرته هو، وذلك على النقيض من كل لقاءاته مع رموز هذه الجماعات * يلمح بطبيعة الاتفاق الذى تم بينه وبين تنظيمات الضباط الأحرار، فقد ابتعد بإرادته وربما باتفاق واضح معهم عن أن يحيط

بأخبارهم وتحركاتهم وهياكل تنظيمهم، وذلك من أجل تهيئة الفرص لهم لتقوية التنظيم والحفاظ على سريته * يحرص على أن يشير إلى ما كان يعتقده من تأثير إيجابى للمنشورات الوطنية التى كانت بمثابة السلاح الذى أفاد الضباط إلى أقصى مدى، وهو يشير إلى أنه أصدر ثلاث سلاسل من هذه المنشورات، ومن حسن الحظ أنه ضمن كتابه بعضًا من هذه المنشورات * يبدو أن باحثى مركز التاريخ الذين اجتمعوا به من أجل هذه المذكرات كانوا قد ألحوا عليه فى الحديث عن شخصيات الضباط الأحرار، لكنه آثر أن يكون هذا على نحو مختصر فى فقرة واحدة * يشير إلى أنه لم يلتق بالرئيس جمال عبد الناصر فيما قبل قيام الثورة، لكن الرئيس زاره فى منزله بعد قيام الثورة، ونستطيع أن نفهم أن هذا اللقاء كان قبل سبتمبر ١٩٥٢م حين اختير عبد العزيز على نفسه وزيرًا للشئون البلدية والقروية * نلاحظ أن عبد العزيز على يكتفى فى حديثه عن لقائه بعبد الناصر بعموميات، وربما أنه اكتفى لأن الجزء الثانى من مذكراته يتضمن تفصيلات أكثر عن هذه الفترة * يورد فى هذه المذكرات تفصيلات دقيقة عن بعض النشاط السرى الذى قامت به مجموعة الضباط الطيارين أو أسهمت فيه أو فى توجيهه * يتحدث عن مبادرة حسن عزت من أجل صنع قنابل مولوتوف، وما شاب هذه المحاولة من اندفاع الضابط سعودى أبو على وزملائه، وما تمكن به حسن عزت من علاج للموقف بسرعة بديهة * عبد العزيز على هيأ لهؤلاء الضباط مكانًا أمينًا تنقل فيه أدوات تصنيع القنبلة وباقى السلاح قبل أن يهاجم البوليس الفيلا لضبط ما بها وضبط التنظيم * يستطرد من حديثه عن هذه الواقعة معترفًا بالاستطراد إلى تقييمه لشخصية سعودى أبو على، راويًا ذكرياته ومعلوماته عن المحاولة التى قام بها سعودى أبو على للاتصال بالألمان، وهى المحاولة التى انتهت بفقدان سعودى نفسه * نتوقف فى وسط الفقرة التى نقلها عنه لنسأل عما جعل صاحب المذكرات يتأكد من أن سعودى قد وصل إلى مقر قيادة روميل فى الصحراء، ثم فقد، وأنه لم يفقد قبل ذلك * المذكرات تتضمن حديثًا له عن إخفاق محاولة شراء سلاح من الإسماعيلية، ويبدو أن عبد العزيز على بروايته لهذه الواقعة كان يريد أن يدلنا على أن تنظيمات الضباط والمرتبطين بهم لم تكن تتمتع بالحنكة المطلوبة فى مثل هذه الأحوال والمغامرات * يضمن مذكراته حديثًا شيقًا عن بعض مخابئ السلاح التى كان يلجأ إليها للحفاظ على هذه الأداة المهمة لنشاطه الوطنى، وهو يكشف السر الذى أخفاه طيلة حياته فيما يتعلق بإخفائه السلاح فى خزنة بنك مصر حيث كان يعمل، ومما نلاحظه أنه يذكر أن طريقة محمود راشد فى تخبئة السلاح فى ضلفة أحد الأبواب كانت سرًا بينهما لا يعرفه غيرهما، بينما نرى عبد الفتاح عنايت فى مذكراته وهو يحدثنا عن هذه الطريقة الماهرة بإعجاب، مما يدل على أنه كان هو الآخر يعرف هذا السر * يمضى فى الحديث الدقيق عن الأماكن التى كان يلجأ إليها ويستخدمها كمخابئ للأسلحة، ومن الطريف أن عمارة سوسو باشا التى يشير إليها لاتزال قائمة فى مصر الجديدة * يتحدث عن النقل الثانى (ثم الثالث) للأسلحة المجمعة، وهو أصعب بالطبع من «التخزين» الأول، ومن الإنصاف أن نشير إلى بطولة رشاد مهنا الذى تولى هذه العملية بنفسه فى إحدى السيارات العسكرية * يتحدث عن الدور الوطنى الذى قدر للدكتور عبد الكريم درويش أن يؤديه فى حماية أبناء الحركة الوطنية حين كان

ضابطًا صغيرًا فى مركز شرطة أبو حماد * الآراء الواضحة فى الأحزاب السياسية والممارسات السياسية على مدى رحلته الطويلة مع العمل الوطنى * تأتى إشادته بممارسات الحزب الوطنى فى مقدمة هذه الأحاديث * المذكرات تتضمن بعض ما يشير إلى فضل الحزب الوطنى على الحركة العمالية فى مصر، وهو دور غير مشهور فى تاريخنا السياسى، وإن كان تاريخ الحركة العمالية، فى المقابل، يسجله بكل اعتزاز للحزب الوطنى الذى كان صاحب ريادة أيضًا فى مجال التعاون والحركات التعاونية على يد عمر لطفى، وعبد الرحمن الرافعى وغيرهما * يكاد يوحد فى حديثه بين هذين التوجهين المتقاربين من النشاط الوطنى، بيد أنه فيما يظهر من نصوصه يعنى فى المقام الأول بالدور الذى لعبته هذه التنظيمات فى الحركة الوطنية * يقدم فى هذه المذكرات قائمة بأقطاب الحزب الوطنى الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية عقب خلع الخديو عباس حلمى وتولية السلطان حسين كامل الحكم وفرض الحماية، وهو ما يدلنا على أن أجهزة الأمن السياسى التى كان المحتل البريطانى يعتمد عليها كانت تسيطر عليها فكرة أن الحزب الوطنى قبل غيره، وربما دون غيره، هو مستودع الوطنية المصرية الكفيلة بمقاومة المحتل على نحو جدى * يذكر أسماء بعض المعتقلات التى اتسعت لهؤلاء الوطنيين * يقدم قائمة أخرى بأسماء بعض رجال الحزب الوطنى الذين حكم عليهم بالنفى * يورد فى مذكراته أسماء بعض قيادات اللجنة العليا للموظفين، ومن الجدير بالذكر أننا نقلنا عن مذكرات الدكتور يوسف نحاس قائمة كاملة بأسماء أعضاء هذه اللجنة، لكننا نلاحظ بعض الاختلاف بين القائمتين * يشير بالتفصيل إلى مجمل الاتفاق الذى تم بين ممثلى الحزب الوطنى وممثلى الوفد، وهو اتفاق لا يحظى بما يستحقه من الإشارات التاريخية * الاتفاق على نحو ما يروى عبد العزيز على قد تم فى فندق إيطالى فى مدينة روحا * نراه حريصًا على إثبات ما يدل على موافقة سعد باشا زغلول على هذا الاتفاق عند توقيعه، بل وما يشير أيضًا إلى تمسك سعد باشا بهذا الاتفاق فيما بعد، ويدلنا ما يرويه عبد العزيز على فى هذا الصدد على أن ائتلاف الوفد والحزب الوطنى فى ١٩٢٢م سبق الائتلاف الشهير بين الوفد والدستوريين فى ١٩٢٦م * المذكرات تتضمن قائمة بأسماء الشباب الوطنى الذى شارك فى نشاط الحزب الوطنى عندما جدد شبابه، ونحن نلاحظ أن من بين هؤلاء مَنْ شاركوا فى حركة الإخوان المسلمين، ومَنْ شاركوا فى الوزارات المصرية فى عهد الثورة مثل فتحى رضوان، وعلى فهمى الداغستانى، ومَنْ شاركوا فى نشاط الحزب الوطنى الديمقراطى الذى أسسه السادات فى ١٩٧٨م مثل ماهر محمد على * يشير إلى تجربة فتحى رضوان فى تجديد الحزب الوطنى فى حيادية تقترب من الإيجابية بقدر ضئيل جدًا، ولكنه يعترف بأن هذه المجموعة سدت فراغًا كان موجودًا بالفعل، وهو يشير إلى السبب الذى باعد بين هذه المجموعة وبين القيادة القديمة، وهو فى رأينا سبب كاشف لا سبب أصيل * الشخصيات التى يدين لها بالفضل فى تكوينه الوطنى، وأول هؤلاء هو والده العظيم، وهو يتحدث عن والده بإنصاف * فى حديثه عن والده يشير باعتزاز إلى أن البرنس حسين كامل اختاره - لما اشتهر به من تقوى وورع وصلاح - ليكون مدرسًا للأميرات كاظمة وسميحة وقدرية بنات البرنس، «يعلمهن الدين واللغة العربية، ويؤدبهن بآداب

الإسلام» * ندرك من هذه الرواية بشقيها بعض السر فيما عرفت به الأميرات الثلاث من صفات حميدة تجلت فى كثير من التصرفات التى لاتزال آثارها باقية فى نفوس المصريين * المذكرات تحفل بالحديث عن مناقب الزعيم محمد فريد وفضله على الحركة الوطنية والوعى القومى * يشير إلى الحادث الذى كان، فى رأيه، بمثابة السبب المباشر فى تحول الزعيم محمد فريد إلى العمل الوطنى * يشير إلى أن الزعيم محمد فريد كان منتبهًا إلى أهمية العناية بتربية الأمة، وأنه كان يدعو إلى إلزامية (إجبارية) التعليم الابتدائى، وإلى العمل الجاد على محو الأمية، وأنه كان يشارك بنفسه فى هذه الجهود التى تبناها الحزب * يشير إلى الدور الرائد الذى لعبه محمد فريد فى الدعوة إلى إنشاء التعاونيات الزراعية، وهو يجمع بين هذا الحديث وحديثه عن تشجيع فريد لتشكيل النقابات العمالية * يروى قصة الحكم على محمد فريد، بسبب المقدمة التى كتبها لديوان «وطنيتى»، لكنه يردف هذه الرواية مباشرة بما يرويه من أن الخديو عباس حلمى كان قد ساوم محمد فريد وهو فى السجن لكن محمد فريد رغب عن مثل هذه المصالحة وآثر قضاء مدة العقوبة فى السجن * يشير أيضًا إلى أن حكمًا آخر صدر فى العام التالى بسجن محمد فريد لكنه كان قد ترك مصر إلى أوروپا * يلخص بعض ملامح النشاط الدولى الذى بذله محمد فريد من أجل قضية بلاده * يشير أيضًا إلى إيمان محمد فريد بجدوى التعاون العربى من أجل استقلال أقاليم الوطن العربى * ينهى حديثه عن هذا الزعيم العظيم بذكر ما آل إليه حاله بسبب كفاحه بماله، كما يذكر بالخير تلميذه الوفى الدكتور خليل مدكور * يحرص على الحديث عما كان هو وأقرانه يعولونه من أمل فى نجل محمد فريد وهو الأستاذ عبد الخالق فريد، لكنه سرعان ما يراجع نفسه معطيًا بعض العذر لعبد الخالق فريد، وربما كان من حقنا أن نتساءل عن علاقة أبناء عبد العزيز على نفسه بالجهاد الوطنى وبالعمل الفدائى، وأغلب الظن أنهم بعيدون عن مثل هذا المجال، وإن كنا نرى فى هذه المذكرات ما يدل على دور طليعى قدر لابنه عماد الدين أن يقوم به، وهو صبى، فى المؤتمر الكشفى فى لبنان * يحرص على أن يثنى ثناءً خاصًا على رئيس الحزب الوطنى محمد حافظ رمضان، ويشير إلى ما ليس مشهورًا من فضله فى الحصول على موافقة مؤتمر بروكسل على وضع الشريعة الإسلامية على خريطة التشريع، وكتابه «أبو الهول قال لى»، ومذكرته بشأن جيل الأولياء * يقدم اعترافًا صريحًا بضعف الحزب الوطنى فى عهد حافظ رمضان، وهو يصف الضعف بأكثر مما يقدم التبرير أو الهجوم على القيادة التى وصل الحزب فى ظلها إلى هذا المستوى من الضعف * يشيد بجهود حافظ رمضان ومَنْ بقى معه مستبصرًا بالآية القرآنية لوصف سلوكهم * يحرص على الثناء على الدكتور إسماعيل صدقى الذى كان عضوًا فى الحزب الوطنى، وهو دائمًا ما يتحدث عنه ملصقًا باسمه لفظ «الجراح» وهو يتحدث عن وفاته وعن حفل التأبين الذى حرص على إقامته له، كما يورد فقرة من تأبينه له، وهو تأبين يضع هذا الرجل نصف المشهور فى مكانه الطبيعى بين الزعماء التقليديين للحزب الوطنى، ومن الجدير بالذكر أن شهرة إسماعيل صدقى رئيس الوزراء كانت تطغى وتغطى على شهرة هذا الرجل، بل كانت تأخذ من فضله فى بعض الأحيان وتنسبه إلى سميه الأشهر، وقد حدث هذا فى مواضع كثيرة من مذكرات محققة

ومنشورة على سبيل المثال * يقدم نبذة موجزة عن البطل إبراهيم موسى الذى حكم عليه بالإعدام فى مقتل السردار ونفذ فيه الحكم، وهو يطلق عليه لقب «البطل المجهول» ، وهو يشير إلى أن الذى رشحه للانضمام إلى التنظيم كان هو زميله محمد فهمى الذى كان يسكن فى أحد المنازل المملوكة لعائلة عنايت، وربما جاز لنا أن نشير إلى أن عبد الفتاح عنايت نفسه لم يشر إلى هذه العلاقة التى ربطتهم بمحمد فهمى، وربما كانت علاقة لاحقة على مشاركته لآل عنايت فى الحركة الوطنية . كذلك فإننا نلاحظ أن عبد الفتاح عنايت لم يشر من قريب ولا بعيد إلى الدور الذى يشير عبد العزيز على إلى أنه لعبه بنفسه فى اختيار الكوادر الفدائية، ولا إلى اسمه الحركى فى الشعبة * لا يمل من أن يحدثنا حديث المعجب إلى أقصى الحدود عن إيمان إبراهيم موسى ووطنيته وفدائيته وحرصه على أن يبغى بعمله وجه ربه سبحانه وتعالى * فقرات فى غاية الأهمية لتاريخنا المعاصر عن علاقته بعزيز المصرى، وهو ما يضىء بعض جوانب علاقة عزيز المصرى بالتنظيمات السرية، وهو يحرص على أن يشير إلى أن اسم هذا الرجل فى الأصل كان «عبد العزيز على»، وهو يشير إلى هذا التوافق فى اسميهما سريعًا دون أن يثبت ما يلفت نظر القارئ إلى هذا التوافق، وهو يقدم سيرة موجزة له على نحو موح ومشرف ودقيق * يروى بداية اتصاله بعزيز المصرى ضمن مجموعة من شباب الحزب الوطنى، ومتابعتهم لنشاطه الوطنى فى نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، لافتًا النظر إلى استقالته وخلافه مع الإنجليز ومحاولته الشهيرة للهروب بطائرة إلى مكان ما، بيد أن عبد العزيز على يذهب إلى عكس الشائع فيقول إن عزيز المصرى كان ينوى الهرب إلى العراق للمشاركة فى ثورة رشيد عالى الكيلانى لا إلى ألمانيا والمحور كما هو شائع * حديثه عن عداواته الفكرية، وهى عداوات أتت ، فى معظمها ، بحكم انتمائه للحزب الوطنى، ولم تقم على أساس شخصى، وتنبئ هذه المذكرات بكل وضوح عن موقف عبد العزيز على المعادى لأحمد عرابى، والواصف له بأنه فرّ من عار إلى عار، وهو موقف لا ينفرد به عبد العزيز على وإنما يشاركه فيه أقطاب الحزب الوطنى * المذكرات تنطق بكراهية الزعيم سعد زغلول، وهو موقف معروف لا ينفرد به عبد العزيز على، وإنما يشاركه فيه المنتمون للحزب الوطنى * يجاهر برأيه الواضح فى أن سعد زغلول زعيم سياسى وليس زعيمًا وطنيًا، وهو يبنى رأيه هذا على عقيدة الحزب الوطنى فى عدم جدوى التفاوض مع الإنجليز، ويرى أن سعدًا أخطأ ثم عاند حين سلك سبيل المفاوضات مع المحتل الغالب على الرغم من تبصير الحزب الوطنى له بعواقب المفاوضات * يصل فى ثنايا هذه المذكرات إلى حد التنبيه إلى محاولة غير مشهورة قام بها أحد شبان الحزب الوطنى لتحذير سعد باشا بالسلاح حين لقيه فى پاريس، وذلك ليثنيه عن المفاوضات!! * يقدم تفصيلات مهمة عن محاولة اغتيال سعد زغلول على يد واحد من أبناء الحزب الوطنى، مشيرًا إلى نجاح الوفديين فى تصوير تصرف هذا الشاب فى إطار الاختلال العقلى، وموحيًا بأن هذا الجنون الذى أصاب الشاب لم يكن مريضًا به أصلاً، وإنما كان نتيجة إيداعه مستشفى الأمراض العقلية * نصل إلى الفقرة الكاشفة التى يعبر فيها عبد العزيز على عما يشبه الشماتة من موقف سعد من حادث اغتيال السردار * لا يكف عن إظهار ضيقه التقليدى بالوفد وبالنحاس، ومع أنه أشار إشارات واضحة

التعاطف مع مَنْ حاولوا اغتياله، فإنه يبدى سعادته بقرار إلغاء معاهدة ١٩٣٦م * يشير بكل وضوح إلى جفاء مكرم عبيد فى معاملته وحرصه على تشريده بنقله إلى الزقازيق * الحاصل أنه كان أقرب ما يكون إلى الكفر بالأحزاب وبالنظام الحزبى على نحو ما عاشه وعايشه * نأتى إلى رأيين مهمين لعبد العزيز على فى شخصيتين سياسيتين بارزتين فى عهده، وهما حسين رشدى، ومحمد توفيق نسيم، وعلى حين أن رأيه فى نسيم يبلغ أقصى درجات السوء، فإن رأيه فى رشدى يبدو متوازنًا، وعلى الرغم من أن عبد العزيز على كان موافقًا موافقة ضمنية على المحاولة التى قام بها الفدائيون واستهدفت قتل رشدى باشا مع عدلى باشا نتيجة مواقفهما التى شقت الوحدة الوطنية، إلا أنه فى مذكراته يعبر عن تقدير مبكر لرشدى لموقفه المعارض لخطبة رئيس مجلس اللوردات البريطانى فى مارس ١٩١٩م * نراه حريصًا على أن يسجل ثناءه على موقف رشدى باشا من الخطبة التى ألقاها رئيس مجلس اللوردات وحاول بها التفريق بين طائفتين من الشعب المصرى، لكن رشدى باشا لم يستجب لهذه الوقيعة التى ظل الإنجليز يمارسونها حتى نجحوا فيها بعد عامين * نأتى إلى الوصف الحاد الذى وصفه به محمد توفيق نسيم، ولا ننسى أن عبد العزيز على نفسه قد اشترك فى محاولة اغتيال نسيم، ونحن نراه حريصًا على وصفه بأنه كان عميلاً للناحيتين: السراى والإنجليز، ويرجع عبد العزيز على السبب فى توليه الوزارة واستقالة سلفه يوسف وهبة إلى كثرة حوادث الاغتيالات، ومن الجدير بالذكر أن كريم ثابت يصور فى مذكراته سبب وصول محمد توفيق نسيم فى أنه كان نتيجة زيادة ولائه للملك فؤاد، ونجاحه فى تعبيره عن هذا الولاء من خلال حشد مظاهرات العمد والمشايخ * عبد العزيز على يبدو معتزًا أشد الاعتزاز بالنصر الذى حققته مصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

* * *

ملخص الباب الثانى

قصة كفاح.. مذكرات عبد الفتاح عنايت

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * إذا كان الأولى بنا أن نمضى مع الزمن فى تصوير ما تحتويه المذكرات من حديث عن العمل الفدائى، فإننا نبدأ بأن ننقل ما يورده صاحبها قرب نهاية كتابه عن الأحكام التى صدرت فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين * يشير إلى أن الإفراج عن المنفيين فى هذه القصة لم يتم إلا بمقتضى معاهدة فرساى * يشير إلى وعى عميق بضرورة تخليد الكفاح القومى الذى شارك فيه، بيد أنه يبدو عاجزًا عن أن يمضى فى هذا السبيل إلى أبعد من الإجراءات الروتينية البسيطة التى مكنته من تسجيل جمعية بهذا الاسم فى ٢١ مايو سنة ١٩٥٦م تحت رقم ١٣٥ جيزة * يشير فى معرض حديثه عن هذه الجمعية إلى أنها تمكنت من عمل تماثيل لكلٍّ من: الشهيد إبراهيم الوردانى، والشهيد محمود عنايت، والشهيد عبد الحميد عنايت، والشهيد إبراهيم موسى، والشهيد محمود راشد، بيد أننا لا نعرف من المذكرات ولا من غيرها أين ذهبت هذه التماثيل، ولا نعرف شيئًا عن مصيرها، ولسنا نستغرب هذا على ذاكرة معاصرة لم تعد تشغل نفسها بمثل هذه الأمور * نرى عبد الفتاح عنايت فى كثير من فقرات كتابه معنيًا بأن يثبت لنفسه المبرر الذى دفع به إلى تسجيلها، مع أننا لسنا بحاجة إلى مثل هذا المبرر * يقدم فى وسط مذكراته سببًا وجيهًا لإقدامه على كتابتها * نتأمل معه دوره ودور خليته * مذكرات عبد الفتاح عنايت تقدم «اعترافات تفصيلية» بمسئولية الجهاز السرى للحزب الوطنى عن كثير من حوادث الاغتيال فيما قبل ثورة ١٩١٩م * وقائع الحوادث الفدائية التى قامت بها مجموعة عبد الفتاح عنايت على نحو ما رواها بترتيب زمنى دقيق * يذكر وقائع محددة لم يشر إليها عبد العزيز على فى مذكراته، كما أنه لا يشير إلى وقائع أخرى أوردها عبد العزيز على وغيره فى مذكراتهم المنشورة * حادث مقتل الجندى البريطانى فى ميدان محطة مصر * يستعيد ذكرياته عن هذه الواقعة الفدائية الناجحة * يلخص ذكرياته عن الحادث الثانى الذى نجحت مجموعته من خلاله فى قتل المستر براون مراقب عام وزارة المعارف، وهو يقدم ما يعتبره مبررًا «شخصيًا» للتفكير فى قتل هذا الرجل المتغطرس الذى كان مسيطرًا تمامًا على وزارة المعارف، شأنه فى ذلك شأن كل نظرائه من الإنجليز * نشير إلى أن مقر وزارة المعارف فى ذلك الوقت لم يكن فى مقره الحالى فى

شارع الفلكى، وإنما كان فى المبنى الذى تحتله الآن وزارة التموين التى أصبحت الآن قطاعًا فى وزارة التضامن الاجتماعى، وهو مبنى يطل مباشرة على شارع قصر العينى، وبالتالى فإنه فى مواجهة جاردن سيتى مباشرة على نحو ما تصور المذكرات * يتحدث عن الآثار المباشرة وغير المباشرة لهذا الحادث * ذكرياته عن الحادث الثالث الذى قدر له أن يشارك فيه وهو مقتل وكيل حكمدار القاهرة المستر كيف، وهو يشير إلى مدى الصعوبة التى كانت تكتنف هذه المحاولة بسبب اختلاف مواعيد خروج الرجل من بيته من يوم لآخر * اكتشفوا أنه كان ملتزمًا بموعد ثابت هو موعد عودته إلى بيته لتناول الغداء * التعبير الدقيق الموحى الذى يعبر به عن سعادته بالوصول إلى تحديد موعد مثالى لاغتيال الرجل * نأتى إلى إحدى التفصيلات المهمة التى صاحبت مصرع المستر كيف، وهى محاولة إحدى الإنجليزيات تعقب إبراهيم موسى، وفى النص الذى بين أيدينا ينفرد عبد الفتاح عنايت بالإشارة إلى أنها كانت ترتدى زى الممرضات، وأنها كانت تركب دراجة، لكن عبد الفتاح عنايت لا يشير إلى ما أشار إليه عبد العزيز على من أن هذه الإنجليزية ظلت تحتفظ بصورة إبراهيم موسى فى مخيلتها حتى وقع حادث اغتيال السردار فتعرفت عليه، مما كان له، كما يقول عبد العزيز على، أثر كبير على مجريات التحقيق فى تلك القضية * يلخص الصورة التى وقع بها الحادث الرابع من حوادث الاغتيالات التى شارك فيها، وهو الحادث الذى كانت نتيجته مقتل بيجوت مدير مالية الجيش الإنجليزى، وهو حريص على أن يظهر دور شقيقه عبد الحميد عنايت فى هذا الحادث على وجه التحديد، مؤكدًا الإشارة إلى طبيعة الدور الذى كان الشقيقان يلعبانه فى هذه الحوادث * نفهم من هذه الفقرة أن هناك جنودًا مجهولين آخرين (من قبيل عبد العزيز على) كانوا هم الذين يخططون لهذه الحوادث، لكن عبد الفتاح عنايت لسبب أو لآخر، كان لايزال حريصًا على التغطية عليهم حتى فى الوقت الذى نشر فيه مذكراته * نلاحظ أن ثلاثة قد اشتركوا فى إطلاق النار، وربما لم تكن الطلقات التى أطلقها عبد الحميد عنايت كافية لتنفيذ المهمة؛ لأنه كما أشار شقيقه صاحب المذكرات لم يكن من الذين يتولون إطلاق الرصاص فى المرات السابقة * يعترف فى سعادة بالغة بأن مجموعته أحست بأن النجاح الذى أحرزته كان أكثر مما توقعته، وهو يعترف بأن الظروف ساعدتهم، ويعبر عن هذا المعنى بأن يقول إنها كانت فى خدمتهم، وهو يشير أيضًا إلى عجز أجهزة الإدارة والبوليس عن ملاحقتهم وإدراك سرهم * النجاح المتوالى دفع بعض أفراد المجموعة، وهذا أمر طبيعى، إلى أن يقوموا ببعض الحوادث غير المخططة التى هيأت لهم المصادفة النجاح فيها * ما يرويه عبد الفتاح عنايت عن محاولة خامسة ناجحة قام بها اثنان من مجموعته الفدائية، لم يكن هو ولا شقيقه عبد الحميد منهما * لا يجد حرجًا فى أن يقص تفاصيل المحاولة الفدائية التى فشلت فى قتل المستر براون، محاولاً على طريقته حصر الأخطاء التى قادت إلى فشل المحاولة * لك أن تتأمل فى هذا القرار بالإعدام، وكيف يصدر هكذا فى مثل هذه الجمعيات الوطنية السرية * انظر إلى صياغته لما استقر عليه الرأى ووصفه له بإصدار القرار بالإعدام دون أن يفكر فى أن يعدل الوصف إلى «التفكير فى اغتيال» أو «التفكير فى الخلاص منه»!! * لاشك فى أن مثل هذا الإصرار واليقين، مهما يكن حظه من افتقار مقومات

العدالة، كان بمثابة عامل من عوامل النجاح فى مثل هذه العمليات الفدائية * يبدو أن الحظ الذى حالف هذه الخلية فى الحوادث الخمس الأولى قد بدأ يتخلى بعض الشىء عنهم منذ العملية السادسة، ذلك أن وصفه لمجريات الأمور فى العملية السابعة ينبئنا عن فشل المحاولة التى قاموا بها لقتل مهندس العنابر * نكرر لفت النظر إلى ما توحى به تعبيرات القرار، والإعدام، والدقائق القليلة، لكننا لحسن الحظ نجد هنا ما يمكن وصفه بأنه كان محاولة جادة من المجموعة لإنذار المخطئ قبل توقيع العقاب عليه * نرى أن التهديد المقترن باستعمال القوة كان كفيلاً بأن يحقق ما لم يحققه التهديد الأول، بل إنه على ما يروى صاحب المذكرات كان كفيلاً بأن يترك أثرًا فى الآخرين أيضًا * يعود الحظ ليحالفه فيما كانوا يقومون به من أجل زعزعة الوجود البريطانى فى مصر * المحاولة الناجحة لقتل وكيل كلية الحقوق روبنسون * كانوا يمارسون عملهم ونشاطهم العادى حتى فى الأيام التى يقومون فيها بعمليات الاغتيال، ومن المدهش أننا نراه وهو يروى أنه كان يحضر فى الجامعة درس الأستاذ الذى كان مقررًا أن يقوم باغتياله فى اليوم نفسه * يتحدث عن محاولات إلقاء القنابل * الحادث الذروة فى مسار نشاطه هو ومجموعته الفدائية: حادث مقتل السردار الذى كان أحد النقاط الحاسمة فى التاريخ المصرى الحديث * نقرأ فى مذكرات عنايت ما يصور به ملامح الدور الذى قدر له أن يقوم به فى هذه العملية الجبارة، ومن الجدير بالذكر هنا أن رواية عبد الفتاح عنايت لا تقدم التفصيلات التى قدمها عبد العزيز على عن قصة التاكسى الذى أقل القائمين بهذه المحاولة، وعن أن رقم هذا التاكسى قد عرف، وأن صاحبه قد قبض عليه وألقى فى المعتقل وعرض عليه الكثيرون من المشتبه فيهم فأصر على أنه لا يعرف منهم أحدًا، وأنه بقى فى المعتقل حتى توفى * ما يرويه عن معقبات حادث السردار أن نتأمل ما يروى به ذكرياته وانطباعاته عن حادث اغتيال قطبى الأحرار الدستوريين زهدى وعبد الرازق، وما تركه هذا الحادث فى نفسيته ووجدانه على المدى البعيد * المذكرات تقدم اعترافات تفصيلية بمسئولية خلية عبد الفتاح عنايت نفسه عن قتل إسماعيل زهدى بك وحسن باشا عبد الرازق، وتشير إلى أن الهدف كان هو قتل عدلى يكن وحسين رشدى اللذين كانا على رأس مجموعة الأحرار الدستوريين التى انشقت عن إجماع الأمة على سعد زغلول والوفد، وكان أمثال عبد الفتاح عنايت من الوطنيين يرون ضرورة تأديب أمثال هؤلاء الساسة أو الزعماء وإعادتهم إلى الإجماع الوطنى حتى لا تنشأ فجوة تمكن المستعمر الإنجليزى من النفاذ منها لضرب الحركة الوطنية * يقدم وصفًا تفصيليًا للحادث الذى استقبل فى بعض أوساط الأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت على أنه من تدبير الوفد، بينما كان الوفد منه بريئًا * نرى فيما يرويه عنايت حرصه النبيل على أن ينسب الخطأ فى العملية إلى شخصه هو بالذات، فهو الذى تحرك بالدراجة فبدأت العملية، وهو حريص على أن يقول إنه تحرك بالدراجة لتمييز أشخاص الرجلين، لكن أمر الله كان لابد أن ينفذ!! * يردف هذه الفقرة بفقرة أخرى يؤكد فيها على أنهم لم يكونوا يقصدون قتل هذين الرجلين، ولم يكن لهذين الرجلين حساب فى خططهما * يشير من بعيد إلى ما ألمحنا إليه من أن بعض أوساط الأحرار الدستوريين ظنت الوفد مسئولاً عن هذا الحادث، وهو الظن الذى كان كفيلاً ببدء سلسلة من حوادث الثأر، بيد أن

الحكمة سرعان ما تغلبت على الأحرار الدستوريين * الآثار التى نتجت عن اغتيال حسن عبد الرازق وزهدى * يصور الأمور على نحو ما حدثت فى ذلك الحين قبل أن يسود صوت الحكمة على الجانبين: فى أوساط الضحايا، وفى أوساط عنايت وإخوانه من أعضاء الجمعية المسئولة عن اغتيال الرجلين * فقرة خطابية تعبر عما كان يغمر عبد الفتاح عنايت وإخوانه من حماس لنجاح الحادث فى تهديد الانشقاقات(!!!) * يستطرد إلى ما توصل إليه هو وزملاؤه من ضرورة قصر رصاصهم على أعداء الوطن لا على أبنائه * يبدو أن هذه العقيدة قد استقرت فى نفسه من ذلك الحين، حتى إننا نراه يبدى أسفه لمقتل الساسة الوطنيين الذين فقدوا أرواحهم عن طريق الاغتيال بعدما خرج هو من السجن فى ١٩٤٤م، ومن الجدير بالملاحظة أنه فى أساه وأسفه لا يفرق بين مَنْ صوروا زعماء وطنيين وبين مَنْ صوروا عملاء أو أصدقاء للاستعمار، وبين مَنْ صور مسئولاً عن دائرة الإرهاب! * نعود إلى أحداث عام ١٩٢٤م حيث نجده وهو يراجع نفسه ويبدى أسفه للنتائج السلبية لمقتل السردار، وهو فى تعبيره عن مشاعره فى تلك الفترة يحاول أن يوفق بين المشاعر العاجلة التى أحدثها النجاح فى العملية، والمشاعر التالية التى أدركت حقيقة خطورة النتائج * يعبر أيضًا عما أدركه طوال فترة سجنه من حقائق الصراع والتاريخ * يوازن بين النتائج التى كانوا يتوقعونها، والنتائج الفعلية التى جاءت على عكس ما كانوا يتوقعون * يلخص بطريقته الخطة التى تمكن نجيب الهلباوى بها أن يوقعهم فى أيدى البوليس السياسى، وبوسع القارئ أن يستعرض ما لخص به عبد العزيز على الوقائع التى يتحدث عنها عبد الفتاح عنايت حيث يتميز عرضه بقدر أكبر من التفصيلات، ومع هذا فإن عرض عبد الفتاح عنايت يصور الأمر من وجهة نظر واحد من الضحايا المباشرين للحادث * على سبيل المثال فإن عبد الفتاح عنايت يفصل القول فى مسألة توريط محمود إسماعيل فى مقابلة وزير الداخلية وتصويرها للصحف على أنها كانت من أجل الاعتراف بينما لم تكن كذلك، وهو أمر لم يتناوله عبد العزيز على فى روايته * ينبئنا أن الغرض من هذا الخبر الكاذب الذى أذيع لم يكن الرأى العام فى المقام الأول، وإنما كان الغرض هو خداع عبد الفتاح عنايت نفسه وشقيقه على يد صديق لم يدخل الشك فيه قلبيهما بينما كان هو نفسه الذى دبر هذا التدبير حتى يدفعهما إلى الخوف على نحو ما دفعهما، وحتى يورطهما فى الهروب المهيئ للقبض عليهما متلبسين وبحوزتهما الأسلحة على نحو ما ورطهما * يروى تفاصيل مريرة عن الخطوات التى سارها مع الهلباوى فى سبيل توريط نفسه وشقيقه وزملائهم فى الاعتراف بقتل السردار دون أن يدرى أنه كان يرسم حتف زملائه بهذا الجزء المبكر الذى أبداه * من تصاريف القدر أن يفكر الشقيقان فى الحصول على السلاح لتأمين الهروب، فيكون هذا التفكير سببًا فى توريط محمود راشد وفى زيادة توريطهما * من تصاريف القدر أن يترك الشقيقان فرصة لهذا الخائن الهلباوى كى يرتب أوضاعه مع البوليس السياسى، ويشاء القدر أن يريهما بعض دلائل الشك حين يتركهما الرجل ساعات ويعود بعدها ليحدثهما عن لقاء مع الأمير عمر طوسون، وعما أسفرت عنه مشاورته(!!) بينما كان الهلباوى يستغل هذا الوقت فى تدبير أموره وحبك المؤامرة مع البوليس السياسى * يتكرر غياب الهلباوى عن الشقيقين دون أن يجعلهما هذا الغياب يشكان فى

أمره، وهو المفترض أن يهرب معهما إلى حيث يهربان، أو على الأقل، وهو المفترض، أن ينهى مسألة تهريبهما بأسرع ما يمكن، ويظل هذان الأخوان فى غفلتهما حتى يرى عبد الفتاح عنايت بعينى رأسه رئيس المباحث السرية وهو يسير وراء الهلباوى ويرى الهلباوى يبتعد عنه، ومع هذا فإنهما يظلان على حسن النية الذى دفعهما إلى الهلاك * عنايت يرجع السبب فى اعترافه إلى أنه اعتمد على علمه بالقانون، وأنه طاف بمخيلته أن الاعتراف ربما يضمن تخفيف العقوبة فآثر الاعتراف، ومع أن هذا السبب الذى يذكره عبد الفتاح عنايت يبدو مقبولاً منطقيًا على الرغم من ضعفه وجدانيًا، فإننا لا نستطيع أن نحكم على نفسية رجل فوجئ بالخيانة من شريكه فى الهرب، وبخاصة لما كان يعلمه من خبرة هذا الشريك السابقة بالعمل السرى من ناحية، وبالسجن والتحقيق والاتهام من ناحية أخرى * يعترف اعترافًا مستترًا بأنه كان سبب نيران الفتنة التى استقرت بين هؤلاء الشركاء الذين كانوا فيما يبدو لا يزالون مصرين على الإنكار * يعود فى فقرة أخرى ليكرر ما يراه سبب اعترافه * يعترف فى مذكراته بأن عمال العنابر الثلاثة وهم: إبراهيم موسى، وراغب حسن، وعلى إبراهيم لم يعترفوا مطلقًا وظلوا على إنكارهم حتى النهاية * يشير إلى أن محمود إسماعيل أنكر الاعترافات التى أدلى بها فى البداية، وهو يلخص بطريقته ما يصور به اعترافات الهلباوى أمام المحكمة * من العجيب أننا نراه يشير إلى أن الهلباوى استدرج محمود إسماعيل فى أثناء احتسائه بعض الخمر، مع أننا نعرف أن شروط هذه الجمعية ألا يكون أعضاؤها ممن يشربون الخمر، وأن شربهم الخمر كان كفيلاً ببترهم من الجمعية!! * يشير إلى أن الهلباوى كان ماهرًا فى إجابته لأسئلة الدفاع أمام المحاكمة * من الجدير بالذكر أن الحكم عليهم بالإعدام صدر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥م فى الساعة العاشرة صباحًا، ومن الجدير بالذكر أن محكمة النقض والإبرام أيدت حكم الإعدام * يستحضر من ذاكرته نصيحة كان أحد أصدقائه وهو فهمى غنيم قد قدمها له بما يدل على أنه كان واعيًا لما يمكن أن يحدث، حتى بفضل نصح الأصدقاء، وهو ما جعله يبدأ فى الانهيار ثم الاعتراف عندما علم باعتراف محمود إسماعيل * ما يحرص على أن يشير إليه من أن الزعيم محمد فريد نفسه كان حريصًا على أن يسهم بجهده فى تشجيعه للفدائيين وتمويله لهم * يذكر بكل وضوح أن محمود مظهر الذى حاول اغتيال الخديوى عباس حلمى كان من أتباع الجهاز السرى الذى كان الزعيم محمد فريد نفسه(!!) يقوده * حريص على أن يمتد بنشاط (أو جذور) المنظمة الفدائية التى انتمى إليها إلى عام ١٩١٠م أو ما قبله * يروى تفصيلات شبه دقيقة عن نشأة جماعتهم الفدائية، وهى تفصيلات موحية نفهم منها أنه كانت له ولشقيقه عبد الحميد اليد الطولى (أو الأولى على الأقل) فى إنشاء هذه الحركة * نرى من نصوصه فى هذه المذكرات أن الوطنية كانت وحدها كفيلة بأن تقود هؤلاء فى سرعة بالغة إلى إنشاء حركة فدائية أو حزب فدائى دون أن تنشب مناقشات أو مجادلات أو صراعات بين وجهات النظر * فى روايته يصل بسرعة إلى وصف هذه الحركة التى اتفقوا على تأسيسها فيقول إنها كانت «حزبًا فدائيًا» * يصف شكل تنظيمهم دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى النموذج السابق عليهم الذى اهتدوا به فى اختيار هذا التنظيم، ومن الواضح أن شكل الحلقات الخماسية لم يكن من ابتداعهم، كما أننا نرى أن هذه

الحلقات لم تتعد عددًا قليلاً قام بالاغتيالات على نحو يتسم بالكفاءة والمقدرة * يشير إلى التطور الذى أصاب جماعتهم بعد لقائهم بشفيق منصور الذى عرفهم بالتالى على محمود إسماعيل ويسر لهم الحصول على السلاح * نراه بعد عشرين صفحة من هذا الموضع يعود، فى رواية أخرى أو فى سرد آخر لمذكراته، إلى منشأ علاقتهم بشفيق منصور فيرويها على نحو لا يختلف كثيرًا عن الرواية السابقة * يشير إلى أن المنظمة الفدائية التى تكونت على يده ويد شقيقه سرعان ما تطورت وتغير أعضاؤها، ونحن نلاحظ حرصه على عدم ذكر العضو الرابع فى مجموعتهم الأولى، وهو العضو الذى رشحه زميلهم محمود عثمان * يلخص بعبارات تبدو دقيقة وربما بالغة الدقة الطريقة التى تم بها تقسيم العمل الفدائى على أفراد هذه المجموعة، ونحن نكاد نفهم من قراءة هذا التقسيم أن هذه المجموعة كانت هى كل التنظيم تقريبًا، فليس هناك من الوظائف الظاهرة ما يقتضى وجود أشخاص آخرين يعاونون هؤلاء فى مهمتهم التى وزعت عليهم بدقة شديدة * من الجدير بالتأمل والدراسة أن نعود خطوات إلى الماضى الأبعد، وأن نقرأ ما يرويه هذا الثائر القديم عن بذور التمرد التى صادفها هو نفسه مبكرًا حين واجه واقعة ضربه بالكرباج فى وزارة المعارف وهو لا يزال طالبًا فى المرحلة الثانوية * يتضح من سطور هذه المذكرات أن صاحبها على الرغم من كل ما عاناه لا يزال مصرًا على عقيدته فى أهمية الكفاح المسلح فى تحرير الوطن * فى مواضع كثيرة من كتابه يستحضر من ذاكرته بعض ما شهده من صور تدل بوضوح على مدى القسوة واللاإنسانية فى إذلال البريطانيين للمصريين * يحدثنا عن صورة أخرى من صور الإذلال والتعسف * من الجدير بالذكر أن نشير إلى أنه افتتح كتابه بمشهد يصور مدى حنق والده مهندس الرى على الإنجليز بسبب تصرفاتهم المذلة للمصريين * يحرص فى مذكراته على الاستطراد إلى الحديث عن موقف الضباط المصريين من غطرسة البريطانيين، وهو يوازن بين طرازين من المواقف الوطنية وغير الوطنية * المذكرات مع تركيزها على العمليات الفدائية ومقدماتها ومعقباتها، لا تخلو من لمحات روحانية، ومن طرائف هذه المذكرات أن نرى صاحبها مؤمنًا بالبركة التى تحول بين صاحبها وبين أن يناله أذى نتيجة مشاركته فى الأعمال الفدائية، ونحن نرى هذا المعنى واضحًا حين نقرأ له ما يثنى به ثناءً خاصًا على الحاج محمد قطب زعيم العمال * يضرب مثلاً على القدرات الخارقة للحاج محمد قطب حين أملى دروس القوة بقوة القنابل الفاتكة بأرواح الجنود البريطانيين وهزأ بها من تغطرس الإنجليز الذين حاصروا منطقة روض الفرج وفرضوا حصارًا عسكريًا محكمًا، وغرامات على أهل ذلك الحى * حديث عنايت عن تجربته فى السجن الطويل، وهى التجربة المريرة فى حياة هذا الفدائى العظيم الذى قضى فى السجن فترة تفوق أى فترة أخرى قضاها أى وطنى آخر * نلاحظ أن ذكرياته عن السجن تبدو جامعة بين أوراق كتبها فى زمن الأربعينيات وما قبله، وأوراق أخرى كتبها فى حدود الستينيات، ومع هذا فإن القارئ لمذكرات هذا الرجل يستطيع أن يدرك بوضوح ما يقصده عبد الفتاح عنايت مما سجله فى هذه المذكرات أيًا كان تاريخ هذه المذكرات * نراه يلخص رأيه فى محنة السجن بطريقة إيجابية تميل إلى الوعظ. ، مشيرًا إلى فضل السجن فى تقوية شخصية الإنسان وتوطيد النفوس والهمم، وخلق عناصر الرجولة، لكنه مع كل هذا لا يخفى معاناته

من الآثار الصحية السيئة التي يخلفها السجن في نفوس المعاقبين به * يحاول أن يستدعى ذكرياته عن أول أيامه فى السجن فلا يستحضر من هذه الذكريات إلا رفضه الشديد للعمل فى فرقة الجمالة بما كان يراه فى العمل من إذلال بالغ لإنسانيته * نراه شبه ممتن للمعاملة الخاصة التى عومل بها فى السجن من بعض الوطنيين الذين قدروا جهاده وتضحيته * يروى قصة إصابته بالحمى المالطية ونجاته من الموت بهذه الإصابة، على الرغم من أن الموت حصد أرواح رفاق السجن الستة الذين كانوا مصابين بهذه الحمى * يسترجع مشاعره فى تلك اللحظة حريصًا على أن يبدو مفعمًا بالأمل * يقص علينا قصة أزمة القلب التى حاقت به فى ليلة من ليالى السجن، ومن العجيب أننا نراه يتأثر بهذه الأزمة حتى يصل إلى الاعتقاد فى أنه فقد الحياة ثم عاد إليها عندما أحس بتوقف قلبه، لكنه فى هذه الفترة القصيرة التى توقف فيها قلبه رأى كثيرًا من مستقبله وهو يمر أمامه كشريط سينمائى منبئ عن المستقبل * يصف لحظة الموت وصفًا لا يمكن لأحد منا أن يتحقق منه، بيد أن وصفه يتطابق مع الوصف الذى يصوره الذين مروا بمثل تجربته، وهو وصف جامع لمزيج من المنطق والإحساس والتهيؤات الذهنية * يذكر أنه بعد أن مرّ بتجربة الموت حرص على أن يبدأ فى تعلم الألمانية اهتداء بما رآه فى لحظة مفارقته الحياة من أنه سيتعلم لغة لم يكن له عهد بها * ويبدو أن ما دفعه إلى اختيار الألمانية كان وجود شقيقه عبد الخالق فى النمسا لدراسة الطب، وقد ذكرنا من قبل أنه كان حريصًا على ألا يشير إلى علاقة هذا الشقيق بالحركة الوطنية مع أننا، كما ذكرنا من قبل، نجد فى نصوص عبد العزيز على ما يفيد بأن هذا الشقيق كان له (مثل أشقائه الثلاثة محمود وعبد الحميد وعبد الفتاح) دور فى الحركة الوطنية، حتى إن السلطات الأمنية احتجزته فى مصر طيلة وجود الملك فؤاد فى جولة فى أوروبا خوفًا على الملك فؤاد * نأتى إلى نقطة تحول مهمة فى حياة هذا الفدائى، وهى نجاحه فى إتمام دراسته للحقوق بينما كان فى السجن * يشير إلى فضل الدكتور محجوب ثابت فى دفعه إلى أداء امتحان لسيانس الحقوق وهو فى السجن، ونحن نعرف من مذكرات أخرى كمذكرات الدكتور محمود كامل (التى تناولناها فى كتابنا: «فى رحاب العدالة») أن طلاب الحقوق كانوا يزورون السجون، وأنهم كانوا فى زيارتهم يمرون بعبد الفتاح عنايت، وها هو عنايت نفسه يدلنا على أن هذا المرور كان بسبب حرص الدكتور محجوب ثابت على زيارته، وأن إحدى هذه الزيارات كانت سببًا فى اقتراح الدكتور محجوب ثابت عليه أن يجتاز امتحان الليسانس، وذلك لما رآه من شغله نفسه بالعلم حتى إنه تعلم اللغة الألمانية * نرى بعض مظاهر المعاملة الحسنة التى عامله بها المسئولون عن السجون لما علموا بنيته التقدم للامتحان، حتى إنهم نقلوه إلى سجن مصر ليكون قريبًا من الجامعة، ونقلوه إلى حجرة بها سرير وكرسى كما أن مدير السجن أهداه ساعة وريشتين * لهذا السبب ولغيره من الأسباب لا نجد عجبًا فى أن يأتى الدكتور محجوب ثابت فى مقدمة الشخصيات التى تثنى هذه المذكرات عليها، وهو لا يشيد بأخلاقه ونبله فحسب، لكنه يشيد بوعيه وفهمه لما ينبغى على النخبة عمله من أجل النهوض بروح الشعب فى طريق الاستقلال والتقدم * يحرص على أن يروى تأثره بتولستوى وأفكاره فى الفترة التى قضاها فى السجن، ومع أننا نرى فى مثل هذا التفكير نوعًا من الزهد الاضطرارى، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن

مثل هذا التوجه ينم عن رغبة فى التسامى لا يتمكن منها إلا الذين رضوا بقضاء الله وقدره، وبدءوا يتأملون فيما مضى من حياتهم وما بقى منها * المذكرات التى نشرها عبد الفتاح عنايت تنفرد بتقديم قليل من الملاحق التى كتبها زملاؤه فى الكفاح الوطنى، ومن هذه النصوص نص مهم لعبد الحميد الشواربى يتحدث فيه عن واقعة ذهابه على رأس مجموعة من زملائه لدفع الأمير محمد على توفيق إلى مؤازرة الحركة الوطنية ببيان مكتوب نشرته جريدة «الأخبار» لصاحبها أمين الرافعى، ومع أن البريطانيين أنذروا الأمير لسحب هذا البيان وإنكار توقيعه عليه، فإن أمين الرافعى رد على الأمير محمد على توفيق بأنه وقع على البيان الذى كتب بخط سكرتيره .

* * *

ملخص الباب الثالث

مذكرات شيخ الفدائيين.. أحمد رمضان زيان

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * يشير صبرى أبو المجد إلى أنه تعرف على الحاج أحمد رمضان زيان عندما تم القبض عليهما فى قضية مقتل أحمد ماهر سنة ١٩٤٥م، وتوطدت الصلات بينهما، وعقب الإفراج عنهما أتيح لأبو المجد أن يعرف الكثير من الجوانب المهمة فى شخصيته المصرية الأصيلة * صبرى أبو المجد يصور مكانة أحمد رمضان زيان فى جيله فى قصة صحفية طريفة تصور المفارقة بطريقة بسيطة فنيًا!! * صبرى أبو المجد يشير إلى ملاحقته لأحمد رمضان زيان من أجل نشر مذكراته، وإلى أن الرجل نفسه كان معنيًا بتسجيل المذكرات، وأنه عانى من أجل هذا التسجيل الذى كان حريصًا على أن يكون أمينًا فيه، وهو يقدم وصفًا صادقًا للمعاناة التى يحسها مَنْ يحرصون على صدق ما يكتبون * يلخص أحمد رمضان زيان تاريخ حياته المبكرة، مشيرًا بدقة أبناء الثمانين إلى ما يرونه سببًا فى تكوينهم الوطنى المبكر * يشير إلى الطقوس التى صاحبت انضمامه للعمل السرى، ويدهشنا أن نرى أن هذه الجمعية كانت موجودة منذ ١٩٠٤م، أى قبل التاريخ الذى يعتقده كلٌ من عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت بسنوات، فهذا هو أحمد رمضان زيان ينضم فى ١٩٠٤م، ونفهم من كلامه أن الجمعية السرية كانت مكونة قبل هذا التاريخ(!!) * يحدثنا بالأسماء الكاملة للخلية الخماسية التى كان هو عضوًا فيها، ونرى أسماء ظلت على ولائها للعمل الوطنى وللتنظيمات السرية، وأسهمت فى هذا المجال بجهد وافر مشكور * يشير إلى أن هذه الخلية (أو اللجنة على حد تعبيره) كانت الخلية الرئيسية بالإسكندرية، وأن قيادة التنظيم كانت فى القاهرة، كما يشير إلى أنهم بدءوا يشددون فى الإجراءات النفسية المصاحبة لعملية أخذ البيعة وانضمام الأعضاء الجدد إلى التنظيم * ينفرد أحمد رمضان زيان بالإشارة إلى أنه تمكن من ضم محمود فهمى النقراشى المدرس بمدرسة رأس التين الثانوية فى عام ١٩١٠، وأنه قد أصبح عضوًا فى لجنة عبد الله حسن عوض * زيان يقدم قائمة ببعض أعضاء هذا التنظيم السرى، وبوظائفهم التى كانوا يشغلونها حين الانضمام إلى هذا التنظيم، ويدهشنا أن نرى المستويات الفكرية والمهنية المتميزة لهؤلاء الأعضاء الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم من أجل هذا الوطن * يشير إلى حقيقة تاريخية مهمة تتعلق بنهاية هذا التنظيم السرى، وهو يبدو حريصًا على ذكر رأيين كانا فى حقيقة الأمر مكملين لبعضهما فى كشف سر هذا التنظيم

الذى لم يكن ليعيش بعد أن وصل واحد من أعضائه إلى السلطة!! * ينفرد بالإشارة إلى أن حادث مقتل بطرس غالى لم يكن يستهدفه بمفرده، وإنما كان يستهدف قتل الزعيم الوطنى الكبير سعد زغلول معه، فقد كان سعد فى ذلك الوقت قد تولى تأييد المقترح الذى تبناه بطرس غالى بمد امتياز قناة السويس فى البرلمان * زيان ينفرد فى هذه المذكرات بأن يشير بكل صراحة إلى أن آخرين كانوا مكلفين باغتيال سعد زغلول لكنهم لم ينجحوا فى مهمتهم، ولست أدرى السبب الذى منعه من رواية تفصيلات تلك المحاولة المهمة * يشير بكل وضوح إلى السبب الحقيقى الذى جعل الحكومة تصل إلى اتهام ثمانية آخرين مع الوردانى بعد أن قبضت عليهم جميعًا، ويتمثل هذا السبب فى قائمة وجدت فى أوراق أحد هؤلاء الثمانية، لكننا مع هذا لا نجد فى نصوصه ما يدلنا على السبب الذى جعل الحكومة تصل إلى اتهام على مراد بالذات، ومن ثم تفتيشه والعثور على هذه القائمة * نرى ذاكرته تحتفظ بقرينة صدور الأحكام يوم المولد النبوى، وهو السبب الذى جعل على الغاياتى فى شعره التلقائى يبدأ قصيدته بقوله: «عيد النبوة أم عيد البراءات»، وينبغى لنا هنا أن نذكر القارئ بما نقلناه عن مذكرات الدكتور محمود كامل فى كتابنا «فى رحاب العدالة» من أن آخرين كان من بينهم الدكتور حافظ عفيفى نفسه، كانوا قد حقق معهم فى قضية مقتل بطرس غالى * يقدم عرضًا موجزًا لجهده الوطنى فى مساعدة الطرابلسيين فى أثناء حربهم المشهورة، وهو يشير إلى بعض التفصيلات المهمة التى تدلنا على أن جهوده امتدت لتشمل تهريب الأسلحة والطعام والضباط والمتطوعين، كما شملت جمع الأموال، ويظهر من روايته المدى الذى وصلت إليه الروح الوطنية المتأججة لدى ضباط البوليس المصريين فى ذلك الحين، وهى روح كانت منتشرة أيضًا بين ضباط خفر السواحل * يروى تفصيلات تهريبه لعبد الرحمن عزام متعجبًا من أن ينسب عبد الرحمن عزام [فى مذكراته المنشورة] الفضل فى تهريبه إلى أعرابى، ونحن نلتمس لعزام العذر؛ لأن عبد الله بك شوشان نفسه كان زعيم قبيلة، وهو ما قد يجعل عزام يتذكره على أنه أعرابى * يلفت نظرنا أن نرى زيان حريصًا على أن يروى ما انتابه من شك فى قدرات عبد الرحمن عزام البدنية نظرًا لنحافته الشديدة * يروى فى هذه المذكرات دورًا بطوليًا مغامرًا قام به الضابط محمد فؤاد عثمان ملاحظ نقطة بوليس البحيرة [وهو الذى أصبح فيما بعد مديرًا لمديرية الدقهلية حسب رواية المذكرات] من أجل حماية ضابط جيش مصرى (هو أبو زيد مقلد) كان قد انضم للقوات المحاربة فى طرابلس، وهو دور مركب، إذ قام هذا الضابط (محمد فؤاد عثمان) باعتقال الضابط الإنجليزى الذى أوفد للقبض على الضابط المصرى وعامله على أنه جاسوس وأبلغ السلطات بهذا المعنى، حتى إن محمد محمود مدير البحيرة صور الأمر على هذا النحو فى تعامله مع البريطانيين، وفى خطوة تالية قبض محمد فؤاد عثمان على الضابط المصرى وأودعه السجن بنفسه، فلما جاء المفتش الإنجليزى ومسح المنطقة بنفسه وفشل فى اعتقال ذلك الضابط المصرى، اتصل فؤاد عثمان بأحمد رمضان زيان لتهريب الضابط المصرى، وتحمل هو الاعتقال فى سجن الحضرة، لكن اعتقاله تحول إلى تكريم بسبب انتماء مأمور ذلك السجن (وهو إبراهيم صفوت) لحركة الفدائيين * ما تقدمه هذه المذكرات من معلومات مهمة وخبرات خاصة عن عمليات الاغتيال التى قامت بها جمعية

التضامن الأخوى، وكان له دور فيها * ما ترويه المذكرات عن واقعة الاعتداء على السلطان حسين كامل * زيان يقدم هذه القصة بطريقة أكثر تفصيلاً مما يرويها أى مصدر آخر، بما فى ذلك مذكرات عبد العزيز على نفسه، ومن المهم أن نشير إلى أن زيان ينفرد بالإشارة إلى أن حسين رشدى رئيس النظار كان بصحبة السلطان حسين كامل عند محاولة الاغتيال، وأنه كان مستهدفًا هو الآخر من هذا الاغتيال، وهذه نقطة مهمة لم يركز عليها أحد بمثل ما ركز زيان فى هذه المذكرات * نتوقف هنا لنشير إلى أنه من الطريف أن عبد العزيز على يروى قصة استقبال مكماهون عند تعيينه بألفاظ أخرى يقول فيها إن سعدًا قال إنه رأى بشائر الخير فى وجه مكماهون * نأتى إلى ما يرويه عن السر فى اختيار البيت الذى ألقيت منه القنبلة التى استهدفت السلطان حسين، وعن التنبيهات التى لم يتمكن نجيب الهلباوى من الالتزام بها بالدقة اللازمة فى مثل هذه المحاولات * يقص علينا موقفًا فى غاية الطرافة، حيث كُلف بأن يشهد، على غير الحقيقة، بأن نجيب الهلباوى لم يكن وقت وقوع محاولة اغتيال السلطان حسين فى ذلك المنزل، وإنما كان يلعب الطاولة معه ومع ثالث، والطريف أن زيان الذى شهد بهذا لم يكن يعرف شكل نجيب الهلباوى، وقد جعله هذا الجهل بشخصية الهلباوى لا يتعرف عليه للوهلة الأولى حين عرض عليه على نحو ما يعرض المتهمون، وقد انتبه المحقق لهذه الملاحظة، وتناولتها المحكمة فيما بعد * قصة الفتاة المصرية الشجاعة التى رفضت التعرف على نجيب الهلباوى على الرغم من معرفتها الأكيدة بتورطه فى الحادث، ويروى صاحب هذه المذكرات قصة ذهابه لمكافأة هذه الفتاة والحوار الذى دار بينهما، وما ذكرته له من أنها فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله، وأنها لا تنتظر الترضية إلا من الله سبحانه وتعالى، ونحن نرى رمضان زيان حريصًا على الإشادة بهذه الفتاة وبسلوكها وبإيمانها * يلخص الجهود التى بذلها البوليس من أجل الإيقاع بالشاب الذى استأجر البيت الذى ألقيت منه القنبلة على السلطان حسين كامل * يدلنا على أن السلطان حسين نفسه كان منتبهًا إلى احتمال وجود تنظيم يتولى تدبير هذه الاغتيالات، وإلى أن القضية ليست قضية فرد * يروى بعض التفصيلات المتعلقة بالمحاكمة التى أجريت للمتهمين فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين * ينفرد بالإشارة إلى موقف محمد شمس الدين فى المحاكمة وفيما قبلها، حيث تعرض لتهديد رئيس الوزراء نفسه فى لقاء خاص، ومع أن مثل هذه الواقعة تبدو متجاوزة لحدود المنطق فإننا لا نرى داعيًا ملحًا لاختلاقها من قبل صاحب المذكرات * تنفرد هذه المذكرات بالإشارة إلى الآلية التى تم بها تخفيف الحكم من الإعدام إلى الأشغال الشاقة، ومن المدهش أن نقرأ أن السلطان حسين نفسه سجل فى رسالة رسمية إلى رئيس وزرائه أنه ليس فى يده أن يخفف الحكم، لأن الحكم صادر عن محكمة عسكرية بريطانية لا يملك حاكم البلاد نفسه تخفيف أحكامها، وهو لهذا يطلب من رئيس وزرائه أن يتوسط لدى قائد القوات البريطانية من أجل تخفيف الحكم * ينفرد زيان بالإشارة إلى صلابة محمد نجيب الهلباوى وثقته فى الله عندما حكم عليه بالإعدام، وأنه ظل يضحك، وأن روحه كانت عالية، وأنه لم يستجب لضغوط البوليس من أجل الحصول منه على معلومات تفيد فى الكشف عن بقية أعضاء الجمعية * نأتى إلى ثانى الوقائع المهمة فى كفاحه، وهى تقديمه للمحكمة بسبب

القضية التى عرفت بقضية صناعة القنابل، وهو يضمن مذكراته قصة المأزق الذى وقعت فيه جمعية التضامن الأخوى نتيجة إفشاء واحد من العمال الأرمن لسر صناعة القنابل التى كان أحمد محمد عمر قد تولاها بمعاونة هؤلاء الأرمن * يشير إلى أن هذا الأرمنى قام بهذه الوشاية كرد فعل للمصادمات التى وقعت بين الوطنيين والأرمن * كان من الطبيعى أن يتم القبض عليه فورًا فى هذه القضية، لكنه يروى أنه تمكن بإحدى الحيل البارعة من أن ينجو من محاولة القبض الفورى عليه، وإن كان قد اضطر لتسليم نفسه بعد هذا * لجأ هو ومحاموه إلى كل الوسائل التى تمكنهم من الحصول على حكم مخفف من المحكمة البريطانية، وقد قادهم هذا إلى ما يرويه صاحب المذكرات نفسه من أنهم قاموا بضرب زميلهم الذى اعترف بالكرباج ومداواته حتى تظهر عليه آثار التعذيب، وهكذا تصور الاعترافات على أنها كانت وليدة التعذيب * حرص الجماعة على توكيل محام أجنبى يجيد الإنجليزية واستيعاب قوانينها، وذلك على الرغم من الأتعاب الباهظة جدًا التى تقاضاها هذا الرجل، ولا ننسى أن الوقائع حدثت فى بداية القرن العشرين، ومع هذا حصل المحامى على ثلاثمائة جنيه * نأتى إلى ثالث القضايا المهمة التى تلقى هذه المذكرات بالضوء عليها، وهى قضية اغتيال السردار سيرلى ستاك، وتتمثل فى روايته أهمية خاصة؛ لأن الهلباوى الذى كشف سر الجمعية الفدائية كان فى الأصل من خلية صاحب المذكرات، وقد بدأ نشاطه الفدائى فى الإسكندرية حيث كان يعمل مدرسًا فى الجمعية الخيرية الإسلامية على نحو ما أشار رمضان زيان نفسه * ربما يدعونا هذا إلى التأمل فى تردد الهلباوى فيما بعد خروجه من السجن على القاهرة وعدم رضاه بالاستقرار فى الإسكندرية بعد خروجه من المعتقل * نجده حريصًا على أن يسجل المفارقة المرتبطة بنجيب الهلباوى فيما بين محاولة اغتيال السلطان حسين، وحادثة اغتيال السردار فيقول إنه إذا كانت مؤامرة اغتيال السلطان حسين قد كشفت بسبب عقب سيجارة ألقاه نجيب الهلباوى، فإن مؤامرة اغتيال السير لى ستاك سردار الجيش المصرى قد كشفت بواسطة نجيب الهلباوى نفسه * يعود بذاكرته مشيرًا إلى السبب فى اختيار الهلباوى لاغتيال السلطان حسين * يروى بعضًا من المعاناة التى عاناها الهلباوى بعد خروجه من السجن * يتحدث عن محاولات أعضاء الجمعية فى الإسكندرية مساعدته فى الوقت الذى لم يكن شفيق منصور يسمح له حتى بمقابلته(!!) ولقائه والحديث إليه، وفى الوقت الذى تنكر له فيه النقراشى وأحمد ماهر مع قدرتهما على إلحاقه بأية وظيفة حكومية أو غير حكومية * من الجدير بالذكر أن هناك وجهة نظر أخرى أوردها إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته، حيث أشار إلى أن وزارة سعد زغلول كانت قد هيأت وظيفة للهلباوى * من الجدير بالذكر أن هناك وجهة نظر ثالثة أوردها الدكتور السيد باشا فى مذكراته حين أشار إلى أنه لاحظ أن الهلباوى كان يعيش فى مستوى أعلى مما هو متوقع وفسر هذا بالأموال التى كان يحصل عليها بسبب انضوائه المبكر للعمل مع أجهزة الأمن السياسى، وهو ما يتصور السيد باشا أنه حدث نتيجة اتفاق قبله الهلباوى فى أثناء قضائه فترة السجن * رمضان زيان يورد بعض التفصيلات الملتبسة عن دور الهلباوى فى الإيقاع بالخلية التى اغتالت السردار، ونحن نرى الهلباوى فيما يرويه زيان لا يكتفى فى مؤامرته بالضحايا، وإنما هو يشرك أصدقاءه فى الإسكندرية فى المؤامرة،

ومع هذا، فإنه لا يعترف عليهم فى اعترافاته التفصيلية، وهو يبرر هذا لمن سأله بأن إخوانه من جمعية الإسكندرية كانوا يبرونه، على حين كان أعضاء الجمعية بالقاهرة يتجاهلونه(!!) * نرى سلوك الهلباوى فى بداية مؤامرته لا يتناسب مع ما انتهت إليه المؤامرة، وهذا على كل حال هو شأن التآمر الطارئ الذى لا يخلو من التردد فى أثناء تآمره، وهو ما نذهب إليه، كما أننا نميل إلى قبول كثير من عناصر رواية الدكتور السيد باشا التى تتضمن إشارات واضحة إلى قوى أخرى أسهمت فى دفع عجلة الأمور إلى ما سارت إليه بالفعل * زيان يبدأ فى الحديث بطريقة المونولوج النفسى المعبر عن الحيرة، وهو يحاول أن يقدم الإجابة التقليدية التى مال إليها أعضاء الحزب الوطنى وأعضاء الجمعيات السرية دون أن يفكروا فى أبعاد أخرى للتآمر قد تكون خافية عليهم * يبلور فى فقرة مفيدة مدى الخسارة أو النكسة التى حاقت بالحركة الوطنية السرية نتيجة لاعترافات نجيب الهلباوى، مشيرًا إلى أن هذه كانت المرة الأولى منذ إنشاء الجمعية فى ١٩٠٦م التى عرفت فيها اسم الجمعية وبعض شخصياتها المهمة * أحمد رمضان زيان يحرص فى هذه المذكرات على الإشارة إلى النتائج السلبية التى ترتبت على اعترافات شفيق منصور الصحيحة والزائفة على حد سواء * فى إطار حديثه الآسف على المصير الذى انتهى إليه العمل السرى بسبب خيانة الهلباوى، نراه يشير إلى خطورة سياسة البوليس السرى الخفية التى استهدفت إغراء أعضاء الجمعية بمبلغ المكافأة الذى رصدته الحكومة، ومن الجدير بالإشارة إليه هنا ما يرويه الدكتور سيد باشا من أن هذا البوليس السرى كان يحاول تكرار التجربة فى القضية التالية التى سميت «قضية الاغتيالات السياسية» عارضًا أموالاً مضاعفة لما دفع من قبل فى قضية السردار * يشير إلى حقيقة موقف شفيق منصور من التخطيط لاغتيال السردار، وتأتى إشارته سريعة وعابرة لكنها واضحة فيما تدل عليه مما يتوافق مع ما أشار إليه عبد العزيز على فى مذكراته من أن شفيق منصور لم يكن له دور فى مقتل السردار، ولم يكن موافقًا على العملية، كما أن ما يرويه أحمد رمضان زيان لا يتعارض تمامًا مع ما رواه الدكتور السيد باشا من تفسير لسير الأمور فى عملية اغتيال السردار وموقف شفيق منصور من العملية * نأتى إلى قضية رابعة حشد لها البوليس السرى كل إمكاناته فى أعقاب الكشف عن حقيقة مقتل السردار، وتتعلق هذه القضية بأعضاء التنظيمات الوطنية السرية المختلفة وعلاقتهم بالاغتيالات السياسية * ينفرد برواية قصة مثيرة عن اهتمام السلطات باقتفاء أثر الضابط مصطفى حمدى الذى كان قد قتل وهو يدرب أعضاء الجمعية، وإلى البحث عن الفدائى الذى بعث إلى أسرته بمبلغ مائتى جنيه بحوالة بريدية، ومن المذهل أن نعرف من هذه المذكرات أن هذا (الفدائى) كان هو سليمان حافظ نفسه * نأتى إلى الانفراد الذى يصور الدور الحاسم الذى لعبه خبير الخطوط على سعودى فى إبعاد الشبهة عن سليمان حافظ، ومن المدهش أن ينسب زيان السبب فى اتخاذ خبير الخطوط لهذا الموقف إلى رؤيا رآها فى المنام وتكررت على مدى يومين، وهو يشير إلى أن القصة التى سمعها تبدو خيالية، لكنه سمعها بنفسه من صاحب الشأن وهو الخبير على سعودى فى حضور سليمان حافظ نفسه * ما يرويه فى فقرات مبكرة من مذكراته من أنه كان على صلة بالضابط مصطفى حمدى حين كان ذلك الرجل لايزال ملاحظًا لنقطة أبو جنزير فى الفيوم، وأنه كان يتردد

عليه، وأنه كان يبرر هذا التردد ويغطيه بتجارة يقوم بها ويزعم أنه سيتزوج أخت مصطفى حمدى، لكن البوليس قبض عليه فى الإسكندرية وأودعه فى قسم محرم بك، ثم رحله إلى الفيوم ووجه إليه التهم هناك بناء على ما حدث من وقوع زكى شكرى فى يد البوليس * يشير بكل ارتياح إلى السبب الذى ساعده على أن ينال الإفراج السريع، وهو أن ضباط البوليس أنفسهم ومساعديهم كانوا يقدمون له ولزملائه معلومات قيمة وخطيرة مكنتهم من الخلاص من الاتهامات * يقدم تفصيلات مثيرة تنبئ عما كان أعضاء الجمعية يتميزون به من ذكاء مفرط استغلوه فى حماية أرواحهم من محاولات البوليس المكثفة والمستمرة للإيقاع بهم * يروى قصة الموظف الإيطالى الذى ظل مجاورًا لهم فى كبائن الإبراهيمية يدخل كابينتهم ويدخلون كابينته لمدة طويلة، ويعاملهم معاملة الأصدقاء، بينما هو موظف فى البوليس السياسى * يروى أنهم كانوا يلجئون إلى السباحة بعيدًا عن الشاطئ حتى تتاح لهم فرصة الحديث المنفرد إلى بعضهم لنقل أخبار الشخصيات والإيقاعات والمؤامرات المحيطة بهم * فى مقابل ما يحدثنا عنه من الاعتزاز بالذكاء والدهاء والقدرة والمناورة، لا تخلو الحلقات المنشورة من مذكرات هذا الرجل من التعبير الحى والصادق عن المعاناة التى لقيها الوطنيون نتيجة تعسف السلطات فى معاملتهم: فقرة مؤلمة لكنها بليغة فى وصف طريقة إعداد طعام السجون * فقرة أخرى تبين عن تعسف ضابط السجن وقد حرص صاحب المذكرات على ذكر اسمه، كما أنه أخذ يعلق على تصرفه بما يستحق من تعقيب مستحق يعبر عن نفسية صاحب المذكرات السوية ورفضها للضيم وللعيب * يشير إلى أن روحهم الوطنية الأبية جعلتهم ينتصرون لأنفسهم وهم فى السجن، فقد أبلغوا عن مقتل أحد المساجين، واتخذت النيابة إجراءاتها وكشفت على الجثة، كما أن مأمورًا آخر كان يسىء معاملة المسجونين لقى على أيديهم العقاب الذى يستحقه، وكانت وسيلة لتحويله إلى إنسان يحسن معاملة المسجونين * ما يرويه أحمد رمضان زيان عن بعض المغامرات التى كان لها أثر سلبى على الحركة الوطنية السرية * قصة المغامرة غير المحسوبة التى كان من الممكن أن تؤدى إلى كشف بعض أسرار التنظيم السرى، ومن العجيب أن نرى البكباشى زكى شكرى يقع فى هذه الثقة المفرطة فى أحمد والى الجندى وفيمن دعاهم إلى تكوين جمعية لمساعدة الطرابلسيين، وكانت النتيجة أن اندس بين هؤلاء عميل للبوليس السياسى وكشف محاولة زكى شكرى للهرب، وكانت النتيجة أن حكم على زكى شكرى بالإعدام الذى خفف فيما بعد إلى الأشغال الشاقة * تدلنا تفصيلات ما يرويه زيان عن مناقشاته مع زكى شكرى على ما فطر عليه هذا الرجل من إجادة لمهارات العمل الفدائى، على حين لم يكن زكى شكرى يتمتع بالقدر ذاته من هذه المهارات مما قاده فيما بعد إلى ما هو متوقع من مصاعب يواجهها الذين لا يأخذون الحذر الواجب فى مثل هذه الظروف * بالمواكبة لهذا الحديث عن مغامرة زكى شكرى، يقدم صبرى أبو المجد تعريفًا بشخصية زكى شكرى، ونلاحظ أنه كان حريصًا على أن يقحم تعليقه على المذكرات حتى إنه جعله فى متنها * ما يرويه أحمد رمضان زيان عن انطباعاته وذكرياته عن المحاولة التى نسبت إلى الحزب الوطنى واستهدفت اغتيال سعد زغلول * يلقى بالضوء على التخطيط لاغتيال الزعيم سعد زغلول نفسه، وذلك دون أن يربط هذا التخطيط بالمحاولة التى قام

بها عبد الخالق الدليشانى وأشار إليها عبد العزيز على فى مذكراته، ويبدو أن التخطيط كان يستهدف محاولة أخرى * نفهم من حديثه مدى العنت الذى يلاقيه الفدائيون الوطنيون على يد زملائهم السابقين من الفدائيين الوطنيين الذين وصلوا إلى السلطة، وذلك من قبيل ما فعله النقراشى الذى وضع ما يشبه الكتالوج لرجال النشاط الوطنى * زيان يتهم النقراشى وأحمد ماهر وشفيق منصور صراحة بأنهم كانوا يستغلون أعضاء الجمعية من أجل مصالحهم وأهدافهم * نفهم من حديثه ما يدل على الماضى الوطنى والفدائى المشرف لسليمان حافظ، الذى ساعد الثورة فى بداية عهدها مساعدات قانونية وإدارية ضخمة قبل أن يقع الشقاق بينه وبين الثورة * من انتقاده لموقف سعد زغلول من الترحيب بمكماهون، والواقع أن انتقادات زيان تمضى فى الخط الذى تعودنا عليه من الحزب الوطنى فى عداء سعد زغلول والهجوم الدائب عليه * يحرص فى هذه المذكرات على إدانة واحد من الذين أصبحوا من أقطاب الوفد وهو حمدى سيف النصر * يشير بفخر واعتزاز إلى الموقف الفريد الذى وقفه أمين الرافعى عند فرض الإنجليز الحماية على مصر، وهو يذكر أن السلطان وحاشيته حاولوا إغراءه بالمال لكنه لم يستجب لهم، على الرغم من حاجته إلى المال * زيان يستطرد من هذه الواقعة إلى انتقاد موقف حسين رشدى باشا الذى لم يحتج على إعلان الحماية ولا على خلع الخديوى، وإنما قبل بحكم الإنجليز دون أن يحل نفسه من قسم الولاء الذى أقسمه للخديوى عباس حلمى * رمضان زيان يقارن بين موقف رشدى من عباس حلمى وموقف القائد العسكرى الألمانى هندنبرج من الإمبراطور غليوم، مشيرًا إلى عجز رشدى عن أن يكون مثل هندنبرج، الذى صمم على أن يقابل الإمبراطور غليوم حتى يحله من قسمه، وقد فعل * من المهم أن نذكر هنا أن السفير حسين غالب رشدى نجل رشدى باشا قد أرسل برد على هذه الجزئية نشرته «المصور» * تتضمن المذكرات المنشورة فى المصور فقرة قصيرة يحكى فيها عن رحلة إلى السودان، وتنبهنا فقرة زيان إلى مدى إهمالنا للسودان وإلى حقيقة الشعور المبكر للنخبة السودانية تجاه مصر وسياستها المتورطة مع الإنجليز.

* * *



البــاب الأول : الثائر الصامت ...

مذكرات عبد العزيز على



(١)

ربما كان من المؤلم أن نبدأ هذا الباب بقولنا إننا سنتدارس فيه مذكرات ثرية إلى أبعد حدود الثراء، وسنعيش فيه مع شخصية لا يقل ثراؤها عن ثراء مذكراتها، وعلى الرغم من ثراء المذكرات وثراء الشخصية، وعلى الرغم من أن عبد العزيز على رجل عظيم جدًا فإنه، وهذا هو موطن الألم، يحتاج إلى تعريف، وربما كان من المفيد أن نلجأ فى التعريف به إلى صدمة تنبه القراء، فنقول إن هذا الرجل يمثل فى الحركة الوطنية السرية ما يمثله توفيق الحكيم، أو نجيب محفوظ، أو أم كلثوم، أو محمد عبد الوهاب، أو يوسف وهبى من الجمع بين التفوق والريادة من ناحية، واستغراق أنشطتهم ونجوميتهم فى عملهم لمعظم سنوات القرن العشرين من ناحية أخرى، ذلك أن هذا الرجل ظل على صلة عضوية ووثيقة بالتنظيمات السرية منذ بداية القرن وحتى توفى، وكانت له صلات بشريط طويل من الأحداث ذات الطابع السرى التى شهدتها مصر، بدءًا من اغتيال بطرس غالى فى ١٩١٠م، وحتى حركة الإخوان المسلمين المنسوبة إلى سيد قطب فى ١٩٦٥م.

بعد هذه الصدمة ربما كان من المفيد أن ننبض صدمة أخرى، فنقول: إن هذا الرجل كان من أوائل الشخصيات التى استوزرتها الثورة عقب قيامها فى ١٩٥٢م، وقد دخل الوزارة مع مجموعة الحزب الوطنى فى سبتمبر ١٩٥٢م، لكنه بالطبع وبالطبيعة لم يلبث أن ترك الوزارة فى أقرب فرصة وهى الفرصة التى جاءت بعد ثلاثة شهور بالضبط، ويبدو بكل وضوح أنه شعر أن مكانه ليس فى صفوف هؤلاء الحكام الجدد، ولا بالقرب منهم، ولا فى رعايتهم، بل يبدو أنه، فيما بعد فترة ليست بالطويلة، رأى أن من واجبه أن يقاومهم، فإذا به يشارك الإخوان المسلمين حركتهم السرية التى أجهضها النظام الناصرى بكل نجاح وقسوة فى ١٩٦٥م.

(٢)

ربما ألجأ أيضًا إلى أسلوب جديد فى التعريف بعبد العزيز على وعرض سيرته، وهو أن أقتبس من أحاديثه وفقراته المتفرقة ما يكون شبه سيرة ذاتية تفصيلية لتكوينه الدراسى والعلمى، وللوظائف التى عمل فيها، وتنقل بينها.

يتحدث عبد العزيز على عن تكوينه الدراسى والتعليمى مقدمًا صورة شيقة تعبر عن طبيعة التعليم المتميز الذى كان يحظى به الجيل الذى ولد فى نهاية القرن الماضى (ولد عبد العزيز على فى ١٨٩٥م):

«ألحقنى والدى فى سن مبكرة مع شقيقتى أمينة التى تكبرنى سنًا بكتاب رضوان بك أبو الشوارب، بحارة الهدارة التى ولدت فيها، وكانت العائلة تقطن وقتئذ بحارة الصوافة بقرب قسم عابدين، لأتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ولأحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، فكنت - لما حبانى الله به من ذكاء وطاعة - موضع رعاية واهتمام ناظر الكتاب الشيخ على عمار».

«وتعهدنى والدى - رحمه الله - فى الوقت نفسه بتحفيظى القرآن الكريم فى المنزل، وتهذيبى بآداب وخلق القرآن، واهتم بتقويتى وتقويم لسانى فى اللغة العربية، وعلمنى صغيرًا كيفية الوضوء والصلاة وأمرنى بها وراقبنى فى المواظبة عليها، وأعطانى من نفسه ومن والدتى المثل الأعلى العملى، والقدوة الحسنة، فنشأت - والحمد لله - نشأة دينية صحيحة، وفى جو إسلامى سليم، وذلك ولاشك أس النجاح».

«وفى سنة ١٩٠٥م أراد والدى أن يلحقنى بمدرسة حكومية وكنت بلغت التاسعة تقريبًا، وتقدم بالطلب إلى مدرسة عابدين الابتدائية، إلا أنها رفضته لعدم بلوغى السن المقررة وقتئذ للقبول، فألحقنى بمدرسة ڤيكتوريا الأهلية بشارع حسن الأكبر خلف سراى عابدين، وأمضيت بها سنة دراسية لأبلغ سن القبول بمدرسة عابدين الأميرية والتحقت بها وقبلت».

«وكنت بفضل التربية والرعاية المنزلية - قبل كل شىء - التلميذ المستقيم المجتهد المطيع المتفوق فى كل سنى الدراسة، المتمتع بإعجاب ومحبة وتقدير أساتذتى وأقرانى، بجانب رضا الوالدين».

(٣)

ويجيد عبد العزيز على تحليل العوامل التى أدت إلى تفوقه فى الدراسة، وفى ممارسة الحياتين العامة والسياسية فيما بعد، وهو لا يقدم هذا التحليل منفصلاً عن سياق الأحداث التى يرويها، وإنما هو يستدعى هذا التحليل الجيد حين يجد الموقف الذى يعرضه يتطلب مثل هذا الاستدعاء للكشف عن سر التفوق فى شخصيته وفى أدائه، وهو على سبيل المثال يروى ما لاتزال ذاكرته تحتفظ به من مظاهر تقدير أساتذته له، وما لاتزال ذاكرته أيضًا تحتفظ به من عناصر الجدية فى التربية والتعليم فى ذلك الوقت، بل إنه يروى مظاهر تقدير زملائه له لما لمسوه من أخلاقه الرفيعة :

«ونلت الشهادة الابتدائية (١٩١٠م) وكنت أصغر الناجحين سنًا فى مدرستى، وكان ترتيبى الأول بالمدرسة والسادس بين ناجحى القطر، ويسعدنى أن أذكر بهذه المناسبة عبارة أثلجت صدرى وأدخلت الاطمئنان على قلبى وجهها إلىّ ممتحن الشفوى فى اللغة العربية بعد أن أجبت على أسئلته حيث قال : «قم يابنى وعد لبيتك بسلامة الله مطمئنًا مسرورًا، فقد أحسنت كل الإحسان وفقت الأقران»، وما كنت ولاشك أصل إلى تلك النتيجة الطيبة لولا تعهد والدى لى بالمنزل، ولولا حفظى لكثير من آيات القرآن الكريم، وكثرة اطلاعى، بجانب عناية أساتذتى بى بالمدرسة، وهذا من فضل الله».

. . . .

«سنة ١٩١٠م التحقت بالمدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجماميز، وكانت تفضل قبول أصغر المتقدمين لها سنًا، وشعرت أنى أنتقل من مرحلة اللامسئولية إلى مرحلة جديدة تتسم بقدر من الشعور بالجدية فى الحياة، والرجولة والوعى والمسئولية، وتملكنى إحساس قوى ورغبة ملحة فى التهيؤ قدر الطاقة لدور عملى فى الجهاد الوطنى، وبدأت بجانب الزاد الروحى الذى سلحنى به أبواى منذ الطفولة أحصن نفسى بالاستزادة من الاطلاع على كل ما ينمى عندى حب الوطن والحق، وكراهية الاستعباد والظلم».

. . . .

«ولمس فىّ زملائى - مع صغر سنى - الاستقامة، والسلوك السوى، والوطنية المتطرفة، ورجاحة الفكر مع حب العمل فى صمت وأناة، وبعد عن المن وحب الظهور - غرس والدى - وكلها فضائل تهيئ صاحبها لحمل المسئولية، وحزت ثقتهم فاختارونى أولاً مندوبًا عن فصلى فى لجنة الطلبة بالمدرسة، ثم مندوبًا عن فصول السنة الأولى كلها لأمثلهم فى اجتماعات اللجنة التى كان يغلب عليها الطابع السياسى، وأحمد الله أنى كنت عند حسن ظن الجميع، وقمت بدورى برغبة صادقة، وعلى أكمل وجه، مما سلط علىّ الأضواء».

(٤)

ويقدم عبد العزيز على حديثًا تفصيليًا مهمًا عن التكوين العلمى لطلاب مدرسة التجارة العليا فى أول عهدها، وكانت تسمى فى ذلك الوقت مدرسة المحاسبة والتجارة العليا، ونفهم من حديثه عن المدرسة أنها كانت تعد خريجيها بحرفية عالية لتولى الوظائف المالية والإدارية فى الحكومة والقطاع الخاص على حد سواء، وهو يتحدث عن تكوينه العلمى فى هذه المدرسة العليا التى كانت حديثة العهد بالوجود فيقول:

«التحقت بمدرسة المحاسبة والتجارة العليا سنة ١٩١٤م، وكانت تقع يومئذ فى شارع المبتديان، وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات، وعدد فصولها ثلاثة، ولم يكن يزيد عدد طلاب الفصل على عشرين طالبًا، وكان ناظر المدرسة مستر لسميذارد الإنجليزى ووكيلها الأستاذ محمد حمدى، وكان فى الوقت نفسه يدرس مادة الجغرافيا التجارية، وكانت هيئة التدريس تضم الأساتذة أحمد ماهر لتدريس القانون (مدنى وتجارى)، والاقتصاد السياسى، والنظام التجارى، وأحمد عبد الوهاب لتدريس إمساك الدفاتر وأعمال المكتب التجارى، وحسن كامل الشيشينى لتدريس مادة البضاعة، وسليم حداد لتدريس الحساب التجارى، ومستر سوير لتدريس اللغة الإنجليزية، ومدرس فرنسى لتدريس اللغة الفرنسية، وآخر لتدريس الاختزال والآلة الكاتبة، وكنا فى السنة الثالثة نخير بين اللغة الإيطالية واللغة الألمانية كمادة إضافية، وأذكر أن الأستاذ حسن كامل الشيشينى هو الوحيد بين الأساتذة الذى كان يتعرض فى

دروسه إلى السياسة العامة، وقد يرجع ذلك إلى اعتناقه مبدأ الحزب الوطنى. هذا وكان للمدرسة فريق لكرة القدم دعا إلى تكوينه الزميل فؤاد درويش، وكنت رئيسًا للفريق، وتخرجت سنة ١٩١٧م وكان ترتيبى العاشر، وكان رئيس لجنة الامتحان مستر باترسون مستشار وزارة المالية، وكانت دفعتنا ثالث دفعة فى تاريخ المدرسة، وفور ظهور النتيجة اختار مستر باترسون العشرة الأوائل ليعملوا بإدارة عموم الحسابات بوزارة المالية، وكانت فى أمس الحاجة لخريجى التجارة».

(٥)

والشاهد أن تكوين عبد العزيز على كان تكوينًا مثاليًا من عدة نواح، فهو مؤمن بلا تعصب، متدين بلا تنطع، مثقف بلا تفلسف، مجاهد بلا يأس، ونحن نراه محبًا للرياضة، ونراه أيضًا محبًا للفن، ميالاً إلى تقصى أحواله حتى فى رحلاته المتعددة التى حدثنا عنها فى هذا الكتاب. لكننا نرى بذرة هذا الاهتمام وقد نشأت فى أثناء دراسته الابتدائية:

«ومما أذكره بهذه المناسبة وأعتز به فرحتى التى لا تقدر يوم أن اختارنى الشيخ محمد المنيرى أستاذ اللغة العربية أنا وزميلى حسين ثابت، وكنا وقتئذ بالسنة الأولى، وكنا أقوياء فى اللغة العربية لنمثل فى الفصل، وبحضور محمد بك رشدى ناظر المدرسة قصة السموأل وما دار بينه وبين أحد الشعراء من حوار، وأخذ حسين دور الشاعر، ومثلت دور الأمير، إذ يقول الشاعر مستفزًا الأمير: «أتذكر إذ لحافك جلد شاة.. وإذ نعلاك من جلد البعير»، فيرد الأمير فى تواضع واطمئنان: «نعم أذكره ولا أنساه».

«ويعود الشاعر مستفزًا الأمير ويقول: «أمير يأكل الفالوذج سرًا.. ويطعم ضيفه خبز الشعير».

«إلى نهاية القصة، ولم يخرج الأمير عن حلمه، بل أجزل للشاعر العطاء، وقمت وقام زميلى كلٌّ منا بدوره بنجاح، وحزنا إعجاب أستاذنا المنيرى وناظر المدرسة محمد بك رشدى والزملاء جميعًا، وتسلم كلٌّ منا مكافأة تشجيعية «كارت بوستال» قدمها لنا الناظر بيده فى مكتبه».

ويحدثنا عبد العزيز على عن الوظائف التى عمل بها وتنقل فيها بحريته دون أن يناله الفشل فى أىّ منها ، وسنرى فى عرضنا لجهوده فى ثورة ١٩١٩م أنه نُقل من وظيفته الحكومية إلى وظيفة أخرى فى الترسانة حيث أشعل ثورة العمال ، ثم صمم على الاستقالة من الحكومة سنة ١٩٢١م :

وهو يتحدث عن فضل أستاذه أحمد عبد الوهاب فى إلحاقه بالعمل ببنك مصر ، كما يتحدث عن الرؤساء الإنجليز والمصريين الذين عمل تحت رياستهم فى بنك مصر ، ويشير أيضًا إلى محاولة الجمع بين عمله فى البنك وممارسة التجارة من خلال مكتب خاص به :

«ما إن علم الأستاذ أحمد عبد الوهاب وكيل المالية ، وكان أستاذى بمدرسة التجارة العليا ، ومن المعجبين بخلقى وذكائى ، بموضوع استقالتى من الحكومة ١٩٢١م حتى بادر باستدعائى وعرض علىّ العمل ببنك مصر ، وكان مديره طلعت حرب يبحث عن خريجى التجارة العليا ليعملوا معه فى البنك من أول نشأته ليدربهم علىّ أعمال البنوك ، وليستغنى بهم عن العنصر الأجنبى الذى اضطرت الحاجة للبدء به» .

«وصادف العرض هوى فى نفسى فقبلت بلا تردد لميلى بطبيعتى إلى الأعمال الحرة ، ولاعتقادى فى الوقت نفسه أنى أؤدى خدمة وطنية لبلادى ، وقابلت مدير البنك الذى رحب بى وأشعرنى بتزكية أستاذى أحمد عبد الوهاب لى وأنه يقدرها حق قدرها ، وألحقنى بقسم الحسابات تحت رئاسة الزميل المرحوم على ممتاز ، وكان هو الآخر قد استقال من خدمة الحكومة والتحق بالبنك ، ثم نقلت إلى قسم الأوراق المالية والكامبيو والبضائع وحفظ الأوراق المالية برئاسة مستر هرموز ، وفى ذلك القسم رقيت إلى وكيل حفظ الأوراق المالية ، ثم نقلت إلى قلم الاكتتابات ، ثم إلى قسم المراجعة كوكيل له ، ثم رقيت إلى رئاسة القسم إلى أن استقلت سنة ١٩٢٥م» .

. . . .

«ساعدنى عملى ببنك مصر على أن أجرب حظى فى الاشتغال بالتجارة ، وكنت أميل إلى الاشتغال بها ، وفتحت مكتبًا تجاريًا بعمارة الكنيسة قرب البنك ، وحصلت

على تزكية [ربما يقصد : بتزكية] من الغرفة التجارية المصرية (وكنت دائم الاتصال بها) على توكيلات من الخارج، وقمت بصفقات فى الأقمشة الصوفية والحريرية، وأربطة الرقبة، وأسلحة الحلاقة، ولعب الأطفال، والأوانى، والألومنيوم، والبودنج، والشيكولاتة، وكنت فى بادئ الأمر أشتريها لحسابى وأبيعها للأهل والأصدقاء، لكننى بعد حين لم أستطع الاستمرار فى الجمع بين عمل البنك وعمل المكتب، وخصوصًا بعد أن شعرت بحقد بعض زملائى علىّ، والوشاية بى لدى المدير بأنى أشغل نفسى بعمل خارجى، وكان المدير حكيمًا فى تصرفاته إذ دعانى لمقابلته وكاشفنى بما بلغه من عملى الخارجى، ونصحنى بالتفرغ لعمل البنك، فصفيت أعمال المكتب».

(٧)

ونحن نرى عبد العزيز على بعد عشر صفحات من هذا النص يحدثنا عن استقالته من البنك بسبب تخوف طلعت حرب غير المباشر من نشاطه الفدائى، ومحاولة حمايته وحماية البنك من متابعة البوليس بأن ينقله إلى وظيفة أعلى فى فرع بنى سويف، لكن عبد العزيز على يرفض هذا العرض، ويفضل عليه أن يستقيل من البنك.

ومن الطبيعى لرجل فى مثل هذه الكفاءة والاستقامة أن ينفتح أمامه بسهولة باب العمل فى القطاع الخاص بعد عمله فى الحكومة ثم فى البنوك، وذلك من خلال شركة نصير التى عمل فيها تسع سنوات متتالية :

«ورأى طلعت حرب بعد اعتقالى فى حادث قتل السردار أن يبعدنى - على حد قوله - عن مضايقات البوليس ومراقبتهم التى تلاحقنى، وأن يسند إلىّ وظيفة وكيل فرع بنى سويف، وكان والدى فى تلك الأثناء قد أصيب بجمرة فى ظهره وهو مريض بالسكر مما يحتم علىّ - وأنا أكبر إخوتى الذكور سنًا - أن أبقى بجواره، فرفضت السفر إلى بنى سويف برغم ما فى النقل من ترقية من رئيس قسم إلى مدير فرع، وحاول طلعت حرب أن يثنينى عن رأيى ولم يفلح، وقدمت استقالتى سنة ١٩٢٥م».

«ويريد الله أن يطلب بنك مصر فى ذلك الوقت من عميله المقاول الكبير عبد الرازق بك نصير أن يعين لإدارة حساباته أحد خريجى التجارة ليدخل عليها النظم الحديثة

ليطمئن البنك للتعامل معه، ورشحنى لوظيفة مدير حسابات الشركة بالقاهرة، شركة المقاولات «نصير»، ورحب نصير بك بالفكرة واستدعانى وقابلته بشارع المناخ (وكنت علمت من قبل بطلب البنك وتزكيته لى من زميلى رئيس الحسابات الجارية محمود سكر) واستلمت العمل».

«أمسكت للحسابات الدفاتر النظامية، وأنشأت قسمًا للسكرتارية، وآخر للأرشيف (الدفتر خانة) على أحدث النظم، وحزت رضا وثقة المرحوم عبد الرازق بك نصير، فضلاً عن محبته، وكان يعمل بالقسم الهندسى بالمكتب نجله إبراهيم، ونسيبه مختار إبراهيم، وكلاهما خريج الهندسة، وكنا على أتم وفاق».

. . . .

«وفى ١٩٣٢م، فجعت الشركة بوفاة المرحوم عبد الرازق بك نصير بعد أن أخذت مكانًا مرموقًا بين شركات المقاولة والمقاولين، وأخذت أعمالها بعد وفاته تقل ومركزها المالى يتأثر، لذلك رأيت وجوب ضغط المصاريف الإدارية وأن أبدأ بنفسى، وفكرت فى الاستقالة فى وقت أصبح العمل فيه لا يتحمل مرتبى الكبير، وصارحت إبراهيم نصير نجل المرحوم عبد الرازق بك نصير بما فكرت».

«فقبل استقالتى ١٩٣٤ مشفوعة بتقديره لكفاءتى وأمانتى وإخلاصى ووفائى».

(٨)

ثم يحدثنا عبد العزيز على فى موضع آخر عن المرحلة الرابعة فى حياته الوظيفية، وهى عودته إلى العمل الحكومى، هو لا يتحدث عن ترقياته الحكومية إلا عرضًا حين يتحدث عن أدائه لفريضة الحج:

«لما استقلت من عملى بشركة المقاولات «نصير» ١٩٣٤م عدت إلى خدمة الحكومة فى أواخر سنة ١٩٣٥م برغبة أيضًا من أستاذى أحمد عبد الوهاب، وكانت اللوائح المالية تقضى بأن أبدأ السلم من أوله من جديد، فوعدنى بتسوية حالتى عند أول فرصة وشغلت وظيفة وكيل حسابات محافظة مصر من الدرجة السادسة براتب حوالى تسعة

عشر جنيهًا، ولولا ما كنت أدخره من مال لوقت الشدة لضاقت بى الحال، وأنا والد لسبعة أبناء وكلهم بالمدارس».

«وفى ١٩٤٥ أديت فريضة الحج لأول مرة ومعى زوجتى، وكنت أشغل يومئذ وظيفة مفتش مالية مديرية الغربية بالانتداب، وكنت [قد] تدرجت فى وظائف رئيسًا حسابات مصلحة الأموال المقررة بالقاهرة بعد نقلى إليها من وكيل حسابات مبانى الشرق بالزقازيق، فمدير للقسم المالى بمديرية القليوبية».

«وسعيت لتسوية حالتى بضم مدة خدمتى السابقة فى الحكومة، ومدة خدمتى ببنك مصر وشركة المقاولات «نصير» على أنها مؤسسة شبه حكومية، وطبقًا للوائح حصلت على الدرجة الرابعة، وشغلت وظيفة مدير إدارة ضريبة الملاهى بالقاهرة».

(٩)

ونحن لا نرى عبد العزيز على متيمًا بالحديث عن إنجازاته كوزير أو كمدير أو كموظف صغير، إنما هو رجل مجد مجيد يبذل كل جهده من أجل النجاح والتفوق فحسب، لكننا نراه مع هذا حريصًا على أن يفخر بأنه كان أول مَنْ سن التقليد الذى أصبح سائدًا الآن فى افتتاح المكاتبات الحكومية بالبسملة، وختمها بالسلام:

«وفى تلك الوظيفة [أى وظيفة مدير الملاهى بالقاهرة] شعرت بكثير من الاستقلال الذاتى، فكنت أول مَنْ سن سنة استفتاح الرسائل الرسمية بالبسملة، وبدئها وإنهائها بعبارة «السلام عليكم ورحمة الله»، وكان ذلك غريبًا فى نظر المسئولين، وجرأة منى على الخروج على التقاليد».

«وما لبث أن ألف الجميع ما سننته عن إيمان واتبعوه حتى أصبحت كل المكاتبات مع الزمن تحمل البسملة وتبدأ وتنتهى بتحية الإسلام، وكم كنت سعيدًا بذلك، ونقلت من ضريبة الملاهى إلى وظيفة وكيل القسم المالى بمحافظة القاهرة، ثم انتدبت مفتشًا ماليًا لمديرية الغربية، وأديت فريضة الحج وعدت وعينت مديرًا للقسم المالى بمحافظة القاهرة، ومنحت الدرجة الثالثة، وانتدبت لفترة مديرًا للإدارة المالية بوزارة الوقاية».

(١٠)

هل لنا أن ننتقل الآن من حديثنا عن التكوين الدراسى لعبد العزيز على لنتأمل فى مراحل تكوينه الوطنى والوجدانى .

يتحدث عبد العزيز على عن بعض العوامل المبكرة التى كانت سببًا فى نمو عقيدة الحزب الوطنى فى نفسه :

« . . . وما إن وصلت إلى السنة الثالثة الدراسية (الحديث عن دراسته فى المرحلة الابتدائية) حتى أخذ والدى يدربنى على قراءة جريدة اللواء (لسان حال الحزب الوطنى) كل مساء بعد استذكار دروسى ، يريد بذلك تقويم لسانى ، وتقويتى فى اللغة العربية بجانب بث روح الوطنية فى نفسى عن طريق مواصلة قراءة مقالات اللواء التى كانت تكشف عن مساوئ الاحتلال ، وتقف للحاكمين بالمرصاد ، وتفيض وطنية وحسن توجيه» .

«وكان والدى يتوج ذلك الإيحاء بما كان يحدثنى به من وقت لآخر فى سير الأبطال والمجاهدين ، وكان يكثر من الحديث عن مصطفى كامل الشاب ، فغرس فى نفسى الإيمان بحب الوطن بعد أن حبب إلىّ الإيمان بالله ، فنشأت بفضل الله وبفضل التربية المنزلية مؤمنًا وطنيًا» .

وبعد أربع عشرة صفحة من هذه الفقرة يحدثنا عبد العزيز على عن بعض مظاهر الروح الوطنية المؤمنة بقيمة مصطفى كامل وما أنجزه هذا الزعيم للوطن :

«كنت يوم أن مات الزعيم الشاب فى السنة الثالثة الدراسية ، وأذكر أن أستاذ اللغة العربية الشيخ محمد الفقى ، وقد بدت على وجهه علامات الحزن ، وجه إلينا فى الفصل سؤالاً وقال : أتعرفون يا أولادى مَنْ مات؟ ثم أتعرفون سر حزن الأمة العميق على وفاته؟ فنهضت وأجبت على الفور : رزئت مصر اليوم بفقد باعث نهضتها المدافع بإيمان وقوة وإخلاص عن حقها ، زعيمها الشاب مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى ، وعم الأمة قاطبة الحزن العميق من هول الصدمة لذلك الخطب الجلل ، ولو كان يفتدى لفدته بأرواحها ، فقال أستاذى موجهًا الكلام لى : وهل تود أن تكون يومًا ما عظيمًا مثله؟ فقلت : نعم ، فما كان من أستاذى الجليل إلا أن طبع على جبينى قبلة

أبوية وباركنى وهو يقول : أبشر يا عبد العزيز ، فستكون ـ بإذن الله ـ من تلاميذ الفقيد البررة الناهجين منهجه ، المجاهدين المخلصين » .

(١١)

ولعل هذا كله يدلنا على حقيقة التقدير الذى حظى به هذا الرجل ممن عرفه ، وهو تقدير سرعان ما يتسلل إلى نفس وعقل أى قارئ لمذكراته ، ومن الإنصاف أن ننقل هنا ما يذكره الدكتور عبد الخالق لاشين فى مقدمته لهذه المذكرات :

« . . . وأود أن أشيد فى هذا الصدد بوطنية الأستاذ عبد العزيز على الصادقة وإيمانه المطلق وسعة علمه ومداركه ورحابة صدره وشمولية نظراته التى كانت جميعها مسئولة عن نجاته دون غيره من القائمين بالعمل السرى الفدائى خاصة فى العشرينيات ـ من الشنق أو الإعدام ـ واحتفظت لنا به ليلقى أضواء كاشفة على العمل السرى الفدائى بشكل دقيق وعلمى وصادق للمرة الأولى » .

(١٢)

ونأتى الآن إلى مذكرات عبد العزيز على التى نشرت فى دار المعارف سنة ١٩٧٨م ، وفى متنها إشارة إلى أنها تمثل الجزء الأول ، ولم تكن دار المعارف من الدور التى حرصت على نشر المذكرات ، ويشير عبد العزيز على بكل وضوح إلى أن نشر مذكرات بعض زملائه فى العمل الوطنى كانت بمثابة الدافع المشجع له على نشر مذكراته ، وهو يقول بكل وضوح فى تقديمه لمذكراته :

« . . . نشرت مجلة «المصور» فى أبريل ١٩٧٢م بعضًا من مذكرات الحاج أحمد رمضان زيان عضو جمعية التضامن الأخوى السرية بالإسكندرية بعنوان «مذكرات شيخ الفدائيين المصريين» ، وكنت وقتئذ أستشفى بحمامات حلوان الكبريتية ، ولفت نظرى إلى ما كُتب صديقى الأستاذ عبد المنعم خلاف ، وكان هو أيضًا يستشفى بالحمامات» .

«واطلعت على ما نشر تباعًا فى خمسة أعداد من المجلة، ولاحظت - بادئ ذى بدء - أن الحاج أحمد وإن كان أشار - ويكاد يكون بالتفصيل - إلى ما جرى على يد شعبة الجمعية بالإسكندرية، لكنه - ولعل له عذرًا فى ذلك - لم يذكر ما قامت به غيرها من شُعب الجمعية فى القاهرة مما ظلت حقيقته خافية على الناس نظرًا لطبيعة السرية التامة التى يلتزم بها نظام ذلك النوع من أجهزة النضال. وكان الأستاذ الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة قد طلب إلى أخى أحمد على الأستاذ بكلية التربية أن يهيئ له فرصة يجتمع فيها بنا ليستفسر عن بعض ما غمض عليه وهو يقرأ محاضر التحقيق فى قضايا الاغتيال السياسية، وما قرأه فى أول كتاب للثورة بقلم الرئيس أنور السادات».

«ثم تكرر الطلب بعد أن اطلع على وثائق فى وزارة الخارجية البريطانية تشير إلى تقارير مرسلة من ممثليها فى مصر تتحدث عن خطورتى عليهم وأننى وراء كل حوادث الاغتيالات».

«ولم تسمح الظروف باللقاء المرتقب إلى أن أنشئ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بوزارة الثقافة، وتولاه الدكتور محمد أنيس تنظيمًا وترتيبًا ثم بحثًا وتنقيبًا».

(١٣)

ويتحدث عبد العزيز على عن دخوله فى دور الحماسة لإتمام مذكراته بفضل مجموعة من العوامل يأتى فى مقدمتها ما أحسه فى الحوار الذى أجراه معه أحد الباحثين المتميزين فى مركز التاريخ، ثم ما أحسه من خلال لقائه بجمع كبير من أساتذة التاريخ الحديث فى اجتماعاتهم الأسبوعية، كما يشير إلى الدور الذى قام به الدكتور عبد الخالق لاشين خلفًا للدكتور محمد أنيس:

«... وبعث [أى الدكتور محمد أنيس] إلىّ بأحد تلاميذه الممتازين ممن اختارهم للعمل بالمركز، وهو الأستاذ محمود زهدى، فأخذ منى حديثًا مبدئيًا، ولما اطلع عليه زملاؤه بالمركز رغبوا مشكورين فى أن أجتمع بهم، وكان لقاء سعدت فيه بجمع كبير من أساتذة التاريخ الحديث بكل جامعات مصر الذين كان ينظمهم اجتماع كل أربعاء مع الباحثين بالمركز لمتابعة خطواتهم».

«وأقف عند هذا اللقاء الذى استمر ثلاث ساعات يسألوننى فى دقة وضبط وسعة اطلاع وحسن استماع، متوخين الوصول إلى الحق المجرد عن الهوى».

«إذ شرح صدرى كل ذلك وجعلنى أوافق على رغبتهم فى أن أكتب بنفسى تاريخ حياتى ليحفظ فى سجلاتهم، وآخذ نسخة مما يكتب منها على الآلة الكاتبة، وبدأت الكتابة أولاً بأول فى كراسات بلغت اثنتى عشرة كراسة، بذل الأستاذ زهدى جهدًا ملموسًا فى متابعتها مشكورًا، والسعى فى لقاء مَنْ يرد ذكره فيها من الأحياء تثبيتًا لما كتب».

«ثم أعير الأستاذ الدكتور أنيس للعراق، وتولى الإشراف الدكتور عبد الخالق لاشين مدرس التاريخ الحديث بجامعة عين شمس، واستمر يشرفنى بمنزلى مرة أسبوعيًا عدة شهور لمست فيها دقته المتناهية، وأفقه الواسع، وطموحه، وروحه المخلصة الصادقة فى خدمة العلم والمعرفة».

(١٤)

هل لنا أن نبدأ الآن فى تقصى ما ترويه هذه المذكرات عن النشاط الوطنى السرى الذى شهدته مصر طيلة النصف الأول من القرن العشرين، ونبدأ بأن نذكر أن عبد العزيز على يشير بكل وضوح إلى علاقة هذه التنظيمات السرية الفدائية بالحزب الوطنى، بل إنه يذهب إلى أن «جمعية التضامن الأخوى» نشأت على يد الحزب الوطنى نفسه، وهو يربط بين نشأة هذه الجمعية وحرص أقطاب الحزب الوطنى على إيفاد بعض شبانه للخارج للتزود بالثقافة والمعرفة فى جو من الحرية كى يعودوا قادة للفداء من أجل الوطن، وهو يكتب فصلاً بعنوان «لا بد للحق من قوة تسانده»، ويجعل افتتاحيته على النحو التالى:

«... وإيمانًا من الحزب الوطنى بأنه لابد للحق من قوة تسنده، وللوطن من جنود تفديه بالمهج والأرواح، وبأنه لا بد لما حققه النضال الوطنى من نجاح فى أولى مراحله، وهى مرحلة التوعية والتهيئة والإعداد من سياج قوى يحميه لتواصل القافلة الوطنية سيرها حتى تحقق غايتها المثلى، رأى أقطاب الحزب الوطنى أن يجهزوا ويعدوا من

الشباب الوطنى المؤمن فدائيين يسندون الحق، ويسارعون فى فداء الوطن بأرواحهم، وهذا أول الشوط، وهكذا نبتت فكرة تكوين جمعية وطنية سرية باسم «جمعية التضامن الأخوى»، وكان على رأس مَنْ تعهدها بالرعاية والتنظيم السادة عبد اللطيف بك الصوفانى، والجراح الكبير الدكتور إسماعيل بك صدقى، وعبد الحميد بك سعيد، وعبد العزيز جاويش من رجال الحزب».

«ولما كان جو مصر السياسى والاجتماعى خانقًا بما يكبل به المحتل العاملين من قيود، وما يضعه من عراقيل فى سبيل كل الجهود البناءة المخلصة، ومطاردته للمخلصين والتضييق عليهم، رأى أولئك الأقطاب، للتغلب على ذلك، إيفاد بعض الشبان إلى الخارج للتزود بالثقافة والمعرفة فى جو من الحرية والاطمئنان حتى إذا ما عادوا كانوا عدة الوطن، وطليعة الفداء».

«وتكونت فعلاً الشعبة الرئيسية للجمعية بالقاهرة برئاسة الأستاذ شفيق منصور، والشعبة الرئيسية بالإسكندرية برئاسة محمد عوض جبريل».

. . . .

يبدو لى أن فقرة من المذكرات قد فقدت فيما بين الفقرتين الأخيرتين، وتتضمن حديثه عن مصير فكرة إيفاد بعض الشبان للخارج.

(١٥)

ويحدثنا عبد العزيز على بفخر عن انضمامه إلى جمعية التضامن الأخوى، وأن هذا الانضمام جاء بعد ترشيح ومراقبة سرية لتصرفاته:

« . . . تم فى العام نفسه [الحديث عن عام ١٩١١م] انضمامى إلى «جمعية التضامن الأخوى السرية» ذلك أن صديقى حسين ثابت الذى لازمنى فى الدراسة من السنة الأولى بمدرسة عابدين، وتوثقت بيننا عرى الصداقة الأكيدة والمحبة الخالصة، كاشفنى ذات يوم بأنه انضم من عهد قريب إلى جمعية سرية تستهدف خدمة الوطن عن طريق تطهيره من الخونة وعملاء المحتل باغتيالهم، وبأنه رشحنى للانضمام إلى الشعبة التى هو عضو فيها ويرأسها عبد الرحمن صالح الطالب بكلية الطب، وبأنى كنت تحت

مراقبة سرية دقيقة من جهاز الجمعية وفق النظام المتبع بها عند ترشيح عضو جديد للانضمام، وبأنه لم يصارحنى بذلك كله إلا بعد أن علم من رئيس الشعبة أن مراقبتى أسفرت عن تأييد لتزكيته وترشيحه لى. ثم ختم حديثه بأنه لا يشك فى موافقتى على الانضمام، فشكرته على ثقته بى وأعلنت له موافقتى، بل تلهفى على إتمام تلك الخطوة التى أتممناها، فوعدنى بأنه سيعمل الترتيب اللازم لحلف اليمين وفق نظام الجمعية لأصبح عضوًا».

(١٦)

ويروى لنا عبد العزيز على كيف أخذ مسئولو جمعية التضامن الأخوى البيعة منه، فنرى إرهاصًا شديد الشبه ببيعة الإخوان المسلمين التى اشتهر أمرها بعد ذلك، وهى البيعة التى دلتنا مذكرات عبد العزيز كامل أنها كانت تشى بالتأثر ببعض الظلال الماسونية فى فكر العمل السرى!!:

«وبعد ذلك اللقاء بأيام قليلة زارنى حسين ثابت بمنزلى بعد الغروب وطلب منى أن أخرج معه لحضور جلسة سرية لحلف اليمين، وما إن غادرنا منزلنا وسرنا قليلاً فى اتجاه شارع خيرت (وهو قريب من منزلنا) حتى عصب عينى كى لا أعرف المكان الذى نقصده، ولم يطل بنا السير وأنا معصوب العينين حتى شعرت بأننا عرجنا إلى حارة متفرعة من الشارع ودخلنا منزلاً وصعدنا السلم فى هدوء إلى الدور الأول، وطرق حسين باب الشقة بطريقة متفق عليها (ثلاث دقات بخفة) وفتح الباب ودخلنا وشعرت بأنى أمر بين جسمين لعضوين احتك جسمى بهما فى ظلام دامس، وسكون رهيب، وتركنى حسين ودخلت إحدى الحجرات وأجلست على كرسى وأنا معصوب العينين أيضًا لا أرى أحدًا، وإن كنت أسمع همهمة أنفاس، وصلصلة سيوف، وقرقعة زناد (وكأنها للإرهاب وامتحان قوة أعصابى)، ثم أحسست فى الوقت نفسه بيد تجس نبضى، وبأذن تسمع دقات قلبى، ثم بدا صوت خافت لكنه فى قوة موجهًا إلىّ بعض الأسئلة العامة لتبين معلوماتى عن القضية المصرية والحركة الوطنية والاحتلال البريطانى وأعوانه وأذنابه من المصريين، أجبت عليها فى ثقة وهدوء، ثم طلب إلىّ أن أضع يدى على مصحف ومسدس فوق منضدة أمامى، وتشابكت يدى

مع بعض الأيدى ممن كانوا حولى، وكنت أحس وجودهم وأسمع همهمتهم، ورددت القسم: «أقسم بالله العظيم أن أهب نفسى ومالى وما أملك فداء لوطنى، وأن أنفذ أوامر الجمعية دون تردد وبأمانة وإخلاص، وألا أفشى سرها، وألا أشرب الخمر، ولا أغشى الفجور، وإلا كان جزائى الإعدام، والله على ما أقول شهيد»، ثم طلب إلىّ أن أتلقى تعليمات وأوامر الجمعية من العضو الذى زكانى، ثم خرجت من الحجرة وتلقانى زميلى حسين وغادرنا الشقة للعودة إلى منزلى، وفى الطريق رفع العصابة عن عينى».

. . . .

«وقد وفقت فى بضعة شهور إلى توفير ثمن المسدس من مصروفى الخاص، ويسر لى رئيس الشعبة الحصول عليه، وأخذت أنتهز فرصة سفرى إلى بلدة أخوالى «دلاص» فى الإجازات الصيفية والمدرسية (وكنت أقضيها هناك كل عام) وأتدرب على الرماية بالبندقية والمسدس على يد ابن خالى الشيخ قرنى قطب (وكان من هواة حمل السلاح) فأجدتها كما أجدت السباحة وركوب الخيل، عملاً بوصية الرسول الأعظم: «علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل».

ربما جاز لنا هنا أن نقول: إن هذا القول ينسب إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(١٧)

ويقدم عبد العزيز فى هذه المذكرات تفصيلات مهمة عن دور الحزب الوطنى فى تعبئة الجهود المصرية من أجل الإسهام فى حرب طرابلس بالجهاد وجمع الأموال التى مولت جهاد الليبيين (الطرابلسيين) ضد الإيطاليين فى هذه الحرب، وفى رأيى المتواضع أن هذا الدور كان بمثابة أقوى الأدوار غير الحكومية التى سبقت صحوة الشعب فى ثورة ١٩١٩م:

«وفى عام ١٩١٠م قامت الحرب على قدم وساق بين المجاهدين الطرابلسيين بقيادة البطل عمر المختار والطليان، يريدون تحرير بلادهم من الاستعمار، وهب الحزب الوطنى وقام بحملة قوية واسعة النطاق للحث على الجهاد، وكون اللجان لتنظيم مد

المجاهدين الطرابلسيين بالرجال والمؤن والأموال والسلاح، وسارع الكل وتنافسوا فى البذل والعطاء، وأبلى شباب الحزب الوطنى والأمة فى ذلك أحسن البلاء. . وكان يقود الطرابلسيين فى تلك الحرب الضروس البطل عمر المختار، الذى دوخ الطليان وكبدهم أفدح الخسائر فلم يجدوا سبيلاً للتخلص منه - وقد عجزوا عن التغلب عليه - سوى ما اقترفوه من فعلة نكراء لا تحمل فى طياتها سوى منتهى الجبن والوحشية والنذالة، إذ اختطفوه وحملوه فى طائرة، ارتفعوا بها إلى علو شاهق فى الجو ثم رموا به من الطائرة فهوى واستشهد، وظن الجبناء الأنذال أنهم بذلك خلصوا منه، وفاتهم أنه خلف لتلاميذه من بعده صورة خالدة من صور الجهاد الحق التزموا بها فكان بعد مماته كما كان فى حياته مصدر رعب وخوف لهم».

(١٨)

وينتقل عبد العزيز على من هذه العموميات إلى الحديث عن دور «جمعية التضامن الأخوى» فى هذه الحملة، وفى هذا الإطار يثنى عبد العزيز على صديقه الدكتور إسماعيل صدقى الذى كان يخفى الضباط الأتراك فى عيادته، وعلى مجموعة أخرى من أقطاب هذه الجمعية التى نشطت بعد هذا فى مجال العمل الوطنى وتركت بصمات لا تنسى:

«وكان لجمعية التضامن الأخوى خصوصًا شعبة الإسكندرية نشاط ملحوظ ومشكور فى تسهيل ترحيل الضباط الأتراك من الإسكندرية إلى طرابلس عبر الصحراء وتهريب الأسلحة للمجاهدين بمساعدة الماس عبدالله قومندان السلوم وقتئذ، وفى مد المجاهدين بالمؤن خصوصًا الأرز عن طريق أبو المطامير».

«وكان من أبرز القائمين على ذلك النشاط الدكتور إسماعيل صدقى الجراح أمين صندوق اللجنة الإدارية للحزب الوطنى، وكان يخفى الضباط الأتراك فى عيادته إلى أن تتم إجراءات هربهم إلى طرابلس، وعبد اللطيف بك الصوفانى عضو اللجنة الإدارية للحزب، والحاج رمضان زيان وشعبته المكونة من يعقوب صبرى ضابط مدرسة رأس التين الثانوية، وعبد الله حسن عوض الموظف بجمارك الإسكندرية، وإبراهيم أنيس الموظف بشركة سكك حديد الدلتا، ومحمد عوض جبريل (رئيس الشعبة) تاجر الحبوب بميناء البصل وغيرهم».

(١٩)

ويصل عبد العزيز على إلى الحديث عن الدور «الشبابى» الذى قدر له هو نفسه أن يقوم به فى توفير بعض الدعم المصرى الشعبى للمجاهدين المسلمين الذين خاضوا الحرب الطرابلسية، ومن الطريف أنه يبدأ فى وصف دوره ببيت من الشعر، وهو يشير إلى حقيقة أن أهل الريف خميرة صالحة لا تحتاج إلا إلى التوجيه الصالح الصادق، ولهذا فإنهم سرعان ما لبوا دعوته:

« . . . أما أنا فقد تمثلت فى ذلك المقام بقول الشاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فلينفع النصح إن لم يغنك الحال

«وسافرت فى إجازتى الصيفية إلى دلاص بلدة أخوالى بمركز الواسطى بمديرية بنى سويف لألقى بدلوى فى الدلاء وأقوم بقسطى فى الدعوة إلى مساندة المجاهدين الطرابلسيين وفى جمع التبرعات لهم».

«وفى صلاة الجمعة بالمسجد الكبير بالبلدة (١٩١٠م) فوجئ المصلون باعتلائى المنبر لألقى خطبة الجمعة، وكنت أخذت بذلك إذنًا من خالى العمدة المرحوم محمد بك وهيب، الذى كاشفته بغرضى وأذن لى، وأنا إذ ذاك شاب صغير، وهم الذين تعودوا سماع الخطبة كل مرة من شيخ عجوز، فأخذتهم الدهشة وكان موضوع الخطبة «الجهاد» فى سبيل الله، وأخذت أحضهم فى حماس الشباب على التطوع بالنفس والتبرع بالمال لنصرة إخوانهم المجاهدين فى طرابلس ضد أعدائهم الطليان المعتدين، مستشهدًا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية».

« . . . أخذتهم الحمية الإسلامية - وهم على أميتهم يتحركون لكل ما هو دينى - واستجابوا لدعوتى وتبرعوا بمبلغ ٣٠٠ جنيه أرسل فورًا للجنة المركزية لجمع التبرعات، وكان من أروع وأنبل ما حدث أن وقف أحد الفقراء المعدمين ممن لا يملكون قوت يومهم وأخذ يخلع بشته (رداءه) وسط جموع المصلين وهو لا يملك غيره ويقدمه تبرعًا منه، فقام أحد الخيرين ورده إليه شاكرًا له شعوره الحى ودفع عنه مبلغًا من المال».

(٢٠)

ونأتى الآن إلى ما يصور أو يلخص حديث عبد العزيز على عن الأحداث الفدائية التى قدر له أن يشهدها أو أن يشارك فيها أو أن يرى نتائجها، وسنقدم هذا الحديث متسلسلاً فى الزمن، ومتعاقبًا بعضه وراء بعض من دون استطراد إلى آرائه فى الأحزاب السياسية أو الجماعات أو الاتجاهات، وهو ما سنناقشه فى موضع آخر، ومن دون استطراد إلى التاريخ العام أو إلى تاريخ الشخصيات، أو إلى الحوادث الأخرى، وهو ما سنناقشه أيضًا فى موضع ثالث، ومن دون خروج إلى ما يقطع حبل تواصل العمليات الفدائية فى ذهننا ونحن نقرأ تفصيلاتها بأنفاس لاهثة:

ونبدأ بأن نتأمل ما يستعرض به عبد العزيز على صدى مقتل بطرس غالى (١٩١٠م) فى نفوس الوطنيين، وفرحة أمثاله بحصر الاتهام والمحاكمة فى القائم بالاغتيال وحده:

«. . . وقبض على الوردانى، واتهم معه من أعضاء الجمعية المهندسون: على مراد، ومحمود أنيس، وعبد العزيز رفعت، والطالب بالهندسة محمود كمال، والطالبان بالحقوق شفيق منصور، وعبده البرقوقى، والمحامى عبد الخالق عطية، وحبيب حسن، وكلهم أعضاء فى جمعية التضامن الأخوى».

«وحقق معهم واعترف الوردانى بأنه القاتل وحده دون شريك معه، ولما سأله رئيس النيابة عن سبب القتل أجاب على الفور: لأنه خائن للوطن، وجزاء الخائن البتر، وصرح بأنه قتل ناظر النظار بطرس غالى لموافقته على مد امتياز قناة السويس إلى ١٩٩٩ وكان ينتهى ١٩٦٥م (وكان سعد زغلول قد دعا مجلس شورى القوانين إلى مد امتياز القناة وشرح مزاياه، وعلمت جمعية التضامن الأخوى بنية الحكومة استصدار ديكريتو من الخديوى لمد الامتياز فقررت اللجنة الرئيسية اغتيال بطرس، ولتوقيعه مع الإنجليز اتفاقية السودان ١٨٩٩م التى أعطت إنجلترا حق مشاركة مصر فى السودان، ولرئاسته محكمة دنشواى وإصدار الأحكام الجائرة على المواطنين الأبرياء سنة ١٩٠٦م، ولإصداره قانون المطبوعات والقوانين الاستثنائية لخنق الحريات، ولم يعترف الباقون بشىء، وإنما هم شركاء فى جمعية تعاونية لا شأن بها بتاتًا بالسياسة أو استخدام القوة».

«أحيل الجميع إلى قاضى الإحالة الأستاذ متولى غنيم، فأحال الوردانى إلى محكمة جنايات مصر فى دور السبت ٢ أبريل ١٩١٠م (التى قضت بإعدام الوردانى شنقًا) وبرأت الثمانية الآخرين لعدم ثبوت تهمة اشتراكهم فى الحادث، وألقى الشيخ على الغاياتى فى ساحة المحكمة ساعة صدور الحكم قصيدة جاء فى مطلعها:

عيد النبوة أم عيد البراءات — قولوا معى يحيا قاضى الإحالات

«وحيا الشاعر القاضى إذ قال:

حكمت فأرضيت البلاد وأهلها — وحياك موسى بعد عيسى وأحمدا

«ونفذ حكم الإعدام شنقًا فى الوردانى فى ٢٨ يونيو ١٩١٠م، ولقى ربه رابط الجأش، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته مع الشهداء والأبرار».

«واهتزت البلاد لفقد الوردانى وسجل الشيخ على الغاياتى (حزب وطنى) الحادث فى كتابه «وطنيتى» (الذى قدم له الزعيم محمد فريد وسجن من جراء ذلك ثم نفى من البلاد) فى قصيدة أذكر منها:

ماذا جرى فى ساحة الديوان — قتَل الخئون مسدسُ الوردانى
طلقات نار أم طعان مهند — فدوى نذير الموت فى الأركان
فرماه عن كثب بست عجلت — خطوات عزرائيل بالأكفان
ماذا دها شيخ الوزارة فارتمى — فوق الثرى يشكو الردى ويعانى

(٢١)

ويروى عبد العزيز على بعض التفصيلات التى أحاط بها مما يخص بدايات عمل المجموعة الفدائية على يد إمام واكد، وأسماء الأهداف البشرية التى وضعت هذه المجموعة فكرة التخلص منها من أجل تحرير الوطن، وبعد أن يقدم عبد العزيز تلخيصًا للطريقة التى أجهض بها البوليس محاولة رجال العمل الوطنى السرى لاغتيال

مجموعة من القيادات المصرية والبريطانية، يقدم تلخيصًا سريعًا للأحكام التى صدرت فى هذه القضية التى سميت «مؤامرة شبرا» والتى كانت تستهدف حسبما أذاع البوليس قتل مجموعة من كبار المسئولين فى مصر بمن فيهم الخديوى عباس حلمى واللورد كتشنر ورئيس الوزراء محمد سعيد باشا ومحمد مجدى باشا والمستر ولبروظلو المستشارين فى محكمة الاستئناف فيقول :

« . . . وعلم البوليس من مصطفى (يقصد : مصطفى مصطفى المحلاوى الشهير بمصطفى كامل) هذا أن فى نية إمام واكد وزميليه طاهر العربى ومحمد عبد السلام، قتل ناظر (رئيس) النظار محمد سعيد باشا، والمعتمد البريطانى لورد كتشنر، وخديو مصر عباس حلمى الثانى، والمستشارين محمد مجدى، ومستر ولبروظلو، وأنهم حددوا يوم ٢٦ يونيو ١٩١٢ لقتل الثانى بمحطة مصر وهو عائد بالقطار من زيارة سخا، وأن يقوم طاهر بالعمليتين» .

. . . .

«وبادر فيليدس (مأمور الضبط) فكلف مصطفى (عميل البوليس السرى) بمقابلة لورد كتشنر فى ٢٧/ ٦/ ١٩١٢م (وكان محمود طاهر قد سافر إلى الإسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٩١٢م لقتل محمد سعيد باشا، ولم ينفذ القتل وعاد بخفى حنين) للوشاية بزملائه الثلاثة وتبليغه بتآمرهم على قتله هو ورئيس الوزراء والخديو للعلم، وليأخذ اللورد حذره، وبأن البوليس من ناحيته اتخذ التدابير المشددة للمحافظة على حياتهم» .

«وفى ٣٠ يونيو ١٩١٢م ذهب محمود طاهر العربى إلى محطة مصر قبيل وصول اللورد كتشنر عائدًا من سخا لمحاولة اغتياله، فرأى مدخل المحطة ملغمًا بالجواسيس ورجال البوليس، وعاد كتشنر ومر فى طريقه بطاهر الذى ارتبك ولم ينفذ القتل ونجا كتشنر كما نجا محمد باشا سعيد من قبله» .

(٢٢)

وهو يروى أن إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام قدموا إلى المحاكمة أمام محكمة مصر الابتدائية التى حكمت عليهم بأحكام قاسية :

«وفى ٦ يونيو ١٩١٢م علم البوليس أن إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام اتفقوا على اللقاء بمكانهم المختار بقهوة العائلات بشبرا مساء، وكانت هى الفرصة الذهبية لفيليدس لحبك مؤامرته ومباغتتهم والقبض عليهم، واستدعى مأمور الضبط ثلاثة من مأمورى الأقسام هم: محمود أحمد مأمور قسم عابدين، ومحمد نبيه أمين مأمور قسم الموسكى، وموسى جاد الله مأمور قسم شبرا، وطلب إليهم إعداد كمين للثلاثة (وكان معهم مصطفى) بجوار المكان الذى اعتادوا الجلوس فيه بحديقة القهوة، وذلك بوضع ساتر يفصل بينهم وبين واكد وزميليه بحيث يرونهم ويسمعون حديثهم دون أن يشعروا هم بوجودهم».

. . . .

«. . . وكانت الجلسة برئاسة ذو الفقار باشا وعضوية المستشارين توفيق رفعت بك وموسى بك، وجلس فى كرسى النيابة النائب العمومى عبد الخالق ثروت باشا، وبحضور رئيس المحكمة يحيى إبراهيم باشا، وطلب النائب العمومى معاقبة المتهمين بالمادة ٤٧ مكرر عقوبات، وتولى الدفاع عن المتهمين الأستاذ إبراهيم بك الهلباوى عن إمام واكد، ومصطفى الشوربجى عن طاهر العربى، وعبدالوهاب البرعى عن محمد عبد السلام».

«وبعد سماع أقوال المتهمين والشهود (شهود النفى والإثبات) ودفاع المحامين ومرافعة النائب العمومى، أصدرت المحكمة (أغسطس ١٩١٢م) حكما بناء على المادة ٤٧ عقوبات مكررة على إمام واكد بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما، وعلى محمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام بالسجن ١٥ سنة مع الشغل».

(٢٣)

ويتصدى عبد العزيز على من وجهة نظر شخصية تمليها الكرامة والعزة والانتماء الوطنى للتعقيب على ما أشيع فى أعقاب صدور الأحكام فى قضية مؤامرة شبرا من أن المؤامرة كانت ملفقة، معبرًا عن رأيه فى أنه يميل إلى نفى صحة شائعة تلفيق هذه المحاولة الفدائية، كما يعبر عن ميله إلى الاعتراف بوقوع الفدائيين فى بعض الأخطاء التى مكنت البوليس السياسى من الإمساك بهم:

«وعمت القطر شائعة مؤداها أن مؤامرة شبرا ملفقة، لفقها البوليس السياسى ليبرهن على صحة دعواه التى روج لها بأن الحزب الوطنى طرح وسائل المسالمة فى جهاده ونادى باتباع وسائل العنف والاغتيالات السياسية، وليبرر من ناحية أخرى حملة القبض والاعتقالات والنفى التى شنها على المواطنين، والتى كانت سبيلا له ولجواسيسه للحصول على الرشوة، وسببا فى ثرائهم الفاحش، باتهام ضعاف النفوس بأن بيدهم الأمر وعليهم أن يدفعوا المال (الإتاوة) إن أرادوا الإفلات من البطش والتلفيق».

«وفى رأيى (وهو الأكرم للمتآمرين) أن النية كانت فعلا مبيتة عند المتآمرين، وأن القضية لها نصيب من الصحة، ولولا ما وقعوا فيه من أخطاء جسيمة لا تتفق وأنهم فدائيون لما مكنوا منهم البوليس بحال من الأحوال، ولما فشلوا فى تحقيق غايتهم».

(٢٤)

ثم يقدم عبد العزيز على تلخيصًا للحوادث الفدائية الثلاث التى وقعت فى عام ١٩١٥م، وكانت منها اثنتان استهدفتا اغتيال السلطان حسين كامل فى عام ١٩١٥م، على حين استهدفت المحاولة الثالثة اغتيال وزير الأوقاف إبراهيم فتحى باشا، وهو يشير إلى أن هذه الحوادث التى شهدها عام ١٩١٥م جاءت بعد حادث وحيد فى ١٩١٤م استهدف اغتيال الخديو عباس حلمى قبيل خلعه، وقد قتل بطل هذا الحادث فى أثناء محاولة تنفيذ الاغتيال، ونحن نرى المحاولة الأولى تنتهى بإعدام بطلها:

«وهدأت حركة الاغتيال السياسى بعد حادث الوردانى ١٩١٠م، وحادث مؤامرة شبرا ١٩١٢م إلى أن حاول طالب الطب محمود مظهر قتل الخديو عباس حلمى الثانى أثناء زيارته للأستانة ١٩١٤م وأخطأه وأسرع أحد الحراس فانقض عليه وقتله بسيف وأسدل على الحادث الستار».

«ثم شهد عام ١٩١٥م ثلاثة حوادث اغتيال: الأول اغتيال السلطان حسين كامل، إذ رأت الجمعية فى قبوله تعيين إنجلترا له سلطانا على مصر بعد خلع الخديو عباس حلمى الثانى خيانة توجب العقاب وقررت قتله، وفى أبريل من ذلك العام حاول

الشاب محمد خليل وهو من المنصورة قتل حسين كامل وهو يخترق بسيارته ميدان عابدين فأخطأه وقبض عليه وحوكم أمام مجلس عسكرى بريطانى وحكم عليه بالإعدام وأعدم فى ٢٤ أبريل ١٩١٥م».

(٢٥)

وهو يقدم تفصيلات مهمة عن ثانى المحاولات التى شرع فيها الحزب الوطنى، والتى استهدف بها أيضًا اغتيال السلطان حسين كامل، وقد كان لهذه المحاولة ذكر متصل فى التاريخ لسبب طريف، وهو أن بعض الذين حكم عليهم فيها أصبح لهم شأن فى العمل الوطنى السياسى، فمنهم شفيق منصور الذى أعدم فى حادث قتل السردار، ومنهم نجيب الهلباوى الذى وشى بالوطنيين وأوقع بهم، ومنهم محمود عنايت الأخ الأكبر لأبناء عنايت عبد الحميد وعبد الفتاح وعبد الخالق:

«وكان الحادث الثانى لمحاولة اغتيال السلطان حسين أيضًا على يد محمد نجيب الهلباوى عضو شعبة الإسكندرية الرئيسية والمدرس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية، إذ أوفدت اللجنة الرئيسية بالقاهرة العضو محمد شمس الدين إلى الإسكندرية ليستأجر شقة بأحد المنازل بشارع رأس التين، فاستأجر شقة بالمنزل ٩٩ وهو يقع أمام ضريح سيدى يوسف الجعرانى فى أضيق اتساع فى الشارع، وكانت لجنة الإسكندرية حسب الخطة الموضوعة قد أعدت القنبلة التى سيستخدمها الهلباوى وسلمتها له ليلقيها على السلطان وهو يخترق الشارع بعربته لأداء فريضة الجمعة بمسجد عبد الرحمن بن هرمز».

«ومر السلطان فى ٩ يوليو ١٩١٥ وألقى الهلباوى القنبلة لكنها لم تنفجر لخطأ وقع فيه الهلباوى ولم يفطن له، إذ كان المفروض أن يشعل النار فى فتيل القنبلة بنار الفحم البلدى، لكنه أشعلها من سيجارة كان يشربها فلم تسر النار فى الفتيل، ووقع الهلباوى فى خطأ آخر إذ ألقى على أرض الحجرة عقب السيجارة وكان يحمل حرفى (ن، هـ) بالإنجليزية، وكان هذا العقب مفتاح القبض عليه بعد هروبه، إذ عرف البوليس المصنع الذى يصنع تلك السجائر ومنه استدل على أن (ن، هـ) هى اختصار لاسم نجيب الهلباوى».

«وقبض بعد الحادث على الهلباوى ومعه كل من : محمد شمس الدين، ومحمد فريد، ومحمود عنايت، وشفيق منصور، وعبد الفتاح يوسف، وأحمد سابق، وعبد الله حسن، وعلى صادق من أعضاء الجمعية، وحقق معهم بتهمة الاشتراك فى الحادث ولم يعترفوا بشىء».

«وأدانت النيابة محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين وحوكما أمام مجلس عسكرى بريطانى وصدر عليهما الحكم بالإعدام شنقًا وصدق عليه القائد العام للقوات البريطانية».

«ثم طلب السلطان حسين (المجنى عليه) تخفيف الحكم فأبدل القائد العام بالإعدام الأشغال الشاقة المؤبدة، وظلا فى السجن إلى أن أفرج عنهما فى عام ١٩٢٣م».

يجدر بنا هنا أن نذكر للقارئ أن مذكرات الحاج أحمد رمضان زيان التى نتدارسها فى الباب الثالث من هذا الكتاب تقدم تفصيلات أكثر إثارة وأكثر أهمية عن هذه الواقعة.

(٢٦)

أما المحاولة الثالثة من محاولات الاغتيال فى ١٩١٥م التى يكشف عبد العزيز على النقاب عن دور الحزب الوطنى فيها فهى محاولة اغتيال غير مشهورة، وهى محاولة قتل إبراهيم فتحى وزير الأوقاف، وقد نتج عنها إعدام الموظف الذى شرع فيها :

«وكان الحادث الثالث (أى فى ترتيب محاولات الاغتيال التى شرع فيها المنتمون للحزب الوطنى عام ١٩١٥م) محاولة قتل وزير الأوقاف إبراهيم فتحى فى ٤ سبتمبر ١٩١٥م، إذ طعنه صالح عبد اللطيف الموظف بالمالية ثلاث طعنات بخنجره وهو على رصيف محطة القاهرة يهم بالسفر ولم يقتله، وقبض عليه، وتكاد تكون هذه هى الحادثة الوحيدة التى استعمل الجانى فيها الخنجر، وحوكم صالح أمام مجلس عسكرى بريطانى وحكم عليه بالإعدام شنقًا وأعدم فى ٣ أكتوبر ١٩١٥م».

(٢٧)

ويشير عبد العزيز على مستعينًا بالوقائع إلى مدى ما لعبته المرأة المصرية من دور خفى فى دعم جهود الحركة الوطنية منذ ما قبل ثورة ١٩١٩م، وهو يذكر أن زوجته، وكانت لاتزال خطيبة له، صحبته إلى مكتب شفيق منصور حيث حصل منه على السلاح وأخفته فى صدرها، فلما أوقفا للتفتيش تمالك أعصابه وشاركته ثباته حتى مرّ السلاح بأمان، ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما ذكره الحاج أحمد رمضان زيان فى مذكراته التى نتدارسها فى الباب الثالث من هذا الكتاب عن الموقف البطولى الذى وقفته فتاة مصرية فى عمر الزهور من نجيب الهلباوى عندما وجدته فى مواجهتها بعد أن ألقى القنبلة، ورفضت التعرف عليه رغم تهديدات البوليس وإغراءاته، ثم إصرار هذه الفتاة على ألا تقبل مكافأة عن هذا الموقف العظيم الذى وقفته:

«كنت على موعد مرة مع الأستاذ شفيق منصور المحامى لأتسلم منه بمكتبه بشارع المغربى مسدسين لاستخدامهما فى حوادث الاغتيال، ورأيت تفاديا لتفتيش الجنود الإنجليز أن أصاحب معى للتعمية خطيبتى عزيزة (زوجتى الحالية) وتسلمت المسدسين وأخفتهما خطيبتى فى صدرها تحت الثياب وغادرنا المكتب عائدين إلى منزلنا، وما إن وصلنا إلى ميدان سوارس (مصطفى كامل حاليًا) حتى فاجأنا جنديان إنجليزيان مسلحان وأوقفانا للتفتيش وتقدم منى أحدهما وفتشنى وعزيزة بجوارى رابطة الجأش (وهى التى رافقتنى مرات فى الرحلات الخلوية ودربتها على إطلاق المسدس بدير الطين وجبل المقطم)، ولم يجد الجندى معى سلاحًا فتركنا وعدنا إلى منزلنا بسلام، ونجحت فكرتى فى اصطحاب خطيبتى معى لإخفاء السلاح معها ونقله بأمان».

. . . .

«وكنت طوال مدة خطبتى لعزيزة شريكة حياتى أعدها للجو الذى أريده لها لتكون عونًا لى فى طريق نضالى، أخذتها مرة فى زيارة لمنزل السيدة الوقور خالة عبد الخالق عنايت بناحية دير الطين (دار السلام حاليًا)، ومن هناك خرجنا بعد تناول الغداء وبصحبتنا عبد الخالق وتسلقنا المقطم فى الجهة المقابلة للبلدة، وبعيدًا عن عيون الناس تدربنا ودربناها معنا على الرماية بالمسدس».

. . . .

«وهنا أرجو ألا يخطر ببال القارئ أن إعدادى لخطيبتى على نحو ما ذكرت خول لها يومًا معرفة شىء ما، ولو تلميحًا، عن الشعبة وتحركاتها، ولو أنها تشعر إجمالاً بأنى فدائى وهبت نفسى لوطنى».

(٢٨)

والواقع أننا ندرك من هذه المذكرات مدى ما كانت أعصاب عبد العزيز على تحظى به من ثبات انفعالى وتدريب جيد منذ مرحلة مبكرة، حتى إنه كان قادرًا على الثبات الحقيقى فى مواجهة مفاجآت العدو الغاشم:

«. . . ومن طريف ما أذكره بهذه المناسبة أن الجنود الإنجليز دهموا ذات مساء نادى التجارة العليا بالدور العلوى ببار اللواء المواجه لجريدة الأهرام، وكنت ألعب النرد (الطاولة) مع صديقى محمد فريد عامر زميلى ببنك مصر، وكنت محتفظًا كعادتى بمسدس فى جيب البنطلون الخلفى، ولما أحسست وقع أقدامهم على السلم الخشبى الموصل لصالة النادى أسرعت وأخرجت مسدسى من جيبى ووضعته بكل هدوء داخل صندوق النرد وقفلت الصندوق واتكأت عليه بذراعى وكأنى غارق فى الحديث مع فريد، وقام الجنود بتفتيشنا وأنا ثابت لم يبد علىّ أى اضطراب، ولم يخطر ببالهم أن صندوق النرد عامر بمسدس فلم يقربوه وتركونا إلى غيرنا، وتملك العجب زميلى فريد من سرعة بديهتى وهدوء أعصابى وسعة حيلتى، وهذا من فضل ربى».

(٢٩)

ويروى عبد العزيز على أن شعبة جمعية التضامن الأخوى التى كان ينتمى إليها قد انفرط عقدها، وأنه بدأ فى تكوين شعبة جديدة من إخوان عنايت:

«. . . ولما كانت شعبتى قد أصبحت فى حكم المنحلة بعد أن انفرط عقدها لسفر رئيسها الدكتور عبد الرحمن صالح إلى المنيا، وهو همزة الوصل بينها وبين الشعبة التى تعلوها، ولعدم التزام العضو المرحوم حسين ثابت بقسم الجمعية، ثم وفاة العضو

المرحوم حسن سالم ولم يبق سواى، فقد فكرت فى تكوين شعبة جديدة، وكنت قد التحقت بالتجارة العليا».

(٣٠)

ويشير عبد العزيز على إلى أن زمالته لأحمد عنايت فى مدرسة التجارة العليا هى التى هيأت له معرفة إخوته (عبد الخالق وعبد الحميد وعبد الفتاح)، وأنه فكر فى الاستعانة بهم فى تكوين الشعبة:

«هذا وكنا نستعين أنا وأحمد طول مدة الدراسة على مواصلة المذاكرة ليلاً، كعادة الطلبة، بما كنا نتناوله من وجبة خفيفة من الجبن واللبن الزبادى مع الشاى أو القهوة، وكان يقدم لنا الطعام أو الشراب غالبًا أحد شقيقيه الصغيرين عبد الفتاح أو عبد الحميد، وأحيانًا شقيقه عبد الخالق الذى كان يكبرهما سنًا، والذى كان دائم الذكر لأخيه الأكبر المرحوم محمود والإشادة بروحه الوطنية وفدائيته، وكان لا يخفى أمله وأمنيته فى ترسم خطاه، فرأيت فيه الخميرة الصالحة التى تعوضنى ما فقدته فى أخيه أحمد فاستملته إلىّ وبادلته العطف والحب، وبقيت أتعهده روحيًا وشقيقيه عبد الفتاح وعبد الحميد مدى خمس سنوات تقريبا، ولمست أنى نزلت من قلوبهم منزلة أخيهم المرحوم محمود، ووجدت فيهم العجينة اللينة حتى إذا ما استوى عودهم وأصبحوا فى نظرى صالحين لتحمل الرسالة فى مواصلة العمل الفدائى كاشفتهم ذات يوم خلال شهر مارس ١٩١٩م بنيتى فى تكوين شعبة سرية فدائية، وكان عبد الخالق قد عاد من أفغانستان التى كان سافر إليها للاعتماد على نفسه فى طلب الرزق».

(٣١)

ويبدو من حديث عبد العزيز على أنه كان هو صاحب الفكرة التى انضم إليها عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت، ومع ما فى هذا الأمر من منطقية فإننا نفاجأ بأن مذكرات عبد الفتاح عنايت لا تتضمن أية إشارة، ولو من بعيد، لهذا المعنى، بل إن عبد الفتاح عنايت لا يورد ذكر عبد العزيز على فى أى حديث عن الأعمال السرية ولا غير

السرية، وربما كان السبب فى هذا أن عنايت لم يكن يريد أن يمس عبد العزيز على بأية جملة قد تجلب له المتاعب!! وربما كان هذا شبيها بموقف عبد الفتاح عنايت من أخيه عبد الخالق عنايت، وربما أن فى الأمر خبيئة لا ندرى عنها شيئًا حتى الآن:

«. . . كاشفت عبد الخالق عنايت وشقيقيه عبد الحميد وعبد الفتاح بأن الأوان قد آن لنستعد لتنظيم رسالتنا بتكوين شعبة سرية تسير فى نفس الخط الذى سار فيه مَنْ سبقنا من الوطنيين الفدائيين أعضاء جمعية التضامن الأخوى، وبدأنا بحلف يمين الشعبة فى منزلهم وأيدينا متشابكة على المصحف الشريف والمسدس، وهنا ذكر عبد الخالق اسم الدكتور شفيق منصور وطلب أن يكون منا بمثابة راعى الشعبة، لماضيه الوطنى وزمالته للمرحوم محمود فى الجمعية، وصلته الوثيقة بالعائلة ووافقنا، ثم ضممت إلى الشعبة بمعرفتى المرحوم محمود راشد الموظف بمصلحة التنظيم، وكانت ثقتى به كبيرة بعد أن عرفته وعركته عن قرب من سنين قبل الثورة، ثم زكّى لنا شفيق صديقه محمود إسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف، وبذلك تمت الحلقة، ولو أن العدد زاد قليلاً [على المألوف] فى تكوين شعب الجمعية، وأصبحت الشعبة ترجع إلى شفيق فيما تحتاجه من سلاح أو توجيهات، أو فيما تنوى القيام به».

(٣٢)

ثم يتحدث عبد العزيز على عن السبب الذى دعاه هو وإخوانه إلى التفكير فى إشراك العمال، ونفاجأ فى حديثه بما يدل على أن العمال كانوا قد سبقوا من تلقاء أنفسهم إلى أعمال فدائية، وأن انضمامهم إلى «جمعية التضامن الأخوى» لم يكن السبب فى تنبههم لأسلوب الاغتيال، وربما كان لنا أن نفكر الآن بطريقة الافتراضات ونقول إن اتصال جمعية التضامن الأخوى بالعمال كان سببًا فى انتهاء أسطورة العمل الفدائى الذى تولاه هؤلاء العمال بالفطرة بنجاح ساحق، فى حين أن تعاونهم مع جمعية التضامن الأخوى قادهم فى النهاية إلى حبل المشنقة، بسبب مؤامرة الهلباوى، واعترافات عنايت وشفيق منصور ومحمود إسماعيل، على حين ظل العمال كما نعرف مصممين على الإنكار، ومع هذا فإننا لا ننكر حقيقة أن ثقافة أعضاء جماعة التضامن الأخوى قد أضفت أبعادًا مهمة فى اختيار الشخصيات وتدبير الخطط المثيرة:

«وأخذنا فى التدريب على الرماية واستكمال ما تحتاج إليه الشعبة من مسدسات وقنابل حصلنا عليها عن طريق شفيق ومحمود إسماعيل، وكانت حوادث قتل ناجحة تقع فى ذلك الحين ضد الإنجليز بجهة مهمشة والشرابية وشبرا وميدان السكة الحديد على يد العمال، فاتجه تفكيرنا إلى تكوين خلية تلحق بالشعبة يكون قوامها عمال ممن عرفوا بقوة الإيمان والجرأة وحب التضحية، ولا يعوزهم سوى التنظيم وحسن التوجيه، فرشح لنا عبد الخالق العامل النجار محمد فهمى من طوخ، وكان يقطن فى أحد المنازل ملك العائلة لاطمئنانه إليه، وثقته به، ومعرفته عنه أنه ممن قام من العمال بحوادث قتل الإنجليز، وبعد قليل من حلفه اليمين رشح لنا زميله إبراهيم موسى العامل بعنابر السكة الحديد، ثم زكى كلاهما العاملين راغب حسن وعلى إبراهيم، وحلف الكل اليمين واكتملت خلية العمال».

(٣٣)

وتتضمن مذكرات عبد العزيز على بعض الملامح التنظيمية لهذا النشاط السرى، ومع أن جوهر هذا الحديث شائع فى الأدبيات التى تناولت هذه الأحداث وهذا النشاط، فإننا نرى فى حديث عبد العزيز على أبعادًا إيمانية ونفسية سامية:

«وكنا نطلق على كل عضو اسمًا مستعارًا وتواصينا بتنفيذ ما نصحت به من أن يلزم العضو الكتمان، وأن يصوم عن الكلام فى الحادث قبل وبعد التنفيذ تأمينا للعمل، واتقاء نزوة حب الظهور، وقهرًا لوساوس الشيطان، وتعميقًا للإيمان بالعمل الصامت الخالص لوجه الله، وألا يحتفظ العضو بأية علامة تدل على أية علاقة له بباقى الأعضاء كبطاقة أو صورة فوتوغرافية أو رسالة مثلاً، وأن يتوضأ العضو ويصلى لله ركعتين قبل العملية استعانة بالله واستعدادًا للقائه، ثم ركعتين بعد تمام التنفيذ شكرًا له واستمساكًا بعهده، وأن يتحاشى العضو بعد التنفيذ، سواء اشترك أو لم يشترك فيها، الاتصال بغيره من الأعضاء على أية صورة لفترة ما إمعانًا فى السرية، وإبعادًا لكل شبهة إلى أن يمر كل شىء بسلام».

«وكنا نختار شخص الفريسة من ذوى المراكز المرموقة والشخصيات الكبيرة المسئولة، ثم نراقب غدواته وروحاته ومسكنه ومحل عمله والطرق التى يسلكها مراقبة

شـديدة ، ثم نحـدد بالضبط المكان الذى سيقع فيـه الحادث مع درس دقيق للطرقات والمواصلات المؤدية إليه ومدى حركة النقل والناس فيها ، ثم نحدد بعد استكمال كل ذلك ساعة ويوم التنفيذ واختيار مَنْ سيقوم بالعمل ، وزيادة فى الاحتياط كان يجرى أحيانًا مَنْ يقع عليهم الاختيار تجربة وهمية قبل يوم التنفيذ» .

«وكان كل ذلك الإجراء من اختصاص المثقفين (إن جاز هذا التعبير) من أعضاء الشعبة ، كما أن التنفيذ كان غالبًا من نصيب العمال وعلى رأسهم فى كل مرة إبراهيم موسى الذى كانت التعليمات تحتم أن يكون أول مَنْ يرمى ، إذ إن التجربة دلت على أن رميته لا تخيب أبدًا وقاتلة مائة فى المائة ، وأن يتبعه فى الرمى يحمى ظهره مساعده من زملائه» .

«وكان من المتبع أيضًا أن توزع الأسلحة على المنفذين فى مكان وقوع الحادث وقبيل وقوعه بقليل ، وأن تجمع بعد الانتهاء منه لتحفظ فى مخبئها المعد لذلك بمنزل محمود راشد وبمعرفته بعد أن يفكها ويزيتها لتحتفظ بصلاحيتها دائمًا للعمل» .

«وقد أدى يمين الانضمام إلى الجمعية السرية أيضًا عن طريقى كلّ من الإخوة الأساتذة محمد حمدان عبده (المعارف) ، وأمين محمد ربيع (الزراعة) ، ومحمود عثمان أبوزيد (المحامى) ، وحسين عوض بريقى (المحامى) ، وإن كانوا كلهم قد أدوا بنجاح فترة الإعداد باشتراكهم فى رحلاتنا الجبلية وتدريبهم على الرماية ، إلا أن الحظ لم يسعدهم إذ لم تواتهم الظروف للاشتراك بأنفسهم فى حوادث الاغتيال» .

(٣٤)

ومما هو جدير بالذكر أن الإنجليز كانوا واعين تمامًا لخطورة عبد العزيز على :

«ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أذكر أن وزارة الداخلية كانت تحتفظ لديها بكتيب صغير للجيب مطبوع باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وعممت توزيعه على جهاز المباحث للاستعانة به ، ويحوى أسماء وصور مَنْ اعتبرتهم السلطات وطنيين ومتطرفين ، أو كما كانت تسميهم مجرمين سياسيين مرتبة حسب الحروف الإنجليزية» .

«واستطعت الحصول على النسخة الإنجليزية فوجدت اسمى وصورتى فى أعلى الصفحة الأولى وأمام الاسم عبارة وطنى متطرف خطر جدًا اعتقل سياسيًا عدة مرات فى حوادث القتل «يجب مراقبته بشدة»، مكتوبة بالإنجليزية».

(٣٥)

ويقدم عبد العزيز على ملخصات موجزة للاغتيالات السياسية التى استؤنفت منذ ٢ سبتمبر ١٩١٩م، ونحن نلاحظ أن عبد الفتاح عنايت لم يشر فى مذكراته إلى هذه الحوادث الخمس التى يشير إليها عبد العزيز على، ولهذا تفسيران، فإما أن عنايت لم يشر إلا إلى ما شارك هو نفسه فيه، وإما أن عنايت لم يشر إلا إلى المحاولات التى تستهدف بريطانيين حرصًا منه على ألا يشير إلى الحوادث التى وجهت طلقات الرصاص والقنابل فيها إلى المصريين، ولهذا استثناء واحد حرص عنايت على أن يشير إليه وهو مصرع زهدى وعبد الرازق من باب الخطأ، وهو الحادث الذى يشير عنايت إلى أنه جعلهم يصوبون مسلكهم فى توجيه أسلحتهم ورصاصهم نحو البريطانيين فحسب.

ومن المفيد أن نقرأ تلخيص عبد العزيز على لحوادث الاغتيال المتعاقبة فى هذه الفترة:

«ففى ٢ سبتمبر ألقى سيد محمد على الطالب بمعهد الإسكندرية الدينى قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا قرب محطة جاناكليس بالإسكندرية ولم تصبه وقبض عليه وحوكم أمام محكمة جنايات إسكندرية وحكم عليه فى فبراير ١٩٢٠م بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات».

. . . .

«وفى ١٥ ديسمبر ١٩١٩م ألقى طالب الطب عريان يوسف سعد قنبلتين على سيارة يوسف باشا وهبة يريد قتله وهى تخترق شارع سليمان باشا».

ربما كان من الطريف أن نذكر هنا أن عريان يوسف سعد أطلق هاتين القنبلتين من أمام مقهى ريش المشهور.

(٣٦)

ونأتي إلى بعض محاولات الاغتيال الفردية ، ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز على يسجل أن بعض هذه المحاولات باءت بالفشل ، لكنه سرعان ما يلقى على قرائه بجملة يبدو منها وكأنه لم يكن يدرى الغرض من هذه الحوادث على وجه التحديد :

««وفى ٨ يناير ١٩٢٠م ألقى أحد الشباب - واسمه أحمد توفيق - قنبلة على سيارة وزير الأشغال إسماعيل سرى باشا ولم تصب السيارة بسوء وهرب ولم يقبض عليه وأعلنت الحكومة عن مكافأة مالية قدرها ٥٠٠ جنيه لمن يرشد عنه وقيد الحادث ضد مجهول» .

«وفى ٢٢ مارس ١٩٢٠م ألقى عبد القادر شحاتة الطالب بالمدرسة الإلهامية القانونية قنبلة على سيارة وزير الزراعة محمد شفيق باشا ولم يصبه وقبض عليه وتبين من سير التحقيق أن له شريكًا هو عباس حلمى زميله بالمدرسة وقدما للمحاكمة أمام محكمة عسكرية بريطانية وحكم عليهما بالإعدام ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة» .

«ولا يفوتنى أن أذكر أن كل تلك الحوادث تمت فى رابعة النهار ولم تنجح واحدة منها مع الأسف ، وقد يرجع ذلك فى نظرى إلى قلة تدريب أو عدم كفاءة القائمين بها ، أو أنها كانت لمجرد الإرهاب ، وهى على أى حال دليل على السخط وعدم الاستكانة» .

(٣٧)

ويعاود عبد العزيز على الحديث عن المحاولات الفدائية فيشير إلى حادث قتل فيه أحد المارة من باب الخطأ ، ومن العجيب أن نقرأ فى نص عبد العزيز على لفظ «الجانى» فى الإشارة إلى الفدائى :

«وفى مساء ٨ مايو ١٩٢٠م ألقى الشاب أحمد توفيق قنبلة على سيارة وزير الأوقاف حسين درويش وهى تمر بشارع المدارس بالحلمية ولم يصبه ، إلا أن السيارة أصيبت

بعطب وجرح السائق وقتل شاب كان قريبًا من مكان الحادث وفر «الجانى» ولم يقبض عليه وقيد الحادث ضد مجهول» .

(٣٨)

ومن أهم ما تتضمنه مذكرات عبد العزيز على حديث صاحبها التفصيلى عن مشاركته بنفسه فى محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم، وهو يشير بكل وضوح إلى أنه يزيح الستار عن أسرار هذه المحاولة التى قل مَنْ يعرفها على حد تعبيره، ونحن نرى أن مجرد الإقدام على هذه المحاولة يمثل جرأة متناهية، وجسارة منقطعة النظير؛ لأنها تتم بينما الهدف محاط بكل ما هو ممكن من احتياطات التأمين التى تضمن القبض على المشاركين فى المحاولة إن لم تضمن إجهاض المحاولة نفسها، وهو ما حدث بالفعل .

من الجدير بالذكر أن عبد العزيز على كان يصور محمد توفيق نسيم تصويرًا قاسيًا سنورده ضمن حديثه عن الشخصيات .

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن هذه المحاولة تمت فى شهر رمضان الكريم :

« . . . وفى صباح ١٢ يونيو ١٩٢٠م بالتحديد، وكنا فى رمضان، اشتركت أنا وزميلى إبراهيم حسن مسعود فى تنفيذ خطة اغتيال محمد توفيق نسيم باشا وسط غليان الأمة من سوء تصرفاته واستبداده وبطشه، وتقضى الخطة بأن يزود إبراهيم - الفاعل الأصلى - بشنطة صغيرة من جلد محكمة الغلق فى حجم شنط تلاميذ المدارس بداخلها قنبلتان وبمسدس لاستخدامه إذا احتاج الأمر، وتسلم الشنطة والمسدس بمنزله بجهة البغالة بالسيدة زينب مساء قبل الحادث بيوم، وزودت أنا فى الوقت نفسه بقنبلة أسطوانية نقلتها - بعد فك الجزء العلوى منها ورفع زجاجة الحمض من قاعها - إلى منزل صديقى محمود راشد برحبة عابدين، وهناك قام راشد بتثبيت زجاجة الحمض مكانها وسط قاع القنبلة بحذر داخل زجاجة كبيرة (لتر) بعد أن شقها نصفين وأحكم لصقها ولف مكان الحز بإتقان بشريط عريض من قماش ليخفى ما بداخل الزجاجة» .

«وتقضى الخطة بأن يحمل مسعود شنطته يوم الحادث ويجلس بزاوية القهوة التى تقع على ناصيتى الشيخ ريحان وشارع عبد المنعم بعابدين قبل الوقت الذى اعتاد أن

يمر فيه توفيق نسيم كل صباح بسيارته التى كانت تقله من منزله بالحلمية الجديدة إلى الوزارة بميدان لاظوغلى مارة بشارع الشيخ ريحان فى حراسة قوية من الكونستابلات الإنجليز أمام وخلف وعلى جانبى السيارة، فضلاً عن صفين متقابلين من المخبرين وقوفا على جانبى الطريق من منزله إلى الوزارة».

«وأن أذهب أنا إلى منزل محمود راشد وأتسلم القنبلة - الزجاجة - وأقطع الطريق مشيًا على قدمى من رحبة عابدين وأمر بحرص وأنا أحملها على يدى بين صفى المخبرين وأمر أمام مسعود وأجلس فى زاوية قهوة عند تقاطع شارع الشيخ ريحان بشارع عماد الدين، وعلى الجانب المقابل للقهوة التى يجلس بها مسعود بحيث يرى كل منا زميله فى مكانه بسهولة لقرب المسافة بين القهوتين».

(٣٩)

ونصل إلى اللحظات الحاسمة التى كان على هذين الفدائيين أن ينفذا فيها الخطة، ويلفت نظرنا الوصف التفصيلى الدقيق الذى يقدمه عبد العزيز على لما قام به فى ذلك اليوم:

«وتم كل شىء فى هدوء حسب الخطة الموضوعة، وكان على مسعود أن يراقب موكب توفيق نسيم حتى إذا ما وصلت السيارة التى تقل رئيس الوزراء إلى المكان الذى هو قابع فيه وأصبحت فى محاذاته ألقى الشنطة عليها فتنفجر القنبلتان، وبذا يقضى على توفيق نسيم وتنجو البلاد من شروره، وأما إذا قدر ونجا نسيم من قنبلة مسعود فأكمل أنا المهمة بإلقاء قنبلتى من مكانى بمجرد وصول السيارة أمامى».

«وما إن وصلت السيارة وبداخلها نسيم فى حراسة الموتوسيكلات أمام مسعود حتى نهض رابط الجأش وألقى الشنطة على السيارة فانفجرت القنبلتان، وسمع لانفجارهما دوى هائل، وسقط راكبو الموتوسيكلات على الأرض من هول المفاجأة وقوة الانفجار».

«وهنا تدخل القدر «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» «وتقدرون فتضحك الأقدار» ولم يصب رئيس الوزراء بسوء، وإن كان أصيب بفزع وذهول أفقداه صوابه ونزل من

السيارة مسرعًا، وكانت قد أصيبت بعطب فى محركها كاد يوقفها عن السير وأصيب السائق بجرح بالغ وسار رئيس الوزراء على قدميه بخطى مضطربة يحيط به رجال البوليس السرى وسط زحام المارة، وساد المكان هرج ومرج واختلط الحابل بالنابل وهرب نسيم مذعورًا إلى منزل ذو الفقار باشا بشارع عماد الدين قريبًا من مكان الحادث ليحتمى فيه حتى يهدأ روعه».

(٤٠)

ويسجل عبد العزيز على اعترافًا بالخطأ الذى وقع فيه شريكه الشهيد إبراهيم حسن مسعود، لكنه يسجل أيضًا اعتزازه ببطولة هذا الزميل الفدائى الذى لم يعترف عليه ولا على أحد من زملائه، وظل على هذه الرجولة حتى حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم:

«وفر مسعود وظن أنه قضى على فريسته وتعقبه رجل البوليس خليفة يوسف فهدده مسعود وأطلق عليه مسدسه ليصده عن متابعته وأصابه بجروح وهو منطلق ليختفى عن الأنظار إلى أن قطع حارة الدمالشة بجهة البلاقسة بعابدين ودخل منزلا ليختفى لكن أن الحظ خانه، إذ حاصر البوليس المكان وبقى الحصار إلى أن ألقى القبض عليه وهو يغادر مخبأه بعد فترة ظن معها أنه أصبح آمنا».

. . . .

ونقفز هنا إلى الفقرة التى ختم بها عبد العزيز على حديثه عن هذه المحاولة متضمنا ثناءه الجم على إبراهيم مسعود:

«وهكذا أراد الله أن ينجو الطاغية محمد توفيق نسيم باشا وأن يقبض على الفدائى البطل إبراهيم حسن مسعود الذى قام بدوره بنجاح وأن يحاكم أمام محكمة عسكرية بريطانية، فلم يتعثر فى التحقيق ولم يعترف على أحد برغم ما لاقاه من إيذاء وتهديد لانتزاع اعتراف منه بالباطل، وصمد مسعود وصبر وحكم عليه بالإعدام شنقًا ولقى ربه مطمئن النفس، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته».

(٤١)

ويشير عبد العزيز على بكل تفصيل إلى خطته البديلة التى وضعها بنفسه بعد أن تغيرت الظروف، ونحن نلاحظ رباطة جأشه، وذكاءه فى تصرفه، وقدرته على تحوير الخطة بما يحفظ عليه حياته ويدخره ذخرًا لمحاولات فدائية أخرى . . وقد نجح :

«أما أنا فقد قدرت على الفور وبلا تردد أنه ليس من الصواب فى شىء - بل هى الرعونة بذاتها - أن أحاول إلقاء قنبلتى على نسيم وسط تلك الجموع من الناس والمخبرين، فقد [يصاب] الجميع بسوء، وهو الأرجح ولا أصيب الهدف المقصود وهو نسيم باشا».

«ولم يكن بد والموقف قد تغير إلى وضع لم يكن فى الحسبان بعد أن تدخل القدر وقلب الخطة التى وضعناها رأسًا على عقب من أن أنسحب بقنبلتى فى ثبات وهدوء فدلفت إلى حارة جانبية توصل إلى شارع نصرة وبه منزل خطيبتى عزيزة محمد لبيب، وأودعت عندها القنبلة ومسدسًا كنت مزودًا به ونبهتها إلى خطورة الاقتراب من القنبلة وتحريكها من موضعها، فأخفتها تحت كنبة بحجرة الجلوس ولازمتها حتى لا يقترب أحد منها، ولم يكن معها بالمنزل سوى والدتها وخالتها وخادمة صغيرة، أخفت المسدس فى جوال أرز».

«وكنت أزورها بين الحين والحين للاطمئنان، إلى أن هدأ الجو فسحبت القنبلة والمسدس وكان بانتظارى - حسب اتفاق سابق - فى مندرة منزلنا بحارة خاتون المتفرع من شارع نصرة صديقى محمود راشد ليفك الزجاجة ويفك القنبلة ويرفع زجاجة الحمض من مكانها ليبطل مفعول القنبلة، وأتم راشد ذلك بسلام».

(٤٢)

ونأتى إلى حديث عبد العزيز على عن الدور الذى قدر له أن يضطلع به فى ثورة ١٩١٩م، ويمكن تلخيص هذا الدور فى أنه كان له شأن فى إضراب الموظفين، وأنه كان له شأن فى إضراب العمال وحريق الترسانة، وأنه كان له شأن فى الحرب الإعلامية الهادرة التى واكبت الثورة :

وربما كان من المفيد هنا أن نذكر أن عبد العزيز على، شأنه شأن الغالبية من موظفى مصر الوطنيين، شارك فى إضراب الموظفين الشهير، وأنه كان حريصًا على ألا يعود إلى عمله (بعد هذا الإضراب) إلا فى اليوم التالى للتاريخ الذى حدده الحاكم العسكرى، وهو يذكر أنه احتك برؤسائه الإنجليز بسبب عودته فى اليوم التالى لانتهاء إضراب العمال، كما أنه يلخص لنا نمطين من أنماط تعامل رؤسائه الإنجليز معه:

«. . . ولكى لا يقال إن عودة الموظفين كانت بناء على منشور الحاكم العسكرى وتهديده (حددت اللجنة فى منشورها لعودة الموظفين اليوم التالى مباشرة للتاريخ المحدد بمنشور الحاكم)».

«وعاد الموظفون إلى عملهم - مع الأسف - تنفيذًا لأمر الحاكم العسكرى فى الميعاد الذى حدده بمنشوره، وعدت أنا وزميلاى إبراهيم حسن مسعود وحامد طولان فى اليوم التالى وفق منشور اللجنة العليا، وكانت تجمعنا نحن الثلاثة حجرة واحدة بحسابات القسم الميكانيكى بوزارة الأشغال، وتحدينا بذلك أمر الحاكم العسكرى بالعودة وتهديده بالفصل لمن يخالف».

«وطلب رئيسنا المباشر - وكان إنجليزيًا يدعى براون - أن يحقق معنا، وكان جوابنا الذى اتفقنا عليه أننا أضربنا متضامنين مع زملائنا تنفيذًا لقرار اللجنة العليا للموظفين، وعدنا إلى عملنا أيضًا بناء على أمرها، وأننا لا نعترف بأى أوامر تصدر بشأن الإضراب من سواها، وحاول رئيسنا عن طريق بعض أذنابه ضعاف النفوس أن يحملنا على العدول عن رأينا، وأن نعلل مخالفتنا لمنشور الحاكم العسكرى بسبب آخر كالمرض أو ظروف عائلية، ولم تجد معنا هذه المحاولات، وبقينا مصرين على موقفنا غير مكترثين بالتهديد بالفصل، فأرغى براون وأزبد وكان قد نمى إلى علمه من قبل عن طريق جواسيسه المنبثين بين الموظفين أمر مشاركتى فى كتابة المنشورات الثورية، ونشاطى المتواصل فى توزيعها بالوزارات القريبة من الأشغال كالمالية، والحقانية، والداخلية، والصحة، وقيادتى للمظاهرة الكبرى للموظفين، وخطاباتى الملتهبة فى مساجد ابن طولون، والشيخ صالح أبو حديد، والحنفى، وقيسون».

(٤٣)

وفى مقابل هذا النمط العدوانى الذى مثله المستر براون، نرى نمطًا آخر من معاملة الاستعماريين متمثلاً فى سلوك المستشار المالى باترسون :

«ورفع التحقيق مشفوعًا برأيه إلى المستر باترسون المستشار المالى بوزارة المالية الذى استدعانا لمقابلته بمكتبه كل منا على انفراد» .

«وعند دخولى عليه بادرنى بالسؤال عما إذا كنت لا أزال مصرًا على ما جاء على لسانى بالتحقيق، وأجبت بالإيجاب، وبدا لى أنه أعجب بثباتى على رأيى وأنى أبديته عن إيمان بدليل أنه أدار دفة الحديث وبلباقة، وتكلم عن الرياضة وأخبار كرة القدم ولاعبيها الممتازين بالوزارة، وكان يعلم أنى من هواتها، وأنى عضو بالنادى الأهلى. كان المستر باترسون رئيس لجنة الامتحانات بدبلوم التجارة، وكنت من العشرة الأوائل الذين اختارهم للعمل بحسابات المالية، ثم أنهى حديثه فى لطف بقوله : «إنك رياضى وأنا أعلم أن الرياضى صادق لا يكذب، وإذا وعد يفى، ويكفينى منك الآن أن تعدنى بأنك لا تتحرك بعد اليوم من مكتبك لإثارة شعور زملائك، أو لتوزيع المنشورات الثورية بالوزارة أو الوزارات الأخرى، وأن تكون آخر [فرد] يترك مكتبه للاشتراك فى إضراب أو مظاهرة مثلاً، فوعدته بذلك» .

«واكتفى بوعدى، وعدت إلى مكتبى مطمئنًا مرفوع الرأس لم يمسنى أى سوء مما كان يتوقه رئيسى براون، وحفظ التحقيق، وهكذا يسلم مَنْ يثبت على رأيه ويعرف قدر نفسه» .

(٤٤)

ويقدم عبد العزيز على تفصيلات مهمة عن دوره فى إشعال إضراب الترسانة، ومن الطريف أن العمل فى الترسانة كان نوعًا من أنواع العقاب(!!) الذى سعى فيه المستر براون :

« . . . إلا أن براون لم يشف غليله ولم يطق صبرًا على تلك النتيجة، فألح فى طلب نقلى إلى جهة أخرى بعيدة ليشبع رغبته فى الانتقام منى، وليحد - على زعمه - من

نشاطى، وصدر الأمر بنقلى إلى طلمبات الأميرية فرفضت واحتار براون فى أمرى وعُدِّل النقل إلى الورش الأميرية (الترسانة) ببولاق بدعوى حاجة قسم مستخدمى العمال بها إلى مَنْ ينظمه بوضع أحدث النظم على أساس استخدام نظام البطاقات الشخصية لكل عامل، وبدعوى أنى خير مَنْ يقوم بذلك، وأنا خريج التجارة العليا».

«قبلت النقل واعتبرته فرصة هيأها لى القدر لأتصل اتصالاً مباشرًا بالعمال، وكنت تواقًا لذلك، وما كدت بحكم عملى أتصل بكل عامل لإنشاء بطاقته حتى وثقت صلتى برؤساء الأقسام خصوصًا مَنْ توسمت فيهم الخير لتقبل آرائى السياسية، وأصبح الطريق أمامى ممهدًا لإثارة شعور العمال بشحنات وطنية بين الحين والحين فى مكتبى، وسرعان ما استجابوا لى بفضل تعاون رؤسائهم وتأثرهم بجو الحركة الثورية فأضربوا عن العمل إسهامًا منهم فى ثورة الشعب، وتعبيرًا عن سخطهم على فظائع الإنجليز التى ارتكبوها، وقاموا بمظاهرة صاخبة أحرقوا فيها الترسانة وخرجوا إلى الشوارع بعد أن حطموا الباب الخارجى الكبير، وانضم إليهم عمال شركة كوك، وعمال المطبعة الأميرية وطافوا شوارع بولاق ينادون بسقوط الاحتلال وبحياة مصر الحرة المستقلة، وازداد حماس بعضهم فحطموا بعض فوانيس وعربات الترام، وكانت من وسائلهم فى التعبير عن سخطهم والتنفيس عما فى صدورهم».

(٤٥)

ويتحدث عبد العزيز على عن وصول الأمور إلى حد تقديمه لاستقالته من الحكومة بسبب تعنت رؤسائه الإنجليز معه بسبب حرصه على أداء واجبه الوطنى:

«نسب إلىّ مدير الترسانة الإنجليزى تدبير تلك الحركة التى لم تقم بها الترسانة من قبل فى حياتها، وأصدر أمرًا إداريًا يحرم على العمال، وخصوصًا رؤساءهم، الاتصال بى فى مكتبى، وأوعز لمدير الحسابات الأستاذ حمودة أن يراقب حركاتى وأن يتعمد مضايقتى، وأحسست أنا بذلك».

«فقدمت استقالتى من عملى، وكانت على حد تعبير رئيس الحسابات الأستاذ حمودة شديدة اللهجة ورفض قبولها إلا بعد أن أرفع منها عبارات: «إنى لا أقر العنت،

ولا أقبل الضيم، ولا أغمض عينى على فذى»، وبُذلت جهودٌ كثيرة من زملائى لأعدل عن الاستقالة، أو على الأقل أخفف من لهَجتها، وتمسكت بالاستقالة وبصيغتها وتركت وظيفة الحكومة غير آسف عليها».

(٤٦)

ويقدم عبد العزيز على حديثًا موجزًا عن جهوده فى الخطابة الجماهيرية فى أثناء ثورة ١٩١٩م، وعن استعارته ملابس شقيقه، وعن توظيفه لمنزل العائلة ليكون أحد مراكز توزيع المنشورات:

«وكنت إمعانًا فى تضليل البوليس أستعير من شقيقى أحمد، وكان طالبًا بالقضاء الشرعى، الجبة والقفطان والعمامة أخطب فى زى شيخ حتى ظن الكثيرون أنى طالب أزهرى متحمس».

«كنت أقوم فى الصباح الباكر وأدخل إلى مكاتب الموظفين خلسة قبل حضورهم وأترك على كل مكتب منشورًا، وكان نصيبى فى التوزيع وزارات الأشغال العمومية، والمالية، والحقانية، والصحة، والداخلية، ومديرية بنى سويف مسقط رأس والدى، وكان منزلنا أحد مراكز التوزيع، وكانت الخطب التى ألقيتها والمنشورات التى أوزعها تحض على التضامن والاتحاد والتمسك بحق الأمة فى الجلاء الناجز، والاستقلال التام، والتضحية فى سبيله، وتعدد مساوئ المحتل، وتدعو إلى كراهيته ومحاربته».

(٤٧)

ونعود إلى تيار الأحداث الفدائية وقد عاد ليمضى فى سبيله بعد أن انتهت حوادث ثورة ١٩١٩م إلى ما انتهت إليه، ونجد عبد العزيز على حريصًا على أن يشير إلى بعض المحاولات الفدائية الأخرى التى تركزت فى إلقاء القنابل على المعسكرات البريطانية، ونحن نجد فى مذكرات عبد الفتاح عنايت حديثًا قريب الشبه فى تفاصيله عن هذه الحوادث:

«وفى ١٢ فبراير ١٩٢٢م عبر الشعب عن سخطه وألقى الفدائيون قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا، ففرض الإنجليز على أهل الحى غرامة قدرها ١٨٠٠ جنيه جمعوها من الأهالى بالقوة».

. . . .

«وفى ٤ مارس ١٩٢٢م - أى بعد أقل من أسبوع واحد من التصريح [يقصد تصريح ٢٨ فبراير الشهير] - ألقى الفدائيون قنبلتين على بعض الجنود الإنجليز بميدان الخازندار تعبيرًا عن سخط الأمة، فألقت السلطة القبض على بعض الشخصيات من الوفد والحزب الوطنى».

(٤٨)

ويشير عبد العزيز على إلى أن الشعبة الفدائية التى كان ينتمى إليها بدأت منذ ١٨ فبراير ١٩٢٢م [أى قبل صدور التصريح المعروف بتصريح ٢٨ فبراير بعشرة أيام] مرحلة جديدة موجهة ضد كبار الإنجليز فقط، ونحن نلاحظ أن هذا التاريخ هو بالضبط تاريخ اغتيال مستر براون، ومعنى هذا أن قرار الشعبة اتخذ قبل هذا الوقت بقليل، وبالطبع قبل اليوم الذى بدأ فيه التنفيذ وليس فى اليوم ذاته، كما أننا نلاحظ أن عبد العزيز على لم يشر إلى الحادثة الأسبق التى أشار إليها عبد الفتاح عنايت فى مذكراته، وهى حادثة مقتل الجندى البريطانى فى ميدان رمسيس.

ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز على ينفرد بالإشارة إلى ما لم يشر إليه عبد الفتاح عنايت نفسه من مشاركة عبد الخالق عنايت فى هذه الحادثة قبل سفره إلى النمسا لدراسة الطب، وهكذا يصبح فى أيدينا ما يدل على أن هذا الشقيق كان فى الأصل فدائيًا مثل أشقائه الثلاثة: محمود، وعبد الحميد، وعبدالفتاح، والواقع أننا نجد فى روح مذكرات عبد الفتاح عنايت ما يدل على أن هذا الرجل كان فدائيًا دون أن تسجل مذكرات شقيقه له دورًا فى العمليات الفدائية، لكن عبد العزيز على يصرح بوضوح هنا بأن عبد الخالق عنايت شارك فى قتل المستر براون قبل أن يسافر إلى النمسا لدراسة الطب:

«. . . لم تقف شعبتنا مما يجرى من أحداث موقف المتفرج، وبدأت جولتها فى ١٨ فبراير ١٩٢٢م على بركة الله وفق قرار اتخذته بأن يكون الاغتيال السياسى مقصوراً على كبار الإنجليز بعد أن كان موجها لعملائه من المصريين. ففى ذلك التحول - فى رأيى - ما يقلق بالهم وينغص عليهم معيشتهم، وهو فى الوقت نفسه ردع لأعوانهم».

«فبدأت فى ١٨ فبراير ١٩٢٢م بقتل مستر براون مراقب عام وزارة المعارف على بعد خطوات من الباب الخارجى للوزارة وهو يغادرها، وتمت العملية بنجاح بفضل الله، ثم إيمان وإخلاص المنفذين وإحكام الخطة والتزام الأعضاء بالتعليمات الموضوعة للتنفيذ، فضلا عن حدب الشعب ورضاه عن تلك الوسيلة من النضال، ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول، وكان من حظ عبد الخالق عنايت أن اشترك فى هذه الحادثة قبل سفره إلى النمسا لدراسة الطب».

(٤٩)

ويقدم عبد العزيز على وصفًا تفصيليًا لواقعة قتل المستر كيف فى ٢٤ مايو ١٩٢٢م، ويلفت نظرنا فى روايته أن عبد العزيز على يشير إلى ما لم ينتبه عبد الفتاح عنايت إلى الإشارة إليه، وهو أن السيدة التى تصادف وجودها فى موقع الحادث وتعقبت إبراهيم موسى قد احتفظت فى مخيلتها بصورة إبراهيم موسى حتى استطاعت التعرف عليه عقب حادث مقتل السردار، ونلاحظ أيضًا أن عبد العزيز على يكتفى فى وصفها بأنها إنجليزية، بينما يشير عبد الفتاح عنايت إلى أنها كانت ترتدى زى الممرضات:

«وفى ٢٤ مايو ١٩٢٢م قتل المستر كيف وكيل حكمدار العاصمة بشارع الفلكى قرب ميدان الأزهار بعد خروجه من دار المحافظة بباب الخلق قاصدا منزله، وتصادف وجود سيدة إنجليزية فى مكان الحادث ولمحت إبراهيم موسى وهو يجرى بعد تنفيذ القتل وكانت تركب دراجة فتعقبته تريد اللحاق به للقبض عليه فراوغها وعوقها مساعدوه عن متابعته وهددها إبراهيم موسى بمسدسه لتخويفها، وتمكن من الهرب ولم تلحق به، إلا أن صورته انطبعت فى مخيلتها ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول، وما إن وقعت حادثة السردار فى ١٩٢٤م وقبض على أفراد الشعبة حتى

تقدمت تلك السيدة للشهادة وبرغم طول المدة بين الحادثتين أمكنها أن تتعرف على إبراهيم موسى وتخرجه من بين الواقفين فى العرض وتشهد بأنه قاتل المستر كييف وكيل الحكمدار، وكان لشهادتها قيمة وأثر فى مجرى التحقيق».

(٥٠)

وينفرد عبد العزيز فى إشارته إلى حادثة قتل المستر بيجوت فى ١٥ يونيو ١٩٢٢م بما ينسبه إلى نفسه من أنه تمكن من اتباع طريقة للتشويش على أصوات طلقات الرصاص، وأن أخاه أحمد على وكان حينئذ طالبًا بمدرسة القضاء الشرعى استجاب له وأجر موتوسيكلا لهذا الغرض، وأن هذه الحيلة أثبتت نجاحها:

«ثم قتل الكولونيل بيجوت مدير مالية الجيش البريطانى بشارع القاضى الفاضل قرب شارع جامع جركس وهو يغادر منزله صباحا من يوم ١٥ يونيو ١٩٢٢م إلى مقر عمله سائرًا على قدميه، وكنت وفقت فى تلك الحادثة إلى اتباع طريقة للتشويش على صوت الطلقات حتى لا ينتبه إليه أحد، فكلفت شقيقى أحمد ـ وكان وقتئذ طالبًا بمدرسة القضاء الشرعى ويجيد ركوب الموتوسيكل ـ أن يستأجر موتوسكيلاً ويروح به ويغدو بشارع جامع شركس قبيل وقوع الحادث على أن يستعمل الشكمان ليصدر صوت الفرقعة المرتفعة عندما أعطى له الإشارة فى اللحظة نفسها التى يهم فيها المنفذون بإطلاق مسدساتهم على مستر بيجوت، وتمت العملية طبق الخطة المرسومة بنجاح وبفضل الله ولم يقبض على أحد وقيد الحادث أيضًا ضد مجهول».

(٥١)

كذلك يشير عبد العزيز إلى واقعة قتل المفتشين بعنابر السكة الحديد والجنود بمهمشة وشبرا ومهاجمة إيدن بالاس ومحال اللهو بالقنابل، وهو يبنى هذه الأفعال للمجهول، وإن كان يوردها فى سياق حديثه عن أعمال جماعتهم، وهو يقول:

«وبعد ذلك الحادث بقليل قتل المستر هاتون مفتش عنابر السكك الحديدية ومفتشان آخران معه لا أذكر اسميهما وبعض الجنود بجهة مهمشة قرب ميدان المحطة».

«وتم إلقاء القنابل اليدوية على محال اللهو بجهة الأزبكية حيث يجتمع الجنود لقضاء أوقات اللهو وعلى إيدن بالاس دون أن يقبض على أحد، حيث تمكن المنفذون من الهرب ولم يتعرض لهم أحد وقيدت الحوادث ضد مجهول».

(٥٢)

وهو يشير إلى محاولة قتل المستر براون رئيس مصلحة البساتين ١٢ أغسطس ١٩٢٢م، وهى المحاولة التى أسفرت عن قتل سائقه، وإصابته هو وأكثر من فرد من أفراد أسرته، ونحن نلاحظ أن حديث عبد العزيز على عن هذه الواقعة يتسم بالإيجاز إذا ما قورن بالتفصيلات الكثيرة التى أوردها عبد الفتاح عنايت وعرضناها فى الباب الثالث من هذا الكتاب:

«وفى مساء ١٢ أغسطس ١٩٢٢م حاولنا قتل المستر براون رئيس مصلحة البساتين وهو راكب كارتة ومعه عائلته قاصدا السفر إلى الخارج، واتخذ المنفذون، وكان من بينهم عبدالحميد عنايت، كمينا لهم بحدائق الأورمان، وما إن رأوا الكارتة تقترب حتى أطلقوا الرصاص فى الظلام على مَنْ فيها وجفل الحصان وجرى مسرعًا ونجا براون بأعجوبة، وإن كان أصيب هو وابنه وخادمته إصابات خطيرة وقتل السائق وهرب الأعضاء فى الظلام ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول».

(٥٣)

ويحرص عبد العزيز على على أن يعتذر بوضوح وصراحة عن تورط الشعبة الفدائية التى ينتمى إليها فى قتل إسماعيل بك زهدى وحسن عبد الرازق باشا، وهو يشارك عبد الفتاح عنايت الاعتراف بأن المقصود بهذه الحادثة كان عدلى باشا ورشدى باشا:

«ولم تشذ الشعبة عن القاعدة التى التزمت بها إلا مرة واحدة بقتلها خطأ المرحومين إسماعيل زهدى بك وحسن عبد الرازق باشا عضوى إدارة حزب الأحرار الدستوريين وهما يخرجان من النادى ويهمان بركوب السيارة أمام دار الحزب بشارع المبتديان مساء ١٧ نوفمبر ١٩٢٢م وكان الظلام حالكا، وكان المقصود بالقتل عدلى يكن باشا وحسين

رشدى باشا بسبب التهالك على المفاوضات، وكانت العملية ترجمة صادقة لرفضنا مبدأ المفاوضة الذى جر على البلاد الوبال، وفر المنفذون وغابوا فى الظلام عن الأنظار وقيد الحادث ضد مجهول».

(٥٤)

وهو يتحدث بكل فخر عن الآثار التى ترتبت على حوادث القتل السياسى فيقول :

. . . .

. . . .

. . . .

«وفى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢م قتل المستر روبنسون وكيل كلية الحقوق وقيد الحادث ضد مجهول».

«وبذلك كان لا يمر شهر دون حادث».

«وما من شك فى أن تتابع حوادث القتل السياسى على النحو الذى جرت عليه من إحكام فى الخطة وجرأة فى التنفيذ وإفلات المنفذين فى وضح النهار، كان له أحسن الوقع فى نفوس الوطنيين ورفع معنوياتهم، كما كان له أبعد الأثر فى إلقاء الرعب فى قلوب الإنجليز وعملائهم المصريين وحملهم على التفكير فى تغيير سياستهم».

(٥٥)

ويطلعنا عبد العزيز على على مفارقة فى غاية الأهمية تتمثل فى حرص البوليس على إظهار نجاحه فى اكتشاف القائمين بحوادث الاغتيال السياسى وتورط هذا البوليس فى إلصاق التهمة بطباخ شاء حظه العاثر أن يتهم بقتل طباخ أحد الإنجليز، ويعبر عبد العزيز على عن أسفه من أن يلجأ البوليس إلى هذه الطرق من التهديد والإغراء حتى يحصل على اعترافات بالجملة، ويصدروا أحكامًا ظالمة بناء على هذه الاعترافات الباطلة، وهو يضع لهذه الواقعة عنوانًا معبرًا ودقيقًا: «إعدام أبرياء».

ومن الجدير بالذكر أن إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته التى نشرت عام ١٩٨٢م فى مجلة «روز اليوسف» قد أشار إلى هذه الواقعة، لكنه ذكر أن «نظير» كان فدائيًا، ولم يكن مجرد طباخ، وأنه كان يعرف القتلة الحقيقيين، لكنه لم يعترف على هؤلاء القتلة وتقبل الإعدام بنفس راضية :

« . . . تم ذلك فى أعقاب القبض على الشاب نظير خليل وبعض زملائه من أعضاء نادى رياضى بالحلمية الجديدة وإيداعهم السجن رهن التحقيق بتهمة قتل طباخ أحد الإنجليز وسرقة ساعته ونقوده وهم يقومون برحلة بجبل المقطم، وحقق معهم وضيق الخناق عليهم فاعترفوا بذنبهم إلا أن البوليس حاول فى الوقت نفسه أن يربط بين ذلك الحادث وحوادث الاغتيال السياسى وأن يزج بنا نحن أفراد الشعبة مع جماعة نظير فى قضية واحدة، لكنه أخفق لعدم وجود أية صلة بيننا وبينهم، وعز عليه الأمر فلفق لنظير ومَنْ معه تهمة القيام بحوادث الاغتيال السياسى متخذا من حادثة قتل الطباخ - البعيدة كل البعد عن السياسة - ذريعة لذلك الاتهام الباطل الذى أراد من ورائه أن يحفظ هيبته التى ضاعت، وأن يغطى عجزه السابق بإيهامه الناس بأنه وضع يده على كل مَنْ كانوا يقومون بعمليات الاغتيال وأفلتوا منه فى وضح النهار» .

«واستخدمت السلطات مع نظير وإخوانه طرق الإغراء تارة، ووسائل التهديد تارة أخرى، وكان أحدهم ويدعى دسوقى قد أقدم على الانتحار بسجن الأجانب واستغل البوليس ضعفه وأغراه بوعود معسولة وأمكنه أن يجعل منه «شاهد ملك» على زملائه، ولفق البوليس الأدلة ضدهم واستكتبهم بالإغراء والإكراه اعترافات باطلة بأنهم هم مدبرو حوادث الاغتيال وعلى رأسهم نظير فأدينوا وقدموا للمحاكمة على ذلك الأساس» .

«وصدر الحكم بالإعدام شنقًا على نظير والسجن مع الأشغال مددا مختلفة على زملائه» .

ويردف عبد العزيز على هذه القصة باعتراف صريح ببراءة هؤلاء ومسئوليته هو وزملائه :

«والله يشهد أنهم أبرياء مما أكرهوا على قوله إلا من دم الطباخ قتيل المقطم لأمور شخصية» .

«أما نحن الفعلة الحقيقيون فلم ينالوا منا إلا أن حجزونا بالسجن لبضعة شهور حتى حكم فى قضية نظير ثم أفرج عنا، فيالسخرية القدر! إلى أن عادوا وقبضوا علينا فى حادث قتل سردار الجيش المصرى سير لى ستاك الإنجليزى فى نوفمبر ١٩٢٤م».

(٥٦)

وحين يصل عبد العزيز على إلى رواية حادث مقتل السردار فإننا نجده يقدم سببًا إضافيًا دعا جماعته إلى الإقدام على محاولتهم الناجحة التى تمكنوا فيها من قتل سردار الجيش المصرى، وهو يذكر أنهم قاموا بهذا الحادث انتقامًا من الإنجليز الذين ضربوا المستشفى والكلية الحربية بالخرطوم بالقنابل، وهدموهما على مَنْ فيهما، وهو ينعى على حكومة سعد زغلول تخاذلها فى مجابهة هذا الاعتداء ويقول :

« . . . وكانت خاتمة نشاط الشعبة حادثة قتل سردار الجيش المصرى سير لى ستاك فى ١٨ نوفمبر ١٩٢٤م انتقامًا من الإنجليز لضربهم المستشفى والكلية الحربية بالخرطوم بالقنابل، وهدمها على مَنْ فيها، لمجرد تظاهر السودانيين وتمردهم على الاحتلال ومناداتهم بالاستقلال التام لمصر والسودان. ولم تفكر - مع بالغ الأسف - وزارة سعد زغلول فى رد اللطمة بما تستحقه، ولم تتخذ إجراء حاسما إزاء ما يجرى فى السودان، فكان لزامًا على الشعبة أن تثبت وجودها بعد طول سكوتها، وأن ترد اللطمة بأسلوبها الرادع».

(٥٧)

ويشير عبد العزيز على إلى ما ذكره عبد الفتاح عنايت فى مذكراته من أن خطة اغتيال السردار كانت بديلاً أشجع لخطة أقل خطورة منها تستهدف اغتيال سكرتير عام حكومة السودان، وأن الصدفة هى التى أتاحت فرصة أضخم من فرصة كانت مخططة!! :

« . . . والحق يقال إن تفكيرنا اتجه أول ما اتجه إلى تدبير اغتيال سكرتير عام حكومة السودان وكانت سرايته بميدان توفيق، وتمت فعلا ووضعت الخطة لقتله ولم يبق إلا

التنفيذ لولا تدخل القدر، وأراد الله أن تكون الضحية أعظم مكانة من السكرتير العام وأخطر شأنا، إذ حضر إلى مصر فى ذلك الحين سير لى ستاك فتحولت أنظار الشعبة إليه ووضع تحت المراقبة من يوم وصوله ووضعت خطة لقتله وهو يغادر وزارة الحربية التى كان يزورها كل يوم».

ربما كان من الضرورى هنا أن نشير إلى أن مقر وزارة الحربية التى كان السردار يمارس عمله فيه هو ما أصبح الآن مقر وزارة الدولة للإنتاج الحربى.

(٥٨)

ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز على يشير إلى أنه كان هو المكلف بإعطاء الإشارة بركوب السردار سيارته، وربما لا يتضارب هذا مع ما يرويه عبد الفتاح عنايت من أنه هو (أى عنايت) كان المكلف بإعطاء هذه الإشارة، فالأمر يحتمل أن تتم الإشارة على مراحل متعاقبة، وربما ظل عبد الفتاح عنايت متمسكًا بنسبة هذا الدور إلى نفسه فقط حتى يحافظ لعبد العزيز على على النجاة التى أصابها بإنكاره المتصل، وهنا ربما يثور سؤال طريف عن أحقية المنكر فى الدور إذا ما كان إنكاره قد ضمن له براءة ونجاة من الإعدام!!:

«وتقضى الخطة بأن يكون مكان التنفيذ عند تقاطع شارع قصر العينى مع ضريح سعد، والحكمة فى اختيار تلك الناصية هى أن سائق سيارة السردار يضطر عندها إلى تهدئة السرعة حتى يتفادى التصادم بالترام، بما يمكن المنفذ من إصابة الهدف وأن يكون مكان المراقبة وإعطاء الإشارة للتنفيذ عند تقاطع شارع الفلكى بشارع ضريح سعد فى الزاوية المقابلة لوزارة الحربية حتى يرى معطى الإشارة السردار عندما يهم بركوب سيارته المنتظرة أمام باب الوزارة، وأن يزود معطى الإشارة بدراجة، وكنت أنا المكلف بإعطاء الإشارة، وأن تعد سيارة تاكسى لانتظار المنفذين بشارع الطرقة الشرقية قرب تقاطعه بشارع قصر العينى للهرب بها بعد التنفيذ، وكان محمود راشد هو المكلف بالانتظار داخل السيارة وأن يجلس المنفذون على الأرض فى مكانهم يتظاهرون بتناول وجبة الغداء من طعمية وفول وعيش وبصل، وكان إبراهيم

موسى وراغب حسن وعلى إبراهيم من العمال، وكان معهم عبد الحميد عنايت، وألا يقوموا بدورهم إلا إذا رأونى مقبلاً عليهم مسرعًا بدراجتى، فإسراعى إشارة إلى أن السيارة التى تتبعنى من خلفى تقل السردار لا شخصا آخر، وإن أقبلت عليهم مبطئا متثاقلا فمعناه ألا يتحركوا من مكانهم ولا يفعلوا شيئا، فالسيارة لا تحمل السردار، وعلى أن تتم كل تلك الخطوات قبيل مغادرة السردار الوزارة بقليل إبعادًا للشبهة».

(٥٩)

يقدم عبد العزيز على تفصيلات فى غاية الأهمية عن موقف شفيق منصور من محاولة اغتيال السردار، ويكاد عبد العزيز على ينفرد برواية هذه التفصيلات، ويتضح مما يرويه عبد العزيز على أن شفيق منصور أيًا ما كانت دوافعه كان متبصرًا للوقائع وللعواقب، وهو ما يبدو أن عبد العزيز على كان هو الآخر واعيًا بها، وذلك على النقيض من عبد الفتاح عنايت الذى يذكر فى مذكراته أنه لم يكن يتصور أن يؤدى الحادث إلى ما أدى إليه بالفعل:

« . . . وبعد انتهائنا من وضع الخطة التى لا يعلم عنها شفيق منصور شيئا، زارنى ببنك مصر (وكنت وقتئذ رئيس قلم المراجعة بالبنك) شفيق منصور ومعه محمود إسماعيل يوم ١٧ نوڤمبر ١٩٢٤م (أى قبل الحادث بيوم) وذهبنا إلى منزل آل عنايت وتناولنا الغداء ومعنا عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت، وكان الغداء بناء على اقتراحى أكلة من لحم الرأس اشتريناها من مسمط قريب من المنزل، وفى ذلك اللقاء أخطرنا شفيق بعدولنا عن فكرة اغتيال سكرتير عام الحكومة واستبدال اغتيال السردار بها؛ لأنه أخطر شأنا وأعظم مكانة، وانتهاز فرصة وجوده بمصر للتنفيذ، وكنا نظن أنه سيرحب بذلك».

«إلا أن شفيق عارض بشدة لا لشىء إلا لأنه يعتقد أن ذلك لو تم لسقطت على الفور حكومة الوفد الذى يدين له بالولاء ويحرص على بقائه فى الحكم، وإلا ضاع عليه هو شخصيا كل ما وصل إليه من مركز مرموق، وما يتمتع به من مزايا (وكان الوفد رشحه

نائبًا عن دائرة باب الشعرية وعمل على نجاحه ونجح) وما يحلم به من نعم مستقبلاً، وأصر شفيق بعناد على رأيه وثار فينا يريد أن يؤثر علينا ويثنينا عن عزمنا».

«وكان تصريح شفيق صدمة قوية لنا جميعا، فنحن نعلم أنه نشأ وتربى فى أحضان الحزب الوطنى شابا وطنيًا متفانيًا فى حب وطنه وخدمته، فكان لتنكره للحزب ومبدئه وارتمائه على تلك الصورة فى أحضان الوفد أسوأ وقع فى نفوسنا، فتظاهرنا بقبول رأيه وانفض الاجتماع وهو يعتقد أننا عدلنا عن تنفيذ قتل السردار نزولاً على رغبته».

(٦٠)

وتأتى فقرة يصرح فيها عبد العزيز على تصريحًا خطيرًا يلقيه إلينا بكل وضوح ويشير فيه إلى أن هدفهم من مقتل السردار كان يستهدف أيضًا إسقاط سعد زغلول من مكانته التى اجتمعت له فيها رئاسة الوفد ورئاسة الحكومة :

« . . . ويعلم الله أننا كنا مصرين على التنفيذ لنضرب عصفورين بحجر : الانتقام من الإنجليز، وتخليص الوطن من الطاغوت ذى الرئاستين سعد، وإن نحن رضخنا لشفيق [منصور] وعدلنا عن الانتقام لكنا خائنين للمبدأ، مفرطين فى حق الوطن، خصوصا أن رفض شفيق [منصور] لفكرة قتل السردار كان لأسباب كلها شخصية ولا تمت إلى الصالح العام بشىء».

(٦١)

ثم يتحدث عبد العزيز على عن سخرية القدر التى جعلت شفيق منصور يزور زميله أحمد ماهر فى مكتبه بوزارة المعارف بالقرب من موقع الحادث :

« . . . وبعد ذلك الاجتماع، أى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٢٤م وقعت الواقعة ونفذت الخطة بنجاح، ومن سخرية القدر أن يتم الحادث وشفيق بمحض المصادفة فى زيارة لزميله أحمد ماهر بمكتبه بوزارة المعارف القريب من مكان الحادث، مما اتخذته

السلطات قرينة على اشتراكه فى الحادث، وعلى أنه لم يوجد لدى الوزير فى هذا الوقت بالذات إلا لمراقبة التنفيذ».

(٦٢)

وعلى الرغم من أن شفيق منصور أعدم بسبب مقتل السردار فإن عبد العزيز على يجاهر بأنه (أى شفيق منصور) برىء من دم السردار براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وأنه لم يشارك فى الحادث على الإطلاق:

«ويعلم الله أن شفيق برىء من دم السردار براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وإن لم يكن بريئا من الحوادث التى سبقته، والتى كان لا يرى فيها - من زاويته - أنها تبلغ مبلغ الخطورة على مركز الوفد بقدر ما كان فيها من احتمال كبير لاستغلالها لمصلحته والتلويح بها أنه ذو شأن إذا ما نسبها لنفسه».

(٦٣)

ويحدثنا عبد العزيز على بتفصيلات حية عن أدائه لدوره فى حادث مقتل السردار على نحو دقيق وهو يقول:

«استعرت - وكنت رئيس قسم المراجعة ببنك مصر - دراجة أحد موظفى المراجعة واسمه جاد، على أن أقضى بها طلبًا عاجلا ثم أردها إليه بعد قليل، وقابلت محمود راشد بمنزله حسب اتفاق سابق وقصدنا ميدان لاظوغلى واستأجرت التاكسى وأجلست فيه راشد لينتظر إخوانه للهرب بعد إتمام العملية، وبدراجتى مررت بالمنفذين وهم جالسون فى المكان الذى خصص لهم يتظاهرون بالأكل فى انتظار إشارتى المتفق عليها، واتخذت مكانى فى الزاوية المقابلة لوزارة الحربية بعد أن اطمأننت أن كل شىء على ما يرام».

«وزيادة فى التضليل كان على عبد الفتاح أن يغادر كلية الحقوق (وكان طالبًا بها) ليحضر قبيل الحادث ويقف معى قليلاً وأنا واقف بدراجتى [أى عبد الفتاح عنايت]

أرقب خروج السردار وحضر وبقى معى بضع ثوان ثم مر على الإخوان وهم جالسون على الأرض عند الناصية، ثم قفل إلى منزله بشارع البستان يترقب النتيجة على أحر من الجمر».

«وما إن تركنى عبد الفتاح حتى لمحت السردار يتأهب لركوب سيارته، فاستويت على دراجتى واتجهت بأقصى سرعة نحو زملائى الرابضين فى أول الشارع ومن خلفى سيارة السردار التى هدأ السائق من سرعتها كما توقعنا عند رسم الخطة وانهال الرصاص على السيارة . . . خر السردار صريعا وكان معه ياوره فأسرع السائق بنهب الأرض نهبا إلى دار المندوب السامى حيث كان ينزل القتيل، لعله يسعف بشىء، ولكن قضاء الله قد سبق ودوى خبر قتل السردار فى كل مكان».

(٦٤)

ويقدم عبد العزيز على أيضا فى هذه المذكرات التى تأخر نشرها حتى نهاية السبعينيات تفصيلات أدق من تلك التى تناولتها المذكرات الأخرى كافة، وعلى سبيل المثال فإنه يتحدث بدقة شديدة عن بعض الخيوط التى كانت كفيلة بالإمساك بالمسئولين عن حادث مقتل السردار، ومنها سقوط طربوش عبد الحميد عنايت ومعرفة رقم السيارة التى ركبها منفذو المحاولة ويقول:

«أسرع المنفذون إلى مكان السيارة التى كانت فى انتظارهم وبها محمود راشد وهربوا ولم يقبض على أحد، إلا أن طربوش عبد الحميد عنايت سقط من فوق رأسه وهو يهم بركوب السيارة للهرب فالتقطه موظف بوزارة الأشغال، وفى الوقت نفسه تمكن من التقاط رقم السيارة وكان ٦٨٨ وبلغها للبوليس بعد أن حاول اللحاق بالهاربين فألقوا عليه قنبلة لتخويفه ولم تنفجر وأسرعت السيارة بشارع قصر العينى وغابت عن الأنظار، أما أنا، وقد تم كل شىء على ما يرام، فقد عدت مسرعًا بدراجتى إلى البنك لأردها إلى صاحبها».

«وسرعان ما حلق عبد الحميد شعر رأسه نمرة «زيرو» يبغى من وراء ذلك إبعاد الشبهة عنه فى أن يكون الطربوش طربوشه، أو أن يكون أحد الشركاء إذا ما اتجه

البوليس إلى محاولة معرفة صاحب الطربوش بوضعه فوق رأس كل من يقبض عليه».

(٦٥)

وهو يشير إلى دور البطولة والفداء الذى لعبه سائق التاكسى الذى أصر على ألا يتعرف على أحد ممن عرضوا عليه، وبقى فى السجن شهورًا حتى مات :

«وبواسطة رقم السيارة تمكن البوليس بعد البحث من معرفة السائق وألقى القبض عليه وبدأ فورًا التحقيق معه، وقبض على الكثيرين ممن حامت حولهم الشبهات وعرضهم على السائق النوبى محمود صالح ولم يتعرف على أحد إطلاقًا وأنكر أنه رأى أحدًا منهم وثبت على أقواله برغم تهديده مرة وإغرائه مرة أخرى كعادة البوليس، وبقى فى زنزانته رقم ١ طوال مدة التحقيق الذى استمر شهورًا ومات فيها بسجن قراميدان بالقلعة مثال الإخلاص والوفاء والبطولة. . رحمه الله وأسكنه فسيح جناته».

ينبغى هنا أن نشير إلى أن مذكرات عبد الفتاح عنايت لم تتحدث عن دور هذا السائق، ولا عن اتهامه وسجنه من قريب أو من بعيد، وربما كان خروجه من الاتهام بسبب موته سببًا فى نسيان عنايت لدوره.

(٦٦)

ويشير عبد العزيز على إلى محاولات رجال البوليس السياسى المتعددة للوصول إلى أى خيط كفيل بأن يدلهم على المسئولين عن قتل السردار، ويلقى الضوء على محاولتهم الفاشلة فى إسناد التهمة إلى أفراد جمعية اللواء الأبيض السودانية :

« . . . واتجه نشاطها فى البحث عن الجناة بادئ الأمر إلى فرع جمعية اللواء الأبيض السودانية بمصر، وهى جمعية وطنية تنادى وتعمل لاستقلال وادى النيل (مصر والسودان)، فهاجمت مكتب الجمعية وفتشته كما فتشت مساكن بعض أفرادها

وقبضت عليهم واعتقلتهم بتهمة أنهم قتلوا السردار انتقامًا لإخوانهم شهداء طلبة الكلية الحربية بالخرطوم، وتم التحقيق معهم ولم يسفر عن إدانتهم لعدم توافر الأدلة فأخلى سبيلهم».

(٦٧)

وفي موضع آخر من مذكراته يشير عبد العزيز علي إلى ما واكب قصة السردار من حبك البوليس السرى مؤامرة ضد مجموعة شباب الوفد وهو لا يفيض فى تفاصيل هذه المؤامرة مكتفيًا بالإشارة العاجلة:

«وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن البوليس السياسى قام فى ذلك الحين أيضًا بتدبير مؤامرة ضد بعض شباب الوفد المتحمس وقبض عليهم وأودعهم سجن الاستئناف بباب الخلق بتهمة انتمائهم إلى جماعة سرية للاغتيالات السياسية برئاسة عبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفد وقتئذ، وأذكر منهم السادة: إبراهيم عبد الهادى، وعبد الحكيم عابدين، وعبد الرحمن الجديلى، وحسنى الشنتناوى، والشيخ محمد يوسف، وتوفيق صليب، والشيخ السمالوطى الذى استخدمه البوليس شاهد ملك فى القضية التى لفقها البوليس السياسى لأولئك الشبان ومَنْ معهم، وحوكموا أمام محكمة عسكرية برئاسة القاضى الإنجليزى كريشو، وحكم عليهم بالسجن مددًا مختلفة».

(٦٨)

ويبدو دهاء عبد العزيز على فى انتباهه إلى ما يمكن أن يكون خديعة من السلطات حين قبضت على بعض الفدائيين وتركتهم حتى حين، متيحة الفرصة لنفسها لمراقبتهم عن بعد:

«. . . ثم اتجه الظن إلى الشبان ممن سبق وحامت حولهم الشبهات بالاشتراك فى حوادث الاغتيال السابقة وشملتهم القائمة السوداء بوزارة الداخلية فاعتقلت نفرًا منهم، ومن بينهم العامل إبراهيم موسى ومحمد فهمى وعبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت، ثم أخلت سبيلهم بعد عرضهم على سائق السيارة محمود صالح

وإصراره على عدم معرفته لأحد منهم، وفى ظنى أن ذلك الإفراج كان لغاية فى نفس يعقوب ليدخلوا على نفوسهم شيئًا من الاطمئنان وليركنوا إلى الغفلة (بينما) هم فى الواقع تحت المراقبة السرية».

(٦٩)

يستعرض عبد العزيز على، على طريقته الذكية، دور محمد نجيب الهلباوى فى كشف السر الذى أحاط بمصرع السردار، ونحن نراه موافقًا على التحليل السائد القائل بأن الهلباوى قام بهذا الدور بعد أن عانى من الحياة بعد خروجه من السجن فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين كامل:

«استمرت أجهزة المباحث والبوليس السياسى جادة فى البحث، وإنجلترا من ورائها تتعجل النتيجة وتكاد ترمى السلطات المصرية بالتهاون والعجز، حتى ظهر على المسرح محمد نجيب الهلباوى، وكان ممن شملهم العفو السياسى وخرج من السجن ولم يجد عملا وضاقت فى وجهه السبل وسال لعابه لمكافأة العشرة آلاف جنيه التى رصدتها الحكومة لمن يرشد عن الجناة، واتصل بالبوليس السياسى يعرض عليه خدماته، وكانت الشبهات قد أخذت تزداد حول أولاد عنايت ضمن مَنْ حامت حولهم الشبهات والبوليس يعلم بالطبع أن المرحوم محمود عنايت الأخ الأكبر لعبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت كان ممن اتهموا مع محمد نجيب الهلباوى فى حادث الاعتداء على السلطان حسين يوم ٩ يوليو ١٩١٥م، وكان من الرعيل الفدائى الأول مع شفيق منصور وعوض جبريل ومحمد فريد ومحمد شمس الدين وأحمد سابق الذين اتهموا فى نفس الحادث من أعضاء جمعية التضامن الأخوى بالإسكندرية فتلقف البوليس الهلباوى ليكون دليله المرتجى فى معرفة الجناة».

(٧٠)

ربما كان من المفيد هنا أن نعود إلى الصفحات المبكرة من مذكرات عبد العزيز على

لننقل ما أورده هذا الرجل فى حديثه عن اتهام الهلباوى فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين وخروجه من السجن.

ونحن نراه يلخص المأساة الإنسانية التى عاشها نجيب الهلباوى حين وجد نفسه متعطلاً بلا وظيفة بعد خروجه من السجن الذى بقى فيه ثمانية أعوام، مشيرًا إلى بعض الذين لم يبذلوا الجهد من أجل مساعدة الهلباوى مما يسر للبوليس السياسى إلقاء شباك الغدر عليه وتوظيفه فى الإيقاع بأبطال حادث قتل السردار سير لى ستاك، ومع تقديرنا لما يرويه عبد العزيز على فإننا نذكر أن إبراهيم عبد الهادى باشا يشير فى مذكراته إلى أن وزارة سعد زغلول هى التى أفرجت عن الهلباوى، وأن هذه الوزارة عينته فى وظيفة شريفة!!:

«. . . والتحق محمد شمس الدين بوظيفة بمجلس النواب، وظل محمد نجيب الهلباوى عاطلاً وكان من عائلة فقيرة يتردد بين القاهرة والإسكندرية يبحث عن عمل مستعينا بزملائه القدامى فى الجمعية دون جدوى، وإن كانوا قد أمدوه بالمال فى حدود إمكاناتهم، وهو يطمع فى عمل يتعيش منه، وكان كثير الشكوى من شفيق منصور الذى كان يتهرب منه كلما زاره فى مكتبه طالبا معونته، واتجه شطر محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر أيضا، وكان فى إمكانهما لنفوذهما فى الوفد إلحاقه بأية وظيفة يستعين بها على قسوة العيش، ولكن بقى دون عمل حتى تلقفه البوليس السياسى وكان ما كان من أمر اتصاله بعد حادث قتل السردار سير لى ستاك بعبد الفتاح عنايت، وعبد الحميد عنايت (٠٠٠) ومقابلته بالإسكندرية ليعقوب صبرى وعبد الله حسن عوض وحافظ محمد قبودان وأحمد رمضان زيان من أعضاء الجمعية ومكاشفتهم بفكرة الهرب مع عبد الفتاح وعبد الحميد إلى طرابلس الغرب».

(٧١)

ونعود إلى عبد العزيز على وهو يلخص بطريقة بديعة الخطة التى اتبعها «المجرم» نجيب الهلباوى فى الإيقاع بالخلية الفدائية العظيمة، ونحن قد نتوقع بالطبع ألا يكون هذا التصوير الدقيق الذى يقدمه عبد العزيز على هو التصوير المطابق تمام المطابقة لما

حدث، إذ يمكن بالطبع أن تمضى مثل هذه الأمور فى سبل متعددة حتى تعود إلى الخط الكفيل بالوصول إلى الحقيقة، لكننا مع هذا نستطيع أن نعتمد تمامًا على أن الفكرة التى قدمها عبد العزيز هى أقرب الأمور إلى الحقيقة فيما يتعلق بهذه الوقائع.

والشاهد أننا لا نرى تعارضًا كبيرًا بين رواية عبد العزيز على المتقنة والمشوقة والدقيقة، وما رواه محامون محايدون كمحمود كامل فى «ذكريات محام»، أو ما رواه الفدائيون الآخرون حول هذه الوقائع، وإن كان تسلسل الوقائع بالطبع يعكس عقيدة الراوى فى إلقاء التبعة على مَنْ يعتقد فى مسئوليته عن الإيقاع بزملائه، ونحن نرى عبد العزيز على هنا وهو يشير إلى ما لم يشر إليه عبد الفتاح عنايت من خطورة اعترافات الأخير (أى عبد الفتاح عنايت نفسه)، ومع هذا فإن عبد العزيز على يلتمس العذر لعبد الفتاح عنايت وشقيقه، بل إنه يشير على نحو ما سنرى إلى بطولة عبد الحميد عنايت وإيثاره حين عدل عن اعترافاته من أجل إنقاذ عبد العزيز على حين رأى موقف عبد العزيز على جيدًا بسبب إنكاره المتصل.

(٧٢)

وعلى كل الأحوال فمن المفيد أن نقرأ هذا التصوير الذى يقدمه عبد العزيز على لخطة الهلباوى فى الإيقاع بالأخوين عنايت، ومن الإنصاف أن نذكر أن حديث عبد العزيز على عن هذه الجزئية يتميز عن حديث عبد الفتاح عنايت وغيره من رواة الحدث بأنه يتضمن تصويرًا دقيقًا للتطور الطبيعى للعلاقة على نحو ما يجيد الروائى المتميز بناء الموقف على مدى الزمن.

. . . .

« . . . بدأ الهلباوى فى الاتصال بعبد الفتاح وعبد الحميد عنايت متخذا من ماضيه الوطنى وزمالته لأخيهما الأكبر المرحوم محمود واشتراكه معه فى حادث محاولة قتل السلطان حسين كامل ١٩١٥م وإدانته بالحكم عليه بالإعدام شنقًا (أبدل حكم الأشغال الشاقة المؤبدة بالإعدام اتخذ من ذلك ستارا كثيفا وسبيلا لكسب اطمئنانهما له وثقتهما فيه ثقة عمياء، وما كان لمثلهما فى صغر سنهما وبراءتهما وقلة خبرتهما فى الحياة أن يظنا بنجيب الظنون أو يتخذا حذرهما منه».

«كرر نجيب زيارته لهما فى ظل الصورة التى فى مخيلتهما عنه، ولم يدر بخلدهما ما يضمره من شر طمعا فى المكافأة، وأخذ يستدرجهما فى الحديث إلى أن طرق موضوع الاغتيالات السياسية كوسيلة فعالة فى وسائل تحقيق المطالب الوطنية، وأخذ يحبذ القيام بها ووجوب استمرارها، ثم تظاهر بحنينه إلى تجديد نشاطه الوطنى فى هذا السبيل واستعداده التام للفداء، إلا أنه لطول غيبته فى السجون ولتغيير الأوضاع فى البلد يرى نفسه فى حاجة إلى مَنْ يعاونه ويطمئن إليه وأنه حين يعرض عليهما ذلك إنما هو يعتمد كليا عليهما فى مساعدته، وهما أدرى بالجو منه، عساه يتم معهما رسالة شقيقهما الأكبر محمود، ولقى ذلك الحديث المحبب إليهما آذانا صاغية ولمس نجيب منهما الكثير من الاطمئنان إليه والثقة به».

(٧٣)

وينفرد عبد العزيز على بذكر واقعة لقاء الشقيقين عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت مع نجيب الهلباوى فى حجرة من حجرات فندق كان سليم زكى يقيم فى الحجرة الأخرى منه، ومع ما فى هذا التصرف من شبهة السذاجة فإنه يأتى متسقًا مع الإطار الذى رسمه عبد العزيز على للأخوين، وما كانا عليه من براءة وقلة خبرة بالحياة وصغر السن :

«استمر نجيب يلقى شباكه واتفق مع البوليس السياسى على أن يجتمع بالشقيقين فى حجرة فى أحد الفنادق بدل الاجتماع بالمنزل بحجة الابتعاد عن الأنظار، وعلى أن يكون سليم زكى رئيس القسم السياسى بالقاهرة مرابطًا فى الحجرة المجاورة بحيث يسترق السمع لما يدور من حديث، وفى ذلك الاجتماع استدرج نجيب الشقيقين إلى أن اعترفا له بأنهما شاركا فى حوادث الاغتيال السياسى، وفى حادثة السردار، وأنهما يرحبان بمواصلة العمل معه إن وجدا إلى ذلك سبيلاً، وسمع سليم زكى كل ما دار فى ذلك اللقاء الخطير».

«وبذلك وضع البوليس ونجيب أيديهم على بداية الخيط وأخذوا يدبرون للخطوة التالية قبل أن يفلت الخيط من أيديهم، وحتى يتقدموا بالبحث خطوة أخرى إلى الأمام».

ونأتى إلى تصوير عبد العزيز على للخطوة التى كانت حاسمة فى إلقاء القبض على عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت متلبسين، ونحن نرى الهلباوى وقد تمكن من حبك القصة والإيقاع بالشقيقين على نحو ما روى عبد الفتاح عنايت نفسه، كما نرى تصويرًا دقيقًا لتوريط محمود راشد دون مناسبة، وذلك بإحضار السلاح من بيته :

«وكانت الخطوة التالية أن يدخل نجيب فى روعهما أن البوليس أخذ يراقبهم هم الثلاثة، وأنه قد يقبض عليهم، وأخذ يزين لهما فكرة الهرب وهو معهما خارج القطر عن طريق الصحراء الغربية، وأنه قام بتيسير الهرب، فاستجابا لرأيه وازداد هو اطمئنانًا لتكملة روايته وتحقيق مآربه».

«وزارنى عبد الحميد بمنزلى زيارة خاطفة وقال فى لهفة إننا جميعًا مراقبون وأنه عزم على الهرب برًّا إلى ليبيا هو وأخوه عبد الفتاح بمساعدة محمد نجيب الهلباوى الذى سيصحبهما، ولم يكن هناك مكان (يقصد: مجال) للتردد فوافقت، ولم أكن أدرى ما يخبئه لهما الدهر».

«واقترح نجيب أن يكون معهم سلاح وقت الهرب لحمايتهم من الطوارئ فى الطريق (يرمى بذلك إلى معرفة ما إذا كان تحت أيديهما سلاح) وبكل بساطة صرحا له بأن السلاح موجود فى متناول أيديهما، واصطحبه عبد الحميد معه إلى منزل المرحوم راشد برحبة عابدين خلف سراى على باشا عبد الرازق باب باريس وطلب منه أن ينتظره قليلا أمام الباب ريثما يصعد إلى سكن محمود راشد ليحضر السلاح».

«وصعد عبد الحميد وكان راشد موجودًا فقص عليه الخبر فى عجلة وبإيجاز كما قصه علىَّ وطلب منه سلاحا - بعد أن عرف منه أنى على علم بالأمر - فسلمه راشد ما طلب، وبهذا خطا نجيب خطوة أخرى إلى الأمام فى مهمته، إذ عرف المنزل والشقة التى بها مخبأ السلاح، واسم الساكن أيضًا، وهو ممن كانوا تحت المراقبة».

(٧٥)

ويكاد عبد العزيز على يتفق مع الرواية التى قدمها عبد الفتاح عنايت حول إجراءات القبض عليه وعلى شقيقه فى القطار المتجه إلى مرسى مطروح، بيد أن عبد العزيز على يشير إلى أن القطار وقف فى محطة محددة على حين ذكر عبد الفتاح عنايت أن القطار وقف فجأة فى وسط الصحراء:

«ورسم نجيب خطة الهرب بالاتفاق مع البوليس السياسى على أن يسافر مع الشقيقين إلى الإسكندرية وهناك يمكنه الحصول على زى عربى ليتخفوا فيه، وعلى بعض المال من دائرة الأمير عمر طوسون ليستعينوا به على مصاريف السفر، وأن يكون هربهم إلى الحدود بالسكك الحديدية، حتى إذا ما وصل القطار إلى محطة الحمام يباغت البوليس الركاب بالتفتيش بحجة البحث عن السلاح.. وسافر الثلاثة إلى الإسكندرية بعد أن حصلوا على السلاح، وهناك حصلوا على الزى العربى والمال واستقلوا القطار إلى الغرب».

«وما إن وقف القطار بالمحطة حتى صعد الهجانة وتظاهروا بتفتيش الركاب ولديهم التعليمات بأن المقصود بالتفتيش عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت والهلباوى معهما وهم بالزى العربى، واستولى الجند على ما معهم من سلاح وتم القبض عليهم ووقع الشقيقان فى الفخ الذى نصبه لهما نجيب والبوليس وأسقط فى أيديهما، وقد كان نجيب حتى تلك اللحظة موضع ثقتهما وكانا ينزلانه منزلة أخيهما الأكبر المرحوم محمود، وانكشف الغطاء وأحسا بعد الأوان بما كان يدبره نجيب فانهارت قواهما، ولصغر سنهما لم يقويا على تحمل الصدمة وبدأ عبد الفتاح يعترف فى ذهول فى التحقيق الأولى وجاءوا بالثلاثة إلى القاهرة».

(٧٦)

ثم يتطرق عبد العزيز على إلى الحديث عن بعض خطط البوليس التى بدأ فيها بعد أن أصبح فى يده مفتاح القضية، ويشير إلى القبض عليه هو نفسه، كما يشير إلى الواقعة التى أوردها محمود كامل فى مذكراته نقلاً عن البوليس السياسى، وهى واقعة

إصدار عدد من جريدة «المقطم» تحمل خبرًا مزورًا، ومن الجدير بالذكر أن عبد الفتاح عنايت لم يشر إلى اسم الجريدة، وكذلك محمود كامل، أما عبد العزيز على فقد أشار صراحة إلى أنها كانت جريدة المقطم، وهو موقف طبيعى من هذه الجريدة المعروفة بتوجهاتها ضد الحركة الوطنية:

«كانت تلك الخطوة مفتاح القضية وأخذ البوليس - كعادته - يستخدم وسائل التهديد والإغراء، وبدأت التحقيقات وتوالت الاعترافات وتوالى القبض على أفراد الشعبة: شفيق منصور المحامى، ومحمود إسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف، ومحمود راشد المهندس بمصلحة التنظيم، وإبراهيم موسى ومحمد فهمى وراغب حسن وعلى إبراهيم عمال السكك الحديدية.. وقبض علىَّ فى فبراير ١٩٢٥م».

«وبلغ من وسائل البوليس الشيطانية فى بدء التحقيقات أن أوعز إلى جريدة «المقطم» فأصدرت عددًا خاصًا كتبت فى الصفحة الأولى منه وبالبنط العريض خبرًا مزورًا بعنوان: «محمود إسماعيل يقابل وزير الداخلية ويلقى باعترافات خطيرة فى حادث مقتل السردار»، وبطريقة شيطانية عمد البوليس أيضًا إلى توصيل ذلك العدد إلى الشقيقين عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت فاطلعا على الخبر الملفق وجازت عليهما الخدعة وصدقاه واندفعا بعد ذلك - خصوصًا عبد الفتاح - فى الاعترافات».

(٧٧)

ونعود لنستأنف مع عبد العزيز على حديثه عن دور شفيق منصور فى قضية اغتيال السردار، وقد رأينا من قبل أنه قد جاهر ببراءة شفيق منصور من هذه القضية، ومع هذا فإننا نرى عبد العزيز على ناقدًا لموقف شفيق منصور وناقمًا عليه، وقد رأينا من قبل تصويره لمعارضة شفيق منصور فى فكرة القيام بالحادث قبل تنفيذه بيوم واحد، ورأينا تعليل عبد العزيز على لهذا بأن شفيق منصور كان ينظر إلى إستراتيجية الأمر من ناحية مصلحة الوفد الذى كان شفيق منصور قد ارتبط به بعلاقة عضوية، كما نرى إشارته إلى سوء حظ شفيق منصور حين حضر لزيارة صديقه أحمد ماهر فى مكتبه بوزارة المعارف بالقرب من الحادث، وكأنه كان يراقب الحادث، ومن المهم هنا أن نذكر للقارئ أن

وزارة المعارف كانت تشغل فى ذلك الوقت المبنى الذى تشغله الآن وزارة التموين فى شارع قصر العينى (التى أصبحت الآن قطاعًا فى وزارة التضامن الاجتماعى)، وهو مبنى قريب جدًا من موقع اغتيال السردار.

وها هو عبد العزيز على يضيف بعد هذا انتقاده لموقف شفيق منصور الذى يصوره على أنه فقدان السيطرة على أعصابه بسبب التعذيب والتهديد، مما دفعه إلى تقديم تقرير تفصيلى عن حوادث الاغتيال منذ ١٩١٠م وحتى ١٩٢٤م، فضلاً عن تقديمه لأسماء أعضاء الجمعية من شعبتى القاهرة والإسكندرية، بمن فيهم أحمد ماهر والنقراشى:

«. . وفضلاً عن الاعترافات التى أفضى بها بعض المتهمين دون العمال الذين لم يعترفوا بشىء، فإن شفيق منصور بالذات فقد السيطرة على أعصابه لما كان يلقاه من صنوف التعذيب والتهديد فقدم تقريرًا مفصلاً شاملاً لكل حوادث الاغتيال السياسى من بدء قتل بطرس باشا رئيس الوزراء على يد البطل المرحوم إبراهيم ناصف الوردانى ١٩١٠م، إلى مقتل السردار سير لى ستاك فى نوڤمبر ١٩٢٤م، مشفوعًا بأسماء الكثيرين من أعضاء الجمعية من شعبتى الإسكندرية والقاهرة، ومنهم سليمان حافظ المحامى، وأحمد ماهر، ومحمود فهمى النقراشى، وحافظ محمد، ومصطفى حمدى، وكل مَنْ جاء ذكرهم فى هذه المذكرة، فكان ناكثًا للعهد ضارًا بنفسه وبإخوانه ووطنه».

«واتسع نطاق التحقيق واستمر عدة شهور وانتهى بإدانة كلٍّ من: شفيق منصور، ومحمود إسماعيل، ومحمود راشد، وعبد الفتاح عنايت، وشقيقه عبد الحميد، وإبراهيم موسى، وراغب حسن، وعلى إبراهيم من العمال، وسائق السيارة محمود صالح، وتقديمهم إلى المحاكمة».

(٧٨)

وبعد كل هذه التفصيلات يقدم عبد العزيز على معلومات دقيقة عن موقفه هو فى التحقيق، وهو يشير إلى توفيق الله فى إنكاره التام لعلاقته بالتنظيم، وذكائه فى

التخلص من نقاط الارتباط المباشر بالواقعة، وذلك عن طريق تصوير الأمور تصويرًا أقرب إلى الطبيعة منه إلى التآمر، وهو يروى حواراته مع النائب العام نفسه على نحو دقيق:

«. . . وكان النائب العام طاهر باشا هو الذى أجرى التحقيق معى فى حادث قتل السردار بحضور المستر كوين بويد مستشار وزارة الداخلية، وبعد الأسئلة التقليدية عن اسمى وسنى ومهنتى حلفت اليمين على أن أقول الحق، وأخذ فى توجيه أسئلته إلىّ على النحو التالى:

«س: هل تعرف أحمد عنايت؟ أجبت نعم أعرفه، إذ كان زميلاً لى بمدرسة التجارة العليا».

«س: وهل تعرف عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت؟ أجبت نعم أعرف أنهما شقيقا أحمد».

«س: ومتى وكيف عرفتهما؟ وما صلتك بهما؟ أجبت: كنت أذاكر مدة الدراسة مع شقيقهما أحمد بمنزله، وكان من عادته أن يقدم لى شايًا أو قهوة خصوصًا إذا طال بنا وقت المذاكرة، وأحيانًا يتفضل بوجبة خفيفة، وكان يحضر ذلك أحدهما، وكانا وقتئذ صغيرين وكبيرى الشبه ببعض، فلم أكن أميز أحدهما عن الآخر لتقارب سنهما».

«س: وهل كنت تأكل عندهم؟ أجبت نعم، وهنا فطنت - بفضل الله - إلى ما يرمى إليه الباشا وأيقنت أن لا بد وأن أحد المتهمين - ورجحت أن يكون الأستاذ شفيق منصور - قد اعترف بأنى اشتركت فى حادث السردار مستشهدا بأكلة الغداء التى تناولناها (أنا وعبد الفتاح وعبد الحميد ومحمود إسماعيل) بمنزل عنايت فى الجلسة الأخيرة التى قررنا فيها تنفيذ القتل برغم معارضة شفيق، وكان الغداء لحمة رأس بناء على اقتراحى».

«س: وسأل الباشا: وماذا كان يقدم لك من طعام؟ فأجبت كان يقدم لنا ما يتناوله الطالب عادة وهو يذاكر إذا ما طال به وقت السهر ليستعين به على سد رمقه ومواصلة مذاكرته من أكل خفيف كالجبن والخبز والعسل والزبادى مثلاً».

(٧٩)

ونصل مع عبد العزيز على إلى موطن الإيقاع الذى حاول الباشا المحقق أن يتخذه سبيلا إلى إثبات التهمة عليه، ونرى فى إجابات عبد العزيز على قدرة فائقة على المناورة واصطناع البراءة، مما كان له أكبر الأثر فى نجاته :

« وعاد الباشا وسأل : وهل تذكر أنك أكلت عندهم ذات يوم أكلة غريبة؟ أجبت نعم أذكر، وهنا انفرجت أسارير الباشا وظن أنه نجح فى استدراجى» .

«وسأل : صف لنا تلك الأكلة واذكر لنا متى كانت وعما إذا كان شارككم فيها أحد؟ وتظاهرت بأنى أستجمع ذاكرتى وقلت : أذكر أن أحمد عنايت دعانى مرة لتناول الغداء معه ولبيت دعوته ووجدته أعد صينية بطاطس باللحم المحمر فى الفرن ولم يحضر الغداء سوانا» .

«وسأل الباشا فى تعجب ودهشة : وهل البطاطس باللحم المحمر فى الفرن تعد أكلة غريبة؟ أجبت نعم إنها تعتبر كذلك بالنسبة لنا لما تعودته عندهم من قبل من أكل الجبن والعسل والزبادى» .

«وكان لثباتى وهدوئى بفضل الله وإملائى بالإجابة لكاتب الجلسة باللغة العربية الفصحى كعادتى فى كل تحقيق جرى معى، أكبر الأثر فى ميل الباشا إلى تصديقى» .

(٨٠)

ونأتى إلى قدرة أخرى من قدرات عبد العزيز على المتميزة، وهى قدرته على تصوير علاقته بأقطاب الجماعة الفدائية تصويرًا يبدو قريبًا من الحقيقة، كما يكفل له النجاة من الاتهام :

« . . . ثم سألنى (أى المحقق) عما إذا كنت أعرف شفيق منصور أو محمود إسماعيل أو محمود راشد، فأجبت بالنفى عن الأول والثانى، أما الثالث فإننى أعرفه وهو موظف بمصلحة التنظيم، جمعنى وإياه إضراب الموظفين العام» .

«ثم سألنى إذا كنت أعرف إبراهيم موسى ومحمد فهمى وراغب حسن وعلى إبراهيم فأجبت بالنفى».

«ثم أعاد الكرة وسألنى عما إذا كنت قدمت محمود راشد يوما إلى شفيق منصور المحامى للتعرف به بمكتبه بعمارة الكريدى ليونيه بالعتبة الخضراء كما جاء على لسان راشد فى التحقيق؟ فأجبت بالنفى».

«وكنت مطمئنًا كل الاطمئنان فى كل مرة أجبت فيها بالنفى لوثوقى بعدم وجود أية قرينة ضدى».

(٨١)

ويروى عبد العزيز على بكل التقدير الموقف النبيل لزميله فى العمل الفدائى محمود راشد الذى ضرب مثلاً رائعًا فى الوفاء والإيثار، وعدل عن اعترافاته على عبد العزيز على لما وجد أن بالإمكان أن ينجو صديقه من الاتهام، ولست أدرى هل كانت عبارة السيد بك مصطفى عشرة لسان من محقق لبق بارع كما يقول عبد العزيز على، أم أنها كانت، وهذا ممكن ووارد، محاولة نبيلة من المحقق؛ لكى يلقى بطوق النجاة لبعض المتهمين الوطنيين:

«. . . ورأى المحقق السيد بك مصطفى أن يجرى بمكتبه مواجهة بينى وبين محمود راشد فاستدعانى من السجن ذات مساء، وبدأ بسؤالى عن واقعة اصطحابى لراشد إلى مكتب شفيق فتمسكت بأقوالى السابقة وأنى إن كنت أعرف محمود راشد إلا أننى لا أعرف شفيق منصور ولا أعرف مكان مكتبه».

«وهنا أمر بدخول راشد فدخل ووقف فى مواجهتى أمام مكتب السيد بك مصطفى وأنا جالس بجواره وبادره فى غضب بعبارة كانت - من فضل الله - عثرة لسان من محقق لبق بارع مثله، إذ قال لراشد فى حدة: «أريحونى وأريحوا أنفسكم من هذا الوضع الذى سبب لنا ولكم أيضًا كثيرًا من الإرهاق، عبد العزيز يصر على الإنكار بأنه لا يعرف شفيق منصور المحامى ولا يعرف مكتبه ولم يصحبك إلى عمارة

الكريدى ليونيه، فهل مازلت أنت أيضًا مصرًا على أقوالك بأنه هو الذى أخذك معه وعرفك على شفيق بمكتبه؟ وهنا سكت راشد قليلاً سكوت الحيرة وأسرعت أنا، وفى لمح البصر، أومأت إليه برأسى بإشارة أطلب منه الإنكار . . دون أن يلحظ السيد بك حركتى، إذ كان يضع نظارة كثيفة على عينيه، وكان الوقت ليلاً، وكان فى إيماءتى المخرج لراشد من حيرته».

«وألهم الله راشدًا وتراجع فى الحال، وقال بأنه مادام عبد العزيز يذكر أن الواقعة لم تحدث ويصر على ذلك فهو الصادق؛ لأنه معروف بيننا بالذكاء وقوة الذاكرة ومشهود له بالصدق، وأنا آسف إذ خانتنى ذاكرتى، وأثبت المحقق ذلك وانتهت المواجهة لصالحى وضرب راشد بموقفه العظيم هذا مثلاً رائعًا فى الوفاء والإيثار».

(٨٢)

ويشير عبد العزيز على إلى المواجهة التى جرت بينه وبين شاهد آخر من شهود الإثبات، ولسنا ندرى السبب فى حرص عبد العزيز على عدم ذكر اسمه، وإن كان هو نفسه قد أشار فى موضع آخر وفى واقعة أخرى إلى أنه حاول أن يتذكر اسمه فلم يفلح، لكننا نعجب بقدرة عبد العزيز على على اتخاذ المواقف الذكية الكفيلة بتوفير النجاة له، وربما كان الأجدر أن نعجب بتوفيق الله له :

« . . . وكان أحد شهود الإثبات أيد أقوال راشد الأولى عن تلك الواقعة ورأى السيد بك أيضًا برغم عدول راشد عن أقواله أن يجرى مواجهة أخرى بينى وبين ذلك الشاهد وتمت المواجهة بمكتبه وحضرها هذه المرة مستر كوين بويد مستشار الداخلية، ولما دخل الشاهد عرفته إذ كان المرشد السياسى الذى كان سببا فى اعتقالى ١٩١٩م مع الدكتور خفاجى الجراح (ابن أخت على باشا إبراهيم) ومحمود راشد بتهمة إحراز قنابل وسلاح، وهو الذى دسه البوليس السياسى على الأستاذ شفيق منصور ليعمل كاتبا بمكتبه حتى يتسنى له مراقبة الحركة فيه عن كثب ومعرفة المترددين عليه ممن يشتبه فيهم، وقرر الشاهد أنه يعرفنى تمامًا وأنه رآنى ومعى محمود راشد بمكتب شفيق الذى يعمل كاتبًا فيه، فقاطعته فى جرأة لم يكن يتوقعها ولم أعط له فرصة الكلام، وقلت

للمحقق بكل ثبات : إنى مازلت أكرر ما سبق أن ذكرته عن تلك الواقعة ، وإن ما جاء على لسان ذلك الشاهد ما هو إلا محض افتراء لغاية فى نفسه ، وإنى لم أره من قبل ، بل وإنى أترفع عن معرفة أمثاله ، وبهت المرشد من تلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها ، وبهت كوين بويد ، وبدا على السيد مصطفى التشكك فى صحة شهادة المرشد الذى ارتبك ولم يحر جوابًا» .

«وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أنزل السكينة على قلبى وأيدنى فى موقفى أصاب فى الوقت نفسه الشاهد بالذهول والصمت والحيرة فألجم لسانه وانتهت تلك المواجهة أيضًا لصالحى ، وكذلك ينجى الله المؤمنين . . ومَنْ كان الله معه فلا يضل ولا يشقى» .

(٨٣)

ويردف عبد العزيز على هذه القصة بالقصة الحقيقية لمعرفته بهذا المرشد الذى لم يذكر اسمه ، ولماضى هذا المرشد فى الإيقاع برجال الحركة الوطنية والتجسس عليهم لمصلحة البوليس السياسى . ومن العجيب ، أننا نرى فى تصوير عبد العزيز على لشفيق منصور وتصرفاته اتهامًا واضحًا بالسذاجة والغفلة ، إذ إنه لما أراد التخلص من هذا المرشد السرى بناء على نصيحة عبد العزيز على فإنه تخلص منه بأن ابتلى به صديقًا آخر من رجال المجموعة الفدائية :

« . . . والواقع الذى كان الموقف يقتضينى أن أنفيه بتاتا ، أنى أنا الذى اصطحبت معى محمود راشد ذات مساء إلى مكتب الأستاذ شفيق منصور المحامى بالدور العلوى بعمارة الكريدى ليونيه بالعتبة الخضراء ليتم التعارف بينهما بناء على رغبة شفيق عندما انضم راشد إلى الشعبة عن طريقى» .

«ولم نكد ندخل المكتب سويًا حتى وقع بصرنا على كاتب يجلس فى مواجهة الداخل تذكرنا فى الحال أنه هو المرشد الذى كان قد أبلغ عنا ١٩١٩م وعن الدكتور خفاجى الجراح بتهمة إحراز قنابل وأسلحة ، ولم تثبت التهمة علينا لعدم توافر الأدلة ولعدم العثور على شىء ، غير غلاف قنبلة بأحد أركان عيادة الدكتور كان البوليس قد دسه ليؤيد به بلاغه الكاذب» .

«وأيقنا أنه مدسوس من البوليس السياسى ليحصى المترددين على المكتب ويقدم تقريره لرؤسائه أولاً بأول، فلفتّ نظر شفيق إلى ذلك الأمر الخطير، فبادر وتخلص منه ولكن بعد فوات الأوان».

«ثم وقعت مفاجأة يوم أن زرت - بعد ذلك بأيام - مكتب صديقى محمد صفوت المهندس بالعمارة البلجيكية بشارع حسن الأكبر لعمل يخص الشعبة ومعى أيضًا محمود راشد، وإذا بنا نجد المخبر نفسه يعمل به كاتبًا، وكانت غلطة أو غفلة من شفيق لا تغتفر، إذ تبين أنه هو الذى أهدى به صفوت، وما إن كشفنا لصديقنا صفوت عن حقيقة الكاتب حتى عجب من تصرف شفيق وبادر وتخلص منه».

«والواقعتان لا دليل عليهما إطلاقًا سوى شهادة المرشد، وهى ليست قاطعة؛ إذ تحتمل الكذب كما تحتمل الصدق، ويضعفها، بل ويرجح كذبها عدم اعترافى وإصرارى على الإنكار».

(٨٤)

ويشير عبد العزيز على بعد هذا كله بكل الفخر والاعتزاز والتقدير والإكبار إلى الموقف النبيل الذى وقفه عبد الحميد عنايت حين عدل عن اعترافاته من أجل صالح عبد العزيز على، وهو يذكر أنه لم يعرف هذه الحقائق إلا بعد أن أفرج عنه:

« . . . . وما علمته من صديق ثقة بعد الإفراج عنى ووقع من نفسى موقع التقدير والإكبار قصة عدول عبد الحميد عنايت عن اعترافاته ضدى، وتتلخص فى أنه أخذ مرة يجهش بالبكاء فى زنزانته بالسجن بعد عودته من التحقيق ويصيح بأعلى صوته طالبًا السماح له بمقابلة النائب العام؛ لأن لديه أقوالاً مهمة يريد أن يدلى بها أمامه، فأجيب إلى طلبه فورًا، ولما مثل بين يدى طاهر باشا نور أخذ يجهش بالبكاء مرة أخرى واستمر يبكى فسأله الباشا عما يبكيه فلم يجبه فى أول الأمر، فكرر الباشا السؤال وطلب إليه أن يكف عن البكاء وأن يتكلم بما يريد وإلا فسيأمر بإعادته إلى السجن (وأنا أعلم أن عبد الحميد مع صغر سنه يجيد التمثيل فى مواقف الشدة وله سابقة كهذه مع مستر إنجرام سنة اعتقالنا بسجن الأجانب ١٩٢٣م) فأجاب عبد الحميد بأنه تحت الضغط

والمضايقات وإرهاقه فى التحقيق وتكرار السؤال عن عبد العزيز على وعن صلته به ومدى اشتراكه فى حوادث الاغتيال ضعف وأمكن استخلاص الاعترافات الباطلة منه بالإكراه بأن عبد العزيز شريك فى حوادث القتل، لكنه بعد أن عاد إلى زنزانته بالسجن وخلا لنفسه أفاق لسقطته وشعر بما وقع فيه من خطأ جسيم لا يغتفر وبأنه ظلم نفسًا بريئة، وكان الأجدر به أن يصبر على الأذى مهما كان وألا يقول إلا الحق، ولم يكن بد - وهو لم يقو على وخز الضمير - إلا أن يطلب الحضور ليخرج من قلقه ويصحح خطأه بقول الحق فيقرر وهو بكامل قواه العقلية العدول عن الاعترافات السابقة ضد عبد العزيز على، فهو برىء من كل ما نسب إليه، وأمر الباشا كاتب الجلسة ليثبت تلك الأقوال فى المحضر، وضرب عبد الحميد أروع الأمثال فى الوفاء».

«وذكرنى موقف عبد الحميد هذا بوصية عبد الخالق لأخويه عبد الفتاح وعبد الحميد ونحن مجتمعون يومًا بمنزلهم لوداعه قبيل سفره إلى النمسا لدراسة الطب، إذ أوصاهما بالحرص على ولائهما واحترامهما وحبهما لى، وأن يكونا دائمًا بجوارى وطوع إشارتى فى خدمة رسالتنا، ثم شد على أيدينا وأخذ عليهما عهدًا بأن يحملا عنى قدر الطاقة عبء العمل، وأن يجنبانى مواقف الخطر، وأن يفديانى بروحهما، فأنا فى نظره فى منزلة أخيهم الأكبر محمود، وختم قوله بعبارة: «إن وقعت الشعبة فى مكروه لا قدر الله فليكن عبد العزيز آخر مَنْ يضار»، ولم أملك وقتئذ إلا أن أقبله فى جبينه قبلة الإخاء على ذلك الحب الصادق الخالص، والوفاء الجم، وأن أدعو له بالسلامة فى الحل والترحال، والتوفيق فى دراسته وحياته».

«ولعل عبد الحميد بعد اعترافه ضدى تذكر وصية شقيقه عبد الخالق فتيقظ ضميره وبادر بالعدول».

(٨٥)

ونحن نرى عبد العزيز على حريصًا كل الحرص على أن يكرر امتنانه وتقديره لأعضاء الشعبة من العمال الذين تماسكوا تمامًا رغم كل الإرهاق والعنف والتعذيب ولم يعترف عليه واحد منهم فى أثناء التحقيقات، وقد رأينا فى فقرة سابقة أنه كان

حريصًا على أن يشير إلى أن العمال لم يعترفوا بشيء، على حين جاءت الاعترافات من غير العمال :

«ومما يجدر ذكره فى هذا المقام مع التقدير والإكبار ويدل على فرط وفاء أعضاء الشعبة من العمال وحبهم لى، عدم اعتراف أحد منهم رغم ما لاقوه من عنت وإرهاق فى التحقيق وتعذيب فى السجن لحملهم على الإفضاء بمعلومات واستخلاص الاعترافات منهم بالباطل، فبزوا بثباتهم وإخلاصهم باقى إخوانهم فى الشعبة ممن انهارت قواهم ولم يصمدوا فاعترفوا».

«ولولا موقف الرجولة والوفاء من العمال، ولولا ما أيدنى به الله من قوة فثبتنى ولم أعترف، ولولا تضارب أقوال مَنْ اعترفوا، ولولا عدول بعضهم (راشد وعبد الحميد) عن أقوالهم واعترافاتهم لأداننى التحقيق ولحولت إلى المحاكمة مع مَنْ أدينوا وحوكموا، إلا أنى بقيت فى المعتقل حوالى تسعة الشهور بين سجن الأجانب وقراميدان بالقلعة، ثم بسجن الأجانب إلى ما بعد تنفيذ حكم الإعدام شنقًا فى الفدائيين الأبطال».

. . . .

«وصدر الحكم على المتهمين فى ٧ يونيو ١٩٢٥م بالإعدام شنقًا إلا محمود صالح فقد حكم عليه بالسجن مع الأشغال لمدة سنتين، وخفف عن عبد الفتاح إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، وكانت المحكمة مؤلفة من أحمد عرفان باشا، والمستر كرشو، ومحمد مظهر».

(٨٦)

ومن أكثر الفقرات تأثيرًا فى مذكرات عبد العزيز على، هذه الفقرة التى يلخص فيها بتركيز شديد موقف زملائه الذين أعدموا تنفيذًا للحكم فى قضية مقتل السردار :

«وفى صباح الأحد ٢٣ يوليو ١٩٢٥م وبدون سابق إعلان كان تنفيذ حكم الإعدام شنقًا فى المحكوم عليهم حسب الترتيب الآتى :

«عبد الحميد عنايت، وكان رابط الجأش، وكانت آخر كلماته : «قمت بعملى أحسن قيام وإنا لله وإنا إليه راجعون . . رب أدخلنى جنة النعيم» .

«شفيق منصور، وكان فى منتهى الضعف والاضطراب وأخذ يصيح : «عاوز أشوف أختى» .

«إبراهيم موسى، وكان رابط الجأش، وصاح : «إن قلبى مطمئن بالإسلام» ونطق بالشهادتين» .

«على إبراهيم، وكان ثابتًا هادئًا وأوصى بالتمسك بالدين وأن يتبرءوا ممن يخالف دين محمد، ونطق بالشهادتين» .

«راغب حسن، وكان كثير الصياح، وصاح بأنه مظلوم وبأنه لم ير ابنه وأن ذنبه فى رقبة مَنْ ظلمه» .

«محمود راشد، وكانت الابتسامة لا تفارقه وصاح بأنه يعلم أنه برىء، وطلب أن يدفن مع والده، ونطق بالشهادتين» .

«محمود إسماعيل، وكان ثابت الجأش، وصاح : «إن دمى على رأس مَنْ ظلمنى وأنا وابنى وأهلى فداء لمصر وليسقط الظلم»، ونطق بالشهادتين» .

«واستلم محمد نجيب الهلباوى على حساب القيم الأخلاقية وجثث الأبطال مكافأة العشرة الآلاف جنيه التى وعد بها» .

(٨٧)

وتنفرد هذه المذكرات بتقديم تفصيلات مهمة عن التفكير فى اغتيال الخائن محمد نجيب الهلباوى بدس السم له فى الشراب، ويذكر عبد العزيز على بكل تفصيل حقيقة دوره فى هذه المحاولة :

« . . . فى غضون سنة ١٩٢٧م عاد الدكتور عبد الخالق عنايت من النمسا إلى مصر لزيارة عائلته، وكانت هديته لى زجاجة صغيرة جدًا تكاد تكون فى حجم زجاجة القطرة أو أقل منها وبها سم، وهو من أخطر أنواع السموم، وقال وهو يقدمها لى

خفية : إنه أحضرها معه خصيصًا لمحاولة قتل محمد نجيب الهلباوى والتخلص منه بدس السم له فى شراب أو طعام جزاء وفاقًا على خيانته» .

«ومكث الدكتور بيننا بضعة أيام وكان عليه أن يعود إلى النمسا لتأدية الامتحان النهائى فى الطب ، إلا أن السلطات هنا اتخذت معه إجراء تعسفيًا يوم سفره ، إذ أنزلته من الباخرة وهى تتأهب للرحيل من ميناء الإسكندرية ومنعته من مغادرة القطر وأمرته بالبقاء بمصر إلى أن يعود الملك من أوروبا (وكان وقتئذ فى زيارة لإنجلترا) حتى لا يكون فى أوروبا ما دام الملك هناك خشية على حياته ، طال حجز عبد الخالق وضاعت عليه فرصة دخول الامتحان فى ميعاده ، وعالجت الموقف بإرسال برقية إلى مدير الجامعة بانسبورك أبلغه اعتذار الدكتور عبد الخالق عن التخلف عن أداء الامتحان لعدم تمكنه من العودة لظروف قهرية خارجة عن إرادته» .

«وبمجرد أن عاد الملك من رحلته من الخارج أخلى سبيل الدكتور ، وسمح له بالسفر وسافر فورًا إلى النمسا تاركًا لى مهمة الانتقام من الهلباوى ، وقابل مدير جامعته وشرح له تصرف السلطات المصرية معه فقدر المدير موقفه وسمح له بأداء الامتحان الذى اجتازه بتفوق» .

ربما جاز لنا هنا أن نتوقف لإبداء العجب من هذا السلوك البوليسى الذى بالغ فى الاحتياط ، فحرص على وجود المشكوك فى أمره فى مصر بعيدًا عن أوروبا ، حيث كان الملك فؤاد يزورها .

(٨٨)

ونأتى إلى ما يرويه عبد العزيز على عن سبب توقفه عن محاولة دس السم لنجيب الهلباوى وهو الإجراءات المحكمة التى حرص الهلباوى على أن يحيط بها نفسه :

«ثم أخذت فى عمل التحريات عن أخبار وتحركات نجيب الهلباوى ، وأمكننى أن أصل بعد جهد إلى أنه لم يطق البقاء فى القاهرة بعد تنفيذ حكم الإعدام فى حادث مقتل السردار واستيلائه على مبلغ العشرة الآلاف جنيه المكافأة التى وعد بها ، ونزح ـ لعنة الله عليه ـ إلى بلدته «أبا الوقف» بالصعيد ليتوارى عن الأنظار ولينشد الأمان

والطمأنينة على حياته بين أهله وعشيرته، وأنه يقبع فى عقر داره خائفًا يترقب، وأن شبح الانتقام يطارده ولا يفارق خياله، فلم يغادر البلد خوفًا على حياته من أى اعتداء قد يقع عليه، وبذا لم يكن الطريق إلى التنفيذ سهلاً، خصوصًا لو علمنا أى غريب يدخل القرية يكون محط الأنظار وموضع تساؤل من المتطفلين وما أكثرهم! وينفضح أمره بسهولة، وقد يتعرض للأذى وتتعرض مهمته للفشل، ومن معوقات التنفيذ أيضًا أنه لم يكن على قيد الحياة من أعضاء الجمعية للاستعانة بهم سوى الأستاذين محمد حمدان عبده (بالمعارف) ومحمد ربيع (بالزراعة) وهما من شعبتى، ومن الخطر المجازفة بإشراكهما فى العملية، حيث لم يسبق اختيارهما فى عملية قتل، وإن كانا قد أتما دور التدريب على استخدام المسدس، وبذا قدر لنجيب أن يفلت من الانتقام، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، ولئن أفلت الهلباوى من الجزاء فى الدنيا، فلن يفلت من عقاب الله فى الآخرة، والله شديد العقاب».

(٨٩)

ومع كل هذا يحرص عبد العزيز على على أن يشير إلى أنه ظل محتفظًا بزجاجة السم حتى أهداها فى ١٩٦٤م لفريق الإخوان المسلمين الذين كان قد بدأ فى تشجيعهم ضد نظام عبد الناصر:

«أما الزجاجة فبقيت محتفظًا بها والأمل يراودنى أن يهيئ الله لنا فرصة لتنفيذ محاولة اغتيال نجيب، وهذا لم يتم حتى شاء الله أن أهديها لفريق من الإخوان المسلمين ١٩٦٤م».

(٩٠)

على أن علاقة عبد العزيز على بالعمل السرى والاغتيالات السياسية لم تتوقف بصدور الأحكام فى قضية السردار، وإنما نجد أن هذه العلاقة قد تواصلت بعد اثنى عشر عامًا، وإن لم تكن الجماعة المسئولة عنها هى الجماعة نفسها التى أتمت محاولات الفترة الأولى (١٩١٠ ـ ١٩٢٤م).

ونحن نرى فى مذكرات عبد العزيز على حديثًا تفصيليًا عن كثير من هذه الأعمال الجديدة بدءًا من ١٩٣٧ وحتى ١٩٥٢م، لكننا لا نرى ملامح التنظيم واضحة بالقدر الذى كانت واضحة فيها قبل ١٩٢٤م، ولسنا نستطيع أن نزعم أننا ندرك السر الحقيقى فى تعامل عبد العزيز على مع المجموعات الجديدة من أقطاب العمل الفدائى على هذا النحو نصف الغامض.

ويضمن عبد العزيز على هذه المذكرات اعترافًا بدوره فى تدبير الانفجارات التى حدثت بالسينما الواقعة إلى جوار جمعية الشبان المسيحية ١٩٣٧م، وإصابة الجنود البريطانيين والسلطات البريطانية بالذعر:

«. . . رأيت - وقد فاض الكيل - أن الفرصة سانحة لأعبر عن السخط على ذلك التمزق، وعن معارضة الأمة للمعاهدة بطريقة العنف، وأن أضرب عصفورين بحجر واحد، وكان بجوار جمعية الشبان المسيحية بشارع إبراهيم باشا سينما صيفية يرتاد صالتها المكشوفة الضباط الإنجليز والهنود، ووضعت الخطة لمهاجمتها، واتفقت مع زملائى عبد المعطى عطية (عضو الحزب الوطنى) وكان يملك سيارة صغيرة، وعز الدين فهمى وشقيقه عبد القادر فهمى (من جماعة مصر الفتاة) على أن يلقى عبد القادر قنبلة يدوية على صالة السينما فى يوم تزدحم فيه بروادها، فاخترت مساء يوم أحد على أن يقف عبد المعطى ومعه عز الدين بسلاحه قرب مدخل السينما بشارع إبراهيم فى حالة استعداد وترقب لتأمين هرب عبد القادر بعد التنفيذ، وعلى أن أتولى بنفسى الخطة التى وضعتها وهى مراقبة المكان وإعطاء الإشارة بالبدء، وعرض على عبد القادر عند شرح الخطة أن يستعين بزميل له يثق به ويطمئن إليه وسبق له أن جربه فى إلقاء القنابل، فوافقت وزودنا كلاً منهما بقنبلة، وتم كل شىء فى هدوء حسب الترتيب المرسوم، وبمجرد أن أعطيت الإشارة ألقى كلٌ من المنفذين قنبلته على الصالة من فوق السور الخلفى للسينما المطل على حارة جانبية بعد بدء العرض بقليل، وأحدثت القنبلتان دويًا هائلاً وقتل وأصيب الكثير من الضباط، وتمكن عبد القادر وزميله من التسلل بمنتهى الهدوء والثبات من خلف السور وعادا إلى سيارة عبد المعطى التى كانت فى انتظارهما، ولم أترك المكان حتى اطمأن قلبى وغابت السيارة عن الأنظار».

«نجح التدبير والحمد لله، وفى اعتقادى أن كتمان التدبير وإحكام الخطة وعامل المفاجأة لأعظم قدرًا وأخطر شأنًا من نجاح التنفيذ نفسه، ولولا إحكام الخطوة الأولى ما كان نجاح الخطوة التالية، ووصفت الصحف الحادث بأنه خطير وبأن الصالة تحولت إلى بركة من الدماء لكثرة المصابين، وبأن الخطة كانت محكمة والتنفيذ مفاجئًا، ولم يقبض على أحد ولم يعرف الفاعلون، وبقى الحادث سرًا دفينًا، مما زاد من جلاله، لا يعرف تفصيله إلا مَنْ دبره ومَنْ نفذه وقيد ضد مجهول».

(٩١)

بعد هذا الحديث الواضح عن الحوادث التى قامت بها الجمعية السرية التى كان ينتمى إليها، ننتقل إلى حديث عبد العزيز على (فى مواضع متفرقة من مذكراته) عن بعض حوادث الاغتيال التى قام بها المنتمون للحزب الوطنى أو المتشبعون بأفكاره فى تحريم المفاوضة إلا بعد الجلاء(!!)، ومنها محاولات اغتيال سعد زغلول، وأحمد ماهر، وأمين عثمان.

يتحدث عبد العزيز على عن مصرع أحمد ماهر، فيقدم تعريفًا مشرفًا لشخصية محمود العيسوى، ويحرص على نسبته إلى الحزب الوطنى، ولا يتناول ما كان يثار عن علاقته بالإخوان المسلمين:

«. . . وما يكاد [أحمد ماهر] يخرج من مجلس النواب مغتبطًا بتلك النتيجة متجهًا إلى مجلس الشيوخ ليلقى فيه البيان حتى باغته الفدائى الوطنى محمود العيسوى المحامى وأطلق عليه من مسدسه أربع طلقات اخترقت صدره وأردته قتيلاً، وساد المكان هرج ومرج وثبت العيسوى فى مكانه ولم يحاول الهرب، وقبض عليه وسيق إلى السجن رهن التحقيق».

«ومحمود العيسوى من شباب الحزب الوطنى المتطرف دمث الخلق، ذكى، جرىء فى الحق، حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٣٩م، ودبلوم القانون الخاص سنة ١٩٤٠م، ودبلوم القانون العام ١٩٤١م، وبعد إبرام معاهدة ١٩٣٦م أعد رسالة الدكتوراه فى الحقوق عن مركز مصر الدولى، وكان يعمل بمكتب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى المحامى الوطنى».

«وألقى القبض عليّ وعلى عبد السلام مصطفى المحامى زوج كريمتى ضمن مَنْ قبض عليهم وأودعنا سجن قسم مصر الجديدة على ذمة التحقيق بتهمة اشتراكنا فى الحادث لمجرد أننا من الحزب الوطنى، وأنا من أصدقاء القاتل».

(٩٢)

وينفرد عبد العزيز على فى حديثه عن اغتيال أحمد ماهر برواية حقيقة مهمة، وهى أن محمود العيسوى وحده هو الذى سهل إدانة نفسه باعترافه، ذلك أن جسم الجريمة لم يعثر عليه!!:

«وقال أحد الثقات يومئذ: إن جسم الجريمة - وهو المسدس - لم يعثر عليه، ولو شاء العيسوى وأنكر لما أدين ولما حوكم».

«وفى ٢٨/ ٧/ ١٩٤٥م صدر حكم الإعدام شنقًا، ولما جيء به إلى المشنقة توضأ وصلى ركعتين قبل أن يعدم، رحمه الله رحمة واسعة مع الأبرار والشهداء والصالحين، وكان قد أخلى سبيل كل المقبوض عليهم».

(٩٣)

ونأتى إلى حديث عبد العزيز على عن واقعة اغتيال أمين عثمان التى ألصقت فى أذهان الكثيرين وفى أدبيات التاريخ المصرى المعاصر بمجموعات متطرفة، أو بالوفد نفسه، أو بالحرس الحديدى، أو بالضباط الأحرار، ونفاجأ بأن عبد العزيز على يقدم أدلة قوية وتفصيلات دقيقة تجعل المحاولة من مسئولية شباب الحزب الوطنى.

ويلخص عبد العزيز على تاريخ حياة أمين عثمان من وجهة نظر الحركة الوطنية السرية، فلا يشير إلى علاقته بالوفد، ولا إلى جهوده فيما سبق توقيع معاهدة ١٩٣٦م، أوفى أجهزة الحكومة، وإنما هو يركز كما هو متوقع على تصوير شخصيته على النحو الكفيل بإدانة الرجل واستجلاب الغضب عليه:

«ظهر أمين عثمان على المسرح السياسى، وكان من مواليد الإسكندرية، ودرس فى كلية فيكتوربا بها، ونال شهادة البكالوريا ١٩١٨م، ثم سافر إلى إنجلترا ودرس القانون

بجامعة أكسفورد وحصل على درجة الأستاذية [أى الماجستير] فى ١٩٢٣م، وتزوج من الليدى كاتلين جريجورى الإنجليزية وعاد إلى مصر ١٩٢٤م، وتبنته إنجلترا فتدرج بسرعة فى الوظائف الحكومية الرئيسية حتى عين وزيراً للمالية ١٩٤٢م».

«وكانت لأمين عثمان بوصفه سكرتير عام هيئة المفاوضات اليد الطولى فى إنجاح مفاوضات الود على يد مصطفى النحاس، والتى انتهت بتوقيع معاهدة ١٩٣٦م المشئومة، مما رشحه ليكون همزة الوصل بين الإنجليز والوفد»

(٩٤)

وسرعان ما يصل عبد العزيز على من هذا التصوير إلى مواقف أمين عثمان التى سبقت اغتياله ذاكراً بعض ما عجّل بقرار اغتياله من تأسيسه لجماعة النهضة وتصريحه الشهير، وهما أمران معروفان، لكنه يضيف إلى هذين الأمرين المعروفين أمرين آخرين هما: تقديمه تبرعًا للبريطانيين لإعادة بناء قراهم التى دمرتها الغارات الألمانية فى الحرب العالمية الثانية، وتردد الأنباء عن ترشيحه ليشكل وزارة بريطانية الطابع، وهى رواية غير مؤكدة فى المصادر الأخرى:

«وفى ١٩٤٤م أسس [أى أمين عثمان] جماعة لتوثيق الروابط بين إنجلترا ومصر سماها «رابطة النهضة» واتخذ لها مقرّا ٢٤ شارع عدلى بالقاهرة، وأبدى نشاطًا ملحوظًا لدعم جماعته الجديدة، وأخذ يلقى بوصفه رئيس الجماعة تصريحات كشفت عن سوء نيته توجها بتصريحه المشهور «إن إنجلترا ومصر متزوجتان زواجًا كاثوليكيّا لا انفصام بينهما».

«وفى أواخر ١٩٤٥م سافر إلى لندن ليقدم للحكومة البريطانية مبلغ مائة ألف جنيه على أنه تبرع جمعه من الشعب المصرى للمساهمة فى إعادة بناء القرى البريطانية التى دمرتها الغارات الألمانية فى الحرب الكبرى».

«ولما عاد أمين عثمان من إنجلترا ترددت أنباء عن اتجاه الحكومة البريطانية إلى ترشيحه لتشكيل وزارة مصرية برئاسته ويكون من أعضائها ملك القطن فرغلى باشا والمليونير عبود باشا وصيدناوى باشا، وأمثالهم ممن ترضى عنهم إنجلترا».

(٩٥)

ويقدم عبد العزيز على فى هذه المذكرات وصفًا موجزًا ودقيقًا لعملية اغتيال أمين عثمان، ويحرص فيما يرويه على ذكر اسم المهندس الذى أبلغ قسم عابدين بشكوكه فى حسين توفيق :

«وفى مساء ٥ من يناير ١٩٤٦م تربص لأمين عثمان ثلاثة شبان أطلقوا عليه الرصاص وهو يهم بدخول مقر الرابطة وأصابوه ونقل فى الحال إلى مستشفى مورو بالجيزة وحالته خطيرة للغاية، وتولى الدكتور مورو إجراء عملية جراحية له لإنقاذ حياته ولكن دوى جدوى، وتوفى على الأثر ووقى الله البلاد من شره وذهب غير مأسوف عليه» .

«وبعد الحادث بقليل تلقى قسم عابدين بلاغًا بتوقيع عبد العزيز الشافعى المهندس سابقًا بوزارة المواصلات يقول فيه إنه عضو فى رابطة النهضة وأنه شهد قبل الحادث شخصًا يختفى وراء شجرة قريبة من الدار، وكان قد لاحظ وجوده على تلك الحال قبل ذلك عدة مرات، وأنه يعرف أنه حسين توفيق أحمد نجل وكيل وزارة المواصلات» .

«فاتجهت شبهات البوليس السياسى نحو حسين توفيق وفتش منزله وقبض عليه وعلى أخيه وأودعا السجن للتحقيق، ولم يطق حسين صبرًا على حياة الزنزانة التى لم يتعودها فانهارت قواه واعترف، وألقى البوليس بناء على اعترافه القبض على الكثيرين ومنهم عزيز المصرى باشا وأنور السادات، وأدين حسين [توفيق] وحوكم، وحكم عليه بالسجن، ودبر خطة الهرب، وهرب قبل أن يقضى المدة كلها فى السجن» .

(٩٦)

ويحرص عبد العزيز على على أن يشير إلى أن بعض مَنْ شاركوا (بالتدبير والتخطيط والتنفيذ) فى اغتيال أمين عثمان لم يتهموا من الأساس!! وهو ينسب الفضل فى تخطيط العملية وإدارتها إلى الأستاذ سعد كامل وشباب الحزب الوطنى! وهكذا ينزع عبد العزيز على الفضل فى العملية عن المجموعات التى دأبت أدبيات تاريخنا المعاصر على نسبة الواقعة إليها .

ويبدو بوضوح أنه يلمح إلى أنه كانت له هو نفسه علاقة ما بهذه العملية الجريئة، ولنقرأ هذا الذى يرويه:

«. . . وكما يحدث عادة أقحم فى الاتهام كثيرون لم تكن لهم صلة بالحادث وقد حكمت المحكمة فعلاً ببراءتهم، أما الذين دبروا وخططوا ونفذوا فمنهم مَنْ لم يتهم أصلاً، ومنهم مَنْ اتهم وحكم عليه، وكانوا كلهم والحق يقال مجموعة من شباب الحزب الوطنى شكلها وتولى قيادتها الأستاذ سعد كامل ابن أخت الأستاذ فتحى رضوان، وكانوا ممن اعتنقوا مبدأ الحزب الوطنى مع المجموعة التى انشقت من حزب مصر الفتاة بقيادة الأستاذ فتحى رضوان، وكونوا من بينهم اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى، واتخذوا مقرّا لهم فى شارع شريف، بينما كان المقر الرئيسى للحزب فى شارع قصر النيل، وبدءوا نشاطهم بمواصلة الاجتماع بمقرهم يدبرون ويرسمون الخطط للعمل الفدائى السرى بعيدًا عن المقر العام للحزب، وقاموا فعلاً بمحاولات اغتيال بعض الضباط الإنجليز بضاحية المعادى قبل قيامهم باغتيال أمين باشا عثمان».

ويعود عبد العزيز على ليؤكد على حقيقة أو مفارقة أن البوليس لم يتهم مَنْ قام بالتدبير والتخطيط لاغتيال أمين عثمان فيقول:

«. . . ومع أن الأستاذ سعد كامل كان المدبر والمخطط للمجموعة فإنه لم يتهم فى مقتل أمين عثمان، فأخذ يحاول إنقاذ زملائه الذين اتهموا فيه وخطط لاختطاف المتهم حسين توفيق وهو فى طريقه إلى عيادة طبيب الأسنان التى كان مسموحًا له أن يتردد عليها، ولكن الخطة لم تنجح»

(٩٧)

وتنفرد مذكرات عبد العزيز على بتقديم تفصيلات مهمة عن تهريب حسين توفيق إلى السعودية، ومن الانفرادات التى يقدمها ذكره أن هذا التهريب قد تم بمساعدة الأمير فيصل (الملك فيصل بن عبد العزيز)، وهو يذكر بالتحديد الأدوار التى لعبها كلٌ من سعد كامل، وعصمت سيف الدولة، ومحمد إبراهيم كامل، وإحسان عبد القدوس،

وقد أصبحوا جميعًا نجومًا فى الحياة السياسية، بل إن محمد إبراهيم كامل عين وزيرًا للخارجية بعد نشر هذه المذكرات :

« . . . وحدث أن طلب حسين توفيق فى إحدى المرات من الضابط المرافق له أن يسمح له أن يزور والدته فى مصر الجديدة فأذن له وذهبا معًا، وفى أثناء الزيارة دخل حسين توفيق دورة مياه الفيلا فوجد نفسه أمام الباب الخلفى للفيلا فخرج إلى الحديقة ومنها إلى الشارع وفكر فى الهرب، ولم يكن أصلاً يدبر له، واستأجر سيارة واتجه بها إلى منزل الأستاذ سعد كامل بالدقى وفاجأ الأسرة بدخوله، ثم أخذه الأستاذ سعد وتوجه به إلى مكتب الأستاذ عصمت سيف الدولة بشارع خيرت بالسيدة زينب، وهناك استدعوا الأستاذ محمد إبراهيم كامل الذى كان متهمًا مع حسين توفيق وقضى مدة عقوبته، ومن هناك انتقلوا إلى منزل الأستاذ إحسان عبد القدوس وكان يعتبر نفسه من شباب الحزب الوطنى، وبعدها نقل حسين مرة أخرى إلى مصر الجديدة بمساعدة الضابط حسن عزت» .

«وهكذا جمعت هذه الحادثة بين أفراد من أعمار مختلفة من أبناء الحزب الوطنى واستطاعوا أن يهربوا حسين توفيق عن طريق قنا والقصير إلى السعودية بالاتفاق مع الأمير فيصل الذى تولى الملك بعد ذلك» .

(٩٨)

وينفرد عبد العزيز على بحقيقة أخرى، وهى أن والد حسين توفيق نفسه رفض تمويل نفقات هرب ابنه وطلب من مهربيه أن يقنعوه بتسليم نفسه وأن شباب المجموعة الفدائية لجئوا إلى حيلة أخرى وهى استكتاب حسين توفيق تفصيلات غير دقيقة لاختفائه، ونشر هذه التفصيلات بخط يده فى «أخبار اليوم» مقابل مكافأة كبيرة، مما مكنهم من الحصول على المال اللازم لتهريبه عبر القصير، والواقع أن عبد العزيز على يحرص بهذه الرواية على نفى ما شاع ولايزال يذاع من أن الملك فاروقًا كان على علاقة بتهريب حسين توفيق!! :

«ولقد قيل يومئذ إن للملك فاروق يدًا فى تهريب حسين توفيق أو علمًا بطريقة هربه، وأن أبا حسين قد ساعد فى ذلك، والحقيقة أن شباب المجموعة الفدائية لجئوا إلى

والد حسين يطلبون منه مبلغ ٥٠٠ جنيه يدفعونها أجرًا لصاحب القارب الذى سيبحر به من القصير إلى السعودية فرفض، وطلب إليهم أن يقنعوا حسين بتسليم نفسه، فاحتالوا للحصول على المبلغ بطريقة أخرى واستكتبوا حسين مقالاً بتفصيلات غير دقيقة لاختفائه وهربه وباعوها إلى جريدة «أخبار اليوم» التى نشرتها بالزنكغراف وفازت بصفقة صحفية ناجحة وفازوا هم بالمبلغ الذى مكن لزميلهم الهرب إلى الخارج».

(٩٩)

ومن الطريف أن عبد العزيز على يروى ما يدل على نيته المبكرة قتل سليم زكى حين يصل إلى الحديث عن مصرعه فى سياق روايته لتسلسل الأحداث التاريخية :

« . . . وتجددت مظاهرات الطلبة الصاخبة، والطلبة دائمًا وقود الثورات، واشتد الهياج وقام البوليس المصرى يحاول تشتيتها وقمعها بالقوة، وسنحت الفرصة لأحد طلبة الطب فألقى قنبلة من فوق سطح الكلية على رئيس القسم السياسى سليم بك زكى الذى كان يشرف بنفسه على حركة القمع فأرداه قتيلاً».

«وإن كان الشىء بالشىء يذكر، فسليم زكى هذا كنت راقبته من قبل أنا ومعى عبد الحميد عنايت ليلتين متتاليتين، وكانت الشعبة قد قررت قتله وهو عائد من عمله بالمحافظة بباب الخلق إلى منزله بروض الفرج، وكنا نتربص له لساعة متأخرة من الليل ولا يحضر فننصرف دون أن نظفر به، وبقى حيًا يرزق حتى أتاه اليقين، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان : ٣٤] ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٤].

(١٠٠)

ونأتى إلى المرحلة التى خرج فيها نشاط الجماعات المرتبطة بالحزب الوطنى السرية إلى نطاق العلانية بعد أن هبت مصر كلها من أجل الدفاع عن حقوقها بعد إلغاء معاهدة

١٩٣٦م، ونرى عبد العزيز على يتحدث عن جهود شباب الحزب الوطنى فى بعث المقاومة الوطنية فى القنال بعد إلغاء المعاهدة، مشيرًا إلى الأدوار التى قام بها كلٌ من يوسف حلمى، وماهر محمد على وغيرهما :

«منذ أن بدأت تتبدد أوهام تحقيق الاستقلال عن طريق المفاوضات مع العدو المحتل بعد الحرب العالمية الثانية، ويتضح صدق شعار الحزب الوطنى الذى لم يتنازل عنه أبدًا من أنه «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء»، وقبيل إلغاء المعاهدة المشئومة سنة ١٩٥١م اتخذت دعوة الحزب الوطنى للجلاء الناجز والاستقلال التام سبيلها إلى النفوس بقوة، واقترح الأستاذ فكرى أباظة عضو الحزب فى مجلة المصور عمل شارة يكتب عليها «الجلاء» يضعها المصريون على صدورهم، وسرعان ما قبل المصريون الاقتراح، ولبس أغلبهم تلك الشارة وحولت الحركة الشعبية وجهها شطر الحزب الوطنى تتزود من فلسفته الوطنية، ومنهجه وأسلوبه فى التعامل مع الأعداء، مما حمل وزارة الوفد تحت الضغط إلى إلغاء المعاهدة».

(١٠١)

وهو يتحدث عن قرار «شعبى» غير مشهور اتخذه شباب الحزب الوطنى بقتل مَنْ يفاوض الإنجليز، ونحن نفهم بالطبع سر إهمال الحديث عن هذا القرار فى الأدبيات التى صدرت بدءًا من عهد الثورة، ذلك أن رجال الثورة أنفسهم فاوضوا البريطانيين وعقدوا معهم الاتفاقات :

«وما إن ألغيت حتى عبر الشعب عن تقديره لفضل الذين كانوا على حق وأقاموا حفلة كبرى فى فندق الكونتننتال لتكريمهم وكلهم من رجال الحزب الوطنى، وكان معهم الأستاذ وهيب دوس المحامى ممن كانوا اعترضوا على المعاهدة، وفى ذلك الحفل الكريم أصدرت جموع الشباب قرارًا جماعيًا تلاه على الحاضرين الأستاذ يوسف حلمى أحد شباب الحزب الوطنى، يقضى بقتل كل مَنْ يتحدى إرادة وشعور الشعب ويقدم على مفاوضة الإنجليز مرة أخرى».

«وأخذ الشبان يجتمعون فى دارهم فى شارع قصر النيل، وهمُّهُم بحث ومناقشة دورهم فى النضال بعد إلغاء المعاهدة، وأسفرت اجتماعاتهم عن تقرير الخروج من

دائرة المسالمة إلى انتهاج طريق العنف والعمل الفدائى، وتشكيل الكتائب العسكرية، وحث المصريين على التطوع للانضمام إليها لمقاومة الإنجليز وطردهم».

«ثم بدءوا بالإعلان عن ذلك بكتابة منشور وزعوه فى ١٩ أكتوبر ١٩٥١م بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة، وبعد أن أعلن الأستاذ ماهر محمد على من فوق منبر الأزهر بعد الصلاة دعوة الحزب لإنشاء كتائب التحرير، وقوبل إعلانه بالتكبير والتهليل».

«وذاعت الفكرة وانتقلت إلى الأحزاب، وسارع كل حزب بالإعلان عن تكوين كتائب تحرير خاصة به، واتخاذ معسكرات خارج القاهرة، وزخرت بالمئات من المتطوعين، ولكنها كانت مع الأسف إلى الفوضى وحب الظهور أكثر منها إلى النظام والعمل الجاد، واختلط فيها الحابل بالنابل، وكان هم كل حزب أن يعلن عن أعداد المتطوعين، وأن يستعرضهم دون أى اهتمام بحسن الاختيار أو التدريب».

«وأما شباب الحزب الوطنى الذين كانت لهم خبرة سابقة بالنشاط السرى، فقد اتخذوا من تلك الحركة الشعبية الدافقة سبيلاً لتشكيل كتائب مقاومة يُنتقى أفرادها ويدربون أفضل تدريب، ويسلحون بما فيه الكفاية، وكل ذلك طبق نظام دقيق وسرى، ومبعث السرية هنا هو عدم اطمئنانهم لما كانت تتظاهر به الحكومة من الرضا عن العمل الفدائى».

(١٠٢)

وهو حريص على الإشارة إلى طبيعة نمو العلاقة بين عصمت سيف الدولة وبين رشاد مهنا وعبد المجيد فريد، والجهود التى بذلها هو نفسه مع ثلاثتهم فى سبيل تنظيم المقاومة وتدريبها على الأسلحة، بل إنه يذكر بكل وضوح أنه شكل كتيبتين تضم كل واحدة عشرين متطوعًا، وأنه كان هناك قائدان مدنيان للكتيبتين، ونحن نلاحظ أن مجموعة العسكريين التى شاركت فى هذا العمل تنتمى إلى ما يسمى فى أدبيات تاريخ الثورة «تنظيم ضباط الطيارين»:

«ويشاء القدر أن يكون الأستاذ عصمت سيف الدولة المحامى أحد أفراد هؤلاء الشبان، (أى شبان الحزب الوطنى) محاميًا لأسرة الضابط عبد المجيد فريد الذى توثقت

بينهما الصلة خلال عمله ، وعن طريقه تم التعارف بين عصمت والضابط رشاد مهنا ، وأخذ الثلاثة يجتمعون بمكتب الأستاذ عصمت بشارع خيرت بالسيدة زينب يدبرون خطة إعداد المتطوعين ، واتفقوا على أن يتم اختيار الصالحين منهم بعد اختبارات دقيقة ، ثم يدعون إلى دروس يلقيها عليهم بالمكتب بعض الضباط والمدربين حتى إذا ما بلغ عددهم عشرين ينقلون إلى سلاح المدفعية للتدريب العملى بين الجنود ، ثم ينقلون إلى سلاح المهندسين للتدريب على المتفجرات وكيفية استعمالها » .

« وتكونت على هذا الوجه فى بادئ الأمر كتيبتان تضم كلٌّ منهما حوالى عشرين متطوعًا ، وجعلت لها قيادة مدنية وأخرى عسكرية ، أما القيادة المدنية فكانت من شباب الحزب الوطنى كتيبة مصطفى كامل بقيادة عصمت سيف الدولة ، وكتيبة محمد فريد بقيادة حسن بسيونى ، وأما القيادة العسكرية فقد تولاها الضباط الأحرار وأوكلوا أمرها إلى الضابط الطيار وجيه أباظة الذى كان أول مَنْ بدأت به تشكيلى الضباط الأحرار مع زملائه عبد اللطيف البغدادى ، وحسن عزت ، وأحمد سعودى ، وحسن إبراهيم » .

« وسافرت الكتيبتان مصطفى كامل ومحمد فريد إلى منطقة أبو حماد والتل الكبير ، وبقيتا تزاولان نشاطهما فى المنطقة إلى آخر يناير ١٩٥٢م ؛ أى بعد حرق القاهرة دون أن يعلم أحد من أمرهما شيئًا بفضل الجدية والسرية التامة ، والبعد عن المن أو حب الظهور ، والعمل الخالص لوجه الله » .

« وكان بجانب الكتيبتين تشكيل منظمة الإخوان المسلمين بالإسماعيلية ، وتشكيل لمصطفى الجيار بالسويس ، والكل يعمل فى كتمان ، ويقاتل فى صمت ، بينما تعج الطرقات والقرى حول معسكرات الإنجليز بآلاف من كتائب الأحزاب الأخرى تستعرض نفسها يوميًا وتردد الهتافات وتتاجر بالوطنية ، فكانت كالطبل الأجوف لاتفعل شيئًا ، ولو أنها كانت على كل حال غطاء جيدًا للذين يفعلون ولا يتكلمون » .

(١٠٣)

وحين يحدثنا عبد العزيز على عن مشاعره فى يوم حريق القاهرة ، فإننا نجده بنظرة المفكر المثقف الواعى يلقى بالمسئولية على النظام كله ، ولا يحدد هذه المسئولية فى

فصيل واحد فقط، على نحو ما فعل غيره فى إسناد الفعل إلى الملك أو الإنجليز أو الإخوان أو الجماعات الراديكالية :

«ولقد حز فى نفسى وملأ قلبى حسرة وأسى أن أرى عاصمة بلادى تحرق وتخرَّب جهارًا نهارًا بيد نفر من أبنائها وصفوا يومئذ بالغوغاء والدهماء، وأن أرى الجالس على العرش وبطانته وحكام البلاد والأحزاب يسارعون بالتراشق بالتهم، كل طرف يريد أن يلقى تهمة الحريق والتهريب وإشاعة الذعر والفوضى وبلبلة النفوس على غيره ويبرئ نفسه من تلك الجرائم النكراء، التى لم يحركوا لها ساكنًا، بل وقف الكل موقف المتفرج والمدينة تحترق».

«ولو رجعنا إلى الوراء وتتبعنا بعين الفاحص المدقق الأحداث السابقة للحريق، ثم الملازمة لوقوعها والأوضاع القائمة فى البلاد الممثلة فى ملك شاب يلهو ويعبث، وبطانة سوء تطغى وتفسد، وأمة مهضومة الحق، ممزقة الشمل، مسلوبة الإرادة، مستعبدة، وأحزاب متطاحنة متنافرة لا هم لزعمائها وكبرائها إلا الجرى وراء كراسى الحكم وإرضاء المحتل بأى ثمن، لو استثنينا الحزب الوطنى فلم يكن يطمع فى الحكم والبلاد محتلة».

«نعم لو رجعنا إلى الوراء وأدخلنا فى حسابنا أوضاعنا الفاسدة وما رزئنا به من أحداث قاتلة على يد المحتل وأعوانه تحريًا للحقيقة، وربطنا بينها وبين الحادث، لا يجانبنا الصواب لو حكمنا بأن المسئولين وإن لم يكن فى مقدورهم حقيقة أن يدبروه لأنهم أضعف من ذلك».

(١٠٤)

ويصرح عبد العزيز على فى هذه المذكرات بأن حادث حريق القاهرة جعله يتشوق ويتحرق إلى أن يستأنف نشاط الاغتيالات السياسية ليخلص مصر من بعض الذين يجب أن تتخلص منهم :

«ولقد حدثتنى نفسى يوم الحريق بوجوب توقيع جزاء رادع فورى من نوع ما كانت شعبنا السرية تقوم به فى الماضى، وتذكرت ما تم من اغتيالات سياسية من بدء اغتيال

بطرس غالى باشا ناظر النظار على يد الوطنى إبراهيم ناصف الوردانى سنة ١٩١٠م، إلى اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء على يد الوطنى محمود العيسوى ١٩٤٥م، وتمنيت لو أن لى قوة فأطيح برءوس أينعت وحان قطافها، وأريح الوطن وبنيه منها ومن غدرها وخيانتها، فيرتاح ضميرى، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه، وقد عز الزميل وعز النصير بعد إعدام إخوانى أفراد الشعبة السرية بعد حادث اغتيال سردار الجيش سنة ١٩٢٤م، ولم تجد الأيام بمثلهم، وما نيل المطالب بالتمنى، فطويت بين جوانحى على مضض ما حدثتنى به نفسى، وما أقسى على النفس من عجز المرء عن تحقيق آماله حتى ولو كان العجز لأمور خارجة عن إرادته، ورضخت للواقع مكرهًا مرددًا قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

«سائلاً الله الهداية للعاملين، والسلامة للوطن وللمواطنين».

(١٠٥)

وربما كان من المفيد بعد هذا الاستعراض التفصيلى للمحاولات الفدائية التى اشترك فيها عبد العزيز على أن نلخص للقارئ من سطور عبد العزيز على نفسه ما يشير به إلى اعتقالاته، وهو يذكر أن الاعتقال الأول الذى تعرض له كان نتيجة وشاية مرشد من مرشدى البوليس السرى:

«اعتقلت سياسيًا لأول مرة ١٩١٩م وأنا موظف بالحكومة، ولثانى مرة سنة ١٩٢١م وأنا موظف بالبنك».

ونمضى معه إلى تفصيل اعتقاله فى المرة الأولى:

«. . . كنت موظفًا بالحكومة، واعتقل معى الدكتور خفاجى الجراح (ابن أخت الدكتور الجراح على إبراهيم باشا)، وصديقى محمود راشد الموظف بتنظيم القاهرة، وكنا نجتمع بانتظام بعيادة الدكتور خفاجى نتناول الحديث فى السياسة وفى شئون البلد فلفق لنا البوليس تهمة إحراز أسلحة وقنابل، وكان المبلغ أحد المرشدين من سكان

عابدين لم تسعفنى الذاكرة بتذكر اسمه برغم ما كان له من يد فى القبض علينا فى حادث السير ستاك سردار الجيش المصرى ١٩٢٤م، وقد فشل البوليس فيما دبر، إذ لم يسفر التفتيش عن الأسلحة والقنابل المزعومة إلا على العثور على ماسورة قنبلة فارغة قد دسها ذلك المرشد خلسة فى أحد جوانب العيادة، ولم يطل بنا الاعتقال وأفرج عنا».

وهذا هو النص الذى يورده عن اعتقاله فى المرة الثانية :

«واعتقلت للمرة الثانية سنة ١٩٢١م وأنا ببنك مصر بتهمة الاشتراك فى حوادث القتل السياسى، وبقيت فى السجن حوالى ثلاثة أسابيع، ولم يسفر التحقيق عن إدانتى لعدم اعترافى بشىء، ولعدم توافر الأدلة، فأفرج عنى وعدت إلى عملى».

وهذا هو النص الذى يورده عن سبب اعتقاله فى المرة الثالثة :

«وبعد عام من زواجى اعتقلت للمرة الثالثة سنة ١٩٢٣م بتهمة الاشتراك فى حوادث الاغتيال السياسى، وكنت ما زلت موظفًا ببنك مصر، وبقيت حوالى أربعة شهور فى الاعتقال متنقلاً ما بين سجن الأجانب، وسجن الاستئناف إلى أن أفرج عنى لعدم توفر الأدلة».

(١٠٦)

ويتحدث عبد العزيز على عن مهارته فى خلق قنوات اتصال بينه وبين أهله فى الفترة التى اعتقل فيها فى سجن الأجانب، حيث كان مسموحًا له باستحضار الطعام من بيته، وإن لم يكن مسموحًا له بلقائهم، والواقع أن التفصيلات التى يوردها عبد العزيز على تجعلنا ندرك بوضوح مدى قسوة فقدان الحرية فى مثل هذه الظروف، وإن كنا نستمتع أيضًا بذكاء صاحب المذكرات وقدراته :

«كانت حجرتى بسجن الأجانب تقع بالدور الأرضى وتطل على الشارع الخلفى للسجن، وكان مسموحًا لى أن أتناول طعامى من منزلى، وكان يحضره لى شقيقى محمد، وذات يوم وأنا أرقب مجيئه من شباك الحجرة حضر ورآنى فأخذ يلوح بيده ويشير إلى الصندوق الذى بيده وكأنه يريد أن يفهمنى أن لى رسالة مخبوءة فى غلاف

صندوق الشيكولاتة، الورق المرسل مع عمود الأكل، وهو من بقايا الصناديق التى كنت أستوردها لمكتبى التجارى من الخارج، وبمجرد أن سلمنى الحارس الإنجليزى الأكل أخذت أفتش الصندوق وأركانه، وإذا بالرسالة مخبأة بمهارة ببطانة غطائه بطريقة لا يمكن أن يفطن إليها أحد، وكنت محتفظًا بقطعة رصاص صغيرة أخفيتها بين ملابسى وكتبت ردى ودسسته فى نفس المكان، ولكى أضمن تكرار العملية رجوت الحارس الإنجليزى وأنا أسلمه الفوارغ أن يطلب من شقيقى وهو يردها إليه أن يكرر تعبئة الصندوق ذاته، من وقت لآخر بالشيكولاتة واللب والحلوى للتسلية، وطبعًا كنت أتحفه ببعضها كل مرة، وكنت طلبت فى ردى أن يرسلوا إلىّ الأكل فى حلة بدل العمود، مكسو قاعها بالهباب ويرسلوا مع الأكل دبوسًا صغيرًا لأحفر به ردى على هباب الحلة، فكانوا يضعون رسالتهم داخل حبة الجوز (عين الجمل) بعد تفريغها ويدسونها فى الحمام المدفون فى الأرز، أو فى محشى الكوسة أو الباذنجان، وكنت أحفر بدورى الرد بالدبوس على هباب قاع الحلة، ونجحت الحيلة، وبتلك الطريقة المضمونة أصبحت أتبادل الرسائل مع عائلتى بانتظام وباطمئنان بصندوق الشيكولاتة تارة، وبالحلة تارة أخرى لمدة طويلة مستغلاً غفلة الحراس إلى أن نقلت إلى سجن الاستئناف فتوقفت المراسلة، وهكذا يفعل الإيمان مع الحرص واليقظة والكتمان ما لا يخطر على بال، وصدق قول الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يس: ٩]

(١٠٧)

ويشير عبد العزيز على إلى أنه رزق بابنه وهو فى سجن الاستئناف، وأن مدير السجن الذى كان عضوًا فى «جمعية التضامن الأخوى» سمح له بالاحتفال بهذه المناسبة التى كانت فألاً حسنًا حيث لم تمض أيام إلا وقد أفرج عنه:

«. . . كان مديره إبراهيم صفوت وهو من جمعية التضامن الأخوى، دخل علىّ الزنزانة ذات صباح وبشرنى بأنى رزقت ولدًا، وذاع الخبر السار بين المعتقلين، وأذكر منهم يوسف العبد، وشقيقه عبد الرءوف العبد، وفضيلة الشيخ مصطفى القاياتى،

والأستاذ أحمد وفيق، ومحمود راشد، وعبد الفتاح عنايت، وشقيقه عبد الحميد عنايت، والعمال إبراهيم موسى، ومحمد فهمى، وعثمان الطوبجى الجزمجى، وطلبوا من مدير السجن أن يسمح لهم بالاحتفال داخل زنزاناتهم بتلك المناسبة السعيدة فوافق مشكورًا، وكانت ليلة من ليالى العمر لا تنسى، تميزت بترتيل بعض آيات الذكر الحكيم، ثم ترديد بعض الأناشيد الوطنية مما لم يشهده السجن من قبل، واستبشر الكل بذلك النبأ خيرًا، وقد كان، فلم تمر أيام إلا وقد أفرج عنى».

(١٠٨)

ونأتى إلى الاعتقال الرابع، وهو الذى كان بسبب الاتهام فى قضية مقتل السردار، ونحن نلاحظ أن عبد العزيز على سجل لنا ما لم يسجله غيره من تفصيلات القبض عليه فى تلك المرة، ونلاحظ مما يرويه مدى العصبية التى كانت تسيطر على البوليس فى معالجته للأمر، وقد وصلت هذه العصبية إلى البحث عن الأسلحة فى صفائح المسلى، وجوالات الأرز، وإلى نزع بعض البلاط، فضلاً عن اعتقال أشقاء أربعة معًا:

«فى فبراير ١٩٢٥م دهم رجال البوليس السياسى الإنجليزى منزلنا لتفتيشه، وكانوا فى تلك المرة أشد بطشًا وصلفًا وعنفًا منهم فى المرات السابقة فى سنوات ١٩١٩م و١٩٢١ و١٩٢٣م، وركزوا اهتمامهم على شقتى فى الطابق الثانى من المنزل وفتحوا أدراج مكتبى وجمعوا منها بعض الأوراق وأخذوا من فوق المكتب بعض الكتب ونزعوا المشمع المثبت بمسامير فوق الأرضية البلاط، وفكوا بعض البلاط وشقوا المراتب والمخدات ودسوا أيديهم وعصيهم فى صفائح المسلى وجوالات الأرز، وفتشوا بدقة دواليب الملابس، كل ذلك بحجة البحث عن السلاح، ثم صعدوا إلى الدور الثالث، سكن العائلة، وفتشوا مكتب الوالد وجمعوا ما راق لهم من أوراق، ثم ختموا ذلك التفتيش التعسفى بالقبض علىّ أنا وأشقائى محمود وأحمد ومحمد بدعوى الاشتراك فى حادث قتل السردار سير لى ستاك، وكنت وقتئذ رئيس قسم المراجعة ببنك مصر، ومزوجًا ولى الطفل على الذى ولد وأنا فى سجن الاستئناف معتقلاً سن ١٩٢٣م، والطفلة عائشة، وكان أخى محمود طالب علم بالأزهر الشريف، وأحمد طالبًا بالقضاء الشرعى، وقد قبضوا عليه بالمدرسة، ومحمد بالثانوى، وبرغم قوة إيمان

الوالد الشيخ الوقور والوالدة الأم الحنون واعتمادها على الله ، فكان تفتيش المنزل على تلك الصورة البشعة المزعجة ثم القبض علينا جملة نحن الأشقاء الأربعة هدّ ، ولاشك ، من كيانهما» .

(١٠٩)

ولا تحول مرارة التجربة بين عبد العزيز على والاعتراف بالمزايا النسبية لسجن الأجانب ، ونحن نعرف أنه لم يعد لهذا السجن وجود ، ومن الطريف أنه كان يقع فى قلب القاهرة وفى شارع رمسيس ، ونرى فى حديث عبد العزيز على ملامح الرضا عن تمكنه من توظيف خبرته السابقة لتقليل وطأة الاعتقال على نفسه :

«أودعنا سجن الأجانب ، وهو والحق يقال أفضل السجون المصرية من حيث توفر الراحة ، إذ ينام المعتقل فيه على سرير وفرش نظيف مريح ، ويسمح له بالتريض كل يوم فى ساحة السجن التى تتوسط حجراته لمدة حوالى عشر دقائق ، وبالخروج إلى دورة المياه كلما أراد ، أما فى السجون الأخرى فكنت أفترش برشًا على الأرضية الأسفلت من الليف المجدول ، وألتحف ببطانية من الصوف ، ولا أغادر الزنزانة إلى دورة المياه إلا مرة واحدة فى الصباح كل أربع وعشرين ساعة عندما يسمح السجان لى بذلك ، وإن أردت قضاء حاجة لى فى تلك المدة فعلىّ استخدام الجردل الموجود داخل الزنزانة» .

«وبعد أيام أفرج عن شقيقى محمود ومحمد وبقى معى أحمد ، وكنت تعلمت من تكرار اعتقالى أن أحتفظ معى لمثل تلك الظروف بمجرد توقيع القبض علىّ بقطعة صغيرة جدًا من رصاص أحشرها حشرًا فى زاوية جيب الجاكتة الداخلى الصغير ، وبدبوس إبرة أدسه فى عروة الجاكت ، وقصاصة ورق صغيرة أخفيها فى ملابسى لاستخدامها عند الضرورة» .

«وصممت على أن أراسل أخى داخل السجن لأشد من أزره ، وتفاهمت معه فى غفلة من الحارس الإنجليزى على أن نتراسل وأن نتخذ من سيفون المرحاض مكانًا أمينًا لوضع الرسالة فوقه ، فكنت أكتب الرسالة وأضعها بحذر فوق السيفون ومعها قطعة

الرصاص ليكتب بها الرد، وكان أحمد يفعل مثلما أفعل، واستمر الحال على ذلك الوضع كلما سنحت الفرصة».

. . . .

«. . . وطال اعتقالى حوالى سبعة شهور قضيتها متنقلاً بين سجن الأجانب وسجن قراميدان ثم سجن الأجانب إلى أن أفرج عنى بعد تنفيذ الحكم بمدة».

(١١٠)

ويتأمل عبد العزيز على تجربته مع السجن فيصدر فى هذا التأمل عن نفسية واثقة مطمئنة، وهو يصور اعتقاله على أنه كان رحلة روحية يقطعها بالعبادة وذكر الله، وهو يحدثنا بسعادة حقيقية عن استشعاره قرب الإفراج عنه، وعن تحقق ما استشعره، وعن سجوده لله شكرًا على تثبيته:

«ولم أكن أفزع أبدًا للقبض علىّ، أو أفزع للاعتقال شأن المتوكل على الله، ولم أشق باعتقالى فى أية مرة، بل كنت أسمى فترة الاعتقال فترة رحلة روحية أشعر فيها بالطمأنينة والسعادة الروحية حيث لا عمل لى إلا أن أقطع النهار والجزء الأكبر من الليل فى ذكر الله وأداء الصلاة مع الإكثار من النوافل وتلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته البينات، فلم أكن أحس بفراغ أو أدع نفسى نهبًا لوساوس الشيطان، فكنت مستغرقًا طول وقتى فى عبادة الله أخشى عقابه، وأرجو ثوابه، راضيًا بقضائه وقدره».

«وكنت كثيرًا ما أرى فى نومى أحلامًا سارة أستبشر بها خيرًا، ومما أذكره ولا أنساه أنى صحوت من نومى ذات ليلة وأنا أتلو الآية الكريمة «فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن» والمؤذن وقتذاك يؤذن لصلاة الفجر من مسجد أولاد عنان القريب من سجن الأجانب، وسألت الله بعد صلاتى أن يكون ذلك إيذانًا بالفرج القريب».

«وما إن طلع النهار حتى فتح الحارس الإنجليزى باب الزنزانة وطلب منى ارتداء ملابسى للذهاب إلى المحافظة لمقابلة النائب العام بمحكمة الاستئناف بباب الخلق، وهناك قابلت السيد بك مصطفى الذى أبلغنى نبأ الإفراج عنى، وبعد أن وجه إلىّ اللوم على سلوكى وحذرنى من الوقوع فى مثل ما وقعت، فاعتبرت ذلك اللوم والتحذير

اتهامًا، وألهمني ربي وأجبت عليه في الحال: «وحتى ساعة الإفراج لا أنجو من اتهامك»، وخرجت إلى منزلي لأسجد لله شكرًا أن ثبتني بروح من عنده واستجاب لي ونجاني من القوم الظالمين، وكان قد أفرج عن أحمد [يقصد شقيقه أحمد الذي أصبح بعد ذلك أستاذًا في كلية التربية بجامعة عين شمس] ثالث يوم امتحانه بدار العلوم، وكان يذهب للجنة الامتحان تحت الحراسة».

(١١١)

وننتقل الآن من كل هذا الحديث عن تفصيلات العمل السري الذي استهدف الأرواح وإلقاء القنابل إلى ما شارك فيه عبد العزيز مشاركة فعالة، مما يمكن لنا أن نسميه «الحرب الإعلامية» التي شنها الحزب الوطني والتنظيمات التي ارتبطت به على وجود البريطانيين في مصر، وقد رأينا في حديثه عن جهده في ثورة ١٩١٩م ملامح من هذا النشاط، ولاشك أنه لم يحدثنا عن كل تفصيلاته، وإن كان لم يبخل علينا ببعض ملامحه، وهو يقول:

«. . . ومرة في ذكرى ١١ من يوليو، ذكرى ضرب الإسكندرية، ابتكرت طريقة للإعلان أعتقد أنه لم يسبقني لها أحد، واستعنت في تنفيذها بالعامل أحمد الدريني الخطاط من أعضاء الحزب الوطني، وأحضرت له ألواحًا مسطحة من الصاج وتطوع بالحفر عليها بالبنط الكبير عبارة «١١ يوليو ذكرى ضرب الإسكندرية»، وقام بنفسه بنقشها بالورنيش الأبيض على أرض الميادين (وبالأخص ميدان عابدين وميدان لاظوغلي)، وعلى أعمدة الترام، وجدران الدواوين والمباني في الجهات الآهلة بالسكان، واستمر الليل طوله وفي غفلة من البوليس وبمنتهى الحذر حتى أتم العملية بنجاح».

«وفي صباح ١١ من يوليو فوجئ الناس والبوليس بالإعلان المطبوع بالورنيش، وتملك البوليس الغيظ وأسرع واستعان بفرق من رجال النظافة بمصلحة التنظيم للإسراع بمحو الكتابة محوًا تامًا حتى لا تترك أثرًا».

«وكانت عملية محو الإعلان قد استغرقت وقتًا طويلاً هي في ذاتها إعلان عن الإعلان، ونجحت الفكرة والحمد لله، ولم ينجح البوليس رغم كثرة عيونه في معرفة الفاعل».

ويحرص عبد العزيز على فى مذكراته على أن يتحدث بإفاضة معقولة عن نشاطه فيما أسماه «الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل»، وهى جماعة سياسية لا تحظى بشهرة واسعة فى أدبيات التاريخ المصرى الحديث، وإن كان حديث عبد العزيز على كفيلاً بإلقاء أضواء كافية عليها، وهو حريص على أن يذكر أن نشاط هذه «الوحدة» لم يكن انشقاقًا عن الحزب الوطنى، وإنما كان نشاطًا موازيًا يستهدف علاج الآثار السلبية لتعدد الأحزاب واختلافها فى قضايا الوطن، وما ترتب على هذا التعدد من ضعف العقيدة الوطنية على حد تشخيص صاحب المذكرات، وهو يذكر أسماء زملائه الذين شاركوه تأسيس هذا النشاط والعمل من أجله، ونحن نلاحظ بوضوح أن هذه الجماعة الجديدة نشأت بعد أن تمكنت السلطات من إخماد النشاط السرى الذى كانت تقوم به الخلية السرية التى فقدت أرواحها بسبب الحكم فى قضية مقتل السردار:

«وكانت راودتنا سنة ١٩٣١م أنا والدكتور إسماعيل صدقى الجراح أمين صندوق الحزب الوطنى، والأستاذ عبد المقصود متولى المحامى عضو اللجنة الإدارية للحزب، والأستاذ الكاتب الوطنى محمد الههياوى، والزميل محمد فؤاد فريد الموظف ببنك مصر، والزميل محمد عبد الرحمن شاهين المدرس بوزارة المعارف، وكنا دائمى الاجتماع بانتظام إما بعيادة الدكتور صدقى، وإما بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى، راودتنا فكرة القيام بحملة سياسية قوية للدعوة إلى نبذ تعدد الأحزاب والمحتل جاثم على أرض الوطن».

. . . .

«ورسمنا الخطة بأن نطلق على عملنا الجديد اسم «الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل»، وبأن نبدأ بنشر فكرة الوحدة شفويًا بين أعضاء الحزب، ثم ننطلق بها إلى الناس عامة عن طريق الكلمة المسموعة بإلقاء المحاضرات، والكلمة المقروءة بالنشر بالصحف أو بإصدار المنشورات، وأن نركز فى الناحيتين على أن الدعوة إلى تغير جذرى شامل فى حياتنا ومفاهيمنا لا تكون برفع الشعارات البراقة، بل بالعمل النافع المدروس الدائم، وأن نعمل على أساس العقيدة الوطنية السليمة، وفى إطار ميثاق قومى يرسم

خطوط التغيير، ويبين الغاية، ويحدد وسائل تنفيذه فى بساطة ووضوح، حتى نزيح ما غشى على الأبصار وران على القلوب، وحتى تصحو الأمة على صوت الحق وتوحد صفوفها وتنبذ تعدد الأحزاب، وتأخذ بأسباب قوتها فى مواجهة عدوها الأوحد».

«ورأينا أن نخصص لنا مركزًا نمارس فيه نشاط الوحدة، وجمعنا من أنفسنا مبلغًا سمح لنا بتأجير شقة بالدور الأول بالمنزل ٦٧ شارع الحوياتى بعابدين، وصندوق بريد رقم ١٦٤٤، وعهد إلىّ إخوانى بتنظيم المحاضرات، وكتابة النشرات بعد أن فشلت جهودنا مع الصحف لتنشر لنا».

(١١٣)

وهو يتحدث عن سلسلة المنشورات الأسبوعية المنشورة التى ظلت هذه الهيئة السياسية تصدرها طيلة ما يقرب من اثنى عشر عامًا، ومن الضرورى أن نفرق بين ما يقصده بلفظ المنشورات وما يقصده بلفظ النشرات، فالمنشورات كانت تكتب بتوقيع لجنة شباب الحزب الوطنى . . إلخ، أما النشرات فكانت هى تلك التى يصدرها عن جماعة الوحدة القومية، ومن الجدير بالذكر أن صاحب المذكرات يورد النصوص الكاملة لبعض هذه الأدبيات المهمة، وهو بلاشك فى حاجة إلى تحليل ليس هو موضوع مدارستنا لهذه المذكرات:

« . . . قمت بفضل الله بما أوكل إلىّ، فنظمت محاضرة كل أسبوع، وكان من أبرز المحاضرين الأستاذ عبد المقصود متولى، والأستاذ محمد الههياوى، وأخذت أصدر المنشورات فى المناسبات، واخترت لها عنوان «مصر بين شقى الرحى» وأوقعها بعبارة «الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل»، وصدر أول منشور بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٣٤م، وكان آخر منشور بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٤٦م، ولم يكن ما أقدمنا عليه انفصالاً عن الحزب الوطنى، أو تحولاً عن مبدئه كما ظن البعض فى بادئ الأمر، وإنما كان تطويرًا لا بد منه لانضواء الأمة الوطنى جميعها تحت لواء واحد ضد عدو واحد على مبدأ واحد، وهو مبدأ الحزب «الجلاء الناجز، والاستقلال التام».

«فكما أن المنشورات التى كنت أكتبها بتوقيع «لجنة شباب الحزب الوطنى» أو «حفنة الفداء» أو «العيون الساهرة» كانت دعوة لتفتيح الأذهان، وتوضيح الحقائق، واستنهاض الهمم على الصراط السوى، فإن نشرات «الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل» التى كنت أكتبها بعنوان «مصر بين شقى الرحى» هى دعوة صادقة مخلصة لتوحيد الصفوف، وتجميع الجهود».

«ومع نضج الوعى ووضوح الرؤية، فطن الكثيرون إلى أن الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل لم تكن جماعة جديدة بقدر ما هى فكرة وطنية ترمى بدعوتها وعملها إلى ضم الجهود فى بوتقة واحدة، والوقوف أمام العدو الأوحد صفًا واحدًا».

«وسارت قافلتنا فى طريقها بإيمان وثبات تتحدى كل الصعوبات حتى أصبحنا ونشرات الوحدة وندواتها ورحلات شبابها الخلوية حديث الناس، وأصبحت عبارة «مصر بين شقى رحى» على كل لسان».

(١١٤)

وهو يورد ضمن مذكراته نص المنشورات الأربعة الأولى وتواريخها، وإن كنا نلاحظ أنه أرخ المنشور الثالث بتاريخين هما: تاريخ يومين متتالين هما ١٦ و١٧ ديسمبر ١٩٣٤م:

«المنشور الأول ٤ نوفمبر ١٩٣٤م»

«المنشور الثانى ٢٦ نوفمبر ١٩٣٤م»

«المنشور الثالث ١٧ ديسمبر ١٩٣٤م»

«المنشور الرابع ١٤ يناير ١٩٣٥م»

ويبدو أن عبد العزيز على كان مقتنعًا بالنجاح الذى حققه فى هذا المجال، وأن عليه أن يخطو خطوة بنشاطه إلى نطاق البلاد العربية، وقد رأى أن يكتب إلى الملوك والرؤساء والزعماء البارزين فى هذه البلاد:

«وهنا رأيت أن أسمع صوتنا، وأبلغ رسالتنا إلى الملوك والرؤساء العرب فى

الخارج، وإلى كبار القوم والساسة فى الداخل، فكتبت باسم الوحدة خطابًا طبعته على ورق مصقول وزعته عليهم».

ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز على يورد فى مذكراته نص هذا الخطاب الذى بعث به إلى القادة العرب.

(١١٥)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، أو إذا كانت الموضوعات ذات الجوهر الواحد لا بد أن تأتى متجاورة، فإننا نقول إن من أعظم ما تدلنا عليه هذه المذكرات ما نفهمه من أمثلة دالة على التوحد الذى كان قائمًا بين النشاط الوطنى فى مصر وحركات التحرر الوطنية فى البلاد العربية، ولنا أن نقرأ ما يرويه عبد العزيز على فى مذكراته عن علاقته بالمكتب الثقافى لبيت المغرب، وكيف تطورت هذه العلاقة التى بدأت كعلاقة وظيفية إلى علاقة وطنية، وكيف كان زوار هذا البيت يتأهلون فى الجامعة الحرة التى نظم برامجها الأستاذ أحمد أمين، وكيف كان هذا التأهل خير عون لهم على ما أدوه بعد ذلك فى أوطانهم من أدوار وطنية عظيمة:

« . . . فى غضون ١٩٣٧م أنشأت حكومة المغرب مكتبًا ثقافيًا بعمارة زغيب بميدان الأوبرا أسمته «المكتب الثقافى لبيت المغرب» ليتولى شئون الطلبة المغاربة الموزعين على المدارس والمعاهد والكليات بمصر، ويرعاهم ويصرف عليهم، وكانوا وقتئذ حوالى الأربعين طالبًا، وليعمل فى نفس الوقت على توثيق الصلة بين مصر والمغرب».

«وأسندت الإشراف على المكتب إلى الأستاذ المكى الناصرى، وهو مغربى تلقى دراسته بالجامعة المصرية، ووقع اختيار المكى الناصرى على الدكتور أحمد أمين الأستاذ بالجامعة ليدير وينظم بالمكتب موسمًا ثقافيًا للطلبة المغاربة أصلاً، ولمن يؤم المكتب من رواد الثقافة».

«وكان يلقى المحاضرات فى الصالة الكبرى بالمكتب أساتذة من الجامعة اختارهم الدكتور أحمد أمين أذكر منهم الأساتذة: أمين الخولى، وعبد الحميد العبادى،

ومصطفى الزيادى، ومصطفى السقا، وعبد المنعم الشرقاوى، كما شارك هو نفسه فى إلقاء بعض المحاضرات».

«ولم تقف رسالة المكتب عند ذلك، بل تعدته إلى طبع كتب الدين والاجتماع على ورق مصقول فاخر، وكانت توزع بالمجان على الطلبة المغاربة وأئمة القوم والمترددين على سماع المحاضرات من المصريين».

«وعرض علىّ أحمد أمين العمل معه مساء للقيام بأعمال الحسابات والسكرتارية، وقبلت بارتياح ذلك العمل الإضافى لقلة مرتبى بالحكومة، وأصبحت أحد أسرة المكتب المنحصرة فى الأستاذ المكى الناصرى، وشقيقه الحاج اليمنى الناصرى، والدكتور أحمد أمين، وفىّ».

«وبعد بضعة شهور اطمأن فيها المشرف المكى الناصرى على سير العمل والأمور بالمكتب، وعلى استقرار وضع طلبة البعثة، سافر إلى المغرب تاركًا الإشراف من بعده لشقيقه الحاج اليمنى الناصرى، وذلك بعد أن أقام حفلة الافتتاح ودعا إليها السيد ولى عهد المملكة المغربية، وكان وقتئذ طالبًا بمدرسة مصر الجديدة، وكبار الشخصيات من الأساتذة والعلماء، وجميع طلبة البعثة، وبعض الأخصائيين».

«وكان للمحاضرات القيمة التى تلقى بانتظام وأقبل عليها شباب مصر مع شباب المغرب، وللكتب النافعة التى تطبع على نفقة المكتب وتوزع بالمجان، خير أثر فى خدمة الثقافة وتوثيق الصلات بين مصر والمغرب».

(١١٦)

وليس غريبًا أن نرى فى قائمة الأسماء التى يذكر أنها كانت تحضر المحاضرات الثقافية فى هذا المكتب مجموعة من شخصيات عهد الثورة المتميزين، منهم حسين أبو زيد، والباقورى، والبغدادى، ورشاد مهنا، ووجيه أباظة:

«وأصبح المكتب ناديًا يؤمه كثير من صفوة الشباب المصريين، فضلاً عن الطلبة المغاربة، أذكر منهم مع حفظ الألقاب زملائى: محمد حمدان عبده المدرس، ومحمود

أبو زيد المحامى، وحسين عوض بريق المحامى، وعبد المعطى عطية المحامى، ومحمد عبد الرحمن شاهين المدرس، وحسن السيد المحامى، ومحمد فتح الله درويش بالمالية، ومحمد عبد الرحمن حسين المحامى، ومحمد فؤاد فريد ببنك مصر، وإبراهيم على خليفة بالضرائب، وكلهم من شباب الحزب الوطنى، والشيخ أحمد حسن الباقورى من الإخوان المسلمين، ورشاد مهنا، ومحمد الخشاب، وحسن عزت، وعبد اللطيف البغدادى، وأحمد سعودى، ووجيه خَلاَّل، وهلال المنجورى، ووجيه أباظة من ضباط الجيش ممن كانت تسمح لهم ظروفهم بالحضور لسماع المحاضرت، أو للزيارة الخاصة».

«وكنت بفضل الله حائزًا لثقة الحاج اليمنى الناصرى، كما كنت موضع ثقة أخيه من قبل، مما سهل علىّ اتخاذ المكتب مركزًا لنشاطى السياسى، فكنت أجتمع بإخوانى هؤلاء بعد كل محاضرة للحفاظ على الرابطة القائمة بيننا، ولتبادل الرأى فيما يجرى فى البلد من حولنا، وفيما يجب أن نؤديه لخدمة وطننا. هذا عدا الاجتماعات الأخرى التى كنت أعقدها مع الخاصة منهم فى مواعيد نتفق عليها دون أن يكون فى ذلك أى حرج، أو ما يلفت النظر بعد أن أصبح المكتب مفتوحًا للجميع مرحبًا بكل زائر».

«وكنت لم أتوقف عن كتابة المنشورات الثورية، واتخذت المكتب مركزًا أمينًا لتوزيعها بواسطة هؤلاء الإخوان، كما لم أتوقف عن تنظيم الرحلات الخلوية التى كانوا يشتركون فيها، وكنا والحمد لله حلقة لا تنفصم».

(١١٧)

ويعترف عبد العزيز على فى فخر خفىّ بالدور الوطنى الذى تمكن به أن يوظف موقعه فى مكتب المغرب لخدمة الحركات الوطنية فى مصر والبلاد العربية، كما أنه فى الوقت نفسه يتحدث بأسى عن الظروف التى أوقفت عمل المكتب، ونحن نراه لا يهاجم، بما فيه الكفاية، دور القنصل الإسپانى فى هذا الإيقاف أو التوقف:

«وبقيت أتخذ من المكتب مركزًا لنشاطى، فيه أجتمع بإخوانى بكامل حريتى، منه أوزع منشوراتى وأضع نظام رحلاتى، إلى ما بعد قيام الحرب الكبرى الثانية بعامين

تقريبًا بعد أن انقطعت عن المكتب الإعانة المالية التى كانت ترسلها حكومة المغرب شهريًا وبانتظام للصرف منها على طلبة البعثة، ولم يقو المكتب على الاستمرار فى تقديم خدماته».

«واستغل القنصل الإسپانى بمصر ذلك الظرف وكان قد عز عليه استقلال بيت المغرب عنه فى إدارة شئون البعثة ورعاية طلبتها، فانتهز فرصة الضيق المالى الذى وقع فيه المكتب بانقطاع وصول الإعانة بسبب الحرب، وسعى بالوقيعة بين الحاج اليمنى الناصرى وبين طلبة البعثة، وحرضهم على الخروج عن طاعته، ولوح لهم وأغراهم بمدهم بالمال ليعوض عليهم جزءًا من الإعانة الحكومية التى كانت تمدهم بها حكومتهم وانقطعت عنهم».

«واضطر الحاج اليمنى الناصرى إلى ضغط المصروفات والتفكير فى تأجير بعض حجرات المكتب للاستعانة بالإيجار على الصرف منه فى أضيق الحدود، ووفقت فى تأجير حجرة للأستاذ حسين عوض بريق المحامى، وأخرى للأستاذ حسن السيد المحامى مع شريكه الأستاذ نظير السيد، وثالثة للأستاذ محمد قراع المحامى، وكلهم من أصدقائى».

«إلا أن القنصل الإسپانى بادر، وضم الطلبة إلى جانبه، وسحب السلطة من الحاج اليمنى وأصبح هو المتحكم فى شئون البعثة، وتوقفت تمامًا رسالة المكتب وأسدل، بذلك الوضع المؤلم، الستار على نشاط محمود، كان يأمل الكثيرون من ورائه، لو طال به المدى، الخير للمغرب ولمصر معًا».

(١١٨)

ها نحن قد انتهينا مما استطعنا مدارسته من زخم العمل الفدائى والسرى الذى قاده عبد العزيز على، أو شارك فيه، كما استعرضنا نشاطاته الأخرى فى الحركة الوطنية، ولخصنا بعض ما رواه عن دوره فى الوحدة القومية لوادى النيل، وقد آن الأوان لنتحدث عن دور هذا الرجل فى التعاون مع الهيئات الوطنية الأخرى، ونبدأ بأن نذكر

أن عبد العزيز على يخصص من مذكراته فصلاً غير طويل للحديث عن اتصالاته بالهيئات الوطنية المتعددة، ويبدؤه بالحديث عن صلته بالإخوان المسلمين وجماعة شباب محمد، وهو يلقى بأضواء كاشفة وكافية عن علاقته المبكرة بالإخوان المسلمين، وهى علاقة بدأت منذ عهد الشيخ حسن البنا وتطورت فى اتجاه قيام عبد العزيز على بدور المشورة والتوجيه لتنظيمات الإخوان، ويقول:

«. . . جاءنى يومًا بنادى الحزب الوطنى الأخ أحمد إبراهيم السودانى ترزى مصر والسودان والملحقات وجغبوب كما كان يسمى نفسه، وقال لى: هل لك فى أن تزور معى الشيخ حسن البنا رئيس جماعة الإخوان المسلمين فى داره بدرب نافع بالدرب الأحمر لتراه وتتعرف به عن قرب، وكلاكما له نشاط ملحوظ فى الناحية الدينية، ولم أمانع وكنت سمعت خيرًا عن الشيخ حسن ولم أره . . وما رأى كمن سمعا».

«فاصطحبنى إلى دار الشيخ ودلفنا من الباب الخارجى إلى ردهة سماوية، ومنها إلى صالة فسيحة نوعًا ما بالدور الأرضى مفروشة بالحصر حيث يجتمع بالإخوان يتدارسون شئونهم ويسمعون دروس الوعظ التى يلقيها الشيخ ويؤدون فريضة الصلاة، وفى نهاية الصالة على يمين الداخل سلم يوصل إلى الطابق الأول، حيث يقيم الشيخ مع عائلته».

«والتقيت لأول مرة مع الشيخ حسن وسمعته وهو يلقى درسًا دينيًا على أتباعه ووجدته حلو الحديث، غزير المادة مما حببه إلىّ وترددت على الدار وتوثقت الصلة بينى وبينه، وأحب كلٌ منا الآخر فى الله، وأخذنا نخوض فى مواضيع شتى دينية واجتماعية وسياسية، «وعلمت منه أنه من بلدة المحمودية، وكان والده عضوًا بجماعة الطريقة الحصافية الإسلامية التى كان يرأسها الأستاذ أحمد السكرى، وأنه حضر إلى القاهرة سنة ١٩٢٣م مع والده وشقيقه عبد الرحمن الساعاتى والتحق بدار العلوم، ولما تخرج عين مدرسًا بالإسماعيلية، وهناك كون فرعًا للطريقة الحصافية ثم رأى تغيير اسم الفرع إلى اسم «جمعية الإخوان المسلمين»، ثم نقل إلى مدرسة عباس بالقاهرة سنة ١٩٣٦م، ونقل مقر نشاطه من حارة عبد الله بسوق السلاح إلى شقة كبيرة بمبنى لوكاندة البرلمان بالعتبة الخضراء».

ويصل عبد العزيز على فى روايته إلى موضع اتفاقه مع الشيخ حسن البنا على التفكير فى بدء الإخوان نشاطًا فدائيًا بإشرافه، لكنه يحرص فيما يرويه على أن يورد قصة إحساسه ببعض الجمود الفكرى الذى كان حائلاً بين بعض الإخوان المسلمين وبين الانخراط فى مثل هذا النشاط السرى :

«وطرقنا مرة موضوع الفداء وما تحتاج إليه الرسالات من فدائيين سواء بالروح أو المال، وأشار فى بيانه إلى ما بلغه عنى من خبرة فى ذلك الميدان، ورغبته فى الاستعانة بى لإعداد بعض الإخوان المسلمين للفدائية، فرحبت برغبته، وكان ذلك فى خلال سنة ١٩٣٦م».

«واتفقنا على أن يختار خلاصة ممن يتوسم فيهم استعدادًا لذلك الاتجاه لأبدأ بإشراكهم معنا فى رحلاتنا الخلوية بالمقطم ولأدربهم على الرماية، ويكون ذلك أول الشوط».

«واختار الشيخ بعض الإخوان، أشركتهم معنا فى رحلة إلى وادى حوف سيرًا على الأقدام، وهناك بدأت أمرنهم على الرماية، و وقع ما لم يكن فى الحسبان، إذ برز من بينهم فرد يتردد فى استلام المسدس وإطلاقه، ليس خوفًا، ولكن لأنه لم يأخذ من الشيخ أمرًا بذلك».

«وبالرغم من محاولة إقناعه أمام زملائه بأن الشيخ الذى يحرص هو على طاعته وألا يعمل عملاً إلا بأمره هو الذى اختاره مع مَنْ اختارهم من إخوانه للتدريب معنا على الرماية، وبأنه بامتناعه عن التمرين وإصراره على موقفه يكون قد فهم الطاعة فهمًا خاطئًا، فإنه لم يقتنع وأصر على موقفه. . وإن كان زملاؤه قد قاموا بالتمرين إلا أن موقفه الغريب أدخل الشك فى نفوسهم».

«ولما عدت إلى الشيخ وقصصت عليه ما كان من أمر أحد مَنْ اصطفاهم أسف لما وقع وكانت فرصة للتحدث فى حدود الطاعة الواجبة، وفى حدود ما يرسمه الإسلام، وفى إطار عدم إلغاء الفرد لعقله وإرادته وضعًا للأمور فى نصابها، وحفظًا للشباب من الوقوع فى أخطاء بسبب عدم فهمهم الحقيقة على الصورة المطلوبة، كما تحدثنا عن

الصفات الواجب توافرها فيمن يتصدى للعمل الفدائى، وأعتقد أنه كان بحثًا بناء مفيدًا».

(١٢٠)

ويروى عبد العزيز على ما يعده بمثابة سر لا يعرفه غيره، وهو أنه هو الذى أشار على عبد الحكيم عابدين بعدم العودة من الحج حتى لا يتعرض لما تعرض له أقرانه من الإخوان المسلمين فى ١٩٥٤م:

«ولا ضير وأنا بصدد ذكر لمحة عن صلتى بالإخوان المسلمين أن نذيع سرًا ظل مكتومًا لا يعرفه سواى، وسوى عبد الحكيم عابدين وكيل الإخوان المسلمين، وكان سببًا فى نجاته، وتفصيل الخبر أننا تقابلنا على ظهر الباخرة المسافرة إلى الحجاز فى موسم الحج سنة ١٩٥٤م، وكانت برفقته والدته ووالدة المرشد الشيخ حسن البنا، وبعد الانتهاء من الحج والزيارة ونحن نستعد للعودة إلى وطننا العزيز نمى إلى علمنا أن السلطات بمصر بدأت حملة كيدية مسعورة ضد الإخوان بالقبض عليهم زرافات واعتقالهم بالسجون بدعوى التآمر على قلب نظام الحكم بالقوة، فآثر عبد الحكيم أن يبقى بالسعودية حتى ينجلى الموقف ويتأكد من صحة النبأ، وأن يترك لنا والدته ووالدة المرشد فى رعايتنا، وكانت معى حرمى التى تعرفت بها على ظهر الباخرة، واتفق معى على اصطلاح أبعث به إليه بالتلغراف على عنوان أحد معارفه بمجرد وصولنا إلى القاهرة بسلام، وحرصت على أن أرسل له التلغراف بالصيغة المتفق عليها فبقى بالسعودية ولو عاد معنا لناله من السجن الأليم والتعذيب المبيت ما نال إخوانه المظلومين».

عند هذا الحد ينتهى ما يورده عبد العزيز على عن علاقته بالإخوان المسلمين ليبدأ مباشرة فى الحديث عن علاقته بجماعة شباب محمد، حيث نفهم بوضوح أنه كان أكثر ميلاً لها.

(١٢١)

والحاصل أن عبد العزيز على يقدم فى هذه المذكرات تفصيلات وافية عن نشاط

جماعة «شباب محمد» التى أسسها الأستاذ حسن يوسف منشقًا عن الإخوان المسلمين، ومن العجيب أن هذا الرجل المخضرم والوطنى العظيم يلخص فى فقرات قليلة وبقدرة فائقة قصة نشأة جماعة شباب محمد وسبب نشأتها، بل يورد ـ وهذا هو المهم ـ النص الكامل للبيان الذى أصدرته هذه الجماعة حين انفصلت عن الإخوان المسلمين، ويبدو، والله أعلم، أن عبد العزيز على كان متعاطفًا إلى أقصى حد مع جماعة شباب محمد، وإن لم يستدع هذا منه موقفًا مباشرًا ضد الإخوان:

« . . . فى أواخر سنة ١٩٣٩م دب خلاف بين نفر من خيرة شباب الإخوان المسلمين وبين فضيلة المرشد العام الشيخ حسن البنا حول بعض تصرفات خاطئة ومخالفات مالية نسبت لفضيلة المرشد ذاته، وسقطات خلقية لبعض أعضاء مكتب الإرشاد، وعلى الأخص وكيل الإخوان الأستاذ عبد الحكيم عابدين صهر فضيلة المرشد».

«استمر الخلاف واشتد الجدل بين الطرفين وفشلت كل محاولات التفاهم، وتمسك كل طرف بوجهة نظره، وانتهى الأمر بأن أعلن فضيلة المرشد العام فصل أولئك الشبان من جمعية الإخوان المسلمين».

«وفى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٨هـ [ربما كان من الجدير بالملاحظة أن هذا هو يوم وقفة عرفة] ـ يناير سنة ١٩٤٠م كوّن المنفصلون جماعة «شباب محمد»، وكانوا من أصدق الإخوان المسلمين إيمانًا بالدعوة والتمسك بها والحفاظ عليها والصلابة فى الحق لا يعرفون فيه هوادة، ولا يميلون مع الهوى، وكانوا فى بادئ الأمر قلة إلا أنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى فحملوا الأمانة وأدوا الرسالة على أفضل ما يكون الأداء، اتخذوا لهم دارًا فسيحة بشارع البركة الناصرية بالسيدة زينب أقاموا بها مسجدًا للصلاة، وأعدوا مدرسة لتربية وتعليم الأطفال المسلمين على النهج الإسلامى القويم، وصالة كبرى لإلقاء المحاضرات وإقامة الندوات وإحياء المناسبات الدينية والوطنية، واشتروا ماكينة طباعة لطبع جريد «النذير»، ومن بعدها جريدة «الشباب» لسان حال الجماعة، ومطبوعات الجماعة من كتب ونشرات، واختاروا من بينهم الأستاذ حسن يوسف رئيسًا لهم، وسارت القافلة على بركة الله بصبر وإيمان، وزاد عدد أعضائها ومناصريها واتسع نطاق عملها واحتلت الجماعة مكانًا مرموقًا بين سائر الجمعيات الإسلامية ذات الأثر الملموس فى الدعوة للإسلام، وحسبت لها السلطات الحاكمة

ألف حساب، وأخذت فى محاربتها ومطاردة أعضائها وفض اجتماعاتها ومصادرة جريدتها وتعطيل مطبعتها حتى انتهى بها المطاف سنة ١٩٥٤م إلى قفل دارها والاستيلاء على مطبعتها وممتلكاتها، وبذلك قضت على نشاطها بعد أن شلت حركتها، وهكذا شأن الظالم فى كل مكان».

(١٢٢)

وننتقل مع عبد العزيز على إلى ما سجله من أوجه الخلاف بين جماعتى الشبان المسلمين وشباب محمد ﷺ على نحو ما تضمنها بيانهم الأول الذى اختفى مع الزمن لكن هذا الرجل احتفظ به وقدمه فى هذه المذكرات، وهو يقول ما نصه:

«أما أوجه الخلاف التى فصل بسببها جماعة شباب محمد فقد بينتها الجماعة بالتفصيل فى بيان أصدرته ونشرته فى صدر جريدتها «النذير» لسان حالها بالعدد الأول فى أول محرم ١٣٥٩هـ ـ ٩ فبراير ١٩٤٠م تحت عنوان «قضية سبيل الله» موقفنا النهائى من جمعية الإخوان المسلمين، وحصرت الخلاف فى نقاط أربع:

«**أولا:** الأمر شورى: إذ يرى فضيلة المرشد العام أن لا شورى فى الدعوة، وإنما ينهض بها فرد له أن يأمر وعلى الجميع الطاعة، وإنه لم يجد فى الإخوان من هو أهل للشورى».

«ويرى فريق شباب محمد ﷺ أن المرشد مخالف للنظام السياسى للإسلام، وفيه تحد لمصدريه الكتاب والسنّة، مستشهداً بالآية الكريم: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«**ثانيًا:** العمل تحت لواء الحاكمين بغير ما أنزل الله: إذ أعلن فضيلة المرشد أن نجاح الدعوة مرهون بإرضاء الحكام والعمل تحت ألويتهم الحزبية، ويرى شباب محمد ﷺ أن فى ذلك الإعلان مخالفة لمبدأ من مبادئ الإخوان التى تقول أن لا نجاح للدعوة إلا بقوة الشعب الذاتية وتوجيه الرأى العام توجيهًا إسلاميًا خالصًا دون الاعتماد على الحكام الذين لا أمل فيهم ماداموا يحكمون بغير ما أنزل الله، فعارضوا رأى المرشد

بكل قوة، وذكروه بما ردده أكثر من مرة فى خطبه ومقالاته فى صحف الإخوان بأننا إسلاميون غير حزبيين، وأننا نعمل لله والرسول لا لزعيم ولا لحزب».

«**ثالثًا:** التلاعب المالى: إذ طالب فريق شباب محمد ﷺ من فضيلة المرشد وضع حد لما تلوكه الألسن من مخالفات مالية وقعت، وصرف أموال الجمعية فى غير ما خصصت له، كما تم فى أموال أسهم الدعوة والأموال التى جمعت لمساعدة فلسطين فى نكبتها وتكوين هيئة من المختصين فى الشئون المالية تكون مسئولة أمام الجمعية لضبط الحسابات ومراقبة الصرف، فأصم المرشد أذنيه و لم يأخذ فضيلته بذلك الطلب العادل وأصر على رفضه».

«**رابعًا:** تطهير الدعوة: إذ ألح شباب محمد ﷺ على فضيلة المرشد أكثر من مرة أن يحرص على طهارة الدعوة بإقصاء كل الذين تشوب أخلاقهم الشوائب حتى يسلم كيان الإخوان ويسمو عن المظان والشبهات، فأصر على إبقائهم فضلاً عن أنه أسند إليهم أعمالاً رئيسية وأخذ يشيد بذكرهم».

(١٢٣)

ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز على يقدم فى مذكراته قائمة تضم أسماء أبرز رجال الإخوان المسلمين الذين انفصلوا عن الحركة مكونين جماعة شباب محمد ﷺ، ونحن نلاحظ بين أسماء هؤلاء اسم الدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الشهير فى جامعة الإسكندرية، وهو الذى عمل مستشارًا سياسيًا لمجلس قيادة الثورة فى بداية عهد حركة ٢٣ يوليو، ويقال حسب رواية الأستاذ يوسف الشريف أنه كان أخًا فى الرضاع للرئيس عبد الناصر، لكنه اضطر إلى أن يترك هذا المنصب عندما آثر الزواج بإنجليزية، إذ لم يكن الرئيس عبد الناصر موافقًا على فكرة أن يكون من بين المقربين منه مَنْ يتزوج بإنجليزية:

«... أما مَنْ قادوا حركة الوقوف بصلابة فى وجه كل ما رأوه من المخالفات وكانوا النواة الأولى فى تكوين جماعة «شباب محمد» بعد انفصالهم عن الإخوان فهم:

«الأستاذ حسن يوسف بوزارة المعارف رئيس الجماعة».

«ومحمود أبو زيد عثمان المحامى عضو مكتب الإرشاد ومدير وصاحب جريدة «النذير»» .

«ومحمد على المغلاوى عضو مكتب الإرشاد وسكرتير لجنة الطلبة والعمال العامة» .

«وعثمان المراغى مندوب شعب الأقاليم» .

«ومحمد الحسينى عبد الغفار مندوب شعب القاهرة ومندوب كلية الشريعة» .

«ويوسف غنيم مندوب شعبة أسيوط» .

«وعلى سامى النشار ليسانس فى الفلسفة وعضو لجنة تحرير النذير» .

«ومحمد حسين أبو سالم عضو لجنة الطلبة والعمال العامة» .

«ومحمد عزت حسن مندوب كلية الهندسة» .

«وعز الدين عبد القادر مندوب كلية الصيدلة ، وهذا أصيب وقتل وهو يجرب تركيبًا كيماويًا من مواد ناسفة» .

«وتميمى حمزة فراج مندوب الطب البيطرى» .

«وعبد العال رشدان مندوب الفنون التطبيقية» .

«وراغب خير الله المدرس بالجمعية الخيرية الإسلامية» .

«وحسين عوض بريقى ، وأحمد عامر كلية الحقوق» .

«ومحمد جميعى المهندس بالقناطر الخيرية» .

«ومحمود جدامى كلية الزراعة» .

«وعبد المجيد النجار كلية التجارة» .

«ومحمد فهمى عبد الوهاب كلية الفنون التطبيقية» .

«وكلهم وقعوا على البيان المفصل الذى أصدرته الجمعية ، وأشرت إليه فيما سبق» .

(١٢٤)

ويفخر عبد العزيز على فى هذه المذكرات (ولا نقول يعترف) بالدور الذى لعبه فى مؤازرة مجموعة «شباب محمد» بالعونين المادى والمعنوى، ويصل إلى أن يشير إلى أن الجماعة هيأت له مخبأ سريًا للسلاح لم يعرف بأمره أحد، بل إنه يقول إنه اصطفى من بينهم اثنين ضمهما للجمعية الفدائية السرية:

«. . . ولقد آزرتُ جماعة «شباب محمد» من بدء تكوينها بكل ما أستطيع من عون مادى ومعنوى وفكرى، وتوثقت المحبة والثقة والمودة بينى وبين بعض أعضائها ممن اصطفيتهم بعد أن آنست فيهم الخير وأشركتهم فى رحلاتى الخلوية فى وادى حوف بحلوان، والربيكى، والمقطم للتدريب على الرماية، وكان من ثمرة ذلك أن اخترت من بينهم وباطمئنان الأستاذين محمود أبو زيد وحسين عوض بريقى للانضمام لعضوية الجمعية الفدائية السرية (التضامن الأخوى) وحلفتهم اليمين كما أشرت إلى ذلك فى موضوع آخر من المذكرات، وكذا استخدامى لمخبأ سرى فى مبنى دار الجماعة لحفظ أسلحتى فيه بموافقة رئيس الجماعة الأستاذ حسين يوسف، وعلم الأستاذ محمود أبو زيد، وبقى المخبأ وما به من سلاح سرًا لا يعلمه سوانا نحن الثلاثة، ودون أن يصل إليه البوليس برغم تعرض المبنى للتفتيش أكثر من مرة إلى أن نقل السلاح إلى المقاتلين من الفدائيين فى منطقة القنال».

(١٢٥)

وننتقل من حديث عبد العزيز على عن علاقاته بجماعتى «الإخوان المسلمين» و«شباب محمد»، ونأتى إلى حديثه عن علاقته بالجماعات والأحزاب التى تأسست من خلال النجاح الذى أحرزه مشروع القرش.

ومن المهم فى البداية أن نشير إلى حقيقة أن عبد العزيز على يربط بين نجاح فكرة صنع الطرابيش والجو الذى هيأ لهذا النجاح من خلال نجاح إسماعيل صدقى فى إحداث نهضة صناعية بمصر فى أثناء حكمه الدكتاتورى (١٩٣٠ - ١٩٣٣م)، وهو ما يدلنا على مدى الإنصاف الذى كان يتمتع به هذا الرجل، وهو ما جعله يعترف لصدقى

بالفضل على الرغم مما هو معروف من عداوة كل الوطنيين لصدقى، ولا ننسى بالطبع أن صدقى كان هو وزير الداخلية الذى قاد الجهود البوليسية التى أدت إلى كشف سر مقتل السردار:

«كان من ثمرة النهضة الصناعية بمصر التى ظهرت بوادرها سنة ١٩٣٠م وما بعدها فى عهد وزارة إسماعيل صدقى باشا (١٩ يونيو ١٩٣٠ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣م) تحمس طلبة الجامعة للدعوة لتلك الوسيلة من وسائل الجهاد، ومناداتهم مع مَنْ نادوا بمقاطعة البضائع الأجنبية والدعوة لتشجيع الصناعة وإحياء مشروعات جديدة بمال الشعب».

«وفكر جماعة منهم بزعامة أحمد حسين الطالب بالحقوق فى جمع المال عن طريق طوابع من ذات القرش الواحد لإقامة مصنع للطرابيش يكفينا مئونة استيرادها من الخارج، وكان ذلك سنة ١٩٣٠م، وأقبل الشعب على شراء الطوابع واستمر الجمع حوالى ثلاث سنوات جمع فى خلالها حوالى ثلاثين ألف جنيه».

(١٢٦)

من ناحية أخرى، فإن عبد العزيز على يؤصل للفكرة التى اقتنع بها وهى الفكرة القائلة بأن نجاح مشروع القروش ومصنع الطرابيش كانا السبب فى تكوين جمعية مصر الفتاة (١٩٣٣م) وتحولها إلى حزب (١٩٣٧م).

وهو يشير بوضوح إلى دوره هو شخصيًا فى مساعدة أحمد حسين ومجموعته بالرأى، وإلى زيارته لهم، بل إن عبد العزيز على يحرص على أن يصور مدى التعاون الذى مضى فى سبيله مع جريدة «الصرخة» التى أصدرها حزب مصر الفتاة.

ويضرب عبد العزيز على مثلاً على التعاون المشترك مع حزب مصر الفتاة بما قاما به معًا من توزيع المنشور الذى حمل عنوان «تحية لامبسون»:

«ونجح المشروع وشجعتهم تلك الخطوة على تكوين جمعية باسم «مصر الفتاة» برئاسة أحمد حسين، وكان ذلك فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٣م، ثم تحولت الجمعية إلى حزب باسم «حزب مصر الفتاة» فى يناير سنة ١٩٣٧م، ولما أعلن عن أهدافه رأيت فى

بعضها ما يتفق وروح الحزب الوطنى الذى أدين بمبادئه ودفعنى ذلك إلى زيارة مقر الحزب بعمارة المؤيد بشارع محمد على تشجيعًا وترحيبًا بروح شابة وثابة».

«وهكذا - فى رأيى - يجب أن يرتفع الوطنى عن التعصب الحزبى ويدلى بدلوه فى كل عمل بناء، إذ ما كاد ينشئ الحزب جريدة «الصرخة» لسان حاله إلا وبادرت فى تواضع بالمساهمة فى استلام بعض دفاتر الاشتراك بها وتوزيعها وأنا لست عضوًا فى الحزب، وكان لتلك المبادرة منى وقعها الحسن فى نفس أحمد حسين الذى لم أكن أعرفه من قبل، وكذلك عضده فتحى رضوان، وكنت أعلم أنه [أى فتحى رضوان] بدأ حياته السياسية وطنيًا يدين بمبدأ الزعيم الشاب مصطفى كامل، واستمرت العلاقة بيننا طيبة وبادلنى الحزب الخدمة العامة».

«ولا أنسى فى هذا المقام ما قام به من مساعدة قيمة فى تعميم توزيع ما كنت أكتبه من منشورات ثورية رأى أنها تسير فى الخط نفسه الذى ينتهجه، وأذكر له بالذات يوم أن أصدرت منشورًا بعنوان «تحية لامبسون» يوم أن حضر إلى مصر ليشغل وظيفة سفير إنجلترا بها وطلب منى حزب مصر الفتاة أن أمده بأكبر كمية من المنشورات ليعاون فى توزيعها، وأرسلتها إليه فقام بوضع نسخة منه داخل كل عدد من جريدته المنتشرة بين أعضائه وفى أنحاء القطر، وهذا ولاشك تعاون فى النضال يذكر».

(١٢٧)

ويشير عبد العزيز على باختصار إلى دوره الذى حاول أن يساند به كيان حزب مصر الفتاة فترة اضطهاد هذا الحزب فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال جمعية الشبان المسلمين (وقد كان هو نفسه عضوًا فى مجلس إدارتها) فى احتضان أنشطة حزب مصر الفتاة فى أثناء إغلاق السلطات لمقرهم:

«ولا يفوتنى أن أذكر أن الحزب غير اسمه سنة ١٩٤٠م من «حزب مصر الفتاة» إلى «الحزب الوطنى الإسلامى» وتعرض أصدقاؤه للاضطهاد، فاعتقلت السلطات الكثير منهم، وعطلت جريدته وجمدت نشاطه، وكان ذلك بارزًا بعد مؤازرة الحزب لحركة

رشيد عالى الكيلانى التحررية بالعراق ضد الإنجليز ، وظلت السلطات فى اضطهاد الحزب إلى أن تغيرت الظروف ، واستعاد نشاطه سنة ١٩٤٤م» .

«ومما زاد فى توثيق الصلة والروابط بينى وبين حزب مصر الفتاة اتخاذ الحزب من دار جمعية الشبان المسلمين (وأنا عضو مجلس إدارتها وأمين صندوقها) مكانًا آمنًا لمزاولة نشاطه فترة اضطهاد السلطات لزعمائه وأعضائه وغلق داره وتعطيل صحيفته . فكان أحمد حسين رئيس الحزب وزميله فتحى رضوان يلقيان الخطب الملتهبة بقاعة المحاضرات بالجمعية بثًا لدعوتهم» .

(١٢٨)

ولا يقف الأمر عند حد تعاون عبد العزيز على الشخصى مع حزب مصر الفتاة ، وإنما هو يلمح إلى العلاقة الحسنة التى ربطت بين الحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة :

«كما كان من دلائل تعاطف مصر الفتاة مع الحزب الوطنى (أظنه يقصد أن يقول : تعاطف الحزب الوطنى مع مصر الفتاة) حملة المعارضة الشديدة التى قادها فى البرلمان سنة ١٩٣٦م كُلٌّ من النائبين الوطنيين عبد العزيز الصوفانى ، وفكرى أباظة حين أراد البرلمان التصدى لأعضاء مصر الفتاة والتضييق على الحزب والحد من نشاطه» .

بل إن عبد العزيز على يتخذ محاولة اغتيال النحاس دليلاً حيًا على هذا التعاون (!!!) :

«ولا يفوتنى أيضًا بهذه المناسبة ذكر اعتداء عز الدين عبد القادر عضو مجلس جهاد مصر الفتاة على النحاس باشا رئيس الوزراء فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧م بشارع عباس بمصر الجديدة أمام مبنى شركة هليوبوليس إعلانًا عن سخط مصر الفتاة وتضامنها مع الحزب الوطنى (فى رفضه) لمعاهدة ١٩٣٦م» .

(١٢٩)

وفى موضع آخر من مذكراته يقدم عبد العزيز على اعترافات واضحة بمسئولية مصر الفتاة عن محاولة قتل النحاس باشا :

«وتطوع عز الدين (عضو مصر الفتاة) لمحاولة قتل النحاس باشا تعبيرًا عن السخط وتأييدًا لرفض المعاهدة، وتربص له واختفى خلف أحد أعمدة البواكى عند تقاطع شارعى عباس وإسماعيل بمصر الجديدة قريبًا من منزله، ورماه برصاصة من مسدسه وهو مار بسيارته ليلاً فأخطأه، وكانت هذه أول محاولة لاغتيال النحاس، وهرب عز الدين واختفى بأحد المنازل القريبة من مكان الحادث، إلا أن البوليس كان قد تعقبه وألقى القبض عليه وقدم للمحاكمة بعد أن حقق معه وأدين باعترافه، ولم يعترف على أحد وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة».

(١٣٠)

وتلقى مذكرات عبد العزيز على أضواء كاشفة على علاقة صاحبها بالتنظيمات السرية التى وجدت فى القوات المسلحة، وهو يجاهر فى هذه المذكرات بعقيدته التى نضجت فى ذلك الحين من أن الجيش لابد أن يشارك فى الحركة الوطنية، وأن يخرج من عزلته، وأن يبدأ هذا السبيل بتكوين تنظيم سرى من ضباط الجيش يتولى الاغتيالات السياسية باعتبارها وسيلة فعالة، وهو يعبر عن هذا المعنى بألفاظ لا تنقصها الصراحة ويقول:

« . . . بعد صدور الحكم فى قضية السردار ببضع سنوات وفقت لتكوين شعبة من إخوانى المخلصين الأساتذة: محمود أبو زيد، وحسين عوض بريقى، ومحمد حمدان، وأمين ربيع، أدوا يمين الجمعية وقاموا ببعض الرحلات للتدريب على السلاح، إلا أن أحداث البلد كانت تجرى بسرعة ولم تكن حالتهم من قوة التدريب والاستعداد تسمح بتكليفهم بالقيام باطمئنان وثقة ببعض الاغتيالات على غرار ما كانت تؤديه الشعبة التى أعدم أفرادها، فآثرت عدم المجازفة بأفرادها حتى تتهيأ تمامًا للعمل، ومشاقه، وهدانى الله فى نفس الوقت - كسبًا للوقت - أن أنشد سد الفراغ بشباب من الجيش لما يتوفر لديهم فى نظرى - وقد لا يتوفر لسواهم - من نظام وروح وتنظيم عسكرى، وتدريب وتسليح».

«هذا مع علمى التام بأن المهمة شاقة تمامًا لما كان عليه الجيش من ضعف القوة والإعداد، ومن التخلف الروحى والعملى والثقافى، وعزلته التامة عن الشئون

السياسية، ومن أنه آلة مسخرة فى يد الملك، ولا يحس الشعب بوجوده إلا حيث تقام الحفلات الرسمية، أو يكلف بإخماد انتفاضة وطنية».

(١٣١)

ويروى عبد العزيز على كيف بدأ هو نفسه السبيل فى محاولة تكوين التنظيمات السرية داخل الجيش المصرى فيقول:

«ومهدت لتلك الخطوة وأسررت لبعض إخوانى المخلصين، وأخص بالذكر منهم: عبد المعطى عطية، ويوسف كمال، ومحمد عبد الرحمن حسين، ومحمد فتح الله درويش، بأمنيتى فى التعرف أولاً ببعض شباب الجيش ممن يكون فيهم الخير لبدء مرحلة انقلاب مسلح مدروسة لا مرتجلة، تقضى على كل الأوضاع السقيمة فى البلاد».

«وكانت بداية الخيط أن زكى لى زميلى محمد فتح الله درويش الموظف بوزارة المالية الضابطين الشابين رشاد مهنا، ومحمد الخشاب، وكانت تربطه بالأول صداقة متينة، وبالتالى صلة قرابة».

«وتوالت بيننا المقابلات لتوثيق الصلة، وكانت أحاديثى كلها تدور حول ما يقاسيه الوطن وأبناؤه من مآسى التمزق والجهل والفقر على يد المحتل وحكام البلاد، وما يجب علينا عمله من انقلاب لتحرير البلاد من الاحتلال وتصحيح ما نحن عليه من أوضاع، وما يجب أن نوفره فى العاملين من فهم صحيح لحقوقهم وللواجب عليهم، والإيمان بالله وحب الوطن، على أن يظهر أثر ذلك كله فى السلوك السوى، والعمل الصالح».

«وكانت تلك التوجيهات بمثابة شحنات لا بد منها لمن يعد نفسه ثم يعد غيره من شباب الضباط للانقلاب المرتقب، ففاقد الشىء لا يعطيه».

(١٣٢)

ويشير عبد العزيز على بكل صراحة إلى أن وجيه أباظة كان نواة العسكريين الذين اشتركوا فى تأسيس هذا التنظيم:

«وكان من أهم ما عقد من اجتماعات لتهيئة الجو للسير على الطريق وإخراج ما يدور بخلدنا إلى حيز العمل، تلك التى هيأ لنا فرصتها الأخ عبد المعطى حيث استضافنا لمدة يومين فى بلدته الصوالح شرقية حيث استمتعنا بكرم الضيافة وجو الريف وهدوئه بعيدا عن ضوضاء المدينة وعيون الرقباء، وكان يوسف كمال ومحمد عبد الرحمن حسين والداعى عبد المعطى عطية (حقوقيين) ووجيه أباظة (الطيار بالجيش) وأنا، واتفقت كلمتنا بعد عدة جلسات على أن الجيش لا بد أن يخرج عن عزلته وأن ينزل إلى الميدان وأن يتحمل القسط الأوفر لتحقيق الانقلاب، على أن يبدأ الشوط بالدعوة لتكوين تنظيم سرى من ضباط الجيش للاغتيالات السياسية، وعدنا من تلك الرحلة المباركة، وإذا بمحمد عبد الرحمن يزكى لنا وجيه أباظة الذى وضعناه - وفق نظامنا القديم - تحت الاختبار، وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١٩٣٥م، وعن طريقه تم التعارف مع الطيارين عبد اللطيف البغدادى وحسن عزت وأحمد سعودى».

«وكنا نجتمع بهم أنا وصديقاى عبد المعطى عطية المحامى ومحمد عبد الرحمن حسين بإحدى فيلات شركة مصر الجديدة بناصية دمنهور، نتبادل الحديث والرأى حول أوضاع البلد وأوضاع الجيش، وواجب شباب الجيش نحو خدمة الوطن».

«ومع تكرار الاجتماعات توثقت الصلة واستقر الرأى على تكوين خلية سرية منهم تدعو - وفق نظام موضوع - فى سرية تامة وبحذر شديد لفكرة الانقلاب بين زملائهم من شباب الجيش، وعلى أن يسبق الدعوة اهتمام كل فرد من الخلية باستكمال أى نقص أو ضعف فيه، عملاً بمبدأ «ابدأ بنفسك» لكى تكون لبنة الأساس قوية، ويصبح كل فرد فيها أهلاً للعمل الجليل الخطير الذى ينتظره».

«وبإتمام تلك الخطوة الأولى - وهى أشق الخطوات وأهمها - نعمل للخطوة التالية، وهى توسيع الدائرة بأن تجمع حولها - وفق النظام المرسوم - خلايا تتكون على غرار ما تكونت هى عليه باختيار الأفراد الصالحين واحداً فواحداً على ألا تزيد كل خلية على أربعة أشخاص، مع مراعاة الكيف لا الكم فى التكوين، كما كان الشأن فى شعبتنا الأولى المدنية».

(١٣٣)

ويصرح عبد العزيز على فى هذه المذكرات بأسماء الضباط الذين وثق فيهم ورآهم أهلاً لتكوين الخلية الثانية من خلايا تنظيم الضباط السرى، ومن الطريف أن أول مَنْ فكر فيه قد استشهد فى حرب فلسطين، وأن الثانى توفى فى حادث سيارة، وأن الثالث الذى بقى على قيد الحياة صار فى السبعينيات قائدًا عامًا للقوات المسلحة ووزيرًا للحربية ونائبًا لرئيس الوزراء:

«وكنت من ناحيتى دائب السعى لتعزيز الخلية الأولى، وتعرفت على الضابط الشاب وجيه خليل، وكثرت لقاءاتنا حيث كان يتردد على منزلى ١٣ شارع صباغ بمصر الجديدة، وتوثقت الصلة بيننا، ثم فجعت باستشهاده فى حرب فلسطين ١٩٤٨م، ثم تعرفت على الضابط الشاب هلال المنجورى، وكان مدرسًا بالكلية الحربية، وأجريت معه ما أجريته مع سابقه وفجعت فيه أيضًا بوفاته متأثرًا بجراحه فى حادث حريق سيارته بطريق حلوان، وتعرفت على الضابط محمد أحمد صادق، وكان من حرس السراى، وتوثقت الصلة وكنت أرجو أن أسعد بتكوين الخلية الثانية منه ومن وجيه خليل وهلال المنجورى».

(١٣٤)

كذلك يشير عبد العزيز على إلى لقاء وحيد جمعه باثنين من الضباط هما الرحمانى وصادق، ويبدو أن هذين الضابطين هما محمد كامل الرحمانى، وأحمد فؤاد صادق:

«وأبدى لى هلال فى إحدى زياراته لى بمنزلى فى أن يجمعنى بالضابطين الرحمانى وصادق لما يعهده فيهما من تلاؤم مع ما نسعى إليه، ورحبت برغبته تمشيًا مع أملى فى جمع أكبر عدد من الضباط الصالحين لمهمتنا، وتم اللقاء بينى وبينهما بحضور هلال فى صحراء مصر الجديدة، ولم تسمح الظروف بعدئذ مع الأسف بتكرار اللقاء».

(١٣٥)

ومن الطبيعى أن يأتى ذكر الاتصال بالرئيس السادات الذى كان بمثابة قاسم مشترك فى كل التنظيمات السرية التى تكونت ونشطت فى هذه الفترة، والذى كان اسمه

معروفًا على نطاق واسع بين الجماعات الراديكالية، ومن الطريف أن عبد العزيز على يشير إلى أن اللقاء تم بناء على رغبة السادات نفسه، وليس بناء على مبادرته هو، وذلك على النقيض من كل لقاءاته مع رموز هذه الجماعات:

«. . . هذا وكان قد تم بينى وبين الضابط الشاب محمد أنور السادات فى أواخر ١٩٤١م لقاء بمكتب صديق الطرفين الأستاذ إبراهيم رياض المحامى عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى الذى رتب بناء على رغبة أنور ذاته الذى كاشفنى بما نما إلى علمه عن نشاطى الوطنى وعن الجهاز السرى الذى قام بالاغتيالات السياسية، مما دفعه إلى السعى للقائى للإفادة من خبراتى السابقة».

«وكان أنور فى ذلك اللقاء كغيره ممن عرفته من الشبان العسكريين مملوءًا حماسًا وعاطفة، متبرمًا بالأوضاع، ويريد أن يتلمس - وقد فقد الثقة فى زعماء الأحزاب - طريق الخلاص، فشكرت له حماسه وغيرته، ونوهت له بأن ما أصاب وطننا من فوضى وتخلف واضطراب وأصاب أبناء وطننا من ضعف وانحلال يتطلب شيئًا آخر غير الحماسة ومجرد الغيرة، وأن طريق الخلاص يتطلب منا العمل الجاد مبتدئين بإصلاح نفوسنا «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» و«قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»، وانتهى اللقاء بتجاوب أفكارنا وارتياحه لوجهة نظرى وبأمل تكراره كلما سنحت الفرصة».

(١٣٦)

ويلمح عبد العزيز على من طرف غير خفى بطبيعة الاتفاق الذى تم بينه وبين تنظيمات الضباط الأحرار، فقد ابتعد بإرادته وربما باتفاق واضح معهم عن أن يحيط بأخبارهم وتحركاتهم وهياكل تنظيمهم، وذلك من أجل تهيئة الفرص لهم لتقوية التنظيم والحفاظ على سريته:

«. . . هذا، ولكى أملأ قلوب أفراد الرعيل الأول من الضباط الشبان ممن سبق ذكرهم ثقة بأنفسهم، واعتمادًا عليهم، أشعرتهم وقد ثبتت أقدامهم على الطريق بأنى سأقف منهم موقف المتتبع لحركة الجهاز السرى من وقت لآخر للاطمئنان على أن

القافلة تسير بالروح المؤمنة التى بعثتها فيهم، وفى نطاق النظام المحكم الذى وضعته وبأنه لا يعنينى البتة معرفة أسماء عدد أو رتب أو مراكز أعضاء الخلايا الأخرى التى قد يوفقون لتكوينها بقدر ما يعنينى رسوخ قدم الجهاز والمحافظة على السرية التامة لنجاح الخطة. وكان أكثرهم اتصالاً فى تلك المرحلة عبد اللطيف البغدادى، فكنا نلتقى بين الحين والحين، ومنه أقف على مدى نشر فكرة التنظيم السرى بين الضباط».

(١٣٧)

ويحرص عبد العزيز على على أن يشير إلى ما كان يعتقده من تأثير إيجابى للمنشورات الوطنية التى كانت بمثابة السلاح الذى أفاد الضباط إلى أقصى مدى، وهو يشير إلى أنه أصدر ثلاث سلاسل من هذه المنشورات، ومن حسن الحظ أنه ضمن كتابه بعضًا من هذه النشرات:

«ومما لا شك فيه أن للمنشوات الوطنية التى كنت أصدرها بانتظام باسم الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل «مصر بين شقى الرحى» والتى صدر منها اثنان وعشرون منشورًا، والمنشورات الأخرى التى كنت أوقعها باسم «العيون الساهرة» وحفنة الفداء، والتى غزت وحدات الجيش بفضل توزيعها بحكمة بمعرفة أعضاء الجهاز أثرًا بالغًا فى سريان فكرة التنظيم السرى بين شباب الجيش والانضمام إليه، إذ كانت تندد فى عنف بتطاحن الأحزاب وصراع الزعماء على الحكم، وتدعو بحرارة إلى وجوب العمل الجاد المتواصل للخلاص».

«وكبر التنظيم واشتد مع الزمان ساعده، ووقف على أرض صلبة يترقب الفرصة للقيام بالثورة التى بقيت أملاً فى الصدور، وتحققت يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وفتحت الطريق للتحرر المأمول».

(١٣٨)

ويبدو أن باحثى مركز التاريخ الذين اجتمعوا بعبد العزيز على من أجل هذه المذكرات كانوا قد ألحوا عليه فى الحديث عن شخصيات الضباط الأحرار، لكنه آثر أن يكون هذا على نحو مختصر فى فقرة واحدة:

«ومن الخير أن أشير بكلمة إلى الطابع المميز لبعض أفراد الرعيل الأول من التنظيم (الذين سموا أنفسهم الضباط الأحرار)، وإن اتفقوا كلهم فى الإخلاص وحب العمل، فرشاد مهنا غيور متدين هادئ الطبع، محب للاطلاع، والخشاب حذر هياب، وحسن عزت جسور مندفع، وسعودى مستهتر عصبى المزاج، والبغدادى هادئ قليل الكلام، ووجيه أباظة بسيط مسالم، ووجيه خليل جرىء مقدام، وهلال المنجورى وديع سليم الطوية، ومحمد أحمد صادق دبلوماسى، وأنور [أى: أنور السادات] متوثب متفتح».

(١٣٩)

ويشير عبد العزيز على إلى أنه لم يلتق بالرئيس جمال عبد الناصر فيما قبل قيام الثورة، لكن الرئيس زاره فى منزله بعد قيام الثورة، ونستطيع أن نفهم أن هذا اللقاء كان قبل سبتمبر ١٩٥٢م حين اختير عبد العزيز على نفسه وزيرًا للشئون البلدية والقروية، ونحن نلاحظ أن عبد العزيز على يكتفى فى حديثه عن لقائه بعبد الناصر بعموميات، وربما أنه اكتفى؛ لأن الجزء الثانى من مذكراته يتضمن تفصيلات أكثر عن هذه الفترة:

«وأما جمال عبد الناصر فلم يجمعنى به لقاء قبل الثورة، إلا أنه زارنى بمنزلى بصحبة الخشاب بعد قيام الثورة، ودار الحديث بيننا حول موضوع الساعة، وكان ينصت إلىّ باهتمام وارتياح، وقال إنه يود لو طال بنا الوقت ليستمتع بحديثى الهام لولا ارتباطه بميعاد مع زملائه الضباط بالقيادة».

«وكان لقاء ـ والحمد لله ـ مثمرًا، ثم تكررت بيننا اللقاءات بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة، وكان وقع الاختيار علىّ لأتولى وزارة الشئون البلدية والقروية فى أول وزارة الثورة».

(١٤٠)

ويورد عبد العزيز على فى هذه المذكرات تفصيلات دقيقة عن بعض النشاط السرى

الذى قامت به مجموعة الضباط الطيارين أو أسهمت فيه أو فى توجيهه، وهو يتحدث عن مبادرة حسن عزت من أجل صنع قنابل مولوتوف، وما شاب هذه المحاولة من اندفاع الضابط سعودى أبو على وزملائه، وما تمكن به حسن عزت من علاج للموقف بسرعة بديهة :

« . . . حدث فى أحد اللقاءات مع خلية الطيارين (البغدادى، ووجيه أباظة، وحسن عزت، وسعودى) والحديث يدور حول أهمية السلاح ووجوب توفره لدى المنظمة للتدريب، ولادخاره لوقت الحاجة، أن أبدى لى الطيار حسن عزت استعداده لصنع قنابل مولوتوف بنفسه إذا حصل على ما يلزم لصنعها من ملح بارود، وكبريت عمود، وعدد من العلب الصفيح الصغيرة الأسطوانية الشكل، فأحضرت له كمية وفيرة من المواد وما لا يقل عن مائة علبة صفيح فارغة».

«وكان حسن يسكن هو وزميله الطيار سعودى أبو على فى فيلا بحدائق القبة، واتخذ من إحدى حجراتها معملاً زوده ببعض العدد والآلات، وبدأ فى صنع القنابل، ووقع خطأ فى أثناء العمل أدى إلى تطاير شرر كاد يحدث حريقًا ولكن الله سلم، وكان سعودى وقتئذ بالفيلا فطير الخبر لزملائه فى المطار، ولعله فعل ذلك تفاخرًا، وهو على أى حال نقصٌ يؤخذ عليه، ونقض لعهد الجماعة بأن يلزم كل فرد الكتمان التام».

«ومن حسن الحظ أن شعر حسن [عزت] بما وقع فيه سعودى [أبو على] من خطأ وعدم تقدير للمسئولية وفكر فى نقل كل المواد والعلب ومعها شنطة أسلحة كانت مودعة عنده فى الفيلا إلى مكان آخر أمين فورًا، حيث خشى أن يكون من بين مَنْ سمعوا الخبر مَنْ يبلغ الجهات المسئولة فيفتضح الأمر وتتوقف العملية، فضلاً عما قد يصيبه هو وسعودى من أذى، وتلك فطنة من حسن [عزت] وسرعة بديهة يشكر عليها».

(١٤١)

وهنا يأتى دور أبى الفدائيين عبد العزيز على الذى هيأ لهؤلاء الضباط مكانًا أمينًا تنقل فيه أدوات تصنيع القنبلة وباقى السلاح قبل أن يهاجم البوليس الفيلا لضبط ما بها وضبط التنظيم :

«وهرع [أى حسن عزت] إلىّ حين بلغه الخبر يطلب منى العون السريع ، فأعددت فى الحال سيارة أحد إخوانى هو الأستاذ عبد المعطى عطية ونقلنا بها المواد والعلب وشنطة السلاح ليلاً إلى منزل ابن خالى محمد محمود قطب بشارع الدويدار بمنشية الصدر» .

«وأعقب ذلك التصرف السريع ما توقعه حسن [عزت] ؛ إذ إن البوليس هاجم الفيلا فى اليوم التالى وفتشها ولم يعثر على شىء ومرت الواقعة بسلام ، إلا أنها بينت مدى تهور وقصر نظر وتهاون سعودى ، وفى الوقت نفسه جرأة وبديهة ويقظة حسن» .

(١٤٢)

ويستطرد عبد العزيز على من حديثه عن هذه الواقعة معترفًا بالاستطراد إلى تقييمه لشخصية سعودى أبو على ، راويًا ذكرياته ومعلوماته عن المحاولة التى قام بها سعودى أبو على للاتصال بالألمان ، وهى المحاولة التى انتهت بفقدان سعودى نفسه :

«وإن كان الشىء بالشىء يذكر ، فإنى أسجل فى هذا المقام إصرار وعناد سعودى على أن يكون هو رسول مصر إلى روميل فى الصحراء الغربية للاتفاق مع الألمان على تنسيق الحرب والمقاومة ضد الإنجليز بمصر على أساس تزويد المقاومة المصرية بالأسلحة والعتاد ، واحترام الألمان لاستقلال مصر حتى لا تستبدل باحتلال احتلالاً » .

«واستقل سعودى فعلاً قبيل فجر أحد الأيام طائرة الطيار حسن إبراهيم ذات المحرك الواحد ، وكان وقتئذ الطيار المسئول عن الحراسة الجوية للقاهرة ، واستعان سعودى بزميله الطيار حسن عًزت الذى أدار محرك الطيارة بعد أن صعد سعودى إلى مقعد القيادة فأخذ طريقه فى الجو وتعرض لمطاردة طائرات أمريكية تمكن من إصابة بعضها وإرغام البعض على الهبوط فى منخفض القطارة ، وتخطى سعودى بشجاعة كل العقبات والمواقع المضادة للطائرات ووصل إلى مقر روميل فى الصحراء ، ثم انقطعت أخباره إلى أن أعلنت وزارة الحربية المصرية فى يوليو ١٩٤٢م اعتباره مفقودًا» .

وربما جاز لنا أن نتوقف فى وسط الفقرة التى ننقلها عن عبد العزيز على لنسأل عما

جعل صاحب المذكرات يتأكد من أن سعودى قد وصل إلى مقر قيادة روميل فى الصحراء، ثم فقد، وأنه لم يفقد قبل ذلك :

«وعند افتضاح أمر الطائرة حوكم حسن إبراهيم وصدر قرار بتأخير أقدميته ٣٣ ضابطًا، وألقى القبض على حسن عزت صديق سعودى».

«ومما عرفته عن سعودى أنه من مواليد الإسكندرية ١٩١٩م، وهو ابن المؤرخ المصرى الشيخ حسين أبو على، وتخرج فى الكلية الحربية قسم الطيران ١٩٣٩م، وكان الأول على دفعته، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته».

(١٤٣)

وتتضمن هذه المذكرات حديثًا لعبد العزيز على عن إخفاق محاولة شراء سلاح من الإسماعيلية، ويبدو أن عبد العزيز على بروايته لهذه الواقعة كان يريد أن يدلنا على أن تنظيمات الضباط والمرتبطين بهم لم تكن تتمتع بالحنكة المطلوبة فى مثل هذه الأحوال والمغامرات :

«. . . عرض علىّ محمد عبد الرحمن حسين نسيب الطيار وجيه أباظة أن فى إمكانه الحصول على مسدسات لو دبرت له مبدئيًا مبلغ ثلاثين جنيهًا، وأنه فى إمكانه تكرار العملية كلما سنحت له الفرصة».

«ودبرت المبلغ من مالى الخاص وسافرت إلى محمد عبد الرحمن ببلدة الزقازيق، ومن هناك استأجرنا سيارة تاكسى إلى الإسماعيلية ذهابًا وإيابًا، وفى الطريق استأذن منى ليمر على أعرابى يثق به ليصحبنا كدليل، ووصلت بنا السيارة إلى الإسماعيلية قبل الغروب، وأوقفها محمد فى شارع جانبى لا أذكر اسمه ونزل منها ومعه الأعرابى وتركانى فى السيارة أنتظر عودتهما ومعهما السلاح، وطال انتظارى ساعات وخيم الظلام وتحرج الموقف وساورنى القلق».

«وأخيرًا عاد محمد وحده متجهمًا يتميز غيظًا دون أن يحضر سلاحًا، وكان فى خجل شديد وشبه مذهول من شدة الصدمة، فأيقنت - دون أن أسأله شيئًا - أن الأعرابى

خدعه وأوقعه فى فخ نصب له مع نفر من المحتالين للاستيلاء على المبلغ ، وهو وحده لم يقو على اتخاذ أى إجراء واستسلم للأمر الواقع وضاع علىّ المبلغ ونحن أحوج ما نكون إلى المال» .

(١٤٤)

ويضمن عبد العزيز على مذكراته حديثًا شيِّقًا عن بعض مخابئ السلاح التى كان يلجأ إليها للحفاظ على هذه الأداة المهمة لنشاطه الوطنى ، وهو يكشف السر الذى أخفاه طيلة حياته فيما يتعلق بإخفائه السلاح فى خزنة بنك مصر حيث كان يعمل ، ومما نلاحظه أنه يذكر أن طريقة محمود راشد فى تخبئة السلاح فى ضلفة أحد الأبواب كانت سرّا بينهما لا يعرفه غيرهما ، بينما نرى عبد الفتاح عنايت فى مذكراته وهو يحدثنا عن هذه الطريقة الماهرة بإعجاب ، مما يدل على أنه كان هو الآخر يعرف هذا السر :

«وكما كنت دائب السعى فى الحصول على سلاح لتسليح أفراد الشعبة ، كنت دائمًا كبير الحرص على المحافظة على ما نحصل عليه من سلاح بإخفائه فى أكثر من مكان لأتقى خطر فقده كله إذا ما كان فى مكان واحد ودهمه البوليس يومًا ، وذلك سر أكشف عنه هنا لأول مرة لم يكن يعلم به أحد حتى أفراد الشعبة» .

«فكنت وأنا رئيس حفظ الأوراق المالية ببنك مصر وفى سنى حوادث الاغتيال السياسية ما بين ١٩٢١ و١٩٢٤م أتخذ من خزائن حفظ الأوراق المالية - وكلها تحت يدى ومفاتيحها معى بحكم وظيفتى - مخبأ آمنا لحفظ المسدسات والقنابل اليدوية ، مطمئنًا كل الاطمئنان أنه لا يخطر على بال أحد إطلاقًا أن خزائن البنك تكون مخبأ سلاح ، وزيادة فى الحرص لم يكن يعلم بذلك المخبأ أحد من أفراد الشعبة ، وهذا فضلاً عن المخبأ الأصلى الذى كان [قد] أعده محمود راشد بضلفة أحد أبواب مسكنه بطريقة لا يلحظها أحد ، وكان لا يعلم أمر المخبأ إلا نحن الاثنان ، وكان السلاح المحفوظ به هو الذى كان يستخدم فى حوادث الاغتيال قبيل القيام بحادثة ، ويرد إلى مكانه بالتالى بعد التنفيذ ليقوم راشد بتنظيفه وتزييته [ووضعه] فى موضعه الذى بقى سرّا إلى أن كشف

عنه التحقيق فى حادث السردار ، وكان البوليس قد علم به من وقت أن اصطحب عبد الحميد عنايت الخائن نجيب الهلباوى إلى منزل راشد وتسلم منه السلاح للهرب ، وكان راشد مصرًا على الإنكار وأنه لا يحفظ سلاحًا عنده إلى أن فاجأه المحقق بضلفة الباب التى أمر بخلعها من مكانها وواجهه بها فانهارت قوى راشد وفقد صوابه ولم يجد بدًا من الاعتراف مكرهًا» .

(١٤٥)

ويمضى عبد العزيز على فى الحديث الدقيق عن الأماكن التى كان يلجأ إليها ويستخدمها كمخابئ للأسلحة ، ومن الطريف أن عمارة سوسو باشا التى يشير إليها لا تزال قائمة فى مصر الجديدة :

«ومخبأ آخر اتخذته بمنزل ابن خالى عبد الخالق قطب ، وهو أبعد ما يكون عن الشبهات ، بشارع ماسبيرو بملك اللواء سوسو باشا بمصر الجديدة ، أودعت فيه بندقية تومى كنت [قد] اشتريتها من مالى الخاص ، وصفيحتين مملوءتين برصاص البنادق كنت [قد] حصلت عليهما بلا ثمن من الضابط عبد الحميد المهدى نجل عثمان باشا المهدى ، حصل عليهما بالاتفاق معى من مخازن الجيش البريطانى بالقلعة بطريقة خاصة ، وعبد الحميد ابن أخت صديقى محمد فتح الله درويش الموظف بالمالية ، والذى سبق أن أشرت إليه بأنه هو الذى زكى لى رشاد مهنا ، ومحمد الخشاب» .

«ومخبأ رابع بمنزل ابن خالى محمد محمود قطب ، وهو أيضًا [كان] بعيدًا عن أى شبهة ، ٢٢ شارع الدويدار بمنشية الصدر ، وكانت به شنطة بداخلها ثلاثة مسدسات بجانب كمية من كبريت العمود ، وملح البارود ، وصفائح فارغة مما كنت أعددته لصنع قنابل مولوتوف بمعرفة حسن عزت» .

«ومن فضل الله أن يد البوليس لم تصل إلى أى مخبأ منها ؛ لأنها أبعد ما تكون عن الشبهة» .

«ثم اضطرتنى ظروف استقالتى من بنك مصر وعثور البوليس على السلاح الذى كان مخبأ بمنزل محمود راشد ، ورغبة كلٍّ من عبد الخالق قطب ومحمد محمود قطب

فى ترك مسكنه إلى مسكن آخر، اضطرتنى إلى التفكير فى نقل السلاح إلى مكان آخر يكون آمنًا وبعيدًا عن الشبهة».

(١٤٦)

ويتحدث عبد العزيز على عن النقل الثانى (ثم الثالث) للأسلحة المجمعة، وهو أصعب بالطبع من «التخزين» الأول، ومن الإنصاف أن نشير إلى بطولة رشاد مهنا الذى تولى هذه العملية بنفسه، فى إحدى السيارات العسكرية:

«ولم تكن عملية تجميع السلاح ونقله سهلة، إذ يجب أن تتم بكل حرص وفى خفاء، وعلمت من صديقى محمود أبوزيد أن حسن يوسف رئيس جمعية شباب محمد ﷺ هو عضو بها، يقطن مع عائلته فى منزل تملكه بجهة السيد زينب ولا يسكن فى المنزل سواه، ولا يتردد فى قبول نقل السلاح إلى منزله».

«نقلت ما كان مخبأ بالبنك إلى منزلى وطلبت من صديقى رشاد مهنا أن يساعدنى فى نقله ونقل ما كان لدى ابن خالى عبد الخالق وابن خالى محمد محمود قطب إلى منزل الأخ حسن يوسف بالسيدة، فاستجاب فى شهامة وأحضر سيارة من سيارات الجيش وقادها بنفسه وجمعنا السلاح ونقلناه ليلاً بأمان إلى مخبئه الجديد».

«ثم قضت ظروف بنقله إلى مخبأ سرىّ ببدروم جمعية شباب محمد بشارع البركة الناصرية بالسيدة زينب، إلى أن سنحت فرصة مد الفدائيين به بمنطقة القنال».

(١٤٧)

ويتحدث عبد العزيز على عن الدور الوطنى الذى قدر للدكتور عبد الكريم درويش أن يؤديه فى حماية أبناء الحركة الوطنية حين كان ضابطًا صغيرًا فى مركز شرطة أبو حماد:

«كان الدكتور عبد الكريم درويش (عميد أكاديمية الشرطة حاليًا) ضابطًا فى مركز أبو حماد مدة حركة الكتائب، وكان يتولى اتصال الإدارة الحكومية بالقوات الإنجليزية،

وفى مساء أحد الأيام عرف بحكم مهنته أن الإنجليز قد اكتشفوا أن جماعة من الفدائيين قد أقاموا فى وكر مجاور لمعسكر المحجر غرب التل الكبير استعدادا لاقتحامه وتدميره، فقام مسرعا وقاد بنفسه سيارة الشرطة «البوكس» وصار فى جنح الليل يبحث عن الفدائيين حتى وجدهم فأبلغهم أن الإنجليز قد اكتشفوا مكانهم وحملهم فى سيارة الشرطة حتى أخرجهم من المنطقة قبيل الفجر، وما إن وصلوا إلى مكانهم الآمن حتى سمعوا دوى قنابل، إذ كانت الطائرات الإنجليزية تدك المكان الذى كانوا فيه من حوالى نصف ساعة فقط» .

«وهكذا أنقذ ذلك الضابط الوطنى الشهم أفراد كتيبة مصطفى كامل التى كانت كامنة بجوار المعسكر للانقضاض عليه» .

(١٤٨)

ربما آن الأوان بعد هذا كله أن نتحدث عما تضمنته مذكرات عبد العزيز على من الآراء الواضحة فى الأحزاب السياسية والممارسات السياسية على مدى رحلته الطويلة مع العمل الوطنى، ومن الطبيعى أن تأتى إشادته بممارسات الحزب الوطنى فى مقدمة هذه الأحاديث .

والواقع أن مذكرات عبد العزيز على تتضمن بعض ما يشير إلى فضل الحزب الوطنى على الحركة العمالية فى مصر، وهو دور غير مشهور فى تاريخنا السياسى، وإن كان تاريخ الحركة العمالية، فى المقابل، يسجله بكل اعتزاز للحزب الوطنى الذى كان صاحب ريادة أيضًا فى مجال التعاون والحركات التعاونية على يد عمر لطفى، وعبد الرحمن الرافعى وغيرهما .

ونحن نلاحظ أن عبد العزيز على يكاد يوحد فى حديثه بين هذين التوجهين المتقاربين من النشاط الوطنى، بيد أنه فيما يظهر من نصوصه يعنى فى المقام الأول بالدور الذى لعبته هذه التنظيمات فى الحركة الوطنية :

«ولا يفوتنى أن أسجل هنا بمناسبة انتفاضة عمال الترسانة أن موقف العمال المشرف فى الثورة كان ولاشك ثمرة الغرس الطيب الذى ألقى بذوره الأولى وأرسى قواعده

وتعهده بالرعاية الحزب الوطنى قبل الحرب العالمية الأولى، حيث وجه اهتمامه البالغ إلى تكوين النقابات العمالية والجمعيات التعاونية الزراعية التى أخذت تحتفظ بحيويتها وامتدت جذورها واتسعت وزاد نشاطها على مر السنين، فحفظت على العمال كيانهم وحسنت من أحوالهم، ورفعت من مستوى معيشتهم، وزادت من وعيهم لما يدور حولهم، وما يراد بهم، وجعلت منهم قوة يحسب لها حساب أدت ما يمليه عليها الواجب فى كل مراحل الجهاد».

(١٤٩)

ويقدم الأستاذ عبد العزيز على فى هذه المذكرات قائمة بأقطاب الحزب الوطنى الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية عقب خلع الخديوى عباس حلمى وتولية السلطان حسين كامل الحكم وفرض الحماية، وهو ما يدلنا على أن أجهزة الأمن السياسى التى كان المحتل البريطانى يعتمد عليها كانت تسيطر عليها فكرة أن الحزب الوطنى قبل غيره، وربما دون غيره، هو مستودع الوطنية المصرية الكفيلة بمقاومة المحتل على نحو جدى، وكذلك يذكر عبد العزيز على أسماء بعض المعتقلات التى اتسعت لهؤلاء الوطنيين:

« . . . وزجت السلطة العسكرية بأقطاب الحزب الوطنى وكثير من شبابه فى سجن الاستئناف بالقاهرة، وسجن الحضرة بالإسكندرية، وفى معتقلات قصر النيل، ودرب الجماميز، وطرة، والجيزة دون تحقيق أو محاكمة، ونفت بعضهم إلى مالطة، ولبث أغلبهم مددًا طويلة امتدت إلى ما بعد الهدنة ١٩١٨، وكانت تقيد حرية مَنْ يفرج عنهم وتضعهم تحت المراقبة».

«وأذكر ممن اعتقلوا: على بك فهمى كامل (شقيق مصطفى كامل)، وأحمد بك لطفى المحامى، وعبد اللطيف بك الصوفانى، وعبد اللطيف بك طلعت، والأساتذة: محمد زكى على، وعبد المقصود متولى، وأحمد وفيق، وأمين الرافعى، وشقيقه عبد الرحمن الرافعى، ومصطفى الشوربجى، وإسماعيل حافظ، ومحمد فؤاد حمدى، وإبراهيم رياض، والدكاترة: إسماعيل صدقى الجراح، وعبد الحليم متولى

(شقيق عبدالمقصود متولى)، وعبد الفتاح يوسف، والأستاذ محمد الشافعى، ومصطفى حمدى، والحاج أحمد رمضان زيان التاجر بالإسكندرية، وأحمد نبيه قيودان الضابط بخفر السواحل، ويعقوب صبرى التاجر بميناء البصل، والشيخ إبراهيم مروان».

(١٥٠)

ويقدم عبد العزيز على قائمة أخرى بأسماء بعض رجال الحزب الوطنى الذين حكم عليهم بالنفى:

«وأذكر ممن نفوا من رجال الحزب الوطنى: الدكتور نصر فريد طبيب العيون، والدكتور عبد الغفار متولى (شقيق الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى)، والدكتور حسن نور الدين، والأساتذة: محمد عوض محمد، ومحمود إبراهيم الدسوقى، ومحمد عوض جبريل، وحامد العلايلى، وعلى فهمى خليل المدرس بالجمعية الخيرية الإسلامية، وسلامة الخولى، والأمير العطار».

(١٥١)

ويورد عبد العزيز على فى مذكراته أسماء بعض قيادات اللجنة العليا للموظفين، ومن الجدير بالذكر أننا نقلنا عن مذكرات الدكتور يوسف نحاس قائمة كاملة بأسماء أعضاء هذه اللجنة، لكننا نلاحظ بعض الاختلاف بين القائمتين:

«وفى ٢ أبريل ١٩١٩م أضرب الموظفون جميعًا [عن] العمل مشاركة للأمة فى شعورها، وهم الذين لم يعهد فيهم من قبل الاشتراك فى حركة وطنية، أو الاشتغال بالمسائل السياسية، واختاروا من بينهم لجنة عليا للإشراف على تنظيم الإضراب».

«وكانت اللجنة العليا مكونة من:

«محمد عاطف بركات (ناظر مدرسة القضاء الشرعى)»

«ومحمد زكى الإبراشى (وكيل نيابة الاستئناف)»

«وعلى ماهر (مدير إدارة المجالس الحسبية)»

«وحسن نشأت (مدرس بالحقوق)»

«وسلامة ميخائيل (القاضى)»

«وصادق حنين (مدير الإحصاء بالزراعة)»

«ومحمد حلمى عيسى (مدير الإدارة القضائية بالحقانية)»

«ومحمد عبد الهادى الجندى (القاضى)»

«ومحمود سامى (سكرتير عام وزارة الأشغال)»

«ومحمد قطبى (وكيل مصلحة السجون)»

«وإبراهيم دسوقى أباظة (مأمور مديرية الجيزة)»

«ومصطفى منير (سكرتير تنظيم مصر)»

«وبدرخان على (وكيل مديرية الجيزة) وغيرهم من كبار الموظفين».

(١٥٢)

ويحرص عبد العزيز على على أن يشير بالتفصيل إلى مجمل الاتفاق الذى تم بين ممثلى الحزب الوطنى وممثلى الوفد، وهو اتفاق لا يحظى بما يستحقه من الإشارات التاريخية.

ومن الطريف أن هذا الاتفاق على نحو ما يروى عبد العزيز على قد تم فى فندق إيطالى فى مدينة روما، ونحن نرى عبد العزيز على حريصًا على إثبات ما يدل على موافقة سعد باشا زغلول على هذا الاتفاق عند توقيعه، بل وما يشير أيضًا إلى تمسك سعد باشا بهذا الاتفاق فيما بعد، ويدلنا ما يرويه عبد العزيز على فى هذا الصدد على أن ائتلاف الوفد والحزب الوطنى فى ١٩٢٢م سبق الائتلاف الشهير بين الوفد والدستوريين فى ١٩٢٦م:

«وفى ١٤ نوفمبر ١٩٢٢م اجتمع وفد الحزب الوطنى ووفد الوفد المصرى فى لوكاندة أكسلسيور بروما بمناسبة انعقاد مؤتمر الشرق بلوزان، ووضع بالاتفاق - توحيدًا للجهود لخدمة القضية المصرية - برنامج واحد للوفدين بمثابة ميثاق وطنى بينهما، كان الفضل كل الفضل فيه للحزب الوطنى الذى جر الوفد المصرى إليه جرًا لمبادئه، وجاء فى البرنامج :

«١ - الاستقلال التام لوادى النيل دون أى تدخل أجنبى أو قيد أو مساس بهذا الاستقلال» .

«٢ - معاهدة ١٨٩٩م الخاصة بالسودان باطلة ملغاة لا أثر لها» .

«٣ - جلاء الجنود الإنجليز عن جميع بقاع وادى النيل» .

«٤ - عدم الاعتراف ومقاومة كل زعم من مزاعم إنجلترا يقصد به إيجاد أى مركز ممتاز خاص لها فى جميع أنحاء وادى النيل» .

«٥ - مسألة الامتيازات الأجنبية لا تحل إلا بمفاوضات بين مصر والدول مباشرة» .

«٦ - مقاومة أى محاولة تفضى إلى مفاوضة إنجليزية - مصرية لحل قضية مصر عند بحثها فى مؤتمر لوزان» .

«٧ - إحباط كل محاولة إنجليزية ترمى إلى حمل مصر على إقرار أى تدبير من التدابير التى اتخذت فى ظل الأحكام العرفية» .

«٨ - تقرير حيدة قناة السويس طبقًا لما تقرر فى مؤتمر الأستانة ١٨٨٨م والحصول على تكليف مصر المستقلة بالدفاع عن تلك الحيدة» .

«٩ - العمل على منع تمثيل مصر فى المؤتمر بواسطة أى وفد حكومى؛ لأنها لا تعبر عن رأى الشعب» .

«١٠ - العمل على تمثيل الشعب المصرى لدى المؤتمر بواسطة الهيئة المكونة من الوفدين المتحدين مع المطالبة بفك اعتقال سعد باشا لرئاستها لتحقيق البرنامج المتفق عليه، ولقد وافق سعد باشا على البرنامج بتلغراف أرسله من جبل طارق إلى حافظ

رمضان باشا فى لوزان فى ١٦ نوڤمبر ١٩٢٢م، ثم تمسك به سعد باشا وهو رئيس للحكومة فى مفاوضته مع ماكدونالد رئيس وزراء إنجلترا فى خريف ١٩٢٤م».

(١٥٣)

وتتضمن مذكرات عبد العزيز على قائمة بأسماء الشباب الوطنى الذى شارك فى نشاط الحزب الوطنى عندما جدد شبابه، ونحن نلاحظ أن من بين هؤلاء مَنْ شاركوا فى حركة الإخوان المسلمين، ومَنْ شاركوا فى الوزارات المصرية فى عهد الثورة مثل فتحى رضوان، وعلى فهمى الداغستانى، ومَنْ شاركوا فى نشاط الحزب الوطنى الديمقراطى الذى أسسه السادات فى ١٩٧٨م مثل ماهر محمد على:

«ازداد الإقبال على دار الحزب وفى حفلات الذكرى بنوع خاص، وازداد الأنصار واكتشفت خميرة صالحة من شباب الحزب ثمرة تلك الجهود، أذكر منهم بقدر ما تعى الذاكرة: محمد فؤاد فريد (ببنك مصر)، ومحمد حمدان (بالمعارف)، وعباس حمدى (بالأوقاف)، وخير الدين عنايت (بالمعارف)، وخليل مدكور (بالمعارف)، ومحمود السويقى (بالمالية)، وعبد الكريم الشماع (تاجر)، ويوسف دسوقى (بالمعارف)، والشيخ محمود القاياتى (من الأعيان)، والشيخ عبد المجيد الربيعى (بالأزهر)، والشيخ محمد عمارة (بالأزهر)، وعطية مدكور (ببنك مصر)، وأحمد إبراهيم السراوى (تاجر وترزى)، وأحمد نجيب (صحفى)، وحافظ زهران (بالمعارف)، ومحمود العيسوى (محام)، ومحمد المغربى، وعبد الفتاح مصطفى العجيزى، وعلى منصور (المحامى)، ومحمد العطيفى (تاجر)، ومحمد سليم الحجازى (حقوقى)، ويوسف كمال عبد الحميد (حقوقى)، وعبد المعطى عطية (حقوقى)، ومصطفى المنزلاوى، وحسن الأنور خليل، ومحفوظ عزام (حقوق)، ومحمد إبراهيم جمعة (بالمعارف)، وعلى فهمى الداغستانى (هندسة)، ومحمد عبد الرحمن شاهين (بالمعارف)، ومحمد عبد الرحمن أباظة (حقوقى)، ومحمد سلام مدكور (دار العلوم)، ومحمد فريد أبو العز (صيدلى)، وعبد العزيز حسيب (عامل)، وحسين العربى (عامل)، ومحمد فهمى (عامل)، وأحمد الدرينى (عامل)، ومحسن زكى (حقوقى)، وحسن نور الدين (طب)، وعبد القادر مصطفى (حقوقى)، وعبد السلام

مصطفى (حقوقى)، ورجائى العشماوى (حقوقى)، وسالم السيد يوسف (المالية)، وعبد العزيز الشوربجى، وحسن البسيونى، وفتحى رضوان، ومحمود الحناوى، وماهر محمد على (حقوقيون)».

(١٥٤)

وهو يشير إلى تجربة فتحى رضوان فى تجديد الحزب الوطنى فى حيادية تقترب من الإيجابية بقدر ضئيل جدًا، ولكنه يعترف بأن هذه المجموعة سدت فراغًا كان موجودًا بالفعل، وهو يشير إلى السبب الذى باعد بين هذه المجموعة وبين القيادة القديمة، وهو فى رأينا سبب كاشف لا سبب أصيل:

«ومما يجدر الإشارة إليه فترة المعاناة التى قاساها الحزب بافتقاده فى الثلاثينيات القاعدة الشعبية العريضة التى كان يتمتع بها فى السنوات الأولى من تأسيسه، وانتفاضة بعض شباب الحزب وفى طليعتهم الأستاذ فتحى رضوان المحامى للعمل على تجديد نشاط الحزب فى نطاق الإطار القديم فى الأربعينيات من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٩م بإصدار صحيفة اللواء الجديد (أسبوعية) لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ فتحى، واستمرارها فى الصدور حتى توقفت عام ١٩٤٩م، تنشر المقالات الملتهبة للأساتذة حافظ رمضان، وعبد الرحمن الرافعى، وأحمد توفيق، وفكرى أباظة من الجيل القديم، ويوسف حلمى، ونور الدين طراف، وسعد الدين كامل، وأحمد شوقى بالإضافة إلى فتحى رضوان من الجيل الجديد، واستمرت حتى نشرت فى مايو ١٩٤٩م بيانًا بتوقيع اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى تهاجم فيه قرار الحكومة من مد أجل الأحكام العرفية لسنة أخرى، فكان ذلك الحادث بمثابة إعلان عن خروج جماعة شباب الحزب عن قيادته القديمة، إلا أن نشاطها الثورى امتد حتى ١٩٥٢م سنة الثورة، وسدت بذلك فراغًا كان ملحوظًا».

(١٥٥)

ونأتى إلى الشخصيات التى يدين عبد العزيز لها بالفضل فى تكوينه الوطنى، وأول هؤلاء هو والده العظيم، وهو يتحدث عن والده بإنصاف فيقول:

«. . . وكان والدى المرحوم الشيخ على أحمد عبد الله من علماء الأزهر الشريف، وخطيبًا وإمامًا لمسجد الشامية بشارع الدواوين أمام وزارة الداخلية، وكان - رحمه الله - جريئًا فى الحق، فلم يعبأ أيام الحرب الكبرى (١٩١٤م) بالرقابة المفروضة على الصحافة والمطبوعات والاجتماعات، وتحدى سيف الأحكام العرفية المسلط على الرقاب، وكان لا يفتأ ينتقد بشدة فى خطبة الجمعة أوامر القيادة العسكرية البريطانية فى تكميم الأفواه، وإذلال النفوس، واستعباد الناس، والاستئثار بخيرات البلاد، ولم يزحزحه عن موقفه استدعاؤه إلى وزارة الداخلية غير مرة بناء على بلاغات المخبرين للتحقيق معه بسبب خطبه الملتهبة؟ ولم يكن جوابه كل مرة إلا أن قال: إنه لم يفعل أكثر من تأدية واجبه، فهو يدعو الناس فى خطبة الجمعة بما يدعو له الإسلام من الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، والتخلق بخلق القرآن، والتأدب بآداب الإسلام، والاعتصام بالصبر على البلاء، والعمل على تغيير ما بأنفسهم ليكشف الله عنهم ما هم فيه من ضر، ويرفع عنهم ما نزل به من غمة، ويبدل حالهم من الذلة والضيق والاستعباد، إلى العزة والسعة والاستقلال. ثم يختم جوابه بأنه لا يطلب من ذوى السلطة أكثر من ألا يحملوا عباراته فوق ما تطيق، وأن يتقوا الله فيما يدبره الماكرون، وبذلك الإيمان يخرج من الموقف كل مرة مرفوع الرأس، لا يمسه سوء، ويحفظ البلاغ، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، وضرب لى بموقفه هذا البطولى أروع الأمثال، وكان لى نعم القدوة».

وهو فى حديثه عن والده يشير باعتزاز إلى أن البرنس حسين كامل اختاره - لما اشتهر به من تقوى وورع وصلاح - ليكون خوجة أفندى (مدرسًا) للأميرات كاظمة وسميحة وقدرية بنات البرنس، «يعلمهن الدين واللغة العربية، ويؤدبهن بآداب الإسلام».

ولعلنا ندرك من هذه الرواية بشقيها بعض السر فيما عرفت به الأميرات الثلاث من صفات حميدة تجلت فى كثير من التصرفات التى لاتزال آثارها باقية فى نفوس المصريين.

(١٥٦)

وتحفل هذه المذكرات بالحديث عن مناقب الزعيم محمد فريد وفضله على الحركة الوطنية والوعى القومى:

«ولد محمد فريد فى القاهرة فى يناير ١٨٦٨م، وكان والده أحمد فريد باشا من كبار موظفى الدولة، وأغنى أغنيائها، ونشأ فريد فى بيت عز وثراء ينعم منذ نعومة أظفاره بما ينعم به عادة أبناء الأثرياء وأولاد الذوات كما كانوا يسمونهم، فى عيشة هنية، يلبسون أفخر الثياب، ويأكلون أشهى الطعام، وينامون على الفراش الوثير، ويقوم على خدمتهم ورهن إشارتهم الكثير من الخدم والحشم».

«وجرت العادة أن مَنْ يحيا فى صغره حياة الترف والدعة، يشب وهو أبعد ما يكون عن حياة الكفاح والجهاد، وشظف العيش، ومصابرة تقلباتها وما يكتنفها من متاعب ومشاق، مما قد لا يتحملها إلا مَنْ كابدها منذ الصغر».

«لكن فريد الثورى ابن الثراء ما كاد يشب عن الطوق حتى ضرب بحياة الطفولة السعيدة عرض الحائط، وخرج برضاه على العرف واختار لنفسه حرية العمل، وسلك طريق النضال الوعر، وتحمل المشاق، وصبر على المكاره فى سبيل خدمة بلاده ومواطنيه، فكان بذلك مثلاً لقوة الإيمان، وسلامة التفكير، وسمو النفس، ونبل الأخلاق، ورمزًا للتضحية والبذل وعلو الهمة والفداء».

«درس الحقوق وتوظف بالحكومة وتدرج فى وظائفها حتى وصل إلى وظيفة وكيل النائب العام، وبدت عليه ملامح الذكاء، ووضع وهو لا يتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين كتاب «تاريخ مصر فى عهد محمد على»، وقام بطبعه سنة ١٨٩١م، ثم كتاب «تاريخ الدولة العثمانية»، وطبعه سنة ١٨٩٤م، ثم كتاب «تاريخ الرومان»، وطبعه سنة ١٩٠٢م».

(١٥٧)

ويشير عبد العزيز على إلى الحادث الذى كان، فى رأيه، بمثابة السبب المباشر فى تحول الزعيم محمد فريد إلى العمل الوطنى:

«وفى ١٨٩٦ جرت محادثة غيرت مجرى حياته، ذلك أنه حضر كمشاهد جلسة محاكمة الشيخ على يوسف صاحب جريدة «المؤيد» وتوفيق كيرلس الموظف بمكتب

تلغراف الأزبكية التى عقدت بمحكمة عابدين الجزئية فى نوڤمبر ١٨٩٦م بتهمة إفشاء أسرار حربية عن وضع الجيش المصرى بالسودان».

«وشهد محمد فريد المحاكمة وصدر حكم القاضى ببراءتهما، ولم يقو فريد على كتمان ارتياحه للحكم وإظهار عطفه على المتهمين، وبلغ ذلك رؤساءه فاغتاظوا لموقفه الجرىء، وأصدروا أمرهم بنقله إلى الصعيد، فما كان من فريد المعتز بكرامته إلا أن رفض الإذعان لأمر النقل واستقال غير آسف من الوظيفة الحكومية وغير عابئ بالتقاليد المرعية فى العائلات الكبيرة التى كانت تأنف من أن يسعى الفرد فيها لكسب رزقه بالاشتغال بالأعمال الحرة، وترى أن رزق أفرادها مكفول بإيراد أطيانها وممتلكاتها، واشتغل فريد بالمحاماة وكانت هذه أول خطوة يخطوها على طريق النضال».

«وأصدر مع زميله الأستاذ محمود أبو النصر المحامى مجلة «رد المسوعات» فضح فيها الاستعمار الإنجليزى والفرنسى وجرائمه فى إفريقيا وآسيا، وتناول موضوع الإنجليز وحرب الترانسفال واستغلال الشركة الإنجليزية الإفريقية، وتعرض للاستعمار الروسى فى آسيا وغير ذلك من موضوعات».

(١٥٨)

وهو يشير إلى أن الزعيم محمد فريد كان منتبهًا إلى أهمية العناية بتربية الأمة، وأنه كان يدعو إلى إلزامية (إجبارية) التعليم الابتدائى، وإلى العمل الجاد على محو الأمية، وأنه كان يشارك بنفسه فى هذه الجهود التى تبناها الحزب:

«وأولى فريد التعليم كثيرًا من اهتمامه ودعا إلى جعل التعليم الابتدائى إلزاميًا للجميع لا فرق بين غنى وفقير، وإلى التوسع فى التعليم الثانوى وإلى الإكثار من المدارس الليلية فى المدن والقرى لمحو الأمية، وكان يدرس بنفسه تطوعًا فى مدارس الشعب الليلية التى أنشأها الحزب، وكان هو وزملاؤه عبد العزيز جاويش وأحمد لطفى وعمر لطفى وأعضاء الحزب من طلبة المدارس العليا».

(١٥٩)

وهو يشير إلى الدور الرائد الذى لعبه محمد فريد فى الدعوة إلى إنشاء التعاونيات الزراعية، وهو يجمع بين هذا الحديث وحديثه عن تشجيع فريد لتشكيل النقابات العمالية:

«وكما اهتم بالتعليم اهتم بالناحية الاجتماعية فدعا إلى تشكيل نقابات زراعية، وأنشئت لأول مرة للدفاع عن حقوق الفلاح التعس فريسة الملاك والمرابين وضحية ظلم وتعسف الحكام والقوانين».

«كما دعا إلى تكوين نقابات العمال، وكونت لأول مرة سنة ١٩٠٩م نقابة عمالية بحى بولاق للدفاع عن حقوق العمال ورفع مستواهم».

(١٦٠)

ويروى عبد العزيز على قصة الحكم على محمد فريد بسبب المقدمة التى كتبها لديوان «وطنيتى»، لكنه يردف هذه الرواية مباشرة بما يرويه من أن الخديوى عباس حلمى كان قد ساوم محمد فريد وهو فى السجن لكن محمد فريد رغب عن مثل هذه المصالحة وآثر قضاء مدة العقوبة فى السجن، وهو يشير أيضًا إلى أن حكمًا آخر صدر فى العام التالى بسجن محمد فريد، لكنه كان قد ترك مصر إلى أوروبا:

«. . . . . هذا وقد رأى طرفا التحالف «غورست والخديوى» أن الفرصة واتتهما عندما أصدر الشيخ على الغاياتى عضو الحزب الوطنى ديوانه «وطنيتى» وقدم فريد للديوان بعبارة وطنية رزينة، فأشاد بما للشعر من تأثير قوى فى روح الوطنية فى أبناء الشعب، وفى الحض على الإقدام وبذل المال والنفس، ووجه النصح إلى شعرائنا وقال: على الشعراء أن يقللوا من وضع قصائد المديح فى أيام ومواسم معلومة، وأن يستعملوا مواهبهم فى خدمة الأمة بدلاً من أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء، وتملق الأمراء والتقرب إلى الوزراء؛ لأنهم كلهم زائلون والأمة باقية. وأبدى إعجابه بما عرضه شعراء الأرياف من أناشيد وأغان ومواويل، سواء باللغة الفصحى أو بالعامية فى حادث دنشواى، وفى جهود مصطفى كامل محامى دنشواى، وفى موضوع رفض

الجمعية العمومية مد أجل امتياز قناة السويس، وفى غيرها من المواقف الوطنية، كما أبدى غبطته لانتشار تلك الأغانى والمواويل والتغنى بها فى سمر الريفيين وأفراحهم، وعقب فريد على ذلك بأنه يستبشر بتلك الروح خيرًا، وبأنها من دلائل اقتراب زمن الخلاص من الاحتلال، ومن سلطة الفرد».

«ومن أجل تلك المقدمة الوطنية الخالصة (الإشارة إلى المقدمة التى كتبها الزعيم محمد فريد لديوان الشيخ على الغاياتى وطنيتى) حكم على فريد فى ٢٣ يناير ١٩١١م بالحبس ستة أشهر فتقبل الحكم بنفس راضية ودخل السجن، وساومه الخديوى وهو فى السجن ليفرج عنه فأبى المساومة ولم تزده إلا صلابة، وخرج من سجنه بعد قضاء المدة أشد قوة وأصلب عودًا وأقوى عزيمة، وهو فى ذلك يقول: «مضى علىّ فى غياهب السجن ستة شهور ولم أشعر أبدًا بالضيق إلا عند اقتراب أجل الخروج، لعلمى أننى خارج إلى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه سلاح الاحتلال»، وظل فى صلابته يقود النضال ضد الخديو عباس وضد الاحتلال الإنجليزى بثبات وإصرار، ولم يثنه ما تعرض له من اضطهاد أو ما تعرضت له جرائد الحزب الواحدة بعد الأخرى من تعطيل، وكان يجهر بالقول: «إننا قوم تذرعنا بالصبر على الحوادث واتخذنا الثبات شعارنا، إننا نعرف كيف نصبر على المكاره.. ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا».

....

«وحوكم [أى: محمد فريد] من أجل خطابه الوطنى فى الجمعية العمومية للحزب فى ٢٢ مارس ١٩١٢م وحكم عليه فى ١ مايو ١٩١٢م بالحبس مع الشغل سنة، إلا أنه كان قد هاجر إلى تركيا قبل ذلك ليواصل جهاده فى الخارج بعيدًا عن مضايقات الإنجليز والخديوى، وحضر عدة مؤتمرات فى أوروبا كشف فيها عن مساوئ الاحتلال، وشرح بإفاضة قضية بلاده شرح الوطنى الدارس الملم، وبين بالدليل القاطع حق بلاده فى الاستقلال التام الناجز».

(١٦١)

ويلخص عبد العزيز على بعض ملامح النشاط الدولى الذى بذله محمد فريد من

أجل قضية بلاده، كما أنه يشير أيضًا إلى إيمان محمد فريد بجدوى التعاون العربى من أجل استقلال أقاليم الوطن العربى، وينهى حديثه عن هذا الزعيم العظيم بذكر ما آل إليه حاله بسبب كفاحه بماله، كما يذكر بالخير تلميذه الوفى الدكتور خليل مدكور:

«ثم حضر مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠م الذى كان مزمعًا عقده فى فرنسا وتواطأت إنجلترا مع فرنسا على عدم عقده بها، فسعى فريد جاهدًا لدى بلجيكا فى عقده ببروكسل، وكان من أبرز ما حضره من المؤتمرات وأكثرها نجاحًا ذلك المؤتمر الذى عقد فى ميعاده لعرض القضية المصرية، وبذل فيه جهدًا محمودًا، والذى ناب فيه عن مستر كليف الإنجليزى فى رئاسته لمرضه الشديد، وألقى عنه خطابه الشهير الذى هاجم فيه بشدة الاحتلال الإنجليزى لمصر، وحضر مؤتمر السلام فى لاهاى ١٩١٣م، ومؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٤م».

«وبذل محمد فريد جهدًا مشكورًا وجهودًا مضنية لتوثيق الصلات والروابط بين مصر والأقطار العربية متحملاً مشاق السفر ومعاناة الليالى والأيام فى سبيل شرح قضية بلاده، ومن أجل دفع تلك الأقطار - وكلها مستعمرة - إلى الجهاد لطرد المستعمر وللتمتع بالحرية والاستقلال».

«وزار كلاً من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، فضلاً عن زيارته للأندلس كسبًا للأعوان فى صف قضية بلاده ضد المحتلين».

. . . .

«أتى على فريد وقت كان لا يجد فيه ثمن الدواء لعلاج علته إلا بشق الأنفس، وإن وجده تنازل عنه بطيب خاطر وخصصه للصرف على طبع ما يصدره من نشرات خدمة لمصر».

«ومن نكد الدنيا أن ينضب معين الإنسانية والوفاء فلا يجد فريد من حوله مَنْ يواسيه فى شقائه ومرضه اللهم إلا تلميذه الوفى الدكتور خليل مدكور الذى لازمه طوال سنوات حياته الأخيرة المليئة بالهموم والآلام، جزاه الله خير الجزاء».

(١٦٢)

وهو يحرص على الحديث عما كان هو وأقرانه يعولونه من أمل فى نجل محمد فريد وهو الأستاذ عبد الخالق فريد، لكنه سرعان ما يراجع نفسه معطيًا بعض العذر لعبد الخالق فريد، وربما كان من حقنا أن نتساءل عن علاقة أبناء عبد العزيز على نفسه بالجهاد الوطنى وبالعمل الفدائى، وأغلب الظن أنهم بعيدون عن مثل هذا المجال، وإن كنا نرى فى هذه المذكرات ما يدل على دور طليعى قدر لابنه عماد الدين أن يقوم به، وهو صبى، فى المؤتمر الكشفى فى لبنان:

«لم ينجب المرحوم فريد بك سوى ابنه الأستاذ عبد الخالق، وكنا نرجوا أن يكون خير خلف لخير سلف، وأن نراه وقد ترسم خطًا والده فى الجهاد، وتحمل المشاق والتضحية والفداء! ونقول ذاك الشبل من ذاك الأسد، إلا أنه بعد أن تخرج فى الحقوق آثر أن يكون موظفًا فى الحكومة، وتدرج فى وظائف النيابة والقضاء حتى وافاه الموت فى السبعينيات. . رحمه الله رحمة واسعة».

«ولعلى أنصف المرحوم عبد الخالق بعض الشىء: فإنى أرجعت عزوفه عن الاهتمام بالاشتغال بقضية بلاده إلى الظروف القاسية التى قضت بحرمانه من رعاية والده المباشرة عن كثب طول مدة غيابه فى الخارج فى خدمة مصر التى هام بحبها، وإلى ما قاساه والده فى حياته من صنوف الاضطهاد والعنف، ومحاربة المستعمر الغاشم وعملائه من أبناء الوطن، وما جر عليه الجهد المضنى من مرض عضال، وفقر مدقع حتى فقد صحته وثروته فى سبيل خدمة وطنه، ثم ما لمسه الابن من جحود السلطات المصرية وتنكرها لأبيه حتى فى أحلك أيام حياته، وبعد وفاته وهو الوفى الأمين».

(١٦٣)

ويحرص عبد العزيز على على أن يثنى ثناء خاصًا على رئيس الحزب الوطنى محمد حافظ رمضان، ويشير إلى ما ليس مشهورًا من فضله فى الحصول على موافقة مؤتمر بروكسل على وضع الشريعة الإسلامية على خريطة التشريع، وكتابه «أبو الهول قال»، ومذكرته بشأن جيل الأولياء:

« . . . وله مذكرات سياسية هامة من أهمها ما قدمها فى مجلس النواب سنة ١٩٣٢م عن مشروع جبل الأولياء، والمذكرة التى قدمها فى مؤتمر بروكسل يطلب فيها بإلحاح تقرير اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرًا من مصادر التشريع، ونجح أيما نجاح فى استجابة المؤتمر لطلبه المدعم بالبراهين القوية، فقرر بالإجماع أن تكون الشريعة مصدرًا من مصادر التشريع، وقام الرئيس فى ختام الجلسة بتهنئة حافظ باشا وشكره بحرارة على بحثه القيم».

«فى أواخر أيامه وضع حافظ باشا كتابه «أبو الهول قال لى».

(١٦٤)

ويقدم عبد العزيز على اعترافًا صريحًا بضعف الحزب الوطنى فى عهد حافظ رمضان، وهو يصف الضعف بأكثر مما يقدم التبرير أو الهجوم على القيادة التى وصل الحزب فى ظلها إلى هذا المستوى من الضعف.

ومع هذا، فإنه يشيد بجهود حافظ رمضان ومَنْ بقى معه مستبصرًا بالآية القرآنية لوصف سلوكهم:

«ورغم أن الحزب مدة رئاسته كان ضعيفًا مفككًا، فقد قاعدته الشعبية وأصبح مكسور الجناح، تضافر على محاربته بضراوة المحتل وعملاؤه حتى بات خاوى الوفاض، فلا وفرة من مال للصرف على بث الدعوة، ولا كثرة فى رجال لتحمل أعبائها والتزامات الجهاد، ولا ناد يجمع شمل الأعضاء والأنصار، ولا صحيفة تنطق بلسان الحزب».

«ورغم قلة عدد ممثليه فى البرلمان إلا أن حافظ باشا والقلة المؤمنة وقفوا فى ميدان الجهاد كالطود الشامخ لا تلين لهم قناة، لهم وزن وأى وزن، صامدين متمسكين با لحق يدعون له ويذودون عنه فى قوة حتى أظهره الله، وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومن بين الشخصيات التى يحرص عبد العزيز على على الثناء عليها الدكتور إسماعيل صدقى، الذى كان عضوًا فى الحزب الوطنى، وهو دائمًا ما يتحدث عنه ملصقًا باسمه لفظ «الجراح» وهو يتحدث عن وفاته وعن حفل التأبين الذى حرص على إقامته له، كما يورد فقرة من تأبينه له، وهو تأبين يضع هذا الرجل نصف المشهور فى مكانه الطبيعى بين الزعماء التقليديين للحزب الوطنى، ومن الجدير بالذكر أن شهرة إسماعيل صدقى رئيس الوزراء كانت تطغى وتغطى على شهرة هذا الرجل، بل كانت تأخذ من فضله فى بعض الأحيان وتنسبه إلى سميه الأشهر، وقد حدث هذا فى مواضع كثيرة من مذكرات محققة ومنشورة على سبيل المثال :

«وفى ١٩٤٩م فجعت بموت صديقى الوطنى الكبير المرحوم الدكتور إسماعيل صدقى الجراح ووكيل جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية وأمين صندوق الحزب الوطنى وكبير مؤسسى جماعة الوحدة الوطنية لاستقلال وادى النيل».

«وكان فقده خسارة، وأى خسارة، فقررت أنا وزملائى - وفاء لروحه - إقامة حفلة تأبين له حددت لها الساعة الخامسة من مساء ٢١ جمادى الأولى ١٣٦١هـ - ١٠ من مارس ١٩٥٠م بقاعة الدكتور عبد الحميد سعيد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، وأعلنت عنها بمقر الوحدة وطبعت بطاقة الدعوة ووزعتها قبل الحفلة بوقت مناسب».

«أقيمت الحفلة فى ميعادها وكان فى مقدمة الحاضرين من زملاء الفقيد الأساتذة زكى باشا على سكرتير عام الحزب الوطنى، وعبد المقصود بك متولى المحامى، وعبد الرحمن بك الرافعى المحامى عضو اللجنة الإدارية للحزب، وعبد الرحمن باشا عزام، وكثير من شباب الحزب من عارفى فضل الفقيد، ومقدرى جهوده رحمه الله».

«وافتتحت الحفل بتلاوة آى الذكر الحكيم، ثم قمت ورثيت الفقيد بكلمة مختصرة قلت فيها : إن أفراد الرعيل الأول من رجال الحزب الوطنى، وإن جمعهم إطار واحد من الإيمان الصادق والوطنية الخالصة العاملة، فإنه يكاد يكون لكل منهم طابع خاص، وصفات بارزة مميزة».

«فلو ذكرنا مثلاً مصطفى كامل خطر ببالنا على الفور الزعيم الشاب والخطيب القوى والكاتب الوطنى القدير الجرىء والمكافح البطل، ولو ذكرنا محمد فريد ذكرنا على الفور الوفاء والبذل والتضحية وإنكار الذات والصبر على المكاره».

«واليوم ونحن نؤبن المرحوم الدكتور إسماعيل صدقى والأسى يملأ القلوب على وفاته، والوطن أحوج ما يكون إلى جهاده الصامت، نذكر النبوغ فى الطب، والحركة الدائمة، وصفاء الذهن، وعمق التفكير، والاعتداد بالنفس، وإحكام التدبير، ونذكر بجانب ذلك الحياء الجم، والتواضع، وإنكار الذات، وعلو النفس والهمة. فقد كان رحمه الله مجموعة فضائل لا تتوافر إلا للرجل القوى الإيمان».

(١٦٦)

ويقدم عبد العزيز على فى هذه المذكرات نبذة موجزة عن البطل إبراهيم موسى الذى حكم عليه بالإعدام فى مقتل السردار ونفذ فيه الحكم، وهو يطلق عليه لقب «البطل المجهول»، وهو يشير إلى أن الذى رشحه للانضمام إلى التنظيم كان هو زميله محمد فهمى الذى كان يسكن فى أحد المنازل المملوكة لعائلة عنايت وربما جاز لنا أن نشير إلى أن عبد الفتاح عنايت نفسه لم يشر إلى هذه العلاقة التى ربطتهم بمحمد فهمى، وربما كانت علاقة لاحقة على مشاركته لآل عنايت فى الحركة الوطنية. كذلك فإننا نلاحظ أن عبد الفتاح عنايت لم يشر من قريب ولا بعيد إلى الدور الذى يشير عبد العزيز على إلى أنه لعبه بنفسه فى اختيار الكوادر الفدائية، ولا إلى اسمه الحركى فى الشعبة على نحو ما نرى مما يورده فى الفقرة التالية:

«... كان إبراهيم موسى المتهم فى حوادث الاغتيال السياسى عاملاً رقيق الحال بعنابر السكك الحديدية، لم يأخذ قسطًا وافرًا من التعليم شأن معظم العمال فى زمانه، وأوتى بسطة فى الجسم، وكان مديد القامة، سليم البنية، مفتول الساعدين، حاد البصر، قوى الإيمان».

«وكان متزوجًا وله أربعة أنجال: سنية وعزيزة وعائشة وجمال، وكان يقطن بحجرتين متواضعتين بالطابق الأرضى بمنزل شعبى بالشارع رقم ٦ بحى الشرابية».

«رشحه للانضمام إلى شعبتنا السرية زميله العامل محمد فهمى أول من انضم إلينا من العمال، وهو من طوخ، وكان يقطن بأحد منازل عائلة عنايت».

«وعجمت عود إبراهيم عن قرب وزرته بمنزله أكثر من مرة فوجدته على خلق عظيم يحمل بين جنبيه قلبًا عامرًا بالإيمان، ونفسًا راضية مطمئنة، وروحًا وثابة، وعزيمة صلبة، ووجدته يجيد الرماية بالمسدس».

«وقبلناه عضوًا معنا وأقسم يمين الجمعية، وأطلقنا عليه اسم «محمد على» ليكون اسمه الحركى فى الشعبة».

ويشير عبد العزيز على إشارة صريحة وواضحة إلى السبب فى اختيار إبراهيم موسى لإطلاق النار على الضحايا وهو قدرته الفائقة على إصابة الهدف، وهو ما لم يشر إليه عبد الفتاح عنايت بهذا الوضوح:

«واشترك فى كل حوادث القتل التى قمنا بها، والتى شملها التحقيق فى حادث قتل السردار، ولما كانت إصابته للهدف محققة بنسبة ١٠٠٪ كان طبيعيًا أن يكون أول من يطلق الرصاص على الفريسة لضمان نجاح العملية».

(١٦٧)

ولا يمل عبد العزيز على من أن يحدثنا حديث المعجب إلى أقصى الحدود عن إيمان إبراهيم موسى ووطنيته وفدائيته وحرصه على أن يبغى بعمله وجه ربه سبحانه وتعالى:

«وكان رحمه الله جم التواضع، يؤدى واجبه الوطنى بإخلاص وثبات وفى صمت وإنكار ذات دون غرور، أو منٍّ أو حب للظهور، بل يؤديه خالصًا لوجه الله يرجو ثوابه ولا يبغى من أحد جزاءً أو شكورًا شأن المؤمن الصادق، وكان يرفض فى إصرار وتصميم، وهو الفقير ذو العيال، أن تعوضه الشعبة بشىء من المال يوم أن يتغيب عن عمله بالعنابر للقيام بحادث اغتيال، فكان بحق فدائيًا مثاليًا يندر أن يجود الزمن بمثله.. كان رجلاً والرجال قليل».

«ولئن مات إبراهيم موسى فقيرًا تاركًا وراءه ذرية ضعافًا فهو غنى ببطولته، حى بيننا بسيرته العطرة وأعماله البطولية المجيدة، وهو فى الآخرة من المكرمين: «ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون».

«تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته مع الأبرار والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، والله عنده حسن الثواب»

(١٦٨)

ويقدم عبد العزيز على فى هذه المذكرات فقرات فى غاية الأهمية لتاريخنا المعاصر عن علاقته بعزيز المصرى، وهو ما يضىء بعض جوانب علاقة عزيز المصرى بالتنظيمات السرية، وهو يحرص على أن يشير إلى أن اسم هذا الرجل فى الأصل كان «عبد العزيز على»، وهو يشير إلى هذا التوافق فى اسميهما سريعًا دون أن يثبت ما يلفت نظر القارئ إلى هذا التوافق، وهو يقدم سيرة موجزة له على نحو موحٍ ومشرف ودقيق، وأرى أن من واجبنا أن نثبتها هنا على نحو ما أوردها حيث يقول:

«قرأت عن عزيز باشا (وقليل مَنْ يعرف أن اسمه عبد العزيز على المصرى)، وأغرمت بسيرته ونضاله، وعرفت أنه ولد عام ١٨٧٨م، وأنه أحب الحياة العسكرية والتحق سنة ١٨٩٨م وهو فى العشرين من عمره بالمدرسة الحربية بتركيا، ثم بكلية أركان حرب، ثم انخرط فى سلك الجيش التركى سنة ١٩٠٤م، واندمج فى الهيئة السرية لجمعية الاتحاد والترقى التركية، واشترك فى قمع الثورات بالبلقان وباليمن، وقاد المتطوعين فى حرب طرابلس ضد الطليان ١٩١٠م، وكان مشهودًا له بالعطف على العرب، وتأييد مطالبهم، وبالثورة على مظالم الخلافة العثمانية، وفساد الأوضاع فى دولة الخلافة، ثم اختلف مع أنور باشا ونيازى باشا من زعماء جمعية الاتحاد والترقى لتجاهلها مطالب العرب، فاعتقل وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص فى ١٥ أبريل ١٩١٣م».

«وثار العرب على الحكم فى كل قطر فاضطرت الحكومة التركية إلى العفو عنه فى أبريل ١٩١٤م وعاد إلى مصر واستقبل استقبالاً شعبيًا رائعًا».

«وفى ١٩١٦م سافر إلى الحجاز والتحق قائدًا لجيش حسين شريف مكة، وعين وزيرًا للحربية واعترض على تدخل الإنجليز فى شئون حسين، واستقال وعاد إلى مصر ثانية».

«وقبض عليه الإنجليز ونفوه إلى إسپانبا بحجة خطورته، وتمكن من الهرب إلى ألمانيا، وهناك عين أستاذًا فى كلية أركان حرب برلين، وبقى حتى عام ١٩٢٤م ثم عاد إلى مصر للمرة الثالثة».

«وفى ١٩٢٨م عين مديرًا لمدرسة البوليس فجدد أنظمتها، وأضفى على تلاميذه من روحه الوثابة، عنى بصفة خاصة برفع المستوى الخلقى والثقافى والعسكرى، فترك فى الكلية أحسن الأثر».

«وفى ١٩٣٦م اختير مشرفًا على ولى العهد فاروق وهو فى لندن، واشتد الخلاف بينه وبين أحمد حسنين باشا رائد فاروق لانحرافه به عن الطريق السوى، واعتزل العمل غير آسف وعاد إلى مصر للمرة الرابعة، وفى ١٩٣٧م عين مفتشًا عامًا للجيش المصرى».

(١٦٩)

ويروى عبد العزيز على بداية اتصاله بعزيز المصرى ضمن مجموعة من شباب الحزب الوطنى، ومتابعتهم لنشاطه الوطنى فى نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، لافتًا النظر إلى استقالته وخلافه مع الإنجليز ومحاولته الشهيرة للهروب بطائرة إلى مكان ما، بيد أن عبد العزيز على يذهب إلى عكس الشائع فيقول إن عزيز المصرى كان ينوى الهرب إلى العراق للمشاركة فى ثورة رشيد عالى الكيلانى، لا إلى ألمانيا والمحور كما هو شائع :

« . . . وفى السنة نفسها (الحديث عن سنة ١٩٣٧م) كانت بداية اتصالى به عن طريق صديق، محمد علوى الطالب بكلية الفنون الجميلة، وتوثقت علاقتى به، وكنت أتردد من وقت لآخر على مسكنه بالزمالك مع الإخوة محمد علوى، ويوسف كمال، وعبد المعطى عطية من شباب الحزب الوطنى، ولم تنقطع تلك اللقاءات المفيدة

حتى بعد أن انتقل إلى سرايه بعين شمس التى كانت ملتقى لبعض الشبان الضباط يفيدون من حنكته وتجاربه، وحسن توجيهاته، ويستمعون منه إلى صور الجهاد، وألوان البطولة، ودروس وعبر التاريخ». «وفى ١٩٣٩م استقال لشدة مناوأة الإنجليز له ولزم منزله، مما أفسح المجال أمام الباب عسكريين ومدنيين للحظوة بلقائه، والإفادة من آرائه».

«وفى ١٩٤١م - والحرب العالمية ما زالت قائمة - حاول الفرار إلى العراق بطائرة حربية للمشاركة فى ثورة رشيد عالى الكيلانى ضد الحكم البريطانى، وكان بصحبته الضابطان الطياران عبد المنعم عبد الرءوف، وحسين ذو الفقار من تلاميذه، فسقطت بهم الطائرة قرب قليوب لخلل أصابها ولم يصابوا هم بسوء، وعادوا إلى القاهرة واختبأوا بمنزل أحد المواطنين بإمبابة يدعى عبد القادر رزق، وكان يقطنه بمفرده، وبقوا به حوالى العشرين يومًا بعيدين عن الأنظار حتى داهم المنزل فى أبريل سنة ١٩٤١م رئيس البوليس السياسى إمام إبراهيم ومعه قوته للبحث والقبض على أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بناء على معلومات وصلت البوليس بأنه يختفى بالمنزل المذكور، فكانت مفاجأة لم يكن يتوقعها، إذ وجد أمامه وجهًا لوجه عزيز المصرى وزميليه، وكانوا [قد] أطلقوا الحاهم للهرب مرة أخرى، فقبض عليهم وأودعوا السجن، ووجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام، وحوكم عزيز المصرى باشا وظل معتقلاً إلى أن انتهت الحرب العظمى ١٩٤٥م، وأفرج عنه».

(١٧٠)

نأتى بعد هذا كله إلى عداوات عبد العزيز على أو إلى حديثه عن عداواته الفكرية، وهى عداوات أتت، فى معظمها، بحكم انتمائه للحزب الوطنى، ولم تقم على أساس شخصى، وتنبئ هذه المذكرات بكل وضوح عن موقف عبد العزيز على المعادى لأحمد عرابى، والواصف له بأنه فرّ من عار إلى عار، وهو موقف لا ينفرد به عبد العزيز على، وإنما يشاركه فيه أقطاب الحزب الوطنى:

«. . . ومن الأسف أن يعمل البعض متعمدًا على تجاهل تلك الحقيقة المؤلمة وعدم تسجيلها، لعل ذلك - في نظرهم - يقلل من مرارة الهزيمة المنكرة، شأنهم في ذلك شأن من فر من العار (ترك الميدان) إلى العار (الكذب والتضليل)، والأدهى من ذلك أن يضفي أولئك صفة البطولة على عرابي في هذا الموقف ويعتبرونه بطلاً رغم انهزام جيشه وخيبته هو وفراره في الميدان، مما أدى إلى نكبة البلاد بالاحتلال المشئوم الذي بدأت جرائمه بتسريح الجيش المصري حتى لا تقوم للبلاد قائمة، ثم يُنفى أحمد عرابي وسبعة من زملائه منهم محمود سامي البارودي (الضابط الشاعر) وعلى فهمي وعبد العال حلمي إلى جزيرة سيلان».

(١٧١)

كذلك تنطق هذه المذكرات بكراهية الزعيم سعد زغلول، وهو موقف معروف لا ينفرد به عبد العزيز علي، وإنما يشاركه فيه المنتمون للحزب الوطني:

«وفي رأيي أن الإنجليز لم ينفوا سعد باشا اتقاء خطورته، وهم الخبيرون بنفسية الشعوب والأفراد ويحذقون اتباع الإرهاب تارة، والإغواء تارة لتحقيق مآربهم الاستعمارية، ويعلمون أنه تلميذ ربيبهم وابن مدرستهم مصطفى باشا فهمي صهره الذي أتوا به رئيسًا للوزارة المصرية».

. . . .

«. . . نفي الإنجليز سعد ليلقوا في قلبه الرعب ثم ليسخروه كما سخروا صهره من قبل في خدمة سياستهم الاستعمارية، وليجعلوا منه في الوقت نفسه في نظر سليمي النية من بني وطنه بطلاً يستهويهم بسحر بيانه - وكان سعد خطيبًا بليغًا - ويستخفهم فيطيعونه».

«ودليلي على صحة وجهة نظري تصرفات سعد السابقة واللاحقة، ومنها استقباله للسير مكماهون أول مندوب سام بريطاني عين في ظل الحماية البريطانية على مصر، على رصيف محطة القاهرة يوم ٩ يناير ١٩١٥م، وكان سعد وقتئذٍ وكيل الجمعية

التشريعية المنتخب، وتصريحه الذى جاء فيه: «إن دلائل الخير بادية على وجهه»، وقد نشرت جريدة المقطم ذلك التصريح المخزى فى صفحاتها الأولى وبالبنط العريض، وإنه (أى سعد) يأمل فى أن يجرى الله لمصر الخير على يديه، ومنها تصريحه: إن الإنجليز خصوم شرفاء!! وتصريحه: إن بقاء جيوش الاحتلال شرق القنال لا يتعارض مع الاستقلال، ومنها، بل ومن أخطرها، أنه الداعى وبعناد لمبدأ المفاوضة مع الإنجليز ومساومتهم على استقلال البلاد، وهل أخطر وأضر بمصلحة الوطن من أن يحول جهادها الهادر ضد المحتل أحد أبنائها (استأثر لنفسه زعامتها) إلى صراع داخلى للتطاحن على مراكز الحكم، والمنافع الذاتية».

(١٧٢)

وهو يجاهر برأيه الواضح فى أن سعد زغلول زعيم سياسى وليس زعيمًا وطنيًا، وهو يبنى رأيه هذا على عقيدة الحزب الوطنى فى عدم جدوى التفاوض مع الإنجليز، ويرى أن سعدًا أخطأ ثم عاند حين سلك سبيل المفاوضات مع المحتل الغالب على الرغم من تبصير الحزب الوطنى له بعواقب المفاوضات:

«نعم كان سعد من الخطباء المفوهين ومن زمرة السياسيين البارزين، إلا أنه جانبه التوفيق يوم أن اعتقد أن المفاوضة سلاح ناجح، وأصر فى عناد على استخدامها برغم تبصير الحزب الوطنى له ولهيئته بوخيم عاقبتها مما يباعد بينه وبين الزعماء الوطنيين الذين يؤمنون بالحق ويسلكون له الطريق المستقيم لا يبغون عنه حولا، فسعد ـ فى رأيى ـ لا يدخل فى عداد الزعماء الوطنيين وإن دخل الباب على مصراعيه للزعامة السياسية وبشعبية لا تنكر».

«والسياسة تجيز المن والتضليل والنفاق والتذبذب والالتواء والتفريط، وهى صفات تلازم السياسى فى حياته، والوطنية تأبى إلا الصدق والاستقامة والإخلاص والثبات على المبدأ والتمسك بالحق، وهى صفات يلتزم بها الوطنى طول حياته، وخير السياسات سياسة تعمل فى إطار الوطنية الصادقة، وتنهج منهجها السليم، وإلا كانت نفاقًا وتضليلاً وإهدارًا للقيم، وجريًا وراء النفع الذاتى».

(١٧٣)

ويصل عبد العزيز على فى ثنايا هذه المذكرات إلى حد التنبيه إلى محاولة غير مشهورة قام بها أحد شبان الحزب الوطنى لتحذير سعد باشا بالسلاح حين لقيه فى باريس، وذلك ليثنيه عن المفاوضات!! :

«ويسوقنى هذا إلى ذكر حادث مهم يذكر بالفخر والتقدير لشاب من الحزب الوطنى هو الدكتور مصطفى عمر رئيس قسم البكترويولوچيا بقصر العينى، إذ شهر مسدسه فى وجه سعد زغلول مهددًا بقتله يوم أن قابله بالفندق الذى كان ينزل به بباريس خصوصًا ليثنيه عن المفاوضة، مما يدل على مدى تمسك الحزب وشبابه بمبدأ «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» وثباتهم عليه».

(١٧٤)

ويقدم عبد العزيز على تفصيلات مهمة عن محاولة اغتيال سعد زغلول على يد واحد من أبناء الحزب الوطنى، مشيرًا إلى نجاح الوفديين فى تصوير تصرف هذا الشاب فى إطار الاختلال العقلى، وموحيًا بأن هذا الجنون الذى أصاب الشاب لم يكن مريضًا به أصلاً، وإنما كان نتيجة إيداعه مستشفى الأمراض العقلية :

«وكان الشاب عبد اللطيف عبد الخالق الدلبشانى - من شباب الحزب الوطنى - قد حاول اغتيال سعد بأن أطلق عليه رصاص مسدسه وهو يهم بركوب القطار بمحطة القاهرة للسفر إلى لندن لإجراء المفاوضة، فأخطأه ولم يصب سعد إلا فى يده وسافر ليتم مهمته، أما عبد اللطيف فقد ثبت فى مكانه ولم يحاول الهرب وقبض عليه وسحب منه مستر إنجرام المسدس وتحفظ عليه وأودع السجن وقاسى من أبشع أنواع التعذيب، وحاول الوفديون ورجال الإدارة أن يحملوه بشتى الطرق على اتهام بعض الوطنيين بتدبير الحادث فأبدى ثباتا نادرًا وشجاعة فائقة شأن كل مؤمن».

«وأذكر أن من بين مَنْ اعتقلوا بشبهة الاشتراك فى تدبير الحادث الشيخ عبد العزيز جاويش والحاج أحمد رمضان زيان التاجر بالإسكندرية وعضو جمعية التضامن

الأخوى السرية . . وضاعت سدى كل محاولات السلطة مع عبد اللطيف من إغراء وتهديد أمام إصراره، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة» .

ويقدم عبد العزيز على تفسيرًا لاتهام عبد اللطيف عبد الخالق بالجنون يجعل الاتهام ضمن إطارات التفسير التاريخى للمؤامرة على عقلية الشعب المصرى، وهو يقول :

«وليوهم المسئولون الشعب المضلل بأن سعد زغلول لا يخطئ وأنه لم يخلق بعد مَنْ يجرؤ ويعتدى عليه لقتله إلا إذا كان مخبولاً، أودعوا عبد اللطيف مستشفى الأمراض العقلية بدعوى أنه مخبول مختل الشعور ليصاب وهو بالمستشفى بالجنون» .

(١٧٥)

ونصل إلى الفقرة الكاشفة التى يعبر فيها عبد العزيز على عما يشبه الشماتة من موقف سعد من حادث اغتيال السردار فيقول :

«واهتزت حكومة الوفد للحادث الجلل الذى لم تكن تتوقعه، وفوجئت به وأسقط فى يدها، واضطربت وأذعنت لمطالب بريطانيا فيما يختص بالتعويض المالى والقبض على الجناة . . فقط . . مما ترتب عليه احتلال الإنجليز لجمرك الإسكندرية فاستقالت مرغمة، وانتهت بذلك سطوة ذى الرئاستين» .

(١٧٦)

ومع أن عبد العزيز على لا يكف عن إظهار ضيقه التقليدى بالوفد وبالنحاس، ومع أنه أشار إشارات واضحة التعاطف مع مَنْ حاولوا اغتياله، فإنه يبدى سعادته بقرار إلغاء معاهدة ١٩٣٦م ويقول ما نصه :

«وفى ١٨ أكتوبر ١٩٥١م تجرأ النحاس باشا وأعلن فى البرلمان تحت ضغط إرادة الشعب تقرير قطع المفاوضات مع إنجلترا وإلغاء معاهدة ١٩٣٦م التى أتت على يديه قائلا : إنه من أجل مصر عقدت معاهدة ١٩٣٦م، ومن أجل مصر أعلن اليوم إلغاءها، وليس لى (الكلام لعبد العزيز على) أن أقول فى هذا الموقف السليم إلا أن الرجوع إلى الحق فضيلة، وأن الله واسع المغفرة» .

(١٧٧)

وهو يشير بكل وضوح إلى جفاء مكرم عبيد فى معاملته وحرصه على تشريده بنقله إلى الزقازيق :

«وعاد نشاطى السياسى سيرته الأولى ، وكان واضحًا فيما جرى بنادى الحزب بشارع دار النيابة (قصر متحف الشمع) فضاق بى ذرعًا وزير المالية مكرم عبيد باشا وكان يتصورنى ثوريًا خطيرًا ومتعصبًا دينيًا كما صرح بذلك لأخصائه فى أكثر من مناسبة ، وأصدر أمرًا بنقلى إلى الزقازيق بوظيفة وكيل حسابات مبانى الشرق ، ليبعدنى عن مركز نشاطى» .

«لم يفت ذلك فى عضدى ، بل واصلت نشاطى بالقاهرة التى كنت أعود إليها كل مساء من الزقازيق التى لم أبت بها ليلة واحدة طوال مدة خدمتى بها التى امتدت حوالى السنة ، فكنت برغم أنف مكرم عبيد محور الحركة الدائبة بنادى الحزب الوطنى» .

(١٧٨)

والحاصل أن عبد العزيز على كان أقرب ما يكون إلى الكفر بالأحزاب وبالنظام الحزبى على نحو ما عاشه وعايشه ، وهو فى إطار هجومه على الوفد والأحزاب يقول :

«وكان الوفد ـ مع الأسف ـ قد استخدم للحصول على أكبر عدد من مقاعد مجلس النواب أحط الوسائل لكسب أصوات الناخبين من تضليل وإغواء بالرشوة ، وبالوعود البراقة ، ولم ينج من ذلك حتى رؤساء لجان الانتخابات نفسها لتزوير الانتخابات بما يشبع رغبة الوفد . ونسجت الأحزاب الأخرى على نفس المنوال الفاسد واشتركت كلها مع الأسف فى إفساد الأخلاق وشراء الذمم ، ولا مفاضلة هنا فى السوء ، إذ الكل فيه سواء» .

(١٧٩)

ونأتى إلى رأيين مهمين لعبد العزيز على فى شخصيتين سياسيتين بارزتين فى

عهده، وهما حسين رشدى، ومحمد توفيق نسيم، وعلى حين أن رأيه فى نسيم يبلغ أقصى درجات السوء، فإن رأيه فى رشدى يبدو متوازنًا، وعلى الرغم من أن عبد العزيز على كان موافقًا موافقة ضمنية على المحاولة التى قام بها الفدائيون واستهدفت قتل رشدى باشا مع عدلى باشا نتيجة مواقفهما التى شقت الوحدة الوطنية، إلا أنه فى مذكراته يعبر عن تقدير مبكر لرشدى لموقفه المعارض لخطبة رئيس مجلس اللوردات البريطانى فى مارس ١٩١٩م:

ونحن نرى عبد العزيز على حريصًا على أن يسجل ثناءه على موقف رشدى باشا من الخطبة التى ألقاها رئيس مجلس اللوردات وحاول بها التفريق بين طائفتين من الشعب المصرى، لكن رشدى باشا لم يستجب لهذه الوقيعة التى ظل الإنجليز يمارسونها حتى نجحوا فيها بعد عامين:

«وفى ٢٤ مارس ١٩١٩م خطب اللورد كيرزون زعيم مجلس اللوردات البريطانى خطبة تعرض فيها للثورة المصرية فتجنى على الوضع وشوه الحقائق وزعم فى خطبته أنها حركة شغب ونهب وسلب دبرها أناس غير مسئولين كسعد زغلول وأعوانه، وقام بها القوم وغوغاؤهم دون عقلائهم ومثقفيهم، وأنها أقرب إلى الفوضى منها إلى السياسة، ثم نادى برفض المفاوضة مع سعد وأعوانه، ورحب بها مع رشدى وعدلى بدعوى أنهما من الرجال المسئولين، وحدد الغاية من المفاوضة بالاتفاق على الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى المستقبل».

«وبذا وضح لكل ذى عقل سوء نية إنجلترا وتشبثها بالحماية وتأييد الاحتلال واستمرارها فى ممارسة أسلوبها السياسى الذى حذقته، وهو أسلوب فرق تسد ببث بذور التفرقة بين وزارة رشدى وهيئة الوفد لانقسام الصفوف وطعن الحركة الوطنية فى الصميم، إلا أن حسين رشدى لم يستجب لدعوة كيرزون له للمفاوضة تضامنًا مع الوفد الذى وكل عن الأمة وفوت على كيرزون سوء غرضه».

(١٨٠)

ونأتى إلى الوصف الحاد الذى وصفه به عبد العزيز على محمد توفيق نسيم،

ولا ننسى أن عبد العزيز على نفسه قد اشترك فى محاولة اغتيال نسيم، ونحن نراه حريصًا على وصفه بأنه كان عميلاً للناحيتين، السراى والإنجليز، ويرجع عبد العزيز على السبب فى توليه الوزارة واستقالة سلفه يوسف وهبة إلى كثرة حوادث الاغتيالات، ومن الجدير بالذكر أن كريم ثابت يصور فى مذكراته سبب وصول محمد توفيق نسيم فى أنه كان نتيجة زيادة ولائه للملك فؤاد، ونجاحه فى تعبيره عن هذا الولاء من خلال حشد مظاهرات العمد والمشايخ:

«وفى ١٩ مايو ١٩٢٠م استقال يوسف وهبة، وكانت قد تكررت فى عهده حوادث الاغتيال السياسى، وتولى الوزارة فى ٢٢ مايو ١٩٢٠م محمد توفيق نسيم باشا، وكان يجمع بين ممالأته للإنجليز والسراى على حد سواء، فهو عميل الناحيتين، وكان بذلك مناهضًا للحركة الوطنية وأكثر استبدادًا وبطشًا ممن سبقه».

(١٨١)

ويبدو عبد العزيز على معتزًا أشد الاعتزاز بالنصر الذى حققته مصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م:

«ثم زاد اليهود من صلفهم بعد نكسة ١٩٦٧م القاتلة التى ذاق فيها العرب ومصر على الأخص الأمرين، وتمادوا فى غرورهم وأعلنوا على العالم أن الجيش اليهودى لا يقهر، وبأنهم يملكون أقوى قوة ضاربة للطيران فى الشرق، وبأن خط بارليف الذى أقاموه فى الضفة الشرقية للقنال أقوى من أن يخترق، وسيكون مقبرة لكل مَنْ تسول له نفسه اختراقه أو الاستيلاء عليه».

«إلى أن أفاقوا على الحقيقة الباهرة التى لم يتوقعوها، وهى انتصار الجيوش العربية الساحق عليهم فجأة فى حرب ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ و٦ أكتوبر ١٩٧٣م الذى قضى دون رجعة على نظرية الأمن الإسرائيلى وأسطورة أن الجيش الإسرائيلى لا يقهر، وأنه يملك أقوى قوة ضاربة للطيران فى الشرق، وعلى خرافة أن اختراق خط بارليف الحصين الذى صرفوا فى إنشائه الملايين يستعصى على كل مهاجم».

الباب الثانى : قصة كفاح

مذكرات عبد الفتاح عنايت

(١)

اسم عبد الفتاح عنايت عند الذين درسوا تاريخ الحركة الوطنية والفدائية اسم مهم، فهو صاحب ذكرى لا يمكن أن تنسى؛ لأنه شارك فى اغتيال عدد من قيادات المستعمرين الإنجليز فى سلسلة متصاعدة حتى انتهت باغتيال السردار، وحُكم عليه مع مَنْ حكم عليهم بالإعدام، لكنه وحده قدر له أن يخفف عنه الحكم وحده لصغر سنه؛ ولأن شقيقه عبد الحميد حكم عليه بالإعدام فى القضية نفسها.

كان عبد الفتاح عنايت طالبًا فى مدرسة الحقوق العليا حين دخل السجن، لكنه نال ليسانس الحقوق وهو فى السجن، وخرج من السجن إلى الحياة فى يونيو ١٩٤٤م، أى فى عهد وزارة الوفد، وعمل محاميًا وموظفًا، وقدر له أن يكتب مذكراته وقد نشرتها مكتبة الأنجلو المصرية فى تاريخ غير معروف لنا على وجه التحديد، لكنه كان فى أثناء عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

ويضم كتاب مذكراته ما يبدو أنه تجميع لكتابات مختلفة التاريخ عن الأحداث ذاتها، فهو «يبدأ من الأول» أكثر من مرة على حد التعبير البسيط الذى يصف بها الناس العاديون القصة حين تروى لهم وتعاد روايتها فى الموقف ذاته، وقد كتب عنايت للمذكرات مقدمتين: مقدمة، ثم مقدمة الكتاب، وفى المقدمة الأولى التى لم تتجاوز صفحة أشار إلى أن الدكتور محمد أنيس هو الذى نصحه ثم شجعه على «كتابة مذكراته عن ثورة ١٩١٩م»، وذلك لشدة اهتمامه بتاريخ هذه الثورة!!

ومما يؤسف له أن الأستاذ لمعى المطيعى روى فى مقال له عن عبد الفتاح عنايت أنه زاره قبل عام من وفاته (باعتباره مسئولاً عن النشر فى الهيئة المصرية العامة للكتاب)، وكان معه كتابان: «قصة كفاح» وكتاب آخر، وأن الأستاذ لمعى المطيعى اعتذر للرجل

عن النشر ، وأنه تصفح كتاب «قصة كفاح» دون أن يقرأه ، وأنه لمح على شخصية الرجل آثار الفترة الطويلة التى قضاها فى السجن .

ومن العجيب أن الأستاذ لمعى المطيعى يشير فى فقرة أخرى من ذلك المقال إلى أن عبد الفتاح عنايت نفى ليكتب مذكراته ! ! مع أن هذا لم يحدث .

وربما أن الأستاذ لمعى المطيعى كان يقصد أن يقول «بقى» ليكتب مذكراته ، وحدث تصحيف للكلمة فأصبحت «نفى» ، وشتان بالطبع بين المعنيين .

(٢)

والواقع أن مذكرات عبد الفتاح عنايت تقدم علاقته بثورة ١٩١٩م فى صورة علاقة عضوية ، فهو يصور كل ما أنجزه على أنه كان من أجل هذه الثورة وزعيمها سعد زغلول ، وليس هذا بالأمر المستغرب على روافد كفاحنا الوطنى ، لكن الشائع فى أوساط الذين كتبوا عن هذه الثورة يميل إلى القول بأن قتل السردار كان بمثابة إجهاض للنجاحات التى حققتها ثورة ١٩١٩م ، ونحن نرى عنايت نفسه وقد أدرك مثل هذا المعنى واعتذر عنه أو برره ، لكننا فى المقابل لا نستطيع أن ننكر ما تضمنته مذكرات عبد العزيز على «الثائر الصامت» من شماتة بالغة فى سعد زغلول وحكومته نتيجة لحادث مقتل السردار ، حتى إننا نظن من صياغة عبد العزيز على لقوله «وسقط صاحب الرئاستين» أن مثل هذا الحادث كان يستهدف الاحتلال والوفد معًا .

أما عبد الفتاح عنايت فإنه يصور الأمر تصويرًا مختلفًا ، ومن الواجب أن نصدقه ، فلم يكن هناك دافع فى ذلك الوقت الذى كتب فيه مذكراته يجعله يميل إلى مجاملة الوفد أو التقرب منه ، ونحن نرى فى كتابه كثيرًا من العناوين من قبيل «الثورة الكبرى لزعيمها الأكبر سعد زغلول باشا» وهو عنوان واضح (ص ١٤)» .

(٣)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن نشير إلى بعض الحقائق التى تلخص مدى التضحية

الرائدة التى قدمتها عائلة واحدة من أجل السياسة المصرية، وهى عائلة عنايت، والواقع أن هذه المذكرات بكل ما فيها لا تعبر تعبيرًا كاملاً عن إسهام أسرة عنايت فى الحركة الوطنية، ولا موقف أسرة عنايت الحقيقى من الحركات الفدائية، وعلى سبيل المثال فبالإضافة إلى الأخوين عبد الحميد وعبد الفتاح فقد كان محمود عنايت، وهو أكبر إخوة عبد الفتاح عنايت. كان عضوًا فى الجمعية الفدائية السرية، وربما أنه كان سابقًا على أخويه، ونعرف أيضًا من مذكرات عبد الفتاح عنايت أنه قد اتهم فى قضية إطلاق النار على السلطان حسين، وقد أفرج عنه وحكم عليه بالنفى إلى مالطة، لكن تأثير السجن على صحته وإصابته بالدفتريا جعله غير قادر على تنفيذ حكم النفى، وقد توفى بعد خروجه من المعتقل بقليل.

ولعل هذا هو السبب الذى جعل أخًا رابعًا هو عبد الخالق عنايت يهاجر إلى خارج مصر على نحو ما نعرف من المذكرات التى بين أيدينا، لكننا نعرف من مذكرات أخرى هى مذكرات عبد العزيز على أن هذا الشقيق الرابع، وهو عبد الخالق عنايت. كان عضوًا فى الجمعية الفدائية السرية، وربما أنه كان سابقًا على أخويه، ونعرف أيضًا من مذكرات عبد الفتاح عنايت أنه قد اشترك فى إحدى حوادث الاغتيال الناجحة قبل سفره إلى النمسا لدراسة الطب، ونعرف أيضًا من مذكرات عبد العزيز على أنه عاد إلى مصر فى إجازة فى أثناء دراسته فلم يسمح له البوليس بالسفر إلى أوروپا طيلة وجود الملك فؤاد فى رحلته الشهيرة فى أوروپا، فلما عاد الملك سمح لعبد الخالق عنايت بالسفر، ونعرف أيضًا أنه أحضر من أوروبا زجاجة سم سلمها لعبد العزيز على كى يستخدمها فى قتل الهلباوى، لكن الظروف لم تسمح.

(٤)

وإذا كان الأولى بنا أن نمضى مع الزمن فى تصوير ما تحتويه المذكرات من حديث عن العمل الفدائى، فإننا ننقل ما يورده صاحبه قرب نهاية كتابه عن الأحكام التى صدرت فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين، حيث يقول:

«... ولقد قبض فى هذه القضية على أغلب أفراد أسرة عنايت حتى الوالد، وانتهى التحقيق فيها بالإفراج عن جميع المقبوض عليهم ما عدا المتهمين التسعة، وهم:

محمد شمس الدين الذى أجر المنزل، ونجيب الهلباوى، ثم سبعة [آخرين متآمرين] معهما أحدهما . . . محمود عنايت الذى كان متهمًا بصناعة القنبلة فى حد ذاتها، وكان من بين المتهمين الدكتور شفيق منصور الذى ما كانت تخلو قضية سياسية من وجوده ضلعًا فيها، ثم انتهى الأمر بتقديم المتهمين التسعة إلى المحكمة العسكرية حيث حكم على شمس الدين ونجيب الهلباوى بالإعدام، ثم استبدل حكمهما إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، وحكم على السبعة الآخرين بالنفى إلى جزيرة مالطة، ثم نفذ حكم النفى على السبعة الآخرين ما عدا محمود عنايت، وذلك بسبب مرضه الخطير وعدم مقدرته على السفر بالبحر، فترك فى سجنه بالجيزة».

وهو يشير إلى أن الإفراج عن المنفيين فى هذه القضية لم يتم إلا بمقتضى معاهدة فرساى:

« . . . بمقتضى نصوص معاهدة فرساى حيث أطلق سراح جميع أسرى الحرب من مختلف الدول، فكان من ضمن المطلق سراحهم الأشخاص الذين كانوا قد حكم عليهم بالنفى إلى جزيرة مالطة فعاد إلى مصر سبعة من المتهمين التسعة، ينقصهم شقيقى البكرى محمود عنايت الذى ترك فى مصر ليقضى نحبه».

(٥)

ويشير عبد الفتاح عنايت إلى وعى عميق بضرورة تخليد الكفاح القومى الذى شارك فيه، بيد أنه يبدو عاجزًا عن أن يمضى فى هذا السبيل إلى أبعد من الإجراءات الروتينية البسيطة التى مكنته من تسجيل جمعية بهذا الاسم فى ٢١ مايو سنة ١٩٥٦م تحت رقم ١٣٥ جيزة.

وهو يشير فى معرض حديثه عن هذه الجمعية إلى أنها تمكنت من عمل تماثيل لكل من: الشهيد إبراهيم الوردانى، والشهيد محمود عنايت، والشهيد عبد الحميد عنايت، والشهيد إبراهيم موسى، والشهيد محمود راشد، بيد أننا لا نعرف من المذكرات ولا من غيرها أين ذهبت هذه التماثيل، ولا نعرف شيئًا عن مصيرها، ولسنا نستغرب هذا على ذاكرة معاصرة لم تعد تشغل نفسها بمثل هذه الأمور.

(٦)

ومع أن حديث عبد الفتاح عنايت عن ذكرياته وتسجيله لها أمر طبيعي كان لا بد منه، فإننا نراه فى كثير من فقرات كتابه معنيًا بأن يثبت لنفسه المبرر الذى دفع به إلى تسجيلها، وهو على سبيل المثال يقدم فى وسط مذكراته سببًا وجيهًا لإقدامه على كتابتها فيقول:

«. . . وسمعت واحدًا يسأل عن الدافع الذى دفعنا إلى ارتكاب هذه الحوادث، والذى من أجله عانينا الموت والسجن، وسمعته وهو يصف أعمالنا التى أقدمنا عليها بالجنون، وسمعته وهو يضفى علينا أوصاف المجانين فبدأت أفكر فى وضع هذه المذكرات وأن أقدمها عندما يحين الوقت للقراء ليحكموا على مدى قوة هذه الأعمال وروعتها فى ميدان التضحية والاستقلال، فإلى هؤلاء الذين شاءوا أن ينتقصوا من وطنيتنا وأن ينالوا منا فقالوا إننا كنا صنائع الإنجليز، ومطية لسياسة العنف الإنجليزية فى مصر التى صحبت حادث مقتل السير لى ستاك سردار الجيش [أقدم هذه المذكرات]».

(٧)

نبدأ بأن نتأمل مع عبد الفتاح عنايت دوره ودور خليته، وسيدهشنا أن نرى مذكرات عبد الفتاح عنايت وهى تقدم «اعترافات تفصيلية» بمسئولية الجهاز السرى للحزب الوطنى عن كثير من حوادث الاغتيال فيما قبل ثورة ١٩١٩م.

ويمكن فى الفقرات التالية لنا أن نلخص ما تضمنه هذا الكتاب من وقائع الحوادث الفدائية التى قامت بها مجموعة عبد الفتاح عنايت على نحو ما رواها بترتيب زمنى دقيق، ونحن نلاحظ أنه يذكر وقائع محددة لم يشر إليها عبد العزيز على فى مذكراته، كما أنه لا يشير إلى وقائع أخرى أوردها عبد العزيز على وغيره فى مذكراتهم المنشورة.

فأما أول هذه الحوادث، وهو حادث مقتل الجندى البريطانى فى ميدان محطة مصر، وهو يستعيد ذكرياته عن هذه الواقعة الفدائية الناجحة، وهو حادث لم يشر إليه عبد العزيز على فى مذكراته فيقول:

« . . . إننى سعيد اليوم أن أرى هذا المكان الذى نفذنا فيه إعدام أول جندى بريطانى فى مصر، هو المكان نفسه الذى يربض عليه تمثال رمسيس الآن، وانتشرنا فى هذا المكان ولمحنا من بعيد شبح الضحية الأولى، وكان جنديًا فارع الطول، عريض المنكبين، يمشى بخطوات واسعة ملؤها الكبرياء والاعتداد بالنفس والقوة، أعطيت إشارة التنفيذ المتفق عليها، ولم تمض لحظة حتى كان إبراهيم موسى قد أفرغ رصاص المسدس الذى يحمله فى صدر هذا الجندى فوقع على الأرض دون أن يبدى حراكًا» .

«إن الجرأة التى تم بها تنفيذ هذه الخطوة جعلتنا لا نفكر أبدًا فى الهرب، بل لازمنا حب الاستطلاع والشجاعة التى وافتنا أن نقف فى أماكننا لكى نشاهد بأعيننا نتائج هذا الحادث، وكان إبراهيم موسى فى ذلك اليوم يرتدى جلبابًا أبيض اللون، وقد أسدل لحيته فوقف أمام جثة هذا الجندى الإنجليزى بعد أن أخفى المسدس فى جيبه وأخذ يداعب بأصابعه حبات مسبحته وهو يمصمص شفتيه ويطلب من الله لطفه بالمسكين، وأن يغفر له ذنوبه التى ارتكبها ويرتكبها أبناء جنسه على أرض الكنانة» .

«وانصرفنا إلى بيوتنا راضين مرتاحين البال والضمير، على أن نلتقى فى المساء، وكان المفروض أن نتكلم حين التقينا عن هذا الحادث وعن شعورنا ونحن نقدم عليه، وعن ظروفه ونتائجه، ولكن واحدًا منا لم ينطق بكلمة واحدة لتتصل من قريب أو بعيد بهذا الحادث، وأخذنا نفكر فى الخطوة التالية التى يجب أن نخطوها سريعًا، وكان من رأيى أن تتتابع الحوادث وتتلاحق لتظل راسخة فى أذهان المصريين والإنجليز معًا !» .

(٨)

ويلخص عبد العزيز على ذكرياته عن الحادث الثانى الذى نجحت مجموعته من خلاله فى قتل المستر براون مراقب عام وزارة المعارف، وهو يقدم ما يعتبره مبررًا «شخصيًا» للتفكير فى قتل هذا الرجل المتغطرس الذى كان مسيطرًا تمامًا على وزارة المعارف، شأنه فى ذلك شأن كل نظرائه من الإنجليز .

وربما كان من الواجب هنا أن نشير إلى أن مقر وزارة المعارف فى ذلك الوقت لم يكن فى مقرها الحالى فى شارع الفلكى، وإنما كان فى المبنى الذى تحتله الآن وزارة التموين

التى أصبحت الآن قطاعًا فى وزارة التضامن الاجتماعى، وهو مبنى يطل مباشرة على شارع قصر العينى، وبالتالى فإنه فى مواجهة جاردن سيتى مباشرة على نحو ما تصور المذكرات:

«. . . سأل البعض عن السر فى اختيارنا المستر براوان المراقب العام لوزارة المعارف، السر هو أنى عندما نلت شهادة إتمام الدراسة الثانوية «البكالوريا» كنت فى السابعة عشرة من عمرى، وقد وجدت الفرصة فى الانتماء إلى القسم الليلى بمدرسة الحقوق والالتحاق بإحدى الوظائف الكتابية بوزارة المعارف، ولمست فى المدة القصيرة التى قضيتها فى وزارة المعارف كيف تجرى الأمور فى المصالح الحكومية، وكيف يتسلط الموظفون الإنجليز على كل كبيرة وصغيرة فيها، وأجدنى آسفًا وأنا أسجل أن الوزراء المصريين كانوا يقومون وبجدارة بدور «شرابة الخرج»، فقد كان الوزير المصرى لا يستطيع أن يعين موظفًا أو ساعيًا، أو أن يأمر بترقية أحد موظفى وزارته أو يزيد فى مرتبه ولو بضعة مليمات إلا باعتماد المستر براون المراقب العام الإنجليزى».

. . . .

«. . . وعندما اجتمعنا لوضع الخطة وجدنا من أبسط الأمور اختيار مكان التنفيذ عند مدخل جاردن سيتى عند وقت خروجه من وزارة المعارف فى الساعة الثانية بعد الظهر».

«واتفقنا على أن يقوم بتنفيذ الخطة عبد الحميد وأنا بإعطاء الإشارات، وإبراهيم موسى ومحمد فهمى بإطلاق الرصاص، ومحمود رشدى وثلاثة آخرون من أعضاء الحلقات الفرعية للمحافظة على حياة المنفذين وتسهيل مهمة الهرب، التقينا فى شارع القصر العينى، وقفت أنا على محطة الترام مع المنتظرين قدوم الترام، وعلى مسافة عشرين مترًا وقف عبد الحميد عنايت على الرصيف الآخر المواجه لمحطة المترو، وعلى المحطة التالية للمحطة الواقفين عليها وقف إبراهيم موسى وبيديه إحدى جرائد الصباح يتظاهر بقراءتها على محطة الترام».

. . . .

«واخترق المستر براون شارع القصر العينى، وكان إبراهيم موسى فى هذه اللحظة يطوى الجريدة فى يده ويدسها فى جيبه بعد أن أخرج مسدسه، جلس على ركبتيه وصوب مسدسه إلى المستر براون فأصابه فى ظهره إصابة قاتلة، وهنا أخرج براون مسدسه ولكن قواه كانت قد خارت فوقع على الأرض وهو يصرخ ويستغيث، وتقدم الساعى من إبراهيم موسى يحاول القبض عليه، لكنه عاجله بضربة فى يده فأخذ يجرى فى شارع القصر العينى، ورفع إبراهيم موسى مسدسه وهو يهدد كل مَنْ يقترب منه، وحاول أحد مفتشى الترام ملاحقته لكن إبراهيم عاجله بطلقة من مسدسه، انكفأ المفتش على أثرها على الأرض بعد أن فقد وعيه».

«وأخذ إبراهيم موسى يعدو فى طريقه حتى وصل إلى سكة حديد حلوان فتلقفه اثنان من زملائه وساروا ثلاثتهم فى خطى متئدة لم تثر الشك فى أن أحدهم كانت له أية صلة بالحادث الذى ارتكب على بضع خطوات، وسار الثلاثة فى طريقهم إلى ميدان السيدة زينب حيث تفرقوا وذهب كلٌ منهم إلى بيته، وكان محمد فهمى فى ذلك الوقت يقوم بمهمته التى كلف بها وأخذ يطلق النار من مسدسه لإرهاب الناس حتى خلا المكان تمامًا، وعندما انتهى من مهمته طوى مسدسه فى رغيف من العيش كان يحمله وسار فى طريقه وكأنما يقصد عمله وهو يحمل غذاءه فى منديله، والتقينا عبد الحميد [أى عبد الحميد عنايت] وأنا بالقرب من مستشفى القصر العينى بعد أن سجلنا ما شاهدناه من نتائج الحادث وسرنا فى طريقنا إلى عابدين».

....

ويتحدث عبد الفتاح عنايت عن الآثار المباشرة وغير المباشرة لهذا الحادث فيقول:

«كانت أولى نتائج هذا الحادث أن قررت الحكومة مكافأة لساعى المستر براون خمسين جنيهًا لمحاولته القبض على القاتل، وتعويضًا له عن إصابته فى يده بالرصاص، وكان ثانى النتائج ما أصاب الجالية البريطانية من رعب فانهارت الكبرياء المفتعلة، والعنجهية المصطنعة التى عانى منها المصريون الشىء الكثير، وكانت خاتمة هذه النتائج اختفاء الشبح المخيف من بين جدران وزارة المعارف».

(٩)

وهذه هى ذكريات عبد الفتاح عنايت عن الحادث الثالث الذى قدر له أن يشارك فيه وهو مقتل وكيل حكمدار القاهرة المستر كييف، وهو يشير إلى مدى الصعوبة التى كانت تكتنف هذه المحاولة بسبب اختلاف مواعيد خروج الرجل من بيته من يوم لآخر، لكن صاحب المذكرات سرعان ما اكتشف أنه كان ملتزمًا بموعد ثابت هو موعد عودته إلى بيته لتناول الغداء :

« . . . كان المستر كييف يشغل منصب وكيل حكمدار القاهرة أيام الثورة [المقصود بالطبع هو ثورة ١٩١٩م]. كان شديد البطش والقسوة، يذهب إلى مكتبه فى أيام الصباح ليصنع لمرءوسيه خطط العمل وكيفية القضاء على مظاهرات المصريين، وكان لا يكتفى بذلك، بل ينزل بنفسه ليعلم كيف تنفذ أوامره، وليشترك فى التنكيل بالمتظاهرين المصريين، ولا أظن أن الذين عاصروا هذه الأيام قد نسوا منظر الحكمدار الإنجليزى، فقد كانوا يعرفونه من حصانه الأبيض يجول به فى شوارع القاهرة، بوجهه الأحمر، وصدغيه المنتفختين، وطربوشه الأحمر الفاقع حتى كان يبدو ديكًا روميًا يختال على ظهر جواده».

«وفشلت أكثر من مرة عندما أردت مراقبة المستر كييف وهو يخرج من منزله فى الصباح، فلم يكن له ميعاد محدد يترك فيه داره، فقد كانت مهمته فى إذلال المصريين تتطلب منه بعض الأحيان البقاء طول الليل فى مكتبه، أو تقتضيه الخروج فى الفجر، لكن كيف كان قد حدد لنفسه الساعة الواحدة بعد الظهر كل يوم ليعود إلى داره لتناول غدائه، ولم يشذ فى أحرج الأوقات عن هذه العادة».

«وكان يخرج من المحافظة وهو يركب موتوسيكله مارًا بميدان الأزهار، فشارع الفلكى، فجاردن سيتى حيث يقطن إلى جوار زملائه من كبار الموظفين الإنجليز».

(١٠)

وانظر إلى هذا التعبير الدقيق الموحى الذى يعبر به عبد الفتاح عنايت عن سعادته بالوصول إلى تحديد موعد مثالى لاغتيال الرجل :

«وهكذا اختار كيف لنفسه الزمان الذى يلقى فيه مصرعه، فى أثناء عودته من عمله إلى داره، وكانت هناك فكرة بين أعضاء الجمعية لتغيير هيئة التنفيذ، لكن رؤى استبعادها فى هذه المرة، فقد كان قتل وكيل حكمدار العاصمة يحتاج إلى خبرة وإلى دراية، ولهذا استقر الرأى على أن تكون هيئة التنفيذ هى الهيئة نفسها التى قامت بتنفيذ مقتل المستر براون المراقب العام لوزارة المعارف، وحددنا موعد التنفيذ ومكانه عند أول شارع الفلكى من ناحية ميدان الأزهار».

«وعلى الرصيف الأيمن من الشارع وقف إبراهيم موسى ومحمد فهمى يتطلعان إلى المارة وكأنهما فى انتظار صديق، ووقفت أنا أمام مبنى سنترال التليفون [يقصد مبنى سنترال الفلكى] أراقب مقدم المستر كيف إعطاء لإشارة التنفيذ، ووقف عبد الحميد عنايت ومحمود راشد فى الشارع المؤدى لقصر النيل كلٌ منهما على رصيف يستعدان لتهيئة فرصة الهرب، ولاح موتوسيكل المستر كيف فى أول ميدان الأزهار، واتجهت إلى إبراهيم موسى ومحمد فهمى وقد رفعت طربوشى عن رأسى فاستعدا وأخرجا سلاحيهما، وعندما وصل مستر كيف بالقرب من إبراهيم موسى أفرغ فى ظهره ثلاث رصاصات من مسدسه فسقط عن الموتوسيكل، وفى سقوطه كانت ثلاث رصاصات أخرى تنطلق من مسدس محمد فهمى لتستقر فى رأس المستر كيف . . . وكانت القاضية!».

(١١)

ونأتى إلى إحدى التفصيلات المهمة التى صاحبت مصرع المستر كيف، وهى محاولة إحدى الإنجليزيات تعقب إبراهيم موسى، وفى النص الذى بين أيدينا ينفرد عبد الفتاح عنايت بالإشارة إلى أنها كانت ترتدى زى الممرضات، وأنها كانت تركب دراجة، لكن عبد الفتاح عنايت لا يشير إلى ما أشار إليه عبد العزيز على من أن هذه الإنجليزية ظلت تحتفظ بصورة إبراهيم موسى فى مخيلتها حتى وقع حادث اغتيال السردار فتعرفت عليه، مما كان له، كما يقول عبد العزيز على، أثر كبير على مجريات التحقيق فى تلك القضية:

«وعندما حاول إبراهيم موسى الفرار اعترضته فتاة إنجليزية كانت ترتدى زى الممرضات تركب دراجة، واستعانت بأحد الصولات لمتابعة إبراهيم موسى ومحمد فهمى لكن إبراهيم لاحقه بمسدسه فارتمى الصول على الأرض فى حركة عسكرية ليتفادى الرصاص، أما الممرضة الإنجليزية فقد آثرت الارتداد وعرجت بدراجتها على أحد الشوارع المتفرعة من شارع الفلكى ومضت فى سبيلها، وكان عبد الحميد عنايت ومحمود راشد فى هذه اللحظة قد استأجرا إحدى سيارات الأجرة ومضيا بها من شارع الدواوين ثم إلى آخر شارع [الفلكى] حيث لحقا بإبراهيم موسى ومحمد فهمى فركبا معهما إلى ميدان السيدة زينب، حيث تفرق كلٌ منهم إلى داره».

«ومضيت أنا فى طريقى إلى محطة باب اللوق ودخلت إلى سوق الخضار وعدت إلى شارع الفلكى مرة أخرى أشاهد نتيجة الحادث، فرأيت المستر كيف مازال ملقيًا [يقصد: ملقى] على الأرض والدماء تنزف من رأسه وفمه وأنفه، وظل فى مكانه حتى ساقت الصدف أحد زملائه الإنجليز الذى حمله فى عربته إلى المستشفى، وعندما وصل إلى المستشفى فارق الحياة».

«وكان لهذا الحادث أثر كبير فى نفوس الإنجليز، وخاصة الضباط والكونستابلات الذين يعملون فى البوليس المصرى، وقد صدرت الأوامر إليهم بارتداء شارة الحداد على مقتل وكيل الحكمدار ثلاثة أيام، كما صدر أمر آخر يقضى بمنع حمل السلاح وتقديم مَنْ يضبط عنده إلى المحكمة العسكرية التى خولت سلطة الحكم بالإعدام فى بعض الحالات».

(١٢)

ويلخص عبد الفتاح عنايت الصورة التى وقع بها الحادث الرابع من حوادث الاغتيالات التى شارك فيها، وهو الحادث الذى كانت نتيجته مقتل بيجوت مدير مالية الجيش الإنجليزى، وهو حريص على أن يظهر دور شقيقه عبد الحميد عنايت فى هذا الحادث على وجه التحديد، مؤكدًا الإشارة إلى طبيعة الدور الذى كان الشقيقان يلعبانه فى هذه الحوادث، والحاصل أننا قد نفهم من هذه الفقرة أن هناك جنودًا مجهولين

آخرين (من قبيل عبد العزيز على) كانوا هم الذين يخططون لهذه الحوادث، لكن عبد الفتاح عنايت لسبب أو لآخر كان لايزال حريصًا على التغطية عليهم حتى فى الوقت الذى نشر فيه مذكراته:

« . . كان مقتل المستر بيجوت مدير مالية الجيش الإنجليزى من تدبير وتنفيذ شقيقى المرحوم عبد الحميد عنايت، وقد كنا عبد الحميد وأنا فى جميع الحوادث السابقة يقتصر اشتراكنا فيها على المراقبة وإعطاء إشارات التنفيذ».

«وكان من عادة عبد الحميد عنايت أن يخرج إلى كوبرى قصر النيل فى مغرب كل يوم يقضى بعض وقته، وتصادف أن قابل المستر بيجوت وهو يخرج من داره بشارع البستان، وعرف أنه من كبار ضباط الجيش البريطانى، وأنه مدير ماليته، وعاد إلينا عبد الحميد فى إحدى الأمسيات يستعرض معنا الشخصيات التى أردناها، وكان من رأيه أنه ينقصنا أن نقتفى أحد كبار رجال الجيش البريطانى، واختار لنا شخصية المستر بيجوت، وتولى عبد الحميد مراقبته عند خروجه من داره بشارع البستان حتى مبنى خزانة الجيش البريطانى بشارع الساحة».

«واتفقنا على أن يتم اغتيال المستر بيجوت فى الصباح وعند خروجه من منزله، وصادفتنا عقبة لم تصادفنا فى الحوادث الماضية، هى ضيق المسافة بين شارع البستان وشارع الساحة وازدحام هذه المنطقة بالسكان والمارة، ووجدنا الحل فى أن نعهد إلى أحد أعضاء الحلقات الفرعية ممن يجيدون ركوب الموتوسيكل بأن يثير الضجة فى أنحاء الحى قبل وقوع الحادث».

ينبغى أن نتوقف هنا لنشير إلى أن أحمد على هو شقيق عبد العزيز على، وقد أصبح فيما بعد أستاذًا فى كلية التربية بجامعة عين شمس، ونشير أيضًا إلى أن عبد العزيز على قص هذه الجزئية لكنه نسب الفكرة إلى نفسه، وهو ما لم يتعرض له عبد الفتاح عنايت بنفى ولا إثبات، وإن كنا نرى عبد العزيز على قد ذكر هذه الجزئية فى معرض الحديث عن واقعة اغتيال أخرى:

«وقام بهذا الدور أحد الأعضاء، وكان اسمه أحمد على».

«وبينما كان أحمد على يقوم بمهمته ويثير الضجة فى الحى كله كان عبد الحميد

عنايت وإبراهيم موسى قد اتخذا مكانهما فى أول شارع الشريفين، وتولى محمد فهمى إعطاء إشارة التنفيذ».

«وخرج بيجوت من داره وعندما وصل إلى شارع الشريفين بدأ عبد الحميد [عنايت] فأطلق عليه رصاص مسدسه، ثم أعقبه إبراهيم موسى، وعز على محمد فهمى ألا يشترك فى الحادث فانطلق هو أيضًا بمسدسه يمزق برصاصه جسد بيجوت حتى قضى عليه».

. . . .

هكذا نلاحظ أن ثلاثة قد اشتركوا فى إطلاق النار، وربما لم تكن الطلقات التى أطلقها عبد الحميد عنايت كافية لتنفيذ المهمة؛ لأنه كما أشار شقيقه صاحب المذكرات لم يكن من الذين يتولون إطلاق الرصاص فى المرات السابقة:

«وكان محمود راشد قد وقف بعربته بالقرب من مكان الحادث واستطاع أن يقودهم بها إلى دورهم دون أن تمتد إليهم يد، أو يكتشف أمرهم إنسان».

(١٣)

ويعترف عبد الفتاح عنايت فى سعادة بالغة بأن مجموعته أحست بأن النجاح الذى أحرزته كان أكثر مما توقعته، وهو يعترف بأن الظروف ساعدتهم، ويعبر عن هذا المعنى بأن يقول إنها كانت فى خدمتهم، وهو يشير أيضًا إلى عجز أجهزة الإدارة والبوليس عن ملاحقتهم وإدراك سرهم:

«فى أقل من شهر واحد وصلنا إلى هذه النتيجة التى لم تكن تخطر لنا، ولم نكن نحسب أن النجاح سوف يواتينا بهذه الصورة الرائعة التى بهرت عيوننا، لقد تمكنا فى هذه الفترة الأخيرة أن نقوم بهذه الحوادث، وأن فيها نهاية حياة أربعة من الإنجليز، يعتبر ثلاثة منهم من أكبر كبار الإنجليز فى مصر».

«وليس من شك أن الظروف كانت دائمًا فى جانبنا، بل كانت فى خدمتنا، ولا أدل على ذلك من أننا رغم تلاحق هذه الحوادث الأربعة التى قمنا بها ورغم قيامها جميعًا

فى رابعة النهار، فإن يدًا واحدة لم تمتد إلينا، ولم تثر نحونا أية شبهة، ولعل هذا كان أكبر مشجع لنا على المضى فى خطتنا وسياستنا».

(١٤)

ويبدو أن هذا النجاح المتوالى قد دفع بعض أفراد المجموعة، وهذا أمر طبيعى، إلى أن يقوموا ببعض الحوادث غير المخططة التى هيأت لهم الصدفة النجاح فيها، وهذا هو ما يرويه عبد الفتاح عنايت عن محاولة خامسة ناجحة قام بها اثنان من مجموعته الفدائية، لم يكن هو ولا شقيقه عبد الحميد منهما:

«. . . وذات صباح خرج إبراهيم موسى ومحمد فهمى يتنزهان بجوار محطة كوبرى الليمون ويمنيان النفس بصيد سمين يقتنصانه على غير ميعاد، ولاحت عن قرب فريستان لم تكونا تدريان ما يخبئه القدر لهما فى ثياب هذين المصريين الثائرين، كانت الفريسة طيارين إنجليزيين ظهرا فى تلك المنطقة الخطيرة التى يجوس الفدائيون المصريون خلالها ليل نهار، وفى مثل لمح البرق أخرج المصريان الثائران مسدسيهما وصوباهما فى ثبات إلى صدرى الطيارين الإنجليزيين، وسقط الطياران مخضبين بدمائهما، وجنح إبراهيم موسى ومحمد فهمى إلى الهرب ولعلهما لم يأسفا على أنهما قطعا نزهتهما بهذه الحادثة الصغيرة التى ارتكباها فى سهولة، فاصطادا رجلين كما تصطاد العصافير اللاهية الغافلة عن شباك الصيادين».

(١٥)

ولا يجد عبد الفتاح عنايت حرجًا فى أن يقص تفاصيل المحاولة الفدائية التى فشلت فى قتل المستر براون، محاولاً على طريقته حصر الأخطاء التى قادت إلى فشل المحاولة، ولك أن تتأمل فى هذا القرار بالإعدام وكيف يصدر هكذا فى مثل هذه الجمعيات الوطنية السرية! وانظر إلى صياغة عبد الفتاح عنايت لما استقر عليه الرأى ووصفه له بإصدار القرار بالإعدام دون أن يفكر فى أن يعدل الوصف إلى «التفكير فى اغتيال» أو «التفكير فى الخلاص منه»!! ولاشك فى أن مثل هذا الإصرار واليقين،

مهما يكن حظه من افتقار مقومات العدالة، كان بمثابة عامل من عوامل النجاح فى مثل هذه العمليات الفدائية :

« . . . وكان المستر براون طاغية مستبدًا يتولى إدارة قسم البساتين بوزارة الزراعة، ويسوم موظفيه المصريين سوء العذاب، ويصب على رءوس عماله ألوانًا من العسف والإذلال، وترامت أنباء طغيانه وعسفه إلى جماعتنا ومست وتر الجمعية الوطنية فى قلوبنا، فأصدرنا قرارنا بإعدام الطاغية» .

«وراقبنا الرجل طويلاً، ثم حددنا الموعد الذى ننهى فيه طغيانه وقسوته، وكانت ليلة حالكة تلك التى اختارها المستر براون لتوديع نجله على محطة القاهرة عند سفره إلى الإسكندرية ليبحر منها عائدًا إلى إنجلترا لإتمام دراسته، وكانت دار المستر براون قريبة من حديقة الأورمان، فكان عليه أن يمر بالحديقة فى عربته عند ذهابه إلى المحطة مع أسرته ونجله لتوديعه، وحاصرنا حديقة الأورمان بأعضاء الجماعة وشددنا عليها الخناق من كل ناحية ساعات طوالاً، ولكن الفريسة لم تخط بعد خطوتها الأولى نحو الشرك الذى نصبناه لها، وانتابنا القلق، بل كاد اليأس من وقوع الفريسة يتسرب إلى نفوسنا، ولكن المناظر بدأت فجأة تتتابع فى سرعة، وكادت تذهلنا عن تمثيل دورنا فى المسرحية الدامية الرائعة، ففى لحظة ظهرت عربة المستر براون فجأة فأضاء مصباحها كل ما يحيط بها، وفى لحظة أخرى أعطى محمد فهمى عنايت الإشارة فأضاء بطارية كهربائية كانت فى يده، وفى لحظة ثالثة انطلقت صفارة الزميل محمود عثمان تنذرنا بالخطر الداهم، نعم فى هذه اللحظة الحرجة التى كدنا نقتنص فيها روح الطاغية الإنجليزى دهمنا خطر لم يكن لنا على بال، فقد كانت قوة من الخفراء تمر بمدخل حديقة الأورمان للتفتيش» .

«وارتبك الموقف وسدد محمد فهمى مسدسه إلى الفرس التى كانت تجر عربة المستر براون فلم يتمكن من إصابته، وإذا بصوت يجلجل فى الجو صائحًا : «الله أكبر» ثم اندفع إبراهيم موسى كالعاصفة منقضًا على العربة بكل قواه مطلقًا النار دون انقطاع على العربة ومَنْ فيها، وأعقبه جميع الزملاء فأفرغوا رصاص مسدساتهم فى دوى يصم الآذان، وروع صوت الرصاص الحصان الذى يجر العربة فجمح فى رعونة ثم انطلق يعدو بالعربة حتى بلغ شاطئ النيل وهمّ أن يخوض فى الماء لولا أن تداركه بعض الناس فأمسكوا بزمامه، ومنعوه أن يتمادى فى جموحه» .

«أما نحن، فقد قفزنا واحدًا بعد الآخر فى السيارة التى كانت تنتظرنا وانطلقت بنا حتى بلغنا الدقى، فنزلت أنا ومحمود راشد الذى كان مختصًا بإرشاد الزملاء إلى طريق الهروب، وتابعت السيارة انطلاقها بزملائنا، وانتظرت أنا ومحمود راشد زميلاً لنا كان قد تخلف عنا بحديقة الأورمان هو الزميل محمد فهمى».

«وجاءنا الزميل يسعى على قدميه بعد دقائق دون أن يثير أية شبهة، فأخفينا أسلحتنا فى منزله ثم تابعت أنا وراشد سيرنا مخترقين منعطفات الدقى حتى بلغنا بولاق الدكرور حيث اشترينا عنبًا وسرنا فى الطريق نأكل حتى التقينا بأول عربة فقفزنا إليها ومضت بنا إلى حى عابدين وأخذنا فى مسيرنا نستعيد فى أذهاننا موكب الطاغية الذى أغرقناه بالرصاص، لكننا لم نعرف على وجه التحديد مَنْ أصبناه من الركب، ومَنْ أخطأناه، وارتقبنا فى قلق أخبار الغزوة الخطيرة، كانت أسرة المستر براون بأسرها داخل العربية، كما كان فيها ضابط إنجليزى وبعض الحرس، فلما أطلقنا الرصاص على العربة وجمح الفرس وانطلق خفيت علينا النتائج، لكنها جاءت تترى بعد قليل، لقد قتل الضابط الإنجليزى وجرح نجل المستر براون وابنته ومربية أطفاله والمستر براون نفسه، وهكذا كان جموح الحصان سببًا فى نجاة الطاغية، ولو ثبت مكانه لما تركناه تدب فيه الحياة».

(١٦)

ويبدو أن الحظ الذى حالف هذه الخلية فى الحوادث الخمس الأولى قد بدأ يتخلى بعض الشىء عنهم منذ العملية السادسة، ذلك أن وصف عبد الفتاح عنايت لمجريات الأمور فى العملية السابعة ينبئنا عن فشل المحاولة التى قاموا بها لقتل مهندس العنابر:

«كان إبراهيم موسى العضو فى جماعتنا يروى لنا دائمًا ما يلاقيه من غطرسة باشمهندس العنابر المستر ماكنتاس وغروره وتبجحه، ويقص علينا عجايب الباشمهندس الإنجليزى وتعسفاته مع العمال المصريين، ولم يكن إصدار قرار بإعدام هذا الرجل شيئًا صعبًا، فقد صدر القرار فى دقائق قليلة».

. . . .

. . . .

ربما أننا بحاجة إلى أن نكرر لفت النظر إلى ما توحى به تعبيرات القرار ، والإعدام ، والدقائق القليلة ، لكننا لحسن الحظ نجد هنا ما يمكن وصفه بأنه كان محاولة جادة من المجموعة لإنذار المخطئ قبل توقيع العقاب عليه :

«ولكننا علقناه على خطاب نرسله إليه نأمره فيه بالاستقالة من عمله ، فإن استقال أعفيناه من الإعدام وإلا نفذناه فيه» .

«ولم يعر الباشمهندس بخطابنا اهتمامًا حتى جاء آخر يوم من أيام الأسبوع» .

«وفى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم كان الباشمهندس سائرًا على قدميه إلى منزله فخرج عليه من مكمنه كلٌ من إبراهيم موسى زعيم العنابر ومحمد فهمى مندوب العمال ، وكان إبراهيم موسى ملثمًا حتى لا يتعرف عليه الباشمهدس ، ولكنه حين هم بإطلاق النار عليه وضغط على الزناد لم يخرج الرصاص فطفق يضغط على الزناد حتى تنبه إليه الباشمهندس فنظر إلى الخلف وفى هذه اللحظة انطلق من مسدس إبراهيم موسى عيار نارى أصاب الباشمهندس فى ظهره فسقط على الأرض يتأوه ، وعاجله إبراهيم موسى بعيارين آخرين ثم لاذ بالفرار ، وهنا تقدم محمد فهمى إلى الباشمهندس وأطلق عليه ثلاث رصاصات ثم انطلق يعدو حتى اختفى عن الأنظار ، وحمل الباشمهندس إلى المستشفى وعرض عليه كثير من المتهمين الأبرياء فكان يردد قوله : «لا . . لا . . لا» ، كل هؤلاء لا شيء بجانب الفاعلين الحقيقيين» .

على أننا نرى أن التهديد المقترن باستعمال القوة كان كفيلاً بأن يحقق ما لم يحققه التهديد الأول ، بل إنه على ما يروى صاحب المذكرات كان كفيلاً بأن يترك أثرًا فى الآخرين أيضًا :

«واستطاع الطب أن ينقذ حياة الباشمهندس فاندملت جراحه وعاد إلى عمله ، ولكنه ما كاد يتسلم عمله حتى بعثنا إليه بخطاب آخر هددناه فيه بالقتل إن لم يستقل من العمل ويعود إلى إنجلترا» .

«ولم تمض أيام ثلاثة على وصول خطابنا إليه حتى استقال الرجل مؤثرًا السلامة وأقلع فى أول باخرة إلى لندن ، وتبعه عدد كبير من الموظفين الإنجليز الخائفين على حياتهم» .

(١٧)

ويعود الحظ ليحالف عبد الفتاح عنايت وجماعته فيما كانوا يقومون به من أجل زعزعة الوجود البريطانى فى مصر، وهذه هى التفصيلات التى يرويها فى مذكراته عن المحاولة الناجحة لقتل وكيل كلية الحقوق روبسون :

« . . . كانت وزارة المعارف قد أصدرت قراراً بتدريس القانون فى مدرسة الحقوق باللغة العربية بعد أن كان يدرس باللغتين الإنجليزية والفرنسية، فترجمت جميع فروع القانون إلى العربية، بدأ الطلبة يدرسونها بلغتهم التى يفهمونها أكثر مما يفهمون اللغة الإنجليزية بطبيعة الحال، ولكن المستر روبسون الأستاذ الإنجليزى بالمدرسة لبث يلقى محاضراته على الطلبة باللغة الإنجليزية إلى أن يفسح مكانه لأستاذ مصرى يلقى عليهم الدروس باللغة العربية، ووافقت وزارة المعارف على هذا الوضع استخذاء للسيطرة الإنجليزية التى كانت تبسط جناحيها على كل شىء حينذاك، وكان الأستاذ الإنجليزى متعصبًا للاحتلال، مبغضًا للمصريين، شامخًا بأنفه كأنه هو الذى أسس الإمبراطورية البريطانية، كان يقول للطلبة المصريين كل يوم فى كبرياء وقحة : «لماذا تقومون ضدنا؟ إذا كان لديكم قوة فحاربونا فى ميدان القتال واقهرونا وانتزعوا استقلالكم بحد السلاح»، وكانت هذه مبررات كافية كل الكفاية لإرسال الأستاذ الفاضل إلى مكانه الذى ينتظره فى الأبدية! » .

«وبدأنا نراقبه . . كان يخرج كل يوم من مدرسة الحقوق فى الساعة الواحدة بعد الظهر راكبًا دراجته قاصداً منزله فى جاردن سيتى، ماراً بشارع الجيزة، عابراً الجسور المقامة على النيل، وحددنا اليوم الذى تنتهى فيه غطرسة السيد روبسون الذى يريد أن يحاربه المصريون فى ميدان القتال قبل أن يتفضل عليهم باستقلالهم» .

(١٨)

ونأتى إلى فقرة تؤكد لنا أن عبد الفتاح عنايت وإخوانه كانوا يمارسون عملهم ونشاطهم العادى حتى فى الأيام التى يقومون فيها بعمليات الاغتيال، ومن المدهش أننا نراه وهو يروى أنه كان يحضر فى الجامعة درس الأستاذ الذى كان مقرراً أن يقوم باغتياله فى اليوم نفسه :

«كنت أنا أحد الطلاب الذين يستمعون إلى المحاضرة الأخيرة التى ألقاها المستر روبسون فى القانون المدنى قبيل ظهر اليوم الذى قررنا إنهاء غطرسته فيه» .

«كان روبسون يتكلم مالئًا شدقيه بألفاظه الأعجمية الكريهة وأنا أرقبه فى شىء من الأسى خالطه السخط الذى كان يحتدم فى قلبى، انتهت المحاضرة وخرج روبسون إلى ملاقاة القدر الذى يكمن له فى الطريق، ووقفت أنا على باب مدرسة الحقوق، ووقف محمود عثمان مستندًا إلى دراجته على الرصيف عند التقاء شارع المدرسة بشارع الجيزة المؤدى إلى الكوبرى الإنجليزى، وهو كوبرى الجلاء الآن» .

«وبعد دقائق أقبل روبسون شامخًا كأنه يتحدى القدر ويتحدى الموت ويقول له : اخرج لى فى ميدان القتال كما كان يقول لنا نحن الطلبة المصريين، وأعطيت إشارتى السريعة إلى محمود عثمان مشيرًا بأصبعى إلى روبسون فامتطى محمود عثمان دراجته وسبق بها دراجة روبسون وأعطى الإشارة المتفق عليها للمنفذين كى يستعدوا لملاقاة البريطانى الشامخ العتيد، وبلغ روبسون النقطة التى كمن له فيها القدر ووقف عندها الموت، وهناك كان يختفى أخى عبد الحميد عنايت واضعًا يده على زناد مسدسه، عندما واجه روبسون عبد الحميد انقض عليه وأطلق عليه عيارين أصاباه فى ظهره» .

«عندئذ سقط روبسون عن دراجته، ونسى ابن الإمبراطورية التى لا تخرج من مصر إلا بحد السيف، أطلق روبسون حنجرته تدوى بالاستغاثة من آلام الجراح الهائلة، جاءته الإغاثة فى مثل لمح البرق، جاءته فى ثلاث رصاصات أطلقها إبراهيم موسى على رأس الإنجليزى الجريح» .

«وغرق روبسون فى بركة من الدم، قفز أعضاء المنظمة إلى سيارتهم وتواروا عن الأنظار ومات المستر روبسون فى اليوم التالى وهو على سرير المستشفى، وهدأت بذلك نفوسنا وقرت عيوننا بنجاحنا الجديد، وجاءت ثمرة النجاح بأسرع مما كنا نتوقع، فقد أصدرت وزارة المعارف قرارًا بتعيين قاض مصرى مدرسًا بالحقوق بدلاً من المستر روبسون لتدريس القانون المدنى باللغة العربية» .

ولا يفوت عبد الفتاح عنايت أن يدلنا على الآثار الطبيعية فى مثل هذه الأحوال وهى :

«. . . كان المستر براون مراقب وزارة الزراعة صديقًا للمستر روبسون الفقيد، فما سمع بمصرعه حتى انتابه الذعر وخشى أن يكون أجله هو أيضًا قد حان فبادر إلى تقديم استقالته من عمله بالحكومة المصرية ورحل بعد أيام قلائل إلى إنجلترا، حذا حذوه كثير من الموظفين الإنجليز وشغلها بدلاً منهم موظفون مصريون».

. . . .

وبالإضافة إلى هذا يتحدث عبد الفتاح عنايت عن محاولات إلقاء القنابل.

(١٩)

أما الحادث الأخير أو الحادث الذروة فى مسار نشاط عبد الفتاح عنايت ومجموعته الفدائية فهو حادث مقتل السردار الذى كان أحد النقاط الحاسمة فى التاريخ المصرى الحديث، ونحن نقرأ فى مذكرات عنايت ما يصور به ملامح الدور الذى قدر له أن يقوم به فى هذه العملية الجبارة، ومن الجدير بالذكر هنا أن رواية عبد الفتاح عنايت لا تقدم التفصيلات التى قدمها عبد العزيز على عن قصة التاكسى الذى أقل القائمين بهذه المحاولة، وعن أن رقم هذا التاكسى قد عرف، وأن صاحبه قد قبض عليه وألقى فى المعتقل وعرض عليه الكثيرون من المشتبه فيهم فأصر على أنه لا يعرف منهم أحدًا، وأنه بقى فى المعتقل حتى توفى:

«وفى اليوم الموعود المتفق عليه الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤م، خرجت من كلية الحقوق متجهًا إلى مكان الحادث، فوقفت أمام وزارة الحربية ومعى دراجتى، كانت مهمتى إعطاء الإشارة بضرب النار عند ظهور السردار، ووقف شقيقى عبد الحميد عنايت بشارع قصر العينى على مقربة من المنفذين، وكانت مهمته إلقاء قنبلة على مَنْ يحاول القبض على المنفذين أو عرقلة أحد منهم عند الهرب، وجلس محمود راشد فى السيارة المعدة لتهريب الفاعلين فى أول شارع سعد زغلول».

«ووقف إبراهيم موسى وعلى إبراهيم وراغب حسين عند تقاطع شارع إسماعيل أباظة مع شارع قصر العينى عند محطة الترام، فى مواجهة وزارة المعارف (وزارة التجارة حاليًا)، وكانت الساعة الثانية بعد ظهر الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤م، حين

خرج صاحب الفخامة السردار من مكتبه بوزارة الحربية [سبق لنا أن نبهنا إلى أن هذا المقر هو الآن مقر وزارة الإنتاج الحربى] وارتجت له جنبات الوزارة وخرج الحرس مناديًا : «كراكون سلاح» ، ثم استقل فخامته السيارة وإلى جانبه ياوره» .

«وما إن تحركت السيارة حتى أعطيت الإشارة إلى المنفذين ، فلما بلغت المكان الذى ربض فيه زملاؤنا المنفذين انقض إبراهيم موسى بمسدسه على السردار ومَنْ معه وأفرغ فيهم عدة طلقات نارية ، ولم تقف سيارة السردار ، بل أطلق سائقها لها العنان متوجهًا إلى دار المندوب السامى بقصر الدوبارة» .

«أما المنفذون فقد تكتلوا وركضوا شاهرين مسدساتهم وهم يصرخون صرخات تثير الفزع فى القلوب ، ثم قفزوا فى سيارتهم وحاول أحد الجنود القبض عليهم فأطلق إبراهيم موسى عليه النار ، وتجمهر بعض الناس فألقى عليهم عبد الحميد عنايت قنبلة لا تنفجر إلا إذا رفع زنادها وذلك ليرهبهم ويفرقهم ، ثم انطلقت السيارة بالأعضاء إلى مكانهم المجهول» .

«أما أنا فقد ركبت دراجتى وسرت الهوينى بجانب الفاعلين ، وبينما أنا كذلك وقد شرعت سيارة الفاعلين فى السير إذا بموظف بريطانى مارٍّ على موتوسيكله بنفس الطريق يحيد ليتعقب الفاعلين فلفت نظر إبراهيم موسى إليه فأطلق عليه فورًا عيارًا ناريًا دوى خلف أذنه مما حمله على الفرار مسرعًا كالأرنب المذعور متجهًا إلى قصر النيل ليخلص حياته ، وقد سارت سيارة الفاعلين فى طريقها إلى النجاة ، أما أنا فقد رجعت مسرعًا على دراجتى إلى منزلى بحى عابدين حيث التقيت أنا وأخى» .

«وانتظرت بعد الحادث نتائج توافينا بها الصحف ، وجاءت أنباء الحادث الخطيرة تفيض بها أنهار الصحف لم يفلت أحد ممن كانوا فى سيارة السردار من الرصاص ، فقد أصيب ياور السردار المستر كاميل فى فخذه الأيسر ، وأصيب سائق السيارة بالإصابة نفسها ، أما السردار فقد أصيب بثلاثة أعيرة نارية أحدها فى الرئة اليمنى ، والثانى فى فخذه الأيسر ، والثالث فى يده اليسرى ، وأحدث العيار الذى استقر فى الرئة اليمنى نزيفًا مستمرًا قضى على حياة صاحب الفخامة سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان» .

(٢٠)

وربما كان من الضرورى قبل أن نتأمل ما يرويه عبد الفتاح عنايت عن معقبات حادث السردار أن نتأمل ما يروى به ذكرياته وانطباعاته عن حادث اغتيال قطبى الأحرار الدستوريين زهدى وعبد الرازق، وما تركه هذا الحادث فى نفسيته ووجدانه على المدى البعيد.

والواقع أن هذه المذكرات تقدم اعترافات تفصيلية بمسئولية خلية عبد الفتاح عنايت نفسسه عن قتل إسماعيل زهدى بك وحسن باشا عبد الرازق، وتشير إلى أن الهدف كان هو قتل عدلى يكن وحسين رشدى اللذين كانا على رأس مجموعة الأحرار الدستوريين التى انشقت عن إجماع الأمة على سعد زغلول والوفد، وكان أمثال عبد الفتاح عنايت من الوطنيين يرون ضرورة تأديب أمثال هؤلاء الساسة أو الزعماء وإعادتهم إلى الإجماع الوطنى حتى لا تنشأ فجوة تمكن المستعمر الإنجليزى من النفاذ منها لضرب الحركة الوطنية.

ويقدم عنايت وصفًا تفصيليًا للحادث الذى استقبل فى بعض أوساط الأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت على أنه من تدبير الوفد، بيما كان الوفد منه بريئًا:

« . . . وفى الساعة الخامسة كنا نعاين مكان الحادث أمام دار جريدة السياسة، وتفرقنا فى المكان ووقفت أنا على الرصيف المواجه للدار بينما وقف إبراهيم موسى ومحمد فهمى ومحمود عثمان وعبد الحميد عنايت على ناصية عاطفة صغيرة بجوار دار الجريدة، وكانت وقتئذ بشارع المبتديان، وفى نهاية هذه العطفة كان محمود راشد ينتظر ليتولى عملية الهرب بعد الحادث».

«وفى منتصف الساعة التاسعة انفض الاجتماع، وكان المرحومان حسن عبد الرازق باشا وإسماعيل زهدى بك أول مَنْ غادر الاجتماع، وكان أولهما طويل القامة يشبه إلى حد كبير المغفور له عدلى يكن باشا، وثانيهما يشبه فى قصر قامته حسين رشدى باشا، وكان الضوء غير كاف على دراجتى واتجهت إلى الميدان لتمييز أشخاصهما فتحركت على دراجتى واتجهت إلى ميدان السيدة، وكانت هذه الحركة هى إشارة التنفيذ المتفق عليها، ولم تمض فترة طويلة حتى انطلقت مسدسات إبراهيم موسى ومحمد فهمى

ومحمود عثمان وعبد الحميد عنايت فأردت المرحومين حسين عبد الرازق وإسماعيل زهدى وفى لحظة أخرى كان محمود راشد يجتاز بهم عطفة شارع المبتديان واستطاع أن يخرج بهم من مكان الحدث دون أن يراهم إنسان» .

(٢١)

هكذا نرى فيما يرويه عنايت حرصه النبيل على أن ينسب الخطأ فى العملية إلى شخصه هو بالذات ، فهو الذى تحرك بالدراجة فبدأت العملية ، وهو حريص على أن يقول إنه تحرك بالدراجة لتمييز أشخاص الرجلين ، لكن أمر الله كان لابد أن ينفذ ! !

وهو يردف هذه الفقرة بفقرة أخرى يؤكد فيها على أنهم لم يكونوا يقصدون قتل هذين الرجلين ، ولم يكن لهذين الرجلين حساب فى خططهما :

«وظللنا فترة طويلة بعد الحادث ونحن على يقين من أن رصاصنا أصاب عدلى ورشدى ، وكانت مفاجأة قاسية عندما انكشفت لنا الحقيقة وعرفنا الخطأ الذى وقعنا فيه ، كانت مفاجأة أدمت قلوبنا ، فما كان لحسن عبد الرازق ولا لإسماعيل زهدى حساب فيما اتفقنا عليه ، ولعل هذا الخطأ الذى وقعنا فيه هو الذى عاد بجمعيتنا إلى أغراضها وأهدافها الأولى» .

. . . .

ثم يشير عبد الفتاح عنايت من بعيد إلى ما ألمحنا إليه من أن بعض أوساط الأحرار الدستوريين ظنت الوفد مسئولاً عن هذا الحادث ، وهو الظن الذى كان كفيلاً ببدء سلسلة من حوادث الثأر ، بيد أن الحكمة سرعان ما تغلبت على الأحرار الدستوريين :

«لقد خشينا فى مبدأ الأمر نتائج مقتل حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل زهدى ، وكان أخوف ما نخافه أن يجر هذا الحادث حوادث أخرى للثأر لعضوى الأحرار الدستوريين ، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث ، ووضح للعيان أن هناك هيئة منظمة ، وأن هذه الهيئة هى التى تقوم بهذه الحوادث» .

بيد أن عبد الفتاح عنايت يعود ليتأمل الآثار التى نتجت عن اغتيال حسن عبد الرازق وزهدى، وهو يصور الأمور على نحو ما حدثت فى ذلك الحين قبل أن يسود صوت الحكمة على الجانبين : فى أوساط الضحايا، وفى أوساط عنايت وإخوانه من أعضاء الجمعية المسئولة عن اغتيال الرجلين، وهو يقول :

«أحدثت الرصاصات التى صرعت المرحومين حسن باشا عبد الرازق وزهدى بك المحامى دويًا مجلجلاً تجاوبت أصداؤه فى أرجاء مصر من أقصاها إلى أقصاها، ولبثنا نحن نرقب نتائج خطئنا ونتساءل : ياترى ماذا كان حدث لو أننا صرعنا عدلى ورشدى وهما أكبر الزعماء المنشقين على سعد ذلك الحين؟» .

«وهبت صحف الأحرار الدستوريين تكافح عن حزبها وتنذر أعداءه بالويل والثبور وعظائم الأمور، ترجف بما يوشك أن يحيق بالبلاد من نزاع دموى مسلح متهور لا يبعد أن يفضى إلى حرب أهلية يركب كل فريق فيها رأسه طلبًا للثأر وردًا للعار . أثارت هذه الزوبعة الصحفية غبارًا أخفى وراءه رعبًا شديدًا استبد بالمنشقين على الوفد، من رصاصات مسدساتنا التى كانت تنطلق باسم الله والوطن فى كل اتجاه تهب منه ريح خيانة مصرية ذميمة، أو طغيان أجنبى بغيض، وكان الغبار الذى اختفى وراءه المنشقون شعارًا شفافًا يهتز من الخوف اهتزازًا يفض العواطف التى تجيش فى صدور التابعين وراء الستار» .

. . . .

ونأتى إلى فقرة خطابية تعبر عما كان يغمر عبد الفتاح عنايت وإخوانه من حماس لنجاح الحادث فى تهديد الانشقاقات(!!!) :

«وأيقن المنشقون أن هناك جماعة فدائية تراقب فى يقظة جميع الطوائف على اختلاف نزعاتها السياسية، وتعطى كل طائفة جزاءها الأوفى باسم الوطن، وفى سبيل الوطن لا باسم فرد، ولا فى سبيل حزب أو غاية من الغايات التى تستهدفها الحركات المنحرفة عن سواء السبيل» .

وسرعان ما يستطرد عنايت إلى ما توصل إليه هو وزملاؤه من ضرورة قصر رصاصهم على أعداء الوطن لا على أبنائه :

«ومع ذلك فقد ملأ نفوسنا أسى أننا أرقنا دماء مصريين مثلنا ، وحز فى صدورنا أننا أزهقنا بأيدينا بعض نفوس مواطنينا الذين نقاتل ، زيادًا عنهم ، ونلقى بأيدينا إلى التهلكة فى مخالب الأسد البريطانى الكاسر ، وقررنا بعد هذا الحادث أن نعود إلى خطتنا الأولى ، وأن نجعل همنا كله تلك الشرذمة من الطغاة الأراذل الذين أذلوا المصريين واستكبروا فى أرضنا كأنهم أصحابها ونحن عبيد نعمل لهم فيها» .

(٢٣)

ويبدو أن هذه العقيدة قد استقرت فى نفس عبد الفتاح عنايت من ذلك الحين ، حتى إننا نراه يبدى أسفه لمقتل الساسة الوطنيين الذين فقدوا أرواحهم عن طريق الاغتيال بعدما خرج هو من السجن فى ١٩٤٤م ، ومن الجدير بالملاحظة أنه فى أساه وأسفه لا يفرق بين مَنْ صوروا زعماء وطنيين وبين مَنْ صوروا عملاء أو أصدقاء للاستعمار ، وبين مَنْ صور مسئولاً عن دائرة الإرهاب ! :

« . . . وقد ملأ قلبى الأسف والأسى بعد خروجى من السجن عندما سمعت بمقتل أمين عثمان وأحمد ماهر والنقراشى والشيخ حسن البنا ، وأنهم لقوا مصرعهم على أيدى إخوان لهم فى مصريتهم ؛ وذلك لأننى أعتقد أن تطاحن الآراء واختلافها يفيد أكثر مما يضر القضية المصرية ، وأن من مصلحتنا أن نبقى على الآراء المختلفة وألا نبيدها من الوجود ، وفى استطاعتى أن أضرب لذلك مثلاً ، ماذا كان يحدث لو أنه كان فى الإمكان كتم رأى الوفد الذى يعبر عن رأى الأغلبية فى مشروع صدقى - بيفن ؟» .

(٢٤)

ونعود إلى أحداث عام ١٩٢٤م حيث نجد عبد الفتاح عنايت وهو يراجع نفسه ويبدى أسفه للنتائج السلبية لمقتل السردار ، وهو فى تعبيره عن مشاعره فى تلك الفترة يحاول أن يوفق بين المشاعر العاجلة التى أحدثها النجاح فى العملية ، والمشاعر التالية

التى أدركت حقيقة خطورة النتائج كما يعبر أيضًا عما أدركه طوال فترة سجنه من حقائق الصراع والتاريخ :

«كان لمصرع السردار دوى هائل بمصر والسودان وبريطانيا ، أصبح هينًا علينا بعد أن جرأنا [يقصد : جرؤنا] على قتله أن نقتل أى بريطانى آخر مهما عظم قدره» .

«وقد ذعر الإنجليز ذعرًا بالغًا من هذا الحادث وأصبحوا يخشون خياله ، حتى إن حكمدار العاصمة رسل باشا ، ذلك الرجل المتغطرس كان إذا ما سار فى الطريق راكبًا سيارته وهى منطلقة فى أقصى سرعتها يتلفت يمنة ويسرة كأنه عصفور خائف من نبال الصياد ، ولقد شاهدت ذلك بعينى ، إذ رأيته مرة فى ذلك الوقت وهو يمر بسيارته على كوبرى قصر النيل يتلفت يمينًا ويسارًا زائغ البصر كأن زبانية الجحيم يوشكون أن يختطفوه» .

«وصدرت الأوامر إلى الإنجليز بعدم السير على أقدامهم فى الطرقات ، وأن يكون انتقالهم فى عربات خاصة على أن يجلس إلى جوار كلٍّ منهم جندى مدجج بالسلاح ينظر فى كل اتجاه ليمنع كل محاولة تقتل الإنجليزى الذى يحرسه» .

«وهكذا أصبح الإنجليز فى مصر كأنهم فى ميدان قتال ليلاً ونهارًا ، وعلمناهم كيف يخافون المصريين ويحترمونهم» .

(٢٥)

ويوازن عبد الفتاح عنايت بين النتائج التى كانوا يتوقعونها ، والنتائج الفعلية التى جاءت على عكس ما كانوا يتوقعون ، ربما يظهر من سياق هذه الفقرة أن هذا الجزء من المذكرات لم يكتب إلا حوالى عام ١٩٥٠م أو فيما بعد ذلك بقليل :

«كان مصرع السردار أكبر عمل قمنا به يهز أركان الطغيان البريطانى الجاثم فوق صدر الوادى من منبع النيل إلى مصبه» .

«وبقينا أيامًا ننتظر نتائج هذه الغزوة التى قمنا بها فى سبيل ما كنا نراه خدمة للوطن ، وكنا نعتقد أن مصرع صاحب الفخامة سيملأ قلوب الإنجليز رعبًا وسيحملهم على

التسليم بدون قيد أو شرط بجميع ما يطلبه المصريون من الجلاء الناجز والوحدة، وهو المطلب الذى مازال المصريون بعد ربع قرن يلحون فى استنجازه من الحلفاء المخلصين والضيوف الكرام الذين يحتلون مصر والسودان».

«وكان سعد زغلول فى ذلك الوقت رئيسًا للحكومة الشعبية الأولى، وفى ظلال حكمه قمنا بعملنا المتواصل الذى سحق رءوس صفوة مختارة من الإنجليز فى مصر».

«وجاءت نتائج مقتل السردار على غير ما نشتهى، فقد امتلأت قلوب الإنجليز حنقًا وحقدًا، وبادروا يحكمون الوثاق على الأسير الذى يوشك أن ينطلق من أيديهم».

«ركب الفيلد مارشال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة فى موكب من الجند المدجج بالسلاح قاصدًا دار رياسة مجلس الوزراء ليقدم إلى سعد زغلول رئيس الحكومة المصرية أوقح رسالة قدمتها حكومة أجنبية إلى الحكومة المصرية».

«لم تكن رسالة وقحة فحسب، ولم تكن إنذارًا إجراميًا فقط، بل كانت خطة مدبرة من خطط القرصنة البريطانية النهازة للفرص، ودخل المندوب السامى البريطانى على سعد زغلول وهو جالس إلى مكتبه فى دار الرياسة وكان يحف بفخامة المندوب السامى ضباط شاهرين [يقصد: شاهرون] أسلحتهم وكأنهم يهددون الشيخ الزعيم بالقصاص منه جزاء مصرع السردار فى أرض مصر».

(٢٦)

يلخص عبد الفتاح عنايت بطريقته الخطة التى تمكن نجيب الهلباوى بها أن يوقعهم فى أيدى البوليس السياسى، وبوسع القارئ أن يستعرض ما لخص به عبد العزيز على الوقائع التى يتحدث عنها عبد الفتاح عنايت حيث يتميز عرضه بقدر أكبر من التفصيلات، ومع هذا فإن عرض عبد الفتاح عنايت يصور الأمر من زاوية واحد من الضحايا المباشرين، وعلى سبيل المثال فإن عبد الفتاح عنايت يفصل القول فى مسألة توريط محمود إسماعيل فى مقابلة وزير الداخلية وتصويرها للصحف على أنها كانت من أجل الاعتراف بينما لم تكن كذلك، وهو أمر لم يتناوله عبد العزيز على فى روايته:

«. . . لقد اقترح المجرم الآثم نجيب الهلباوى أن يؤتى بمحمود إسماعيل من سجن الأجانب فى سيارة يجلس فيها بجوار رسل باشا حكمدار العاصمة حتى تبلغ بهما وزارة الداخلية حيث يتفضل صاحب المعالى الوزير بمقابلة المتهم محمود إسماعيل ويوجه إليه عدة أسئلة بعيدة عن حادث السردار، تدور حول الضابط مصطفى حمدى الذى توفى فى جبل حلوان على أثر انفجار إحدى القنابل التى كان يقوم الضابط القتيل بتجريبها، ثم يأذن وزير الداخلية للمتهم بالانصراف من مكتبه بالعودة إلى مكانه بالسجن، وعند ذلك يخرج إلى مندوبى الصحف موظف كبير ويبلغ مندوبى الصحف أن محمود إسماعيل المقبوض عليه فى القضية قد أبلغ تفاصيل وافية عن حادث مقتل السردار، وأن المتهم المذكور قد استحق على هذه المعلومات المفصلة جائزة قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى هى قيمة المكافأة التى أعلنت الحكومة عنها أنها ستمنحها لمن يدلى إليها بمعلومات تساعدها على القبض على قاتل السردار وشركائه فى القضية».

«كان ذلك ينافى الحقيقة على طول الخط، وأن المرحوم محمود إسماعيل لم يبلغ، وأن الكلام فى هذه المقابلة دار حول مقتل الضابط مصطفى حمدى وحده كما أسلفنا الإشارة».

«ولكن موظفى الداخلية استطاعوا أن يحبكوا الحيلة مع المجرم نجيب الهلباوى وبلغوا بها مزخرفة براقة أمام مندوب الصحف، فما كان منهم إلا أن تلقفوها وطيروها إلى صحفهم التى نشرتها فى صدورها».

(٢٧)

ثم ينبئنا عبد الفتاح عنايت أن الغرض من هذا الخبر الكاذب الذى أذيع لم يكن الرأى العام فى المقام الأول، وإنما كان الغرض هو خداع عبد الفتاح عنايت نفسه وشقيقه على يد صديق لم يدخل الشك فيه قلبيهما بينما كان هو نفسه الذى دبر هذا التدبير حتى يدفعهما إلى الخوف على نحو ما دفعهما، وحتى يورطهما فى الهروب المهيَّأ للقبض عليهما متلبسين وبحوزتهما الأسلحة على نحو ما ورطهما:

«وفى بكرة الصباح طرق بابنا هذا الأفعوان نجيب الهلباوى وفى يده إحدى الصحف التى نشرت الأنباء عن بلاغ محمود إسماعيل».

«وجلس الهلباوى المجرم يندب سوء حظ الوطن الذى خانه أبناؤه، وفداحة الخسارة التى ستلحقه لو أن عبد الفتاح عنايت وشقيقه قبض عليهما البوليس بعد بلاغ محمود إسماعيل، وكان الهلباوى يعلم أننا عزمنا على الهرب خارج القطر إذا اكتشف البوليس أسرار جماعتنا فانتهز الفرصة ليحملنا على تنفيذ فكرتنا، وعندئذ يستطيع أن يلصق بنا التهمة الكبيرة فى سهولة بأبخث [يقصد بأبخس] الأثمان».

«وقد نجح المجرم فى تنفيذ مكيدته هذه، فما كدنا نقرأ الصحف التى نشرت النبأ ببلاغ محمود إسماعيل حتى استبدت برءوسنا فكرة الهرب على الفور خارج البلاد».

«كنت فى ذلك الوقت أهم بتناول الغداء فتركته على المائدة وهممت بارتداء ملابس للخروج، فألح علىّ مَنْ فى البيت بتناول الطعام دون أن يعلموا شيئًا عما دفعنى إلى هذا التصرف، خرجت مسرعًا بصحبتى المجرم نجيب الهلباوى، ما كنت أدرى أن هذه آخر مرة أبرح فيها بيتى قبل أن أعود إليه بعد ثمانية عشر عامًا طوالاً قضيتها وراء ظلمات السجون».

(٢٨)

ويروى عبد الفتاح عنايت تفاصيل مريرة عن الخطوات التى سارها مع الهلباوى فى سبيل توريط نفسه وشقيقه وزميلهما فى مقتل السردار دون أن يدرى أنه كان يرسم حتف زملائه بهذا الجزع المبكر الذى أبداه، ومن تصاريف القدر أن يفكر الشقيقان فى الحصول على السلاح لتأمين الهروب فيكون هذا التفكير سببًا فى توريط محمود راشد وفى زيادة توريطهما، ومن تصاريف القدر أيضًا أن يترك الشقيقان فرصة لهذا الخائن كى يرتب أوضاعه مع البوليس السياسى، ويشاء القدر أن يريهما بعض دلائل الشك حين يتركهما الرجل ساعات ويعود بعدها ليحدثهما عن لقاء مع الأمير عمر طوسون، وعما أسفرت عنه مشاورته(!!) بينما كان الهلباوى يستغل هذا الوقت فى تدبير أموره وحبك المؤامرة مع البوليس السياسى:

«وتوجهت ومعى الثعلب الماكر إلى شقيقى عبد الحميد عنايت بمدرسة المعلمين العليا، وأفضينا إليه بالأنباء الخطيرة، ثم استقللنا على الفور عربة يممت بنا شطر منزل

محمود راشد أحد الأعضاء العاملين لكى نحصل منه على سلاح ندافع به عن أنفسنا إذا ما تعرض لنا أحد فى منطقة الحدود أو غيرها خلال هربنا خارج الديار المصرية» .

«فلم يجد محمود راشد إلا المسدسات التى قتل بها السردار فأعطاها لنا وحملناها وكانت أربعة مسدسات وعدداً من الطلقات ، وأسرعنا نحن الثلاثة أخى وأنا والحية الرقطاء نجيب الهلباوى إلى محطة القاهرة فركبنا القطار إلى الإسكندرية متلهفين على مبارحة العاصمة قبل أن يجد فى أثرنا رجال البوليس ، وبلغنا الإسكندرية ونزلنا فى فندق كان اللوكاندة العثمانية لشراء الأزياء العربية التى اتفقنا على ارتدائها للتنكر فى زى الأعراب والهرب إلى الصحراء الغربية» .

«عاد إلينا بعد ساعات بلهف قائلاً : إنه قد طلب المعونة من الأمير الجليل عمر طوسون لمساعدتنا على الهرب ، لكن الأمير أفتى بأنه خير لنا ألا نبرح مصر وأن نسلم أنفسنا للحكومة المصرية ونعترف بالحقيقة لنكون شهوداً على محمود إسماعيل وشفيق منصور باعتبارنا صغار السن بالنسبة إليهما ، وأنهما وحدهما السبب فى كل ما حصل من جرائم القتل التى حلت بالإنجليز» .

«ولكنى صحت فى ذلك المجرم الذى ما كنا نعرف أنه قد تنزلت عليه اللعنات من السماء والأرض قائلا له : «إن الخير لنا أن نغادر بلادنا من أن نبقى فيها ونوقع أنفسنا وزملاءنا فى مشكلات ذات عواقب شديدة الخطورة ، صدع نجيب الهلباوى لما قلت ، أو تظاهر فى الواقع بذلك ، وخرج لشراء الأزياء العربية» .

(٢٩)

ويتكرر غياب الهلباوى عن الشقيقين دون أن يجعلهما هذا الأمر يشكان فى أمره ، وهو المفترض أن يهرب معهما إلى حيث يهربان ، أو على الأقل وهو المفترض أن ينهى مسألة تهريبهما بأسرع ما يمكن ، ويظل هذان الأخوان فى غفلتهما حتى يرى عبد الفتاح عنايت بعينى رأسه رئيس المباحث السرية وهو يسير وراء الهلباوى ويرى الهلباوى يبتعد عنه ، ومع هذا فإنهما يظلان على حسن النية الذى دفعهما إلى الهلاك :

« . . . ولكنه أطال البقاء فى الخارج فنزل شقيقى عبد الحميد وإذا به يراه سائرًا فى سرعة عجيبة ووراءه أحمد حمدى رئيس المباحث السرية ، فلما لاحظ الهلباوى أن أخى قادم عليه ابتعد وعاد صاحبنا هذا إلينا فى الفندق فسألناه عن السر الذى جعل رئيس المباحث يسير بالقرب منه فأقسم أنه لم ير هذا الرجل ، وقال إنه ربما كان يتعقبه دون أن يشعر كما يتعقب غيره من الوطنيين الثائرين» .

«وخرج الهلباوى ثانيًا ثم عاد ومعه الملابس العربية فارتديناها مسرعين وانطلقنا ومعنا أسلحتنا إلى محطة الإسكندرية متجهين إلى مرسى مطروح والصحراء الغربية ، وتحرك القطار وقد ازدحم بالأعراب وجلس قبالتى رجل غليظ الجسم يرتدى الملابس الأفرنجية» .

«وفى تيه الرمال ونحن نقطع الصحراء متجهين إلى خارج مصر العزيزة التى كافحنا فى سبيلها وقف القطار فجأة وأحاطت به صفوف متراصة من الهجانة ، ولشد ما راعنى أننى شاهدت ضابطًا إنجليزيًا يحمل مسدسًا يصوبه إلى القطار ، ثم تلاه ضابط مصرى يصحب هو أيضًا مسدسه إلى القطار الواقف فى وسط الطريق الصحراوى» .

«ومضت لحظات ثم قفز علىّ ذلك الرجل الغليظ الجسم الذى كان يجلس قبالتى وأمسك بيدى خوفًا من أن أشهر عليه السلاح ، فصرخت فيه ليرتد وإذا بأربعة من الجنود مدججين بالسلاح قد أحاطوا بى ثم قبضوا على الثعلب الماكر نجيب الهلباوى وأنزلنا من القطار محاطين بالجنود ، وبعد لحظات أنزل الجنود من القطار أخى عبد الحميد عنايت» .

«وفى برج الهجانة بالعمرية (أى العامرية) وضع كل منا فى غرفة منفردًا ، بعد قليل حضر مدير التحقيقات السياسية إنجرام بك وأخذ يستجوبنى ، وفى ظهر ذلك اليوم نقلنا من برج العمرية إلى ضواحى القاهرة ، وفى مساء اليوم استدعينا للتحقيق من جديد ، أنكرت وأنكر شقيقى كل شىء واستطعنا أن نتهرب من كثير من الأسئلة المحرجة التى تتعلق بحوادث القتل وهربنا إلى الصحراء وارتدائنا ملابس البدو ، لكن نجيب الهلباوى حضر أمامى وقال إنه اعترف بالحقيقة مرغمًا لأنه أمضى عشر سنوات فى السجن ولا يريد العودة إليه مرة ثانية ، ومن أجل ذلك آثر أن يعترف لينقذ نفسه» .

(٣٠)

ويرجع عبد الفتاح عنايت السبب فى اعترافه إلى أنه اعتمد على علمه بالقانون، وأنه طاف بمخيلته أن الاعتراف ربما يضمن تخفيف العقوبة فآثر الاعتراف، ومع أن هذا السبب الذى يذكره عبد الفتاح عنايت يبدو مقبولاً منطقيًا على الرغم من ضعفه وجدانيًا، لكننا لا نستطيع أن نحكم على نفسية رجل فوجئ بالخيانة من شريكه فى الهرب، وبخاصة لما كان يعلمه من خبرة هذا الشريك السابقة بالعمل السرى من ناحية، وبالسجن والتحقيق والاتهام من ناحية أخرى :

«فى هذه اللحظة طاف بذهنى كيف الخلاص لى ولأخى، ففكرت قليلاً وإذا بمادة القانون الجنائى ترتسم أمام مخيلتى حيث تنص على أنه : «إذا تعدد الشركاء فى القتل العمد مع سبق الإصرار والتربص تكون عقوبتهم الأشغال الشاقة»، وقد خيل إلينا أن الاعتراف على هذا الأساس سيخفف عنا وعن زملائنا الحكم» .

وهنا يعترف عبد الفتاح عنايت اعترافًا مستترًا بأنه كان سبب نيران الفتنة التى استقرت بين هؤلاء الشركاء الذين كانوا فيما يبدو لا يزالون مصرين على الإنكار :

«على هذا الأساس اشتعلت نيران الفتنة بيننا وبين محمود إسماعيل وشفيق منصور بسبب ذلك المجرم الأثيم نجيب الهلباوى الذى باعنا جميعًا للإنجليز» .

«وعندما اختلفنا وتراشقنا بالتهم ظهرت الحقائق واضحة ووقفنا نحن أعضاء الجمعية الفدائية أمام القضاء ليقول القانون كلمته فى أعمالنا» .

(٣١)

ويعود عبد الفتاح عنايت فى فقرة أخرى ليكرر ما يراه سبب اعترافه، فيقول :

« . . . ورأيت ألا خلاص لرقابنا إلا بالاستناد على نص قانونى ينص عليه قانون العقوبات الأهلى وهو : «أنه إذا تعدد الشركاء فى القتل العمد مع سبق الإصرار والتربص تكون العقوبة الأشغال الشاقة التى تتراوح ما بين عشر وخمس عشرة سنة»، فتنجو بذلك رقابنا ورقاب زملائنا التى وضعت أمام الإعدام من جراء تلك الفتنة التى افتعلها المجرم الأثيم نجيب الهلباوى» .

وهو يبدى الندم على أنه لم يكن يتصور أن يكون تطبيق القانون على نحو آخر غير الذى كان يتصوره هو :

«هذا ولم يكن يخطر ببالى أبدًا أن القضاء سوف يصل إلى تفسير آخر لهذا النص ليطوح برقاب هذا العدد من أعضاء الجمعية المنظمة نظير حياة شخص واحد» .

(٣٢)

ويعترف عبد الفتاح عنايت فى مذكراته بأن عمال العنابر الثلاثة وهم : إبراهيم موسى ، وراغب حسن ، وعلى إبراهيم لم يعترفوا مطلقًا وظلوا على إنكارهم حتى النهاية .

وهو يشير إلى أن محمود إسماعيل أنكر الاعترافات التى أدلى بها فى البداية ، وهو يلخص بطريقته ما يصور به اعترافات الهلباوى أمام المحكمة فيقول :

« . . . أخذ الهلباوى الملعون يسرد على المحكمة تفاصيل علاقته بالدكتور شفيق منصور ، وهى العلاقة التى مكنته من كشف الستار عن أسرار الجمعية الإرهابية ، ولم يخف على المحكمة علاقته بالبوليس السياسى ، فقال فى أول شهادته إن سليم زكى طلب منه البحث عن حادث مقتل السردار ، وقد استجاب الهلباوى الملعون لطلبه ، وأنه ذهب لذلك إلى مكتب الأستاذ شفيق منصور ووجد عنده عددًا كبيرًا من الرواد كان بينهم محمود إسماعيل ، وعبد الحميد عنايت ، وقال : إنه لاحظ أثناء وجوده بمكتب شفيق منصور أنه تعمد أن ينتقل إلى غرفة أخرى وأنه استدعى إليه محمود إسماعيل وعبد الحميد عنايت واختلى بهما بعض الوقت ، وأثارت هذه الظاهرة نجيب الهلباوى المجرم الكبير فنقلها إلى سليم بك زكى فطلب منه متابعة التردد على شفيق منصور ومواصلة تحرياته فى هذا الموضوع» .

«وذهب الملعون مرة أخرى إلى مكتب شفيق منصور فوجد عنده محمود إسماعيل ، وبعد أن مكثوا بعض الوقت تركوا المكتب وقبل أن ينصرف شفيق منصور مال على محمود إسماعيل وسأله : هل قبض على أحد؟ فأجاب محمود بالنفى ، وقال الهلباوى الملعون : إنه شعر فى هذه اللحظة بأن شفيق منصور بدأ يشك فى إخلاصه وبدأ يتهرب

من لقائه أو الجلوس معه، حتى إنه قال له إنه سوف يترك القاهرة ويسافر إلى بلدته بعدما استقالت وزارة سعد زغلول».

(٣٣)

ومن العجيب أننا نرى عبد الفتاح عنايت يشير إلى أن الهلباوى استدرج محمود إسماعيل فى أثناء احتسائه بعض الخمر، مع أننا نعرف أن شروط هذه الجمعية ألا يكون أعضاؤها ممن يشربون الخمر، وأن شربهم الخمر كان كفيلاً ببترهم من الجمعية!!:

«وأخذ الملعون بعد ذلك يقول إنه أخذ محمود إسماعيل وذهبا إلى إحدى المقاهى وقال له فى الطريق إنه يخشى عبد الحميد عنايت، ولم أعلق على هذا بشىء حتى جلسنا إلى المقهى وبدأ محمود إسماعيل يحتسى بعض الخمر وأخذ يسرد عليه بعض الأخبار التى عرف منها الملعون نجيب الهلباوى أن محمود إسماعيل هو كاتم أسرار الدكتور شفيق منصور، وبدأ، بعد ذلك، الملعون يتردد على عبد الفتاح عنايت لعله يصل إلى شىء».

«وتناول بعد ذلك المجرم الكبير قصة الهرب وكيف أنه وضع تفاصيلها مع سليم زكى بعد مقابلة محمود إسماعيل لإسماعيل باشا صدقى وزير الداخلية وقتئذ».

ويشير عنايت إلى أن الهلباوى كان ماهرًا فى إجابته لأسئلة الدفاع أمام المحكمة ويقول:

«واستهدف الملعون نجيب الهلباوى أثناء سرده للشهادة بسيل من الأسئلة، أسئلة الدفاع فكان يجيب عليها فى حرص واستطاع أن يؤدى مهمته أمام المحكمة بنفس الإجرام والخبث الذى أداه فى خطة الهرب!».

«لقد كانت مهمة الدفاع شاقة، وكان سبب هذا هو اعتراف أغلبية المتهمين بحادث القتل، وقد بذل رجال الدفاع (المحامون) كل ما فى وسعهم من جهد وخبرة وعلم، وصالوا وجالوا حتى خرقوا ستار السياسة الاستعمارية البريطانية، ولكن هذا كله لم يخفف من الحكم على المتهمين جميعًا، فقد صدر عليهم جميعا الحكم بالإعدام».

ومن الجدير بالذكر أن الحكم عليهم بالإعدام صدر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥م فى الساعة العاشرة صباحًا، ومن الجدير بالذكر أن محكمة النقض والإبرام أيدت حكم الإعدام.

ويحرص عنايت على أن يلخص موقفه وموقف زملائه من الاعتراف على نحو دقيق، فيقول:

«وقد اعترف بالتهمة أمام المحكمة المتهمون: ١ ـ عبد الفتاح عنايت، ٢ ـ عبد الحميد عنايت، ٣ ـ محمود راشد، ٤ ـ شفيق منصور، أما عمال العنابر وهم: ٥ ـ إبراهيم موسى، ٦ ـ راغب حسن، ٧ ـ على إبراهيم فقد ظلوا على إنكارهم حتى النهاية، ٨ ـ أما محمود إسماعيل فقد بلغ واعترف أولاً، ثم أنكر بعد ذلك لعدم إمكانه إثبات التهمة على المتهمين».

(٣٤)

ويستحضر عبد الفتاح عنايت من ذاكرته نصيحة كان أحد أصدقائه وهو فهمى غنيم قد قدمها له بما يدل على أنه كان واعيًا لما يمكن أن يحدث، حتى على الأقل بنصح الأصدقاء، وهو ما جعله يبدأ فى الانهيار ثم الاعتراف عندما علم باعتراف محمود إسماعيل:

« . . . حتى قال لى صديق يدعى فهمى غنيم، كان طالبًا بالحقوق بالفرقة النهائية: «أنتم قد أصبحتم فى خطر»، فكان جوابى عليه ما يأتى: «إنه لو اجتمع قواد العالم أجمع ليثبتوا هذا الحادث علينا أنا وشقيقى لما أمكنهم بأى حال من الأحوال إلا إذا تقدم أحد الشركاء إلى الحكومة وبلغ عن الفاعلين طمعًا فى المكافأة التى قدرتها الحكومة لذلك وهى مبلغ عشرة آلاف جنيه. ففى هذه الحالة يثبت علينا الحادث وترى مختلف ضروب الشدائد التى يتقول بها صديقى حيث كان يقول: «استعد من الآن لمواجهة مختلف ضروب العقوبات من إعدام، إلى نفى، إلى سجن، إلى تشريد»، فقلت له: «على أتم استعداد لكل أنواع العقوبات وإلى اللقاء»، وبالفعل لم أره بعد ذلك إلا بعد مضى ما يقرب من ربع قرن من الزمان وهو يعمل الآن مستشارًا بالمحاكم حيث فاضت بيننا الذكريات وكللتنا سحابة من الإخلاص الصادق، والود المتين».

(٣٥)

هل لنا بعد هذا الاستعراض المرتب لدور عبد الفتاح عنايت وخليته فى حوادث الاغتيال السياسى التى واكبت ثورة ١٩١٩م أن نعود إلى بداية هذه المذكرات لننقل عن صاحبها ما يحرص على أن يشير إليه من أن الزعيم محمد فريد نفسه كان حريصًا على أن يسهم بجهده فى تشجيعه للفدائيين وتمويله لهم :

«بهذه المناسبة نتقدم بذكرى الأبطال المكافحين فى ذلك العصر السابق على عام ١٩١٧م، ذلك العصر الذى كان يقوده الزعيم محمد فريد، وفى طليعتهم الأستاذ خليل مدكور، الذى كان يعتبر سكرتيرًا خاصًا له بجنيف، عاشره فيها مدة سبع سنوات (من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩١٩م)، ومن طريف ما يروى عن حوادث ذلك العصر الغريبة أن المغفور له محمد فريد كان أكبر مؤيد لحركة الفدائيين، وكان يمدهم بكل نوع من أنواع المساعدة، مادية كانت أو أدبية، حتى أنه عند مروره لزيارة هؤلاء الفدائيين كان يوزع عليهم المسدسات داخل العلب على أنها ساعات سويسرية بصفة هدايا، وذلك تشجيعًا لهم وتأييدًا للحركة الفدائية».

. . . .

بل إن عبد الفتاح عنايت يذكر بكل وضوح أن محمود مظهر الذى حاول اغتيال الخديوى عباس حلمى كان من أتباع الجهاز السرى الذى كان الزعيم محمد فريد نفسه(!!) يقوده :

«فى ذلك العصر قام الفدائى محمود مظهر الطالب بالطب، بإطلاق النار على الخديوى عباس حلمى الثانى بسبب تواطئه مع الإنجليز فى مختلف نواحى الحياة، وكان ذلك سنة ١٩١٤م، وكان مظهر أحد أعضاء الجهاز السرى الذى كان يقوده الزعيم محمد فريد، وكان ذلك فى الأستانة بعد سفر الخديوى عباس إليها قبيل الحرب العالمية الأولى».

(٣٦)

بل إن عبد الفتاح عنايت حريص أيضًا على أن يمتد بنشاط (أو جذور) المنظمة الفدائية التى انتمى إليها إلى عام ١٩١٠م أو ما قبله، وهو يقول :

«تطورت هذه المنظمة الفدائية وشنت غاراتها العنيفة الدامية فى عام ١٩١٠م على يد البطل إبراهيم ناصف الوردانى، ثم استمرت فى كفاحها الفدائى العنيف حتى عام ١٩٢٢م حيث قامت على أساسها الجمعية الفدائية التى كافحت الظلم والاستعمار البريطانى ثلاثة أعوام متتاليات، من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٥م».

. . . .

وهو يروى تفصيلات شبه دقيقة عن نشأة جماعتهم الفدائية، وهى تفصيلات موحية نفهم منها أنه كانت له ولشقيقه عبد الحميد اليد الطولى (أو الأولى على الأقل) فى إنشاء هذه الحركة:

«. . . هنالك على ربوة من ركن جبل المقطم اجتمعنا أنا وشقيقى عبد الحميد عنايت، والخل الوفى الأمين محمود عثمان، اجتمعنا والخشونة تدب فى أضلعنا، والإيمان بالله وبالعقيدة يسرى فى دمائنا، والجرأة والإقدام يفتحان لنا الطريق للإتيان برائع الأعمال».

. . . .

(٣٧)

ونحن نرى من نصوص عبد الفتاح عنايت فى هذه المذكرات أن الوطنية كانت وحدها كفيلة بأن تقود هؤلاء فى سرعة بالغة إلى إنشاء حركة فدائية أو حزب فدائى دون أن تنشب مناقشات أو مجادلات أو صراعات بين وجهات النظر.

وفى روايته يصل عبد الفتاح عنايت بسرعة إلى وصف هذه الحركة التى اتفقوا على تأسيسها فيقول إنها كانت «حزبًا فدائيًا»:

«. . . يقوم على شكل حلقات خماسية تتفرع من الحلقة الرئيسية التى تعتبر جذعًا للشجرة، بدأنا بغرس هذه الشجرة وهى الحلقة الرئيسية ونحن محوطين [يقصد: محاطون] بسياج من الهمة والإقدام، بل وبوق الرهبة يتهيأ لإزعاج رجال الجالية البريطانية فى مختلف أنحاء الديار المصرية، شكلنا الحلقة الرئيسية من [خمسة] أعضاء

لتكون أساسًا لعدة فروع ثورية فى مستقبل الأيام، وبناء عليه كان لا بد لنا من عضوين آخرين يتممان الحلقة الخماسية الرئيسية، فوقع اختيارنا على صديق لنا يدعى محمد فهمى، ووقع اختيارنا عليه ليكون مندوبًا عن حزب العمال، كما وقع اختيار العضو محمود عثمان على صديق له بالمدارس الثانوية، ثم قر رأينا أخيرًا على الاجتماع فى مكان خلوى لتقرير العمل الواجب اتباعه إزاء تلك الحالة».

هكذا يصف عبد الفتاح عنايت شكل تنظيمهم دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى النموذج السابق عليهم الذى اهتدوا به فى اختيار هذا التنظيم، ومن الواضح أن شكل الحلقات الخماسية لم يكن من ابتداعهم، كما أننا نرى أن هذه الحلقات لم تتعد عددًا قليلاً قام بالاغتيالات على نحو يتسم الكفاءة والمقدرة:

«وفى منتصف يناير سنة ١٩٢٢م عقدت لجنة الحزب الرئيسى اجتماعها لأول مرة فى حديقة النزهة بقصر النيل المقام بجانبها الآن مجلس قيادة الثورة، وهنالك اجتمعنا نحن الخمسة الأعضاء لوضع نظام متين لهذه الهيئة لا يمكن بتره إلا إذا قضى القضاء بذلك».

(٣٨)

ويشير عبد الفتاح عنايت إلى التطور الذى أصاب جماعتهم هذه بعد لقائهم بشفيق منصور الذى عرفهم بالتالى على محمود إسماعيل ويسر لهم الحصول على السلاح:

«. . . لم تمض على ذلك فترة حتى التقينا بالأستاذ شفيق منصور المحامى، وكان قد عاد من منفاه بجزيرة مالطة، إذ كان متهمًا فى قضية سياسية خطيرة، [هى] تلك القضية التى حكم عليه بالنفى إلى جزيرة مالطة، فلما وضعت الحرب أوزارها عاد الأستاذ شفيق منصور ومَنّ معه من منفاه، حضر إلينا بالمنزل لتعزيتنا فى شقيقنا الأكبر محمود عنايت، ثم استمر الحال على ذلك حتى عرضت عليه فى يوم من الأيام نظام الهيئة الخماسية ذات الشعب الخماسية التى أنشأناها فحبذها تمام التحبيذ».

«طلبنا على أثر ذلك السلاح فأظهر لنا استعداده التام، حيث عرفنا بشاب يدعى محمود إسماعيل كان ضابطًا بالبحرية المصرية، وأمينًا لأسراره، فدار الحديث بيننا

نحن الثلاثة على كيفية الإمداد بالسلاح، وانتهى الأمر بأن يحدد ميعادٌ للمقابلة مع محمود إسماعيل فى جزيرة الروضة لنتسلم أول قطعة من السلاح القاتل».

«فما أشرقت شمس نهار ذلك اليوم حتى قمت بهمة فقابلته فى طرف الجزيرة البحرى على شاطئ النيل حيث استلمت منه أول مساعدة بالسلاح، فكان هذا السلاح هو بريق الأمل فى ميدان العمل، وفاتحة الجهاد الصحيح، والصراع العنيف. أجل لم يمض يومان على ذلك حتى كان السلاح فى يد مندوب حزب العمال ويدعى محمد فهمى، وذلك لحفظه حتى تحين الفرصة للعمل. كان محمد فهمى هذا قد أنشأ حلقته الفرعية ويتصل بها بطريق غير مباشر عن طريق إبراهيم موسى أحد زعماء العنابر، ذلك الذى كان على جانب كبير من الجرأة والإقدام، بل فردًا قل أن يكون له نظير».

(٣٩)

ونحن نرى عبد الفتاح عنايت بعد عشرين صفحة من هذا الموضع يعود، فى رواية أخرى أو فى سرد آخر لمذكراته، إلى منشأ علاقتهم بشفيق منصور فيرويها على نحو لا يختلف كثيرًا عن الرواية السابقة:

«... لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها أفرج عن شفيق [منصور] وعاد إلى مصر بعد أن أمضى فترة طويلة فى مالطة، ودفعه الوفاء إلى زيارتنا لتعزيتنا فى شقيقنا الأكبر، وبدأ يتردد بعد هذه الزيارة علينا ويجلس معنا نتناقش فى أمور مصر السياسية، وقد لمست فيه الحماسة والقوة على رغم هدوءه وسكونه، وأفسحت له من صدرى ووجدت نفسى أعرض عليه تفاصيل ما اتفقنا عليه، والخطط التى اعتزمناها، والمشكلة التى تواجهنا، مشكلة الحصول على السلاح، وهمس شفيق فى أذنى أنها مشكلة سهلة بسيطة يسيرة، وتعهد هو بإمدادنا بالسلاح الذى نريده ونطلبه، وجاءنا شفيق منصور ومعه أحد أصدقائه، كان ضابطًا بالبحرية المصرية هو محمود إسماعيل، وتداولنا نحن الثلاثة فى مشكلة السلاح وكيف نحصل عليه، وانتهت جلستنا على أن يمدنا محمود إسماعيل بأول قطعة منه، وحدد لنا ميعادًا لنذهب لاستلامه منه، وفى الميعاد ذهبت إلى طرف جزيرة الروضة البحرى على شاطئ النيل، قابلت محمود إسماعيل وسلمنى

أول قطعة من السلاح الذى كنا نطلبه ونبحث عنه، ونقلت البشرى إلى زملائى أعضاء الحلقة الرئيسية، اتفقنا على تسليم السلاح لمحمد فهمى مندوب العمال ليحفظه فى داره أو فى أى مكان آخر، بشرط أن يكون مسئولاً عنه».

«وفى هذه الأثناء كان محمد فهمى قد أنشأ حلقته الفرعية وأسند رئاستها إلى إبراهيم موسى، أحد زعماء عنابر السكة الحديد، وكان إبراهيم موسى - رحمه الله - على قدر كبير من الشجاعة والجرأة والإقدام، وعندما رأيته وتعرفت به ووجدت فى صورته وخلقته تلك الصورة التى رأيتها فى سليمان الحلبى قاتل القائد كليبر الفرنسى الذى خلف نابليون فى مصر، ومن ثم أصبح إبراهيم موسى اليد الفعالة فى جمعيتنا الأهلية».

(٤٠)

ويشير عبد الفتاح عنايت إلى أن المنظمة الفدائية التى تكونت على يده ويد شقيقه سرعان ما تطورت وتغير أعضاؤها، ونحن نلاحظ حرصه على عدم ذكر العضو الرابع فى مجموعتهم الأولى، وهو العضو الذى رشحه زميلهم محمود عثمان:

«. . . تكونت هذه اليد الفعالة التى كانت تبطش بالإنجليز بطشًا ذريعًا من خمسة أعضائهم:

«عبد الفتاح عنايت، وعبد الحميد عنايت، ومحمود عثمان، وصديق له، ثم محمد فهمى مندوب العمال، لكن حدث بعد ذلك تغيير فى بعض الأعضاء؛ لأن البعض منهم عندما حضر أول حادث ورأى روعة إطلاق العيارات النارية بعين رأسه تنحى عن الاشتراك ثانية فى هذه الأعمال، قل هو محمود عثمان وصديقه، وكلاهما كان طالبًا بالمدارس الثانوية».

«فاستبدل عضو جديد بمحمود عثمان يدعى محمود راشد، كان موظفًا بمصلحة التنظيم، [وكان] رجلاً طاهر الذيل بمعنى الكلمة، كما استبدل بصديقه العامل إبراهيم موسى، وهو عامل، بل زعيم من زعماء العنابر، فأصبحت اليد الأصلية التى كانت تتفرع منها بقية الأيدى مكونة من:

(١) عبد الفتاح عنايت الطالب بكلية الحقوق .

(٢) عبد الحميدعنايت الطالب بكلية المعلمين .

(٣) محمد فهمى مندوب حزب العمال .

(٤) إبراهيم موسى الزعيم بالعنابر .

(٥) محمود راشد الموظف بالتنظيم (بدلاً من محمود عثمان وصديقه)» .

(٤١)

ويلخص عبد الفتاح عنايت بعبارات تبدو دقيقة ، وربما بالغة الدقة الطريقة التى تم بها تقسيم العمل الفدائى على أفراد هذه المجموعة ، ونحن نكاد نفهم من قراءة هذا التقسيم أن هذه المجموعة كانت هى كل التنظيم تقريبًا ، فليس هناك من الوظائف الظاهرة ما يقتضى وجود أشخاص آخرين يعاونون هؤلاء فى مهمتهم التى وزعت عليهم بدقة شديدة :

« . . . كانت مهمة الأول منهم (أى عبد الفتاح عنايت) إعطاء الإشارة بضرب النار ، والثانى (أى عبد الحميد عنايت) إعطاء الإشارة السلبية بعدم ضرب النار ، وذلك عند مشاهدة أى خطر يهدد القائمين بالعمل ، والثالث والرابع (أى محمد فهمى وإبراهيم موسى) لتنفيذ ضرب النار ، والخامس (أى محمود راشد) لاستحضار السيارة وإعدادها لهروب الفاعلين مع الجلوس بداخلها حتى يستغلوها بعد التنفيذ حيث تبعد بهم عن محل الحادث ، وكان هذا العضو الخامس ـ وهو محمود راشد ـ اختصاصيًا فى تجهيز السلاح : فى حله ، وتنظيفه ، وتركيبه ، ثم إخفائه فى مكان يعجز على العفريت الوصول إليه بعقر داره ، ألا وهو حلق الباب ، فكان هؤلاء الخمسة هم الذين يبطشون فى الحوادث بمساعدة غيرهم من أعضاء الحلقات الفرعية» .

(٤٢)

بعد هذا ، فمن الجدير بالتأمل والدراسة أن نعود خطوات إلى الماضى الأبعد وأن

نقرأ ما يرويه هذا الثائر القديم عن بذور التمرد التى صادفها هو نفسه مبكرًا حين واجه واقعة ضربه بالكرباج فى وزارة المعارف وهو لا يزال طالبًا فى المرحلة الثانوية :

«فى عام ١٩١٩م شبت نيران الثورة المصرية ، حيث كنت طالبًا بالمدرسة الخديوية ، فاشتركت مع الطلبة فى جميع حركاتهم حتى حلت سنة ١٩٢١م فكنت مناديًا على ملأ من الطلبة بسقوط وزير المعارف توفيق رفعت فى صعيد المدرسة ، كان معى آخرون اشتركوا معى فى الهتاف ، وذلك عند زيارة وزير المعارف للمدرسة يهدد الطلبة ويتوعدهم الرفت من المدرسة إذا ما اشتركوا فى أية مسألة سياسية ، فعرفنى أحد الضباط من بين الهاتفين حيث أبلغ إدارة المدرسة ، استدعيت على أثر ذلك إلى ناظر المدرسة حيث سألنى فأنكرت كل ما قد حصل ، ثم أرسلت فى اليوم الثانى إلى وزارة المعارف مع نفس الضابط المبلغ فاستحضرنى أمام الوزير حيث وجه إلىّ عدة أسئلة فى نفس الموضوع فأنكرت وتحرج مركز الضابط ، وإنما ظهر للوزير أنه لاداعى لادعاء الضابط علىّ هذا الادعاء الباطل بدون أى مسوغ ، فأيقن بأنى فاعلها ، حيث هددنى بالتقديم للمحاكمة بتهمة القذف فى شخص معالى الوزير ، إلا أنه لحداثة سنى قدمنى للعقوبة المدرسية حيث حبست بالمدرسة نحو أسبوع ، ثم ما مضى مدة وجيزة على ذلك حتى استدعيت بغتة من حجرة الدراسة وأخذت إلى حجرة بمعزل عن المدرسة حيث جلدت عشر جلدات بعصا غليظة أمام ناظر المدرسة وهيئة ضباط المدرسة ، وعلى أثر ذلك أبلغ الطلبة بما قد حصل ، ولما كان ذلك يتنافى وقانون ونظام المدرسة ثار الطلبة وأضربوا عن بكرة أبيهم محتجين على استعمال الكرباج بين جدران المدرسة ونحن فى القرن العشرين ، ولم يمض يومان على ذلك حتى هدأت المدرسة وعادت المياه إلى مجاريها» .

«تحصلت بعد عامين من هذا الحادث على شهادة التوجيهية حيث تهيأت للدخول فى مستوى الحياة العملية ، تفتحت عيناى للحياة المقبلة ، وقد امتلأت بالمطامع والآمال» .

(٤٣)

ويتضح من سطور هذه المذكرات أن صاحبها على الرغم من كل ما عاناه لايزال

مصراً على عقيدته فى أهمية الكفاح المسلح فى تحرير الوطن، وهو على سبيل المثال يقول فى صفحة ٣٩ :

« . . . وخرجت من هذا الموقف بحقيقة واحدة، هى أن الإنجليز بقوا فى مصر بقوة السلاح، إنهم أذلوا كبرياء المصريين بقوة السلاح، وإنهم استطاعوا أن يبسطوا عنجهيتهم على المصريين بقوة السلاح» .

«ومن هذه الحقيقة برزت حقيقة أخرى، وهى أن لا شىء فى الوجود يحفظ للمصريين كرامتهم وكبرياءهم إلا مقابلة الفعل بالفعل» .

. . . .

وفى مواضع كثيرة من كتابه يستحضر عبد الفتاح عنايت من ذاكرته بعض ما شهده من صور تدل بوضوح على مدى القسوة واللاإنسانية فى إذلال البريطانيين للمصريين :

« . . . وأشهد أنى رأيت فى أحد هذه الأيام شباب مصر الناهض النقى وهو يرغم على أكل روث الخيل والبهائم أمام محافظة مصر، كان يأكله وهو مهدد برصاص الضباط والكونستبلات الإنجليز، بل لقد شهدت مصرع أربعة من المصريين الثائرين وهم يقتلون ضربًا على جماجمهم بمؤخرات بنادق الإنجليز» .

وهو يحدثنا عن صورة أخرى من صور الإذلال والتعسف فيقول :

«إن كثيرين من شباب مصر الثائرة فى عام ١٩١٩م لقوا حتفهم وهم يربطون من شعورهم فى ذيول الخيل ينطلق بها صولات الإنجليز بين صفوف المتظاهرين، وفى المعتقلات والسجون وأقسام البوليس، لقى المصريون صنوفًا وألوانًا من التعذيب والتنكيل على أيدى الضباط والصولات والكونستبلات الإنجليز لا يمكن أن تتخيلها البشرية» .

. . . .

وربما كان من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن عبد الفتاح عنايت افتتح كتابه بمشهد يصور مدى حنق والده مهندس الرى على الإنجليز بسبب تصرفاتهم المذلة للمصريين .

(٤٤)

ويحرص عبد الفتاح عنايت فى مذكراته على الاستطراد إلى الحديث عن موقف الضباط المصريين من غطرسة البريطانيين، وهو يوازن بين طرازين من المواقف الوطنية وغير الوطنية :

«وأحب بهذه المناسبة أن أسجل موقف الضباط المصريين من هذه الحوادث، فقد كانت لهم مواقف وطنية مشهورة مع الثوار والمتظاهرين، وقد كان من رأيهم التخلى عن وظائفهم لينزلوا مع المصريين فى ثورتهم، لكنهم عدلوا عن هذه الفكرة بعدما أدركوا نتيجة هذا العمل، وهو سيطرة الإنجليز التامة على البوليس المصرى، وهم يستطيعون وهم فى مناصبهم أن يكشفوا خطط الإنجليز، وأن يخففوا من قسوتهم وغطرستهم».

«وليس معنى هذا أن أنفى عن بعضهم ما اتهموا به وما ارتكبوه من فظائع دفعتهم إليها نفوسهم الصغيرة التى تاقت إلى التشبيه برؤسائهم الإنجليز، والجرى وراء مطامعهم الشخصية التى ما كانوا ليصلوا إليها قبل أن يصلوا إلى رضاء الإنجليز».

(٤٥)

والواقع أن مذكرات عبد الفتاح عنايت مع تركيزها على العمليات الفدائية ومقدماتها ومعقباتها، لا تخلو من لمحات روحانية، ومن طرائف هذه المذكرات أن نرى صاحبها مؤمنًا بالبركة التى تحول بين صاحبها وبين أن يناله أذى نتيجة مشاركته فى الأعمال الفدائية، ونحن نرى هذا المعنى واضحًا حين نقرأ له ما يثنى به ثناء خاصًا على الحاج محمد قطب زعيم العمال :

« . . . بهذه المناسبة نذكر الحاج محمد قطب زعيم عمال العنابر، بل الزعيم المشرف على إبراهيم موسى، ومحمد فهمى معول الجهاز السرى».

«هذا الرجل المبروك الذى عمته البركة من أصبع القدم إلى الهامة السوداء حتى حفظته طوال هذه المدة من أى مساس بشخصه، فهو الوحيد فى هذا الجهاز السرى

الذى حفظه الله من العقوبات على اختلاف درجاتها، حتى إنه لم يحبس يومًا واحدًا، والسر فى ذلك تلك البركة التى تعم شخصيته، وتلك الأخلاق النقية الطاهرة عديمة النظير فى بلادنا».

«كان الحاج محمد قطب ينظم إضراب عمال عنابر السكة الحديد أيام ثورة سنة ١٩١٩م، بشكل منقطع النظير، حتى ضجت الحكومة وضج الإنجليز من هذا النظام العجيب الذى وضعه هذا الزعيم وهيمن به على معول الجهاز السرى الرائع الذى يتمثل فى إبراهيم موسى، ومحمد فهمى».

(٤٦)

ويضرب عبد الفتاح عنايت مثلاً على القدرات الخارقة للحاج محمد قطب حين أملى دروس القوة بقوة القنابل الفاتكة بأرواح الجنود البريطانيين وهزأ بها من تغطرس الإنجليز الذين حاصروا منطقة روض الفرج وفرضوا حصارًا عسكريًا محكمًا، وغرامات على أهل ذلك الحى:

«وها هو حادث عجيب ساهم فيه هذا الزعيم للعمال، وهو أنه على أثر إطلاق النار على مدير العنابر بالسكة الحديد فى حى روض الفرج أنزل الإنجليز به قوة عسكرية لمحاصرة المنطقة، وفرضوا على كل منزل به غرامة حتى يصرحوا لأهله بالخروج، ثم أقاموا حول هذه الفرقة العسكرية المعسكرة فى خيامها سورًا يبلغ ارتفاعه حوالى ٣ أمتار، هنالك تم الاتفاق بين الحاج محمد قطب وإبراهيم موسى وثالث يدعى محمود عبد الغفار على إلقاء ست قنابل يدوية داخل هذا السور بكلوب السكة الحديد».

«هنالك حمل كلٌّ من الثلاثة قنبلتين، حمل الثالث منهم ثلاثة عيدان قصب اشتروها لمصها بعد الحادث مباشرة ليتستروا على فعلتهم هذه».

«هنالك ألقى كلٌّ منهم قنبلته داخل السور من الخارج، وإذا بالست قنابل تنفجر جميعها وتفتك بعدد كبير من الطغاة الإنجليز».

«على أثر ذلك أمسك كلٌّ من الثلاثة عوده القصب وسار يمص فيه على طول

الطريق، فهل يعقل أن من يرمى قنبلة تطمئن نفسه إلى مص القصب على طول الطريق، أظن هذا أمر لا يعقله إنسان».

«هكذا كان زعماء العمال يتفننون فى وسائل التستر على الحادث بعد ارتكابه، إلى هذا الحد وصل ذكاؤهم، واشتعلت وطنيتهم، فطوبى لهم طوبى».

(٤٧)

هل لنا أن ننتقل الآن بعد كل هذه الفقرات التى تصور الحياة باضطرابها واضطرامها إلى الحديث عن تجربة عبد الفتاح عنايت فى السجن الطويل، وهى التجربة المريرة فى حياة هذا الفدائى العظيم الذى قضى فى السجن فترة تفوق أية فترة أخرى قضاها أى وطنى آخر.

ونحن نلاحظ أن ذكريات عبد الفتاح عنايت عن السجن تبدو جامعة بين أوراق كتبها فى زمن الأربعينيات وما قبله، وأوراق أخرى كتبها فى حدود الستينيات، ومع هذا فإن القارئ لمذكرات هذا الرجل يستطيع أن يدرك بوضوح ما يقصده عبد الفتاح عنايت مما سجله فى هذه المذكرات أيًا ما كان تاريخ هذه المذكرات.

ونحن نرى عبد الفتاح عنايت يلخص رأيه فى محنة السجن بطريقة إيجابية تميل إلى الوعظ، مشيرًا إلى فضل السجن فى تقوية شخصية الإنسان وتوطيد النفوس والهمم، وخلق عناصر الرجولة، لكنه مع كل هذا لا يخفى معاناته من الآثار الصحية السيئة التى يخلفها السجن فى نفوس المعاقبين به:

«. . . قررت أنه يتنافى مع الصحة على خط مستقيم، هنالك ينام السجين نومة البهائم لا يحميه عن الأسفلت إلا نسيج من الحبال (البرش) لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يحفظ الأجسام من رطوبة الأسفلت التى تنفذ فى الحديد، فما بال الآدمى المخلوق من لحم ودم، ولاشك أنها تسبب له أشد الأمراض الفتاكة؛ وذلك لأن الرطوبة هى رسول الأمراض المزمنة الخطيرة المعتبرة خطرًا على الحياة، لذلك قلما يخرج من السجن سجين إلا وهو مصاب بمرض مزمن».

(٤٨)

ويحاول عبـد الفتاح عنـايت أن يستـدعى ذكرياته عـن أول أيامـه فى السجـن فلا يستحضر من هذه الذكريات إلا رفضه الشديد للعمل فى فرقة الجمالة بما كان يراه فى العمل من إذلال بالغ لإنسانيته :

«بمجرد نزول ع . ع . أرض ذلك الجبل الهائل ، سمع أنه لا بد من النزول إلى سفح الجبل والاشتغال فى أول الأمر به ، وأن يكون الشغل بفرقة الجمالة قبل الانتقال إلى أية فرقة أخرى ، فبمجرد أن سمع كلمة «جمالة» اعتقد تمام الاعتقاد أنه سيقود جملاً يحمل الأطفال طوال النهار ، والواقع الذى فهمه بعد ذلك أن شخصه ـ والعياذ بالله ـ هو الذى سيكون جملاً يحمل الأحجار طوال النهار ، فهاله الأمر واشتد به الذعر قائلاً فى نفسه : هل أكون بهيمة فى يوم من الأيام ، تالله إنه لأمر محال» .

ولهذا السبب ، فإننا نرى عبد الفتاح عنايت شبه ممتن للمعاملة الخاصة التى عومل بها فى السجن من بعض الوطنيين الذين قدروا جهاده وتضحيته ، وفى هذا نلمح فى إحدى فقرات كتابه قوله :

«وتالله لو كان كاتب هذا قد عومل بين جدران السجن بنفس المعاملة التى يعامل بها غيره لكان قد هلك فى ظرف ثلاثة أيام» .

(٤٩)

ويروى عبد الفتاح عنايت قصة إصابته بالحمى المالطية ونجاته من الموت بهذه الإصابة ، على الرغم من أن الموت حصد أرواح رفاق السجن الستة الذين كانوا مصابين بهذه الحمى :

« . . . بعد استبدال حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وبعد دخولى لليمان تسعة شهور أصابتنى حمى قرر البحث الطبى أنها الحمى المالطية ، فأحلت على مستشفى الحميات بالليمان نفسه ، ويخدم معى ستة مساجين من سجن طرة مصابين بالحمى المالطية نفسها ، وكانوا معى فى غرفة واحدة» .

«ولقد شاهدت هؤلاء المرضى الستة يحتضرون أمامى الواحد بعد الآخر، فكان منهم مَنْ يقفز ليلاً فى ساعة العشاء من سريره ويجرى ويهلوس ثم يطب فكانت الطبة الأخيرة، ومنهم مَنْ كان قد ضعفت قوته فلا يستطيع القيام من السرير فيحتضر أمامى وهو راقد على سريره».

«توفى جميع المرضى الستة الذين كانوا معى فى الغرفة إلى رحمة الله، فانتظرت دورى فى الوفاة؛ لأنى كنت السرير السابع فى الغرفة، وإذا بالحمى المالطية تنتكس، تلك الحمى التى لا ينجو منها إلا واحد فى المائة، قرر الدكتور فى الخارج لدى التمارجية أنه لا أمل فى شفائه، استمر المرض يرعى جسدى حتى أصبحت عند القيام صباحًا لا أستطيع السير على أقدامى حتى أصل لدورة المياه، وكان الألم يلازم أقدامى بعد المغرب حتى أنام، فلما أبلغت الدكتور بذلك قال لى: لقد برأت من الحمى، قلت: وكيف؟ قال لى: لأن الحمى المالطية تخرج من جسم المريض بروماتيزم مفصلى من الأقدام».

«فاندهشت كل الاندهاش ثم قرر لى دواء للحمى ودواء للروماتيزم وآخر لفتح الشهية، ولم يمض على هذه الأدوية أسبوعان من العلاج حتى شعرت بالانتعاش وتقدم الصحة، ولقد فتحت شهيتى للأكل بشكل لم يسبق له نظير، فلم يمض علىّ شهران ونصف بالمستشفى حتى عدت إلى نفسى تمامًا، وقوى يقينى، وتوطد إيمانى بالأجل المحتوم قائلا: لك أجل ممدود رغم كل الظروف القاسية الفتاكة، وشأن آخر فى الحياة».

وهو يسترجع مشاعره فى تلك اللحظة حريصًا على أن يبدو مفعمًا بالأمل فيقول لنفسه:

«لقد فلتت [يقصد: أفلتت] من الإعدام شنقًا، ثم فلتت [يقصد: أفلتت] من الإعدام مرضًا، إذن لك شأن آخر فى الحياة!».

(٥٠)

كذلك يقص علينا عبد الفتاح عنايت قصة أزمة القلب التى حاقت به فى ليلة من ليالى السجن، ومن العجيب أننا نراه يتأثر بهذه الأزمة حتى يصل إلى الاعتقاد فى أنه

فقد الحياة ثم عاد إليها عندما أحس بتوقف قلبه، لكنه فى هذه الفترة القصيرة التى توقف معها قلبه رأى كثيرًا من مستقبله وهو يمر أمامه كشريط سينمائى منبئ عن المستقبل:

«فى ذات ليلة بعد تناول العشاء بسجن طرة بغرفة ملاحظة الدكتور، وبينما نحن أنا وبعض الزملاء السياسيين المحكوم عليهم نتكلم عن حالة البلد السياسية، وإذا بأزمة صدرية [هكذا يقول صاحب المذكرات وهو دقيق وصادق فى وصفه؛ لأن الألم القلبى يكون فى الصدر، ولهذا فإن وصفه هكذا يدل على الحقيقة] اعترتنى كاد يقف القلب معها، فقلت لهم: ياجماعة يظهر لى أننى سأنتهى هذه الليلة، وهذه كلمتى إليكم قبل مفارقة الحياة وهى: «إن الاستقلال الذى تكافحون من أجله لن يمكن تحقيقه إلا بالجيش والقوة الحربية التى تحمى هذا الاستقلال، فأرقدونى، وإذا بى أشاهد الموت كيف ينزل بالإنسان».

وهو يصف لحظة الموت وصفًا لا يمكن لأحد منا أن يتحقق منه، بيد أن وصفه يتطابق مع الوصف الذى يصوره الذين مروا بمثل تجربته، وهو وصف جامع لمزيج من المنطق والإحساس والتهيؤات الذهنية:

«تنسحب الروح من الأطراف، أعنى من الأذرع والرجلين منسحبة إلى القلب حيث تتركز فى سنترال [يقصد: مركز] الروح وهو القلب، ثم يبدأ القلب يختلج، كما تختلج الفرخة الذبيح، يدق دقتين أو ثلاث ثم يسكت، يدق ثلاث أو أربع دقات ثم يسكن، وإذا به يسكت سكتة نهائية حيث تفيض الروح من الفم والأنف حيث تصعد إلى أعلى بشكل تدريجى لتخرج من أول نافذة تقابلها، حصل كل ذلك بينما كان الشيخ شافعى البنا ماسكًا بيدى ليرى النبض، فعندما وقف النبض وقفة نهائية تشهد قائلاً: «أشهد ألا إله إلا الله وإنا لله وإنا إليه راجعون»، وتشهد معه مَنْ حوله من الحاضرين، معنى ذلك أن دقت ساعة الموت».

(٥١)

ويذكر عبد الفتاح عنايت أنه بعد أن مرّ بتجربة الموت حرص على أن يبدأ فى تعلم

الألمانية اهتداء بما رآه فى لحظة مفارقته الحياة من أنه سيتعلم لغة لم يكن له عهد بها، والواقع أن ما دفعه إلى اختيار الألمانية كان وجود شقيقه عبد الخالق فى النمسا لدراسة الطب، وقد ذكرنا من قبل أن عبد الفتاح عنايت كان حريصًا على ألا يشير إلى علاقة هذا الشقيق بالحركة الوطنية مع أننا، كما ذكرنا من قبل، نجد فى نصوص عبد العزيز على ما يفيد بأن هذا الشقيق كان له (مثل أشقائه الثلاثة محمود وعبد الحميد وعبد الفتاح) دور فى الحركة الوطنية حتى إن السلطات الأمنية احتجزته فى مصر طيلة وجود الملك فؤاد فى جولة فى أوروبا خوفًا على الملك فؤاد:

«أرسل الله لى بين جدران الليمان شابًا روسيًا من سنى فكان حوالى العشرين سنة، وكان أبوه روسيًا وأمه ألمانية، فكان يجيد اللغتين الروسية والألمانية، وقد أحضرته الحكومة مقبوضًا عليه من المكسيك؛ لأنه كان قد قتل اثنين من كونستابلات السفارة البريطانية، وعندما استحضر إلى مصر حكمت عليه محكمة الجنايات المصرية بالأشغال الشاقة المؤبدة، حيث أرسل إلى طرة. هناك أخذ يتناقش معى حتى عرفنى واتفقنا معًا على أن نسكن غرفة واحدة نحن الاثنان ومعنا فرد ثالث حديث السن ليقوم بخدمتنا، وبالفعل عرضنا الأمر على ضابط السجن فحاز القبول وقمنا بتنفيذه فورًا، وذلك حتى يمكننا أن نحيا حياة علمية مرضية».

«هنالك صممت على تعليم اللغة الألمانية حتى يمكننى أن أتراسل مع أخى الدكتور الموجود بالنمسا، فبدأت أنطق المحادثات اليومية باللغة الألمانية بالتدريج مع زميلى فى السجن شيئًا فشيئًا، وعندما كنت أخطئ كان يصلح لى الخطأ، بعد أن تمرنت على المحادثات اليومية استحضرنا كتاب الأجرومية من الخارج وكان باللغة الإنجليزية واللغة الألمانية، وبدأت أكتب إلى أخى الدكتور بالألمانية، ثم درست كتاب الأجروميه ثلاث مرات، ثم أمكننى أخيرًا أن أكتب خطابًا باللغة الألمانية إلى شقيقى الدكتور بالنمسا، عندما عرضته على الرجل الألمانى الذى كان معنا اندهش وأعجب به».

(٥٢)

ونأتى إلى نقطة تحول مهمة فى حياة هذا الفدائى، وهى نجاحه فى إتمام دراسته للحقوق بينما كان فى السجن.

والواقع أن عبد الفتاح عنايت يشير إلى فضل الدكتور محجوب ثابت فى دفعه إلى أداء امتحان لسيانس الحقوق وهو فى السجن، ونحن نعرف من مذكرات أخرى كمذكرات الدكتور محمود كامل (التى تناولناها فى كتابنا: «فى رحاب العدالة») أن طلاب الحقوق كانوا يزورون السجون وأنهم كانوا فى زيارتهم يمرون بعبد الفتاح عنايت، وها هو عنايت نفسه يدلنا على أن هذا المرور كان بسبب حرص الدكتور محجوب ثابت على زيارته، وأن إحدى هذه الزيارات كانت سببًا فى اقتراح الدكتور محجوب ثابت عليه أن يدخل امتحان الليسانس، وذلك لما رآه من شغله نفسه بالعلم حتى تعلم اللغة الألمانية:

«كان الدكتور محجوب بك ثابت طبيب أول جامعة القاهرة يزور الليمان فى كل عام مع طلبة الدكتوراه بكلية الحقوق للاطلاع على نظام الليمان وكيف تطبق الأشغال الشاقة على المساجين، فبعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦م أفرج عن جميع السياسيين المحكوم عليهم ما عدا شخصى، كان من عادة محجوب بك ثابت أن يسأل عنى فى كل زيارة يزورها لليمان، فى هذا الظرف تقدم لى هو وطلبة الدكتوراه وحيونى مصافحين باليد، وإذا بى أفاجئه بعبارة: «كيف حالك . . كيف صحتك» باللغة الألمانية، فاندهش الرجل قائلا: أين تعلمت اللغة الألمانية؟ هل سافرت ألمانيا؟».

«فقلت له: «لا . . كيف يمكننى أن أسافر ألمانيا وأنا مسربل بالحديد، وإنما تعلمتها هنا فى السجن من شاب روسى يجيد اللغتين الروسية والألمانية، علمته اللغة الإنجليزية وعلمنى اللغة الألمانية»، فقال لى: هل يمكنك أن تمتحن فى ليسانس الحقوق؟ هنالك فى تلك اللحظة اعترتنى دهشة، فسكت حوالى دقيقة من الزمن فقال لى: رد السؤال، وإذا بى أعود إلى نفسى قائلاً: «نعم يمكننى الدخول فى امتحان الليسانس، ولقد حفظت كتب القانون عن ظهر قلب وفى حاجة إلى كتب الشرح»، فقال لى: فكرة تعرض على مجلس الجامعة».

«وبعد انصرافه اتجه إلى مدير الليمان محفوظ بك ندى وعرض عليه فكرة الليسانس فأخذته الدهشة قائلاً: «وكيف يمكن لمسجون مسربل بالحديد أن يؤدى امتحان الليسانس، خصوصًا وقد مضى عليه حوالى ١٦ عامًا بالسجن؟ وكيف يمكنه أن يلم بتلك الكتب الكبيرة التى لا يستطيع الطليق دراستها كما يجب؟»».

(٥٣)

وها نحن مع عبد الفتاح عنايت نرى بعض مظاهر المعاملة الحسنة التى عامله بها المسئولون عن السجون لما علموا بنيته التقدم للامتحان، حتى إنهم نقلوه إلى سجن مصر ليكون قريبًا من الجامعة، ونقلوه إلى حجرة بها سرير وكرسى، كما أن مدير السجن أهداه ساعة وريشتين:

«ثم إذا بمدير الليمان فى الصباح المبكر يأتى قاصدًا إياى بمصنع النسيج حيث يقول: هل يُعقل أن يدخل مسجون محكوم عليه بالأشغال امتحان الليسانس خصوصًا وقد مضى عليه ما لا يقل عن ١٥ عامًا بالسجن؟ هذا أمر غير معقول بالكلية، وإن هى إلا أضغاث أحلام».

«فكان ردى عليه هو الآتى: تسمح لى بالكلام بكل صراحة، أنا لم أذق السقوط فى الامتحانات إلا مرة واحدة وكنت فى هذه السنة أخجل من مقابلة أقاربى وأصدقائى خوفًا من سؤالهم لى: أنجحت فى الامتحان؟ فيكون ردى عليهم رسبت، هذه السنة التى ذقت فيها الرسوب وكنت أخجل من مقابلة معارفى علمتنى بل عاهدت نفسى بعدها ألا أدخل أى امتحان إلا وأنا واثق من نفسى تمام الثقة، وكان عمرى ما بين ١٥ سنة و١٨، فهل يعقل أن أدخل الامتحان اليوم بعد أن أصبح عمرى ٣٢ سنة دون أن أكون واثقًا من النجاح فيه؟ هذه هى طبيعتى، وبناء عليه لن أدخل امتحان الليسانس إلا بعد استحضار كتب الشرح لمختلف القوانين المقررة علينا ودراستها دراسة كاملة، وعندما أصبح واثقًا من نفسى أتقدم إليكم لتأدية الامتحان».

....

«وبعد الدراسة خمسة شهور كنت على استعداد تام لتأدية امتحان الليسانس، فقال لى: إذن نبلغ الجامعة بذلك، وفعلاً تقرر نقلى إلى سجن مصر للذهاب من هنالك إلى الجامعة مباشرة لتأدية الامتحان، وفى هذه المناسبة طلبت ساعة يد لمعرفة مواعيدى بالضبط فقدم لى السيد المدير ساعة يد هدية منه إلىّ، وريشتين للكتابة، فشكرته على مكارم أخلاقه، ثم نقلت إلى سجن مصر فى صباح اليوم التالى حيث أعدت لى غرفة انفرادية فى أول عنبر، وبها سرير وكرسى، فكنت عندما أشرع فى المذاكرة ليلاً لمراجعة

دروسى وأجلس على السرير تأخذنى سنة من النوم فآليت العهد على نفسى ألا أذاكر إلا وأنا جالس على الأرض على ما يقال له البرش، وهو سجادة صغيرة مصنوعة من الليف، فكنت أسهر عليه ليلا حتى الساعة الثانية من منتصف الليل».

. . . .

«عندما أتممت الامتحان تحريريًا وشفويًا إذا بهدية تقدم إلى من الأسرة بطريق المفاجأة وهى صندوق جاتوه كبير مكتوب عليه: نجحت فى الليسانس وأنت الثانى فى الترتيب»، فتصور إلى أى حد كانت الفرحة، فقد كدت إذ ذاك أطير من الفرحة وألمس سقف الغرفة التى كنت فيها».

(٥٤)

لهذا السبب ولغيره من الأسباب لا نجد عجبًا فى أن يأتى الدكتور محجوب ثابت فى مقدمة الشخصيات التى تثنى هذه المذكرات عليها، وهو لا يشيد بأخلاقه ونبله فحسب، لكنه يشيد بوعيه وفهمه لما ينبغى على النخبة عمله من أجل النهوض بروح الشعب فى طريق الاستقلال والتقدم:

«كان أول مَنْ نادى بإحياء الروح العسكرية فى البلاد هو ذلك الرجل العظيم الذى عمل على إحيائها إلى النفس الأخير من حياته».

. . . .

«. . . لقد آمن محجوب بأنه لن تقوم لأمة قائمة حتى ينهض شبابها يذود عنها، ويدفع عن حياضها، ويقيم على مر الأيام صرحًا عالى البنيان قوامه الوطنية، ودعامته التضحية وإنكار الذات، آمن محجوب بهذه الفكرة دعا لها وطالب الشباب باعتناقها».

. . . .

«وما شرعت وزارة الدفاع سنة ١٩٣٩م فى تعميم التدريب العسكرى بين شباب الجامعة حتى كان له مرشدًا ومنيرًا وبطلاً مجاهدًا بالرغم من كهولته . . . !».

«. . . كان رحمه الله شعلة وطنية، وجذوة عسكرية تبعث الحماس فى قلوب أبنائه وتدفعهم إلى التدريب العسكرى بذلك الروح القوى، والإقبال المنقطع النظير، وكان يرتدى بينهم البدلة العسكرية بالرغم من وصوله إلى سن السبعين، هنالك كانوا يلتفون حوله فى سمت الجندية كالبدر تحيط به النجوم اللوامع».

«وكان يعمل جنبًا إلى جنب مع حضرات الضباط المخصصين للتدريب العسكرى فى الجامعة ومعاهد التعليم، كأنما نشأ جنديًا منذ نعومه أظفاره، هذا هو ما يؤيد قوله بأن العسكرية والوطنية أمران متلازمان منذ أن خلق الله الأرض ومَنْ عليها».

(٥٥)

ويحرص عبد الفتاح عنايت على أن يروى تأثره بتولستوى وأفكاره فى الفترة التى قضاها فى السجن، ومع أننا نرى فى مثل هذا التفكير نوعًا من الزهد الاضطرارى فإننا لا نستطيع أن ننكر أن مثل هذا التوجه ينم عن رغبة فى التسامى لا يتمكن منها إلا الذين رضوا بقضاء الله وقدره، وبدءوا يتأملون فيما مضى من حياتهم وما بقى منها:

«. . . الفيلسوف تولستوى الذى هام ع.ع. [هكذا كان عبد الفتاح عنايت يعبر عن نفسه فى بعض الفقرات] بدراسة حياته، حيث درس قسطًا وافرًا منها فى كتابين خرج منهما مزودًا بمختلف التعاليم والمبادئ التى تفيض منها بحور الإنسانية».

«هناك وطد العزم على أن يحيا حياة ذلك الرجل من كل الوجوه، وأن يعتمد مثله على الطبيعة فى كل شىء، فى غذائه. . فى دوائه. . فيما تخرجه بنات أفكاره».

(٥٦)

وينفرد كتاب المذكرات الذى نشره عبد الفتاح عنايت بتقديم قليل من الملاحق التى كتبها زملاؤه فى الكفاح الوطنى، ومن هذه النصوص نص مهم لعبد الحميد الشواربى يتحدث فيه عن واقعة ذهابه على رأس مجموعة من زملائه لدفع الأمير محمد على توفيق إلى مؤازرة الحركة الوطنية ببيان مكتوب نشرته جريدة «الأخبار» لصاحبها أمين

الرافعى، ومع أن البريطانيين أنذروا الأمير لسحب هذا البيان وإنكار توقيعه عليه، فإن أمين الرافعى رد عليه بأنه وقع على البيان الذى كتب بخط سكرتيره:

«. . . فذهبت على رأس وفد من مندوبى طلبة المدارس الثانوية إلى قصر محمد على بالمنيل، والذى حولته ثورة سنة ١٩٥٢م المباركة إلى فندق عمر الخيام [عاد اسمه ليكون قصر محمد على]، وحملناه على تصريح يعاهد فيه الله ورسوله أن ينضوى وسائر الأمراء تحت لواء الثورة، وأن يقاطع الإنجليز، فكتب له سكرتيره الخاص أحمد مختار تصريحًا ضمنه ما أمليناه عليه ووقعه الأمير بإمضائه، وقدمنا التصريح إلى جريدة الأخبار فنشرته حرفيًا، وما كادت الجريدة تظهر حتى اتصل قائد القوات البريطانية بمصر جون جرانفيل مكسويل بالأمير وأوعده بأن طرادًا إنجليزيًا ينتظره بمياه الإسكندرية إن لم يكذب هذا التصريح، لكن نفوذ الطلبة كان يفوق نفوذ الإمبراطورية الإنجليزية، فحاول الأمير أن يخفف من وقع التصريح على الإنجليز فأرسل للجريدة يقول: «إن ما جاء بالتصريح غير مطابق لرغبات الأمير»، ولكن أمين الرافعى الصحفى الكبير رد عليه بأن الطلبة أخذوه بخط سكرتيرك وتوقيعك».

* * *



الباب الثالث : شيخ الفدائيين

مذكرات أحمد رمضان زيان



(١)

أحمد رمضان زيان اسم له وزنه ومكانته فى التاريخ المصرى الحديث، كان له دوره البارز فى الحركة الوطنية منذ بداية القرن العشرين وحتى عام ١٩٥٢م، وكان المهتمون بالعمل السرى وعشاقه يعرفونه جيدًا ويضربون به المثل فى قوة الأعصاب، وصدق التوجه، وقد جمع إلى هذين الخلقين البارزين خلقًا ثالثًا لا يقل أهمية لرجال العمل الوطنى السرى، وهو إنكار الذات، وقد ظل هذا الرجل، على حد وصف صبرى أبو المجد، «قابضًا على شفتيه أكثر من ستين عامًا لم يتكلم فيها أبدًا، لا عن نفسه، ولا عن زملائه الذين شاركوه عبء الكفاح الوطنى»، وقد احتفظ بهذه السياسة طيلة عهد الرئيس عبد الناصر الذى لم يكن ليرحب بمثل هذه الأحاديث لسبب معروف.

وقد نجح صبرى أبو المجد فى أن يحصل منه على مذكراته وأن ينشر بعضها فى مجلة «المصور» على حلقات متوالية، وإن كان قد أعطى رقم الحلقة الثالثة لحلقتين متتاليتين تمثلان الثالثة والرابعة:

الحلقة الأولى: ١٠ مارس ١٩٧٢م.

الحلقة الثانية: ١٧ مارس ١٩٧٢م.

الحلقة الثالثة (الأولى): ٢٤ مارس ١٩٧٢م.

الحلقة الثالثة (الثانية): ٣١ مارس ١٩٧٢م.

الحلقة الرابعة: ٧ أبريل ١٩٧٢م.

الحلقة الخامسة: ١٤ أبريل ١٩٧٢م.

ثم توقف النشر بعد هذه الحلقات الست.

(٢)

ويبدو لى أن وصول أنور السادات إلى الحكم، ثم استقراره فيه بعد قيامه بحركة ١٥ مايو التصحيحية، وهو واحد من رجال العمل السرى، كان بمثابة أكبر مشجع لإقبال أحمد رمضان زيان وأضرابه على نشر مثل هذه المذكرات المهمة.

ونحن نعرف من هذه المذكرات ومن غيرها من المصادر أن أحمد رمضان زيان كان واحدًا من خمسة شكلوا بالإسكندرية أول مجموعة للكفاح المصرى تستهدف إخراج الإنجليز من مصر بقوة السلاح، وأنه أيضًا كان واحدًا من جماعة لعبت دورًا خطيرًا فى الحرب الطرابلسية الإيطالية، وقدمت للمناضلين الليبيين المال والسلاح والخبرة. ونعرف أيضًا أنه كان من أوائل الذين اهتموا بالتنظيمات العمالية فأنشأ بالإسكندرية عام ١٩١٢م نقابة عمال الصنايع اليدوية التى تضم الحرفيين، وأصبح رئيسها منذ عام ١٩١٣م، وقد زاد عدد أعضاء النقابة عام ١٩١٨م حتى وصل ١٦ ألف عضو، كان كثير منهم من أصحاب الأدوار المهمة فى ثورة ١٩١٩م.

وعلى مستوى الاغتيالات السرية، فقد كان أحمد رمضان زيان واحدًا من جماعة حاولت اغتيال السلطان حسين لأنه قبل أن يعتلى العرش بناء على قرار ممثل التاج البريطانى فى مصر، كما أنه شارك مشاركات فعالة فى عدة محاولات أخرى، وبعبارة موجزة فإنه كان القاسم المشترك الأعظم فى كل حدث سياسى مهم وقع بمصر منذ بدأ النشاط السرى فى ١٩١٠ وحتى ١٩٥٢م.

وقد كان أحمد رمضان زيان من أوائل الذين حوكموا مع مطلع ثورة ١٩١٩م بتهمة قلب نظام الحكم، وقضى عليه بالسجن ثلاثة أعوام [وإن كان الأستاذ صبرى أبو المجد فى تقديمه للمذكرات يشير إلى أنها أربعة أعوام]، وهو يروى أن ثروته التى كانت تقدر بما يزيد على ١٠٠ ألف جنيه قد ضاعت بسبب هذا الاعتقال والسجن.

(٣)

يشير صبرى أبو المجد إلى أنه تعرف على الحاج أحمد رمضان زيان عندما تم القبض عليهما فى قضية مقتل أحمد ماهر سنة ١٩٤٥م، وتوطدت الصلات بينهما،

وعقب الإفراج عنهما فى تلك القضية المهمة أتيح لأبو المجد أن يعرف الكثير من الجوانب المهمة فى شخصيته المصرية الأصيلة، ويصور صبرى أبو المجد مكانة أحمد رمضان زيان فى جيله فى قصة صحفية طريفة تصور المفارقة بطريقة بسيطة فنيًا!! وذلك حيث يقول:

«كان تاجرًا من تجار الإسكندرية، يعمل فى صمت وصدق، ويومًا ما وجد البوليس يحيط بمتجره فى وكالة الليمون فلم يهتم، فما أكثر المرات التى أحاط بها البوليس متجره تمهيدًا للقبض عليه، ولكنه بعد دقائق وجد أن أعين البوليس تختلف فى هذه المرة عنها فى المرات السابقة، لقد كانوا سعداء هذه المرة، وكانوا يسبقون وزير التموين الذى رأى أن يزور صديقه التاجر بوكالة الليمون، وكالعادة أسرع البوليس ليحافظ على النظام، ويستقبل التاجر المتواضع صديقه وزير التموين، ويخلى له مكانه حيث جلس الوزير أمام مكتب التاجر، وجاءت القهوة وفرح عمال المحل فرحًا لا يوصف؛ لأن تجارتهم ستزداد ورزقهم سينمو، وأرباحهم ستتكاثر وتتضاعف حتمًا بزيارة وزير التموين، وبعد القهوة همس التاجر المتواضع فى أذن وزير التموين قائلاً: «ألم نتفق جميعًا على ألا يتولى أحدنا الحكم ما دام فى مصر جندى أجنبى واحد؟»، وحاول الوزير أن يرد لكن التاجر المتواضع (الحاج أحمد رمضان زيان) لم يقبل المناقشة مع وزير التموين فى ذلك الموضوع الحيوى».

«وافترق الصديقان اللذان جمعت بينهما صداقة نصف قرن مختلفين، ولم تعد العلاقات الودية بين الوزير والتاجر المتواضع إلا يوم أن ترك الوزير كرسى الوزارة فاعتبر الحاج أحمد رمضان ما فات فى ذمة التاريخ».

(٤)

ويشير صبرى أبو المجد إلى ملاحقته لأحمد رمضان زيان من أجل نشر مذكراته، وإلى أن الرجل نفسه كان معنيًا بتسجيل المذكرات، وأنه عانى من أجل هذا التسجيل الذى كان حريصًا على أن يكون أمينًا فيه، وهو يقدم وصفًا صادقًا للمعاناة التى يحسها مَنْ يحرصون على صدق ما يكتبون:

«كان الحاج أحمد رمضان زيان يسوف باستمرار، فلقد كتب مذكراته أكثر من مرة، ولم يتح للحاج أحمد رمضان فرص الاحتفاظ بهذه المذكرات، كتبها أول مرة فى ١٩٢٢م يوم أن خرج من سجن الحضرة بعد أن نفذ فيه حكم محكمة عسكرية إنجليزية انعقدت بقسم محرم بك، وقد صادر البوليس هذه المذكرات يوم أن وقع الاعتداء على سعد زغلول بمحطة مصر بالقاهرة سنة ١٩٢٤م، حيث فتش منزله، ومحله التجارى، واعتقل هو والشيخ عبد العزيز جاويش وآخرون، ثم عاد إلى كتابة هذه المذكرات مرة أخرى عقب الإفراج عنه فى تلك القضية ورأى أن يقسم مذكراته إلى أجزاء متعددة، وأن يضع كل جزء فى مكان أمين، ثم ألقى القبض عليه عام ١٩٤٥م عقب مصرع أحمد ماهر، وتمكن البوليس من القبض على مذكراته كلها، وكانت المرة الثالثة التى كتب فيها أحمد رمضان زيان مذكراته عام ١٩٦٥م وكان يكتبها ببطء شديد، فلقد جاوز الثمانين من عمره [ربما يقصد أن يقول قارب الثمانين لأن الرجل كما ذكر بنفسه ولد عام ١٨٨٧م] وأوشكت الثمانون بما بها من أحداث كبيرة وخطيرة أن تؤثر على الذاكرة، وكنت كلما لقيته بالإسكندرية أسأله: «إلى أين وصلت؟ فكان يقول: لم أنته منها بعد، إننى أشعر برهبة قوية وأنا أمسك القلم، لم أكن أشعر بها يوم أن كنت أحمل المسدس والقنبلة. إن مسئولية الكتابة عن بعض الأحداث التاريخية جسيمة للغاية، وأنا لا أريد فيما أروى إلا الحق والصدق، ثم انقطعت عن زيارة الحاج أحمد رمضان زيان بعد أن أغلق المحل التجارى بسبب المرض، وأوى إلى بيته فى سيدى بشر، وفى ٢٢ نوفمبر ١٩٧٠م تلقيت منه خطابًا أسعدنى للغاية، فقد قال فى خطابه إنه انتهى من إعداد مذكراته من ١٩٠٦ إلى ١٩٥٢م».

(٥)

يلخص أحمد رمضان زيان تاريخ حياته المبكرة، مشيرًا بدقة أبناء الثمانين إلى ما يرونه سبباً فى تكوينهم الوطنى المبكر، وهو يقول:

«ولدت فى يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٧م، وما إن كبرت حتى أدخلنى والدى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، وكانت تحت إشراف الشيخ محمد عبده، وحسن باشا عاصم، وما إن تخرجت فيها حتى ألحقنى والدى بتجارته الواسعة، وكنت ابتداء من

عام ١٩٠٤م من المولعين بقراءة «اللواء» التى كان يصدرها مصطفى كامل، وعرف كثير من الزملاء والأصدقاء والمعارف حماسى وتطرفى وكراهيتى الشديدة للإنجليز، وكان من الذين عرفونى عن قرب محمد عوض جبريل، وكان يعمل فى تجارة الحبوب مع صهره حافظ أمين بمينا البصل بالإسكندرية، وظل محمد عوض جبريل يكثر من زيارتى ويناقشنى فى بعض الأمور السياسية ليعرف حقيقة اتجاهاتى الوطنية، ووجدنى خامة صالحة للعمل الوطنى، وذات يوم سألنى سؤالاً محدداً وواضحاً بعد أن اطمأن إلىّ اطمئناناً كاملاً، وبعد أن ازدادت ثقته فىّ ثقة مطلقة: هل أنت على استعداد لخدمة مصر التى تحبها وتعشقها؟ ثم سألنى بصراحة أكثر عما إذا كان فى إمكانى أن أشترك مع جماعة يعملون لإخراج الإنجليز من مصر بالقوة بما فيها السلاح؟ وأجبت باستعدادى الكامل للتضحية بنفسى فى سبيل تحرير مصر من المحتل الأجنبى».

(٦)

ويشير أحمد رمضان زيان إلى الطقوس التى صاحبت انضمامه للعمل السرى، ويدهشنا أن نرى أن هذه الجمعية كانت موجودة منذ ١٩٠٤م، أى قبل التاريخ الذى يعتقد كلٌّ من عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت بسنوات، فهذا هو أحمد رمضان زيان ينضم فى ١٩٠٤م، ونفهم من كلامه أن الجمعية السرية كانت مكونة قبل هذا التاريخ:

«وفى يوم من أيام عام ١٩٠٤م لا أذكر تاريخه بالضبط، أركبنى محمد عوض جبريل عربة، وفى الطريق أغمض عينى بمنديل وحذرنى من محاولة معرفة المكان الذى أنا ذاهب إليه، وبعد أن نزلنا من العربة قادنى إلى مكان مجهول وأدخلنى سرداباً مهجوراً، وكنت أتعثر وأنا أسير فيه، وأخذنى من يدى رجلان لم أعرفهما من قبل وأجلسانى على كرسى صغير، وقال أحد الرجلين كمن يسألنى: هل تعرف أين أنت الآن؟ هل تعرف لماذا جئت إلى هنا؟ هل أنت على استعداد لأن تعمل فى جمعية سرية لخدمة مصر؟».

«وأجبت بنعم، وقال الرجل: أنت تعلم أن الإنجليز احتلوا أرضنا، امتصوا دماءنا، نهبوا أموالنا، هتكوا أعراضنا، تم لهم ذلك بمعاونة بعض الخونة من أبناء مصر.

إن الجمعية التى ستكون من بين أعضائها، تعمل سرّا لإجلاء الإنجليز، فهل أنت على استعداد للتضحية بالمال والروح وكل ما تملك فى سبيل مصر؟ وقلت: نعم.. نعم».

«وقال الرجل: إن أقل انحراف عن أغراض الجمعية، أو أقل خيانة لأىٍّ من أسرارها سوف يعرضك فوراً للإعدام، ثم وضع يدى على مصحف شريف ولقننى يمين الجمعية، وبعد أن رددته بصوت قوى مؤمن قال محدثى: أنت الآن عضو فى جمعية التضامن الأخوى، وفيها ذلك العضو الذى أتى بك إلى هنا، وخرجت مع العضو ومشينا حوالى ربع الساعة، وأنا معصوب العينين، أزاح زميلى المنديل عن عينى ووجدت نفسى بين ميناء البصل وقسم اللبان، وباركنى زميلى».

(٧)

ويحدثنا أحمد رمضان زيان بالأسماء الكاملة للخلية الخماسية التى كان هو عضواً فيها، ونرى أسماء ظلت على ولائها للعمل الوطنى وللتنظيمات السرية، وأسهمت فى هذا المجال بجهد وافر مشكور، وهو يشير إلى أن هذه الخلية (أو اللجنة على حد تعبيره) كانت الخلية الرئيسية بالإسكندرية، وأن قيادة التنظيم كانت فى القاهرة، كما يشير إلى أنهم بدءوا يشددون فى الإجراءات النفسية المصاحبة لعملية أخذ البيعة وانضمام الأعضاء الجدد إلى التنظيم، وينفرد أحمد رمضان زيان بالإشارة إلى أنه تمكن من ضم محمود فهمى النقراشى المدرس بمدرسة رأس التين الثانوية فى عام ١٩١٠، وأنه قد أصبح عضواً فى لجنة عبد الله حسن عوض:

«... ويحضر محمد عوض جبريل ويأخذنى إلى حى رأس التين، وأمام منزل لا يبعد عن بيتى بأكثر من مائة متر يطل على البحر، ودخلنا المنزل لأجد ثلاثة شبان يجلسون وكأنهم على استعداد لمقابلتى، فسلمت عليهم وقدمهم إلىّ محمد عوض جبريل قائلاً: الأخ يعقوب صبرى ضابط مدرسة رأس التين الثانوية، والأخ عبد الله حسن عوض الموظف بالجمارك بالإسكندرية، والأخ إبراهيم أنيس الموظف بشركة سكك حديد الدلتا بالإسكندرية».

«. . . وعرفت أن الأربعة هم أعضاء اللجنة وأنا خامسهم، وعرفت أن محمد عوض جبريل، هو مندوب الإسكندرية لدى اللجنة الرئيسية بالقاهرة، وكانت لجنتنا هى اللجنة الرئيسية بالإسكندرية، وقد ألحقنا الكثيرين بعضوية الجمعية بالطريقة التى دخلت بها أنا الجمعية، فقط زدنا عليها بعض وسائل الإرهاب والرعب، فكنا نضع فى يد العضو وأمامه مختلف الأسلحة، وجماجم الموتى، وبعض الأطراف، وكنا نستعيرها من مشرحة المستشفى الأميرى بواسطة عمال المشرحة ونردها إليهم».

(٨)

ويقدم أحمد رمضان زيان قائمة ببعض أعضاء هذا التنظيم السرى، وبوظائفهم التى كانوا يشغلونها حين الانضمام إلى هذا التنظيم، ويدهشنا أن نرى المستويات الفكرية والمهنية المتميزة لهؤلاء الأعضاء الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم من أجل هذا الوطن، وهو يقول:

«ومن الأعضاء الذين انضموا للجمعية فى بداية تكوينها فى الإسكندرية والبحيرة، حيث كانت مديرية البحيرة تابعة للإسكندرية»:

«محمد حسين العرارجى المحامى الذى أصبح مستشاراً فيما بعد»

«وأحمد عبد السلام غالى»

«وعلى صادق بالجمارك»

«عبد الرحيم سرور الضابط بالبوليس»

«وعبد العزيز فخرى الضابط بخفر السواحل»

«ومحمد حافظ قبودان الضابط بالجيش المصرى»

«ومحمد نجيب الهلباوى المدرس بالجمعية الخيرية الإسلامية»

«ونبيه قبودان الضابط بخفر السواحل»

«والشيخ حسن خفاجى مدرس اللغة العربية بالمدارس الإسرائيلية»

«ومحمد فؤاد عثمان الذى وصل إلى درجة مدير مديرية الدقهلية»

«وأحمد حسنى فوزى المحامى»

«وإبراهيم صفوت مأمور سجن الحضرة»

«وعبد الرحمن سرى وكيل سجن الحضرة»

«والدكتور عبد الواحد الوكيل، وكان وقتئذ طبيبًا ببلدية الإسكندرية»

«ومحمد فريد بمصلحة الرى»

«وسليمان حافظ الذى كان وزيرًا للداخلية فى بداية ثورة ١٩٥٢م، وغيرهم وغيرهم».

ربما كان من المفيد أن نشير إلى ما لم يشر إليه صاحب المذكرات اعتقادًا منه فى أنه أمر مشهور لا يحتاج إلى إشارة، وهو أن الدكتور عبد الواحد الوكيل أصبح وزيرًا للصحة فى وزارة الوفد (١٩٤٢م).

(٩)

ويشير أحمد رمضان زيان إلى حقيقة تاريخية مهمة تتعلق بنهاية هذا التنظيم السرى، وهو يبدو حريصًا على ذكر رأيين كانا فى حقيقة الأمر مكملين لبعضهما فى كشف سر هذا التنظيم الذى لم يكن ليعيش بعد أن وصل واحد من أعضائه إلى السلطة!!:

«... وقد ظل كل ما يتعلق بالجمعية حتى اسمها سرًا من الأسرار حتى عام ١٩٢٤م، حيث كشفه محمد نجيب الهلباوى فى أثناء التحقيق فى قضية مصرع السير لى ستاك حاكم السودان، أو قبل ذلك حين تولى محمود فهمى النقراشى وكالة وزارة الداخلية».

(١٠)

وينفرد أحمد رمضان زيان بالإشارة إلى أن حادث مقتل بطرس غالى لم يكن

يستهدفه بمفرده، وإنما كان يستهدف قتل الزعيم الوطنى الكبير سعد زغلول معه، فقد كان سعد فى ذلك الوقت قد تولى تأييد المقترح الذى تبناه بطرس غالى بمد امتياز قناة السويس فى البرلمان، وهو ينفرد فى هذه المذكرات بأن يشير بكل صراحة إلى أن آخرين كانوا مكلفين باغتيال سعد زغلول لكنهم لم ينجحوا فى مهمتهم، ولست أدرى السبب الذى منعه من رواية تفصيلات تلك المحاولة المهمة :

« . . . وعلمت جمعية التضامن الأخوى أن فى نية الحكومة أن تستصدر دكريتو من الخديوى لمد الامتياز، وقررت لجنتها الرئيسية بالقاهرة اغتيال بطرس غالى وسعد زغلول، ونجح إبراهيم الوردانى فى مهمته حيث وجه أربع رصاصات إلى صدر بطرس غالى، ولم ينجح الآخرون الذين أوكل إليهم مهمة اغتيال سعد زغلول».

(١١)

ويشير أحمد رمضان زيان بكل وضوح إلى السبب الحقيقى الذى جعل الحكومة تصل إلى اتهام ثمانية آخرين مع الوردانى بعد أن قبضت عليهم جميعا، ويتمثل هذا السبب فى قائمة وجدت فى أوراق أحد هؤلاء الثمانية، لكننا مع هذا لا نجد فى نصوص أحمد رمضان زيان ما يدلنا على السبب الذى جعل الحكومة تصل إلى اتهام على مراد بالذات، ومن ثم تفتيشه والعثور على هذه القائمة.

«وقبض على المهندس على مراد بالفيوم، ووجد ضمن محفوظاته بعض أسماء [أعضاء] جمعية التضامن الأخوى، وقد كان منهم أعضاء أصليون وعددهم ثمانية، وقد قبض عليهم وهم: على مراد، ومحمود أنيس المهندس، وعبده البرقوقى، وشفيق منصور، وكانا طالبين بمدرسة الحقوق، وعبد الخالق عطية المحامى، وعبد العزيز رفعت المهندس، وحبيب حسن، ومحمد كمال الطالب بمدرسة المهندسخانة، بالإضافة إلى إبراهيم الوردانى، وقدم التسعة إلى قاضى الإحالة متولى بك غنيم، وجمع القاضى المتهمين فى جلسة سرية فى غرفة التحقيق لاستجلاء بعض الشئون الخاصة بالقضية، وسأل القاضى الوردانى: هل أنت قتلت بطرس غالى؟ قال: نعم، ولماذا؟ للأسباب المدونة فى المحضر، قال القاضى: لا بأس من إيرادها».

«. . . وسئل سائر المتهمين فأنكروا التهمة وقالوا إن الجمعية التى اشتركوا فيها جمعية للتعاون وليس فى قانونها نص على استخدام القوة ضد أشخاص معينين، وخلا القاضى - بعد أن استمع إلى محامى المتهمين فى الجلسة السرية - إلى نفسه وبعد ساعة نطق بقراره الخاص بإحالة إبراهيم الوردانى أفندى على محكمة جنايات مصر، المحدد لانعقاد دورها يوم السبت ٢ أبريل سنة ١٩١٠م لمحاكمته بمقتضى المادة ١٩٣ عقوبات على التهمة الموجهة إليه، وهى قتل المرحوم بطرس غالى، وتبرئة بقية المتهمين الآخرين لعدم ثبوت اشتراكهم فى هذه الجريمة بأى وجه من أوجه الاشتراك، وبتكليف النيابة العمومية بإعلان كلٍّ من المسيو بيو الأفوكاتو بالمحاكم المختلطة، والمسيو بيو المقيم بالظاهر، ويوسف نور العامل بمسرح حلوان، والشيخ طنطاوى، وهويدى المدرس بالمدرسة الخديوية، والشيخ عثمان لبيب المدرس بها أيضًا، والدكتور طلعت بك حكمباشى المعارف، والدكتور عيسى باشا حمدى بصفتهم شهود نفى للمتهمين».

(١٢)

ومن الطريف أن نرى ذاكرة أحمد رمضان زيان تحتفظ بقرينة صدور الأحكام يوم المولد النبوى، وهو السبب الذى جعل على الغاياتى فى شعره التلقائى يبدأ قصيدته بقوله: «عيد النبوة أم عيد البراءات»، وينبغى لنا هنا أن نذكر القارئ بما نقلناه عن مذكرات الدكتور محمود كامل فى كتابنا «فى رحاب العدالة» من أن آخرين من بينهم حافظ عفيفى نفسه، كانوا قد حقق معهم فى قضية مقتل بطرس غالى:

«. . . وكان لحكم البراءة الصادر لصالح المتهمين الثمانية رنة فرح لا مثيل لها فى مصر، حتى إن المظاهرات انطلقت فى كل مكان من أنحاء مصر، وأذكر أن الشيخ على الغاياتى ألقى ساعة الإفراج عن المتهمين قصيدة فى ساحة المحكمة كان مطلعها، وكان اليوم يوم المولد النبوى:

عيد النبوة أم عيد البراءات ... قولوا يعيش قاضى الإحالات

(١٣)

ويقدم الحاج أحمد رمضان زيان عرضًا موجزًا لجهده الوطنى فى مساعدة الطرابلسيين فى أثناء حربهم المشهورة، وهو يشير إلى بعض التفصيلات المهمة التى تدلنا على أن جهوده امتدت لتشمل تهريب الأسلحة والطعام والضباط والمتطوعين، كما شملت جمع الأموال، ويظهر من رواية أحمد رمضان زيان المدى الذى وصلت إليه الروح الوطنية المتأججة لدى ضباط البوليس المصريين فى ذلك الحين، وهى روح كانت منتشرة أيضًا بين ضباط خفر السواحل:

« . . . تألفت لجنة عليا لإعانة أبناء طرابلس، كنت أحد أعضائها، وقد استطاعت اللجنة أن تجمع ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات، وكانت جمعيتنا «التضامن الأخوى» تقوم بتسهيل عبور الضباط الأتراك الذين يجيئون من تركيا إلى الإسكندرية وترحيلهم إلى طرابلس الغرب عبر الصحراء، ولم يكن وقتئذ بطرابلس «ليبيا اليوم» من المعدات الحربية والأسلحة ما يكفى لصد هجوم الطليان، وأذكر أن الشيخ عبد العزيز جاويش استدعانى لمقابلته بالقاهرة فى إدارة جريدة «اللواء»، وانفرد بى متحدثًا عن باخرة تحمل أسلحة اسمها «حميدية» بقيادة ضابط يسمى حسين رءوف، وأن هذه الباخرة ستفرغ حمولتها فى السلوم، وأن المطلوب الاتصال بضابط خفر السواحل اليوزباشى الماس عبد الله، وهو سودانى، لتسهيل مهمة إنزال الحمولة واتصلنا بقومندان السلوم الماس عبد الله واتفقنا معه على تسهيل تهريب الأسلحة والتغاضى عنها، وتم بحمد الله إنزال الشحنة فى السلوم، وتم توصيلها إلى طرابلس، وكانت لخبر وصولها رنة فرح فى نفوس المجاهدين، واستمرت الجمعية تعمل كل ما وسعها لمساعدة الأخوة الطرابلسيين، وكنا نرسل شحنات الأرز عن طريق أبو المطامير، بمساعدة ضباط البوليس من أعضاء الجمعية، لتنقل عبر الصحراء إلى طرابلس، كما كنا نقوم بتهريب الضباط الأتراك إلى طرابلس رغمًا عن أنف الحكومة المصرية، التى كانت تقف علنًا إلى جانب الإيطاليين».

(١٤)

وهو يروى تفصيلات تهريبه لعبد الرحمن عزام متعجبًا من أن ينسب عبد الرحمن

عزام [فى مذكراته المنشورة] الفضل فى تهريبه إلى أعرابى، ونحن نلمس لعزام العذر، لأن عبد الله بك شوشان نفسه كان زعيم قبيلة، وهو ما قد يجعل عزام يتذكره على أنه أعرابى، ويلفت نظرنا أن نرى رمضان زيان حريصًا على أن يروى ما انتابه من شك فى قدرات عبد الرحمن عزام البدنية نظرًا لنحافته الشديدة:

«ومرة طلب منا أن نقوم بتهريب شاب يسمى عبد الرحمن عزام لم يكمل دراسة الطب، قيل إنه ينفع فى حرب طرابلس، وزودناه بكلمة السر وطلبنا منه أن يضع على صدره شارة عند مقابلته لنا فى محطة دمنهور، وقد فعل عبد الرحمن عزام ذلك وأخذته من محطة دمنهور إلى الكوم الأخضر بالسكة الحديد، ولما رأيته شابا نحيف الجسم خشيت ألا تكون لديه القدرة على تحمل مشاق السفر، فتعمدت أن أسير وإياه مشيًا على الأقدام إلى عزبة عبد الله بك شوشان، وهو أحد زعماء القبائل الموجودة فى الصحراء، لمدة ساعة كاملة، وقد قام الرجل بتوصيله إلى طرابلس فوصلها سالمًا، والغريب أن عبد الرحمن عزام باشا عندما كتب مذكراته فى «المصور» قال إن رائده فى سفره إلى طرابلس كان رجلاً أعرابيًا، وقد نسى أن الفضل فى توصيله إلى طرابلس إنما يعود إلى الدكتور إسماعيل صدقى، وعبد الله شوشان، وكاتب هذه السطور».

(١٥)

ويروى أحمد رمضان زيان فى هذه المذكرات دورًا بطوليًا مغامرًا قام به الضابط محمد فؤاد عثمان ملاحظ نقطة بوليس البحيرة [وهو الذى أصبح فيما بعد مديرًا لمديرية الدقهلية حسب رواية المذكرات] من أجل حماية ضابط جيش مصرى (هو أبو زيد مقلد) كان قد انضم للقوات المحاربة فى طرابلس، وهو دور مركب، إذ قام هذا الضابط (محمد فؤاد عثمان) باعتقال الضابط الإنجليزى الذى أوفد للقبض على الضابط المصرى وعامله على أنه جاسوس وأبلغ السلطات بهذا المعنى، حتى إن محمد محمود مدير البحيرة صور الأمر على هذا النحو فى تعامله مع البريطانيين، وفى خطوة تالية قبض محمد فؤاد عثمان على الضابط المصرى وأودعه السجن بنفسه، فلما جاء المفتش الإنجليزى ومسح المنطقة بنفسه وفشل فى اعتقال ذلك الضابط المصرى، اتصل فؤاد عثمان بأحمد رمضان زيان لتهريب الضابط المصرى، وتحمل هو الاعتقال فى

سجن الحضرة، لكن اعتقاله تحول إلى تكريم بسبب انتماء مأمور ذلك السجن (وهو إبراهيم صفوت) لحركة الفدائيين:

« . . . علمت المخابرات العسكرية البريطانية أن ضابطًا كان يعمل بالجيش المصرى انضم للقوات المحاربة فى طرابلس اسمه اليوزباشى محمد أبو زيد مقلد، ومقيم بالبحيرة، وفى كوم الحنش، مركز كفر الدوار بالذات، ونشرت الصحف صورته وأشارت إلى أنه يحمل أسرارًا عسكرية خطيرة، وقد كلف إنجرام بك مأمور الضبط بمحافظة الإسكندرية بالعمل على ضبطه، وقبل أن تنشر الصحف صورته وقبل أن يُكلف انجرام بالبحث عنه، كانت المعلومات قد وصلت إلينا عن طريق رجالنا بالمحافظة، وسرعان ما اتجهت إلى كوم الحنش وأفضيت إلى محمد فؤاد عثمان ملاحظ نقطة بوليس كوم الحنش بما وصل إلى علم الجمعية، وقد حدث أن أحد الضباط الإنجليز جاء بمفرده إلى كوم الحنش فاعتقله محمد فؤاد عثمان وطلب محمد محمود باشا مدير البحيرة إرسال الضابط الإنجليزى الذى جاء خصيصًا للقبض على أبو زيد مقلد، ويتباطأ فؤاد عثمان فى إرسال المقبوض عليه وأوراقه إلى المديرية ثلاثة أيام بدعوى أن المقبوض عليه جاسوس يجرى التحقيق معه، وقامت قيامة قلم المخابرات العسكرى الإنجليزى، واحتج محمد محمود على الإنجليز لإرسالهم أحد رجالهم يجوب أنحاء مديريته دون أن يكون عنده علم بمجيئه، وقام انجرام بك على رأس قوة كبيرة إلى ناحية كوم الحنش للقبض على أبو زيد مقلد».

«ومن حسن حظ أبو زيد مقلد أنه كان بإحدى الخيام القريبة من النقطة، ورأى فؤاد عثمان أن قوة إنجرام بك توشك أن تقبض على أبو زيد مقلد فقبض عليه هو وأودعه فى السجن بنفسه وأغلق عليه الباب، ونبش إنجرام بك الخيام والنجوع والقرى بحثًا عن ضالته دون جدوى، وعنف إنجرام بك فؤاد عثمان لتهاونه فى القبض على أبو زيد مقلد الذى كان يجلس فى غرفة تبعد بضعة أمتار عن الغرفة التى يجلس فيها إنجرام وفؤاد عثمان، وانصرف إنجرام يائسًا بجنوده وأتباعه وأرسل إلىّ فؤاد عثمان مَنْ يدعونى لمقابلته لوضع الترتيبات اللازمة لإبعاد أبو زيد مقلد خوفًا على حياته؛ لأن القبض عليه يعرضه للإعدام؛ لأنه ضابط مصرى لجأ إلى طرابلس وانضم إلى الأعداء، ثم عاد يعمل جاسوسًا إلى جانب الطرابلسيين، وقد سألت فؤاد عثمان عن السر فى اعتقال

أبو زيد مقلد فقال لى : «لو أننى تركته بخيمة عبد المالك وابنته وزوجته لقبض عليهم جميعًا، لذلك رأيت أن أقبض عليه وأضعه فى سجن النقطة فإن قبض عليه فبها وإلا فقد ضمنت له الحياة فى السجن، وفى الحال اتصلت بالأخ عبد الله حسن عوض للعمل على إخفاء أبو زيد مقلد فى كوم حمادة عند اليوزباشى فوزى من ضباط البوليس، و قد تضايق إنجرام بك للغاية من فؤاد عثمان فأمر باعتقاله فى سجن الحضرة حيث لقى كل تكريم، إذ كان مأمور القسم البكباشى إبراهيم صفوت من جماعتنا يعاونون الجميعة فى تنفيذ أغراضها والفخر أن كثيرين من ضباط البوليس كانوا يعاونون الجمعية فى تنفيذ أغراضها، وليس سرًا أن أذيع اليوم أن معظم اجتماعات الجمعية كانت تتم فى أقسام البوليس باعتبارها أكثر الأماكن أمنًا واطمئنانًا».

(١٦)

ونأتى إلى ما تقدمه هذه المذكرات من معلومات مهمة وخبرات خاصة عن عمليات الاغتيال التى قامت بها جمعية التضامن الأخوى، وكان لأحمد رمضان زيان دور فيها، ونبدأ بما يرويه صاحبها عن واقعة الاعتداء على السلطان حسين كامل، والواقع أننا نراه يقدم هذه القصة بطريقة أكثر تفصيلاً مما يرويها أى مصدر آخر، بما فى ذلك مذكرات عبد العزيز على نفسه، ومن المهم أن نشير إلى أن زيان ينفرد بالإشارة إلى أن حسين رشدى رئيس النظار كان بصحبة السلطان حسين كامل عند محاولة الاغتيال، وأنه كان مستهدفًا هو الآخر من هذا الاغتيال، وهذه نقطة مهمة لم يركز عليها أحد بمثل ما ركز زيان فى هذه المذكرات.

يقول الحاج أحمد رمضان زيان :

« . . . وكان الاعتداء على السلطان حسين كامل فى يوم الجمعة ٩ يوليو ١٩١٥م، بينما كان الركب السلطانى يمر من قصر رأس التين، إلى مسجد سيدى عبد الرحمن ابن هرمز ليؤدى السلطان صلاة الجمعة».

«كان خيرًا لحسين رشدى لو احتج على وضع الحماية على مصر، وظل متمسكًا بمركزه كقائمقام الخديوى، ولو طرد من هذا المركز، أما سعد زغلول وكيل الجمعية

التشريعية المنتخب فقد قابل المعتمد البريطاني الجديد في محطة مصر ، وقال كما ذكرت وقتئذ صحيفة «المقطم» في الصفحة الأولى ، بالبنط العريض : «يلوح لي أن الخير قادم على يديه» .

. . . .

يجدر بنا أن نتوقف هنا لنشير إلى أنه من الطريف أن عبد العزيز على يروى مثل هذه الرواية بألفاظ أخرى يقول فيها إن سعدًا قال إنه رأى بشائر الخير في وجه مكماهون :

. . . .

«توالت اجتماعات اللجنة الرئيسية بالقاهرة برئاسة الدكتور شفيق منصور المحامي ، كما اجتمعت اللجنة الرئيسية بالإسكندرية بصنع قنبلة من الديناميت ، ثم رأت اللجنة أن السلطان حسين الذي قبل المنصب من الإنجليز وحسين رشدي باشا الذي أيد ذلك العمل خائنان للوطن ، وقررت الجمعية قتل السلطان حسين وحسين رشدي معًا ، عقدت عدة اجتماعات بالقاهرة والإسكندرية لهذا الغرض ، وتقدم كثير من الأعضاء لإلقاء القنبلة على السلطان حسين وحسين رشدي بالإسكندرية ، واختير من بين هؤلاء محمد نجيب الهلباوي المدرس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، وقامت اللجنة الرئيسية بالإسكندرية بصنع قنبلة من الديناميت تم حشوها بحوالى ٣٠٠ قطعة من الحديد وأحكم صنعها بعد أن جربنا قنبلة مماثلة بالصحراء ، أمام بلدة واقد ، بلدة عبد الله حسن عوض ، وبعد أن وضعنا هياكل من البوص في دائرة قطرها ٥٠ مترًا ، وما إن انفجرت حتى رأينا جميع أعواد البوص قد تداعت ومالت على الأرض» .

(١٧)

ونأتي إلى ما يرويه أحمد رمضان زيان عن السر في اختيار البيت الذي ألقيت منه القنبلة التي استهدفت السلطان حسين ، وعن التنبيهات التي لم يتمكن نجيب الهلباوي من الالتزام بها بالدقة اللازمة في مثل هذه المحاولات :

« . . . وحدث أن اللجنة الرئيسية بالقاهرة أوفدت محمد شمس الدين يؤجر المنزل الذي اختارته اللجنة الرئيسية بالقاهرة في شارع رأس التين أمام ضريح سيدي يوسف

الجعراني، وهو المنزل رقم ٩٩، وقد اخترنا هذا المنزل؛ لأن شارع رأس التين يضيق أمامه ولا يزيد عرضه على ثمانية أمتار أو تسعة، قام محمد شمس الدين باستئجار المنزل من وكيل صاحب العقار، وهو حلاق، وتحدد يوم جمعة للتنفيذ، ونبهنا على محمد نجيب الهلباوى أن يشعل الفتيل الخاص بالقنبلة بنار فحم بلدى، ورسمنا له طريق الهرب حتى لا يتمكن البوليس من القبض عليه، ونجح الهلباوى فعلاً فى إلقاء القنبلة، غير أنه لم يشعل الفتيل بالنار، بل أشعله من السيجارة التى كان يشربها وهو جالس على حافة النافذة التى سيلقى منها القنبلة، وكانت السيجارة التى يشربها نجيب الهلباوى من صنع محل لبيع السجاير يقع بجوار أجزاخانة النيل بشارع رأس التين، والسيجارة مكتوب عليها حرفى « H،N » وتمكن نجيب الهلباوى من الهرب، غير أن البوليس عندما هاجم المنزل الذى ألقيت منه القنبلة عثر على أعقاب السجائر، وقبض على كثيرين من أصحاب محلات صنع السجاير وتعرف صاحب المحل الذى يصنع فيه الهلباوى سجايره على نجيب الهلباوى».

«فى ذلك الوقت قبض على الدكتور شفيق منصور المحامى، وأحمد سابق المحامى، والطبيب عبد الفتاح يوسف، وعبد الله حسن عوض، وعلى صادق بالجمارك، ومحمود عنايت، ومحمد شمس الدين الذى تعرف عليه الحلاق وكيل صاحب المنزل الذى ألقيت عليه القنبلة، وكان دليله فى التعرف على محمد شمس الدين النظارة التى كان يضعها على عينيه».

(١٨)

ويقص علينا أحمد رمضان زيان موقفًا فى غاية الطرافة، حيث كُلف بأن يشهد، على غير الحقيقة، بأن نجيب الهلباوى لم يكن وقت وقوع محاولة اغتيال السلطان حسين فى ذلك المنزل، وإنما كان يلعب الطاولة معه ومع ثالث، والطريف أن زيان الذى شهد بهذا لم يكن يعرف شكل نجيب الهلباوى، وقد جعله هذا الجهل بشخصية الهلباوى لا يتعرف عليه للوهلة الأولى حين عرض عليه على نحو ما يعرض المتهمون، وقد انتبه المحقق لهذه الملاحظة، وتناولتها المحكمة فيما بعد:

«تولى التحقيق مفتش إنجليزى اسمه جريفس، وكان محمد بدر الدين بإدارة الأمن العام يقوم بالترجمة، وفى أثناء التحقيق أثيرت نقطة المكان الذى كان يوجد فيه محمد نجيب الهلباوى يوم الجمعة، وقت وقوع الحادث، [جاءنا طلب] من زملائنا المتهمين المعتقلين بسجن الحضرة على ذمة القضية، طالبين إعداد شخصين يشهدان بأن الهلباوى كان معهما يوم الجمعة، وأرسلنا إليهم، وسيكون الشاهدان أحمد رمضان زيان، وأحمد عبد السلام غالى، وأنهما سيقولون إن نجيب الهلباوى كان يلعب معهما الطاولة بقهوة «البيرامير» بالقرب من الأرض الفضاء التى تقع الآن أمام قنصلية فرنسا، وأديت الشهادة، وكان من الحرج لى فى الشهادة أننى لم أعرف نجيب الهلباوى من قبل، فلما سألنى المحقق أن أتعرف عليه من بين المقبوض عليهم، تحيرت وتذكرت بسرعة أن وجه الهلباوى به وشم، وما إن رأيت الوشم حتى أشرت إليه، وسألنى المحقق: كيف لم تتعرف عليه بسرعة؟ فقلت له: لأننى لم أجلس إليه إلا مرة واحدة، وقد عرفته من ملامحه وسحنته، وسحنته هذه كلمة قيل فى التحقيق كلام كثير عن مدلولها ومعناها».

(١٩)

ونصل إلى قصة الفتاة المصرية الشجاعة التى رفضت التعرف على نجيب الهلباوى على الرغم من معرفتها الأكيدة بتورطه فى الحادث، ويروى صاحب هذه المذكرات قصة ذهابه لمكافأة هذه الفتاة والحوار الذى دار بينهما، وما ذكرته له من أنها فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله، وأنها لا تنتظر الترضية إلا من الله سبحانه وتعالى، ونحن نرى الحاج رمضان زيان حريصًا على الإشادة بهذه الفتاة وبسلوكها وبإيمانها:

«... فاتنى أن أذكر أن نجيب الهلباوى عندما ألقى قنبلته على موكب السلطان حسين، وحسين باشا رشدى قفز من المنزل الذى كان يوجد فيه إلى منزل مجاور يطل على أرض فضاء تسمى «زاوية القبانية»، وفوجئ الهلباوى بأنه فى دهليز المنزل الذى قفز إليه أمام فتاة تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، انزعجت الفتاة لما رأت الهلباوى مذعورًا، مضطربًا، حياها الهلباوى، حيته، تذكرت أنها رأته من قبل أكثر من مرة وكان يقوم بعمل تجربة على الهروب بعد إلقاء القنبلة، ولم يمض غير وقت قصير حتى

داهم البوليس منزل تلك الفتاة التى كانت قد دخلت غرفتها وأغلقتها عليها فور مقابلتها للهلباوى، إثر الحادث قبض البوليس على الفتاة وراح يسألها عن الرجل الذى قفز من المنزل المجاور لمنزلها، وكان جوابها أنها لم تر أحدًا، وهددها البوليس غير أنها ثبتت فى موقفها ولم تعترف بشىء على الإطلاق».

. . . .

«بعد أن تم التحقيق وأحيل محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين إلى المحاكمة العسكرية، وأفرج عنى فى أواخر عام ١٩١٦م حيث كنت مسجونًا بتهمة تهريب المؤن والأسلحة إلى طرابلس عن طريق المنيا والفيوم، توجهت بحذر لمقابلة الفتاة فى منزلها بحجة شراء المنزل الذى تقيم فى غرفة منه، استدرجتها فى الحديث بعد أن انتقدت بشدة الرجل الذى كان سيقتل السلطان، وعلمت منها أنه كان فى إمكانها أن تدل عليه فى التحقيق لكنها رفضت ذلك قائلة: دا حرام، أودى شاب زى ده فى داهية وهو بيخدم بلده ووطنه».

«ولما علمت أنها بنت ولم تتزوج وأنها فقيرة عرضت عليها عشرين جنيهًا من الذهب فرفضت أخذها رفضًا باتًا قائلة: ربنا هو اللى يعطينى لأنى عملت لله، وخرجت من عندها أدعو لها بالسعادة والتوفيق، وأكبرت فيها عقيدتها وإيمانها بالله».

«أين هى الآن؟ لطالما تمنيت بعدئذ أن أعرف اسمها لأسجل لها هذا الموقف الشريف النبيل الذى يدل على أصالة شعبنا العظيم، فتاة فى عمر الورد، فقيرة تتغلب على ضغط الإنجليز وأذنابهم، ترفض الإضرار بمواطن يخدم بلده، ثم ترفض بعد ذلك مبلغ عشرين جنيهًا من الذهب يعتبر ثروة كبيرة فى ذلك الوقت، فما أعظمها من فتاة!!».

(٢٠)

ويلخص أحمد رمضان زيان الجهود التى بذلها البوليس من أجل الإيقاع بالشاب الذى استأجر البيت الذى ألقيت منه القنبلة على السلطان حسين كامل:

«الجدير بالذكر أيضًا أن الحكومة المصرية والسلطات البريطانية انزعجت من الحادث ومن فرار الجانى، وعدم الوصول إليه رغم الجهود التى بذلت، ورغم الخمسمائة جنيه التى وعد بها كل مَنْ يدلى بمعلومات صحيحة تؤدى إلى القبض على الشخص الذى استأجر المنزل رقم ٩٩ ملك التمساح فى يوم ٢٢ يونيو ١٩١٥م، وعمره - كما قالت وقتئذ نشرات البوليس - يتراوح بين ١٨ و٢٣ سنة، مصرى الجنسية، متوسط القامة، قمحى اللون، مائل إلى الصفرة، أسود الشعر، بشارب أسود خفيف، بارز الوجنتين، غائر الخدين، بارز الحنجرة بشكل ظاهر».

«وقد نشرت سلطات البوليس صورة زنكوغرافية لإمضاء المتهم، كما ورد فى عقد الإيجار، وقد أصدر القائد البريطانى العام المنشور الآتى:

«على كل شخص يعلم بوجود مؤامرة ضد نظام الحكم، سواء نتج عن هذه المؤامرة أى فعل أو لا، وعلى كل شخص يعلم أن فردًا أو أفرادًا مشتركون فى مؤامرة أو متهمون بأية جريمة موجهة ضد نظام الحكم أن يبلغ بلا أدنى تأخير إلى أقرب سلطة، سواء ملكية أو عسكرية كل المعلومات التى يكون حاصلاً عليها، وكل مَنْ لم يقم بالتبليغ عن ذلك مع علمه به، يعرض نفسه للمحاكمة بالطريقة العرفية، وكذلك مَنْ يتستر على أشخاص مشتركين فى مؤامرة، أو جريمة، أو يساعدهم فى الهرب من يد القضاء».

(٢١)

ويدلنا أحمد رمضان زيان على أن السلطان حسين نفسه كان منتبهًا إلى احتمال وجود تنظيم يتولى تدبير هذه الاغتيالات، وإلى أن القضية ليست قضية فرد:

«وقد تحدث السلطان حسين إلى الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقطم، ٢٠ يوليو ١٩١٥م، حيث دافع عن نفسه وعن قبوله السلطنة، لظروف حرجة تمر بالبلاد».

....

«وكان مما قاله السلطان حسين: إنى لو تحققت أن هذه الحوادث واقعة من أفراد متهوسين لم يدفعهم لارتكابها إلا لؤم طباعهم، وخبث فطرتهم لكان اهتمامى بالأمر

أقل كثيرًا مما هو عليه الآن، لكن متى ثبت أن الجريمة واقعة باتفاق جماعة من الأشرار لكان ذلك دليلاً على وجود جرثومة فساد فى البلاد مضرة بمجموعها، ولا بد من استئصال هذه الجرثومة، ليصلح المجموع كله، وهذا ما نحن بصدده، وهو الذى يهمنى كثيرا، ويؤلمنى جدا أن هؤلاء القوم لا يفرقون بين الخير والشر، يؤلمنى جدًا أن أراهم يحكمون فى الأمور بأهوائهم».

(٢٢)

ويروى أحمد رمضان زيان بعض التفصيلات المتعلقة بالمحاكمة التى أجريت للمتهمين فى قضية محاولة اغتيال السلطان حسين، وهو ينفرد بالإشارة إلى موقف محمد شمس الدين فى المحاكمة وفيما قبلها، حيث تعرض لتهديد رئيس الوزراء نفسه فى لقاء خاص، ومع أن مثل هذه الواقعة تبدو متجاوزة لحدود المنطق فإننا لا نرى داعيًا ملحًا لاختلاقها من قبل صاحب المذكرات:

«وتم اعتقال كثيرين بعد محاولة اغتيال السلطان حسين، ومن بينهم أمين الرافعى، وشقيقه عبد الرحمن الرافعى».

«وانعقدت المحكمة العسكرية البريطانية فى محكمة الاستئناف بباب الخلق لمحاكمة المتهمين يوم ٨ مايو سنة ١٩١٦م، أى بعد وقوع الجريمة بحوالى عشرة أشهر، وقد استدعى رئيس مجلس الوزراء فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٥م [ربما يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت كان هو حسين رشدى نفسه الذى كان مستهدفا بالاغتيال] والد محمد شمس الدين المتهم الثانى فى القضية ووالدته، وقال لهما وزير الحقانية: إن ابنكما سيشنق أو يضرب بالرصاص إذا لم يعترف، وأن الواجب نصحه بالاعتراف، ثم انسحب رئيس مجلس الوزراء ومن معه، ليبقى الأب والأم مع المتهم، وقد صرخت الأم وهى تحتضن ولدها قائلة: إن ابنى برىء».

«وفى المحاكمة اعترف محمد شمس الدين بأن رئيس الوزراء قابله وقال له: التهمة ثابتة عليك من شوشتك لرجليك، ولابد من إعدامك شنقًا والأحسن أن تقول الحق، على أن محمد شمس الدين لم يعترف، وقال إنه استأجر المنزل رقم ٩٩ لشخص اسمه

محمود حلمى من النحارية بكفر الزيات، وأنه لم يعرف هذا الشخص، ولكن بينما كنت جالسًا فى مقهى باريس ببولاق أقبل علىّ وأظهر أنه يعرفنى منذ مدة طويلة، وبعد أن تصادقت معه طلب منى أن [أساعده] فى استئجار منزل بالإسكندرية ليقضى به فصل الصيف، ولما ألقيت القنبلة قرأت الخبر فى الصحف، ولكنى لم أعرف أنها ألقيت من المنزل الذى استأجرته إلا من إعلان المكافأة».

(٢٣)

وتنفرد مذكرات أحمد رمضان زيان بالإشارة إلى الآلية التى تم بها تخفيف الحكم من الإعدام إلى الأشغال الشاقة، ومن المدهش أن نقرأ أن السلطان حسين نفسه سجل فى رسالة رسمية إلى رئيس وزرائه أنه ليس فى يده أن يخفف الحكم؛ لأن الحكم صادر عن محكمة عسكرية بريطانية لا يملك حاكم البلاد نفسه تخفيف أحكامها، وهو لهذا يطلب من رئيس وزرائه أن يتوسط لدى قائد القوات البريطانية من أجل تخفيف الحكم:

«وفى ٣٠ مايو ١٩١٦م صدر الحكم بإعدام المتهمين، لكن السلطان حسين بعث إلى رئيس مجلس الوزراء الخطاب التالى فى ٢ يونيو ١٩١٦م:

«عزيزى رئيس الوزراء..

«لو أن حكم الإعدام على محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين صدر من محكمة مصرية لكنت استعملت حقى فى العفو عنهما، فأكلفكم الوساطة باسمى لدى قائد القوات البريطانية لاستبدال هذه العقوبة بغيرها؛ لأنه يعز علىّ كثيرًا أن يكون نصيبهما الحد الأقصى من العقوبة التى فرضها القانون، فما هما سوى ضالين تملكتهما الغواية، ولا بد أنهما أدركا اليوم فظاعة الإثم الذى أقدما عليه وأسفا جد الأسف على السيئة التى اقترفاها لما رأياه من استهجان أمتى لعملهما الشنيع».

«حسين كامل»

«وقد قبل السير أرشيدلدمرى القائد العام للقوات البريطانية رجاء السلطان حسين فاستبدل الحكم بالإعدام الأشغال الشاقة المؤبدة».

(٢٤)

وينفرد أحمد رمضان زيان بالإشارة إلى صلابة محمد نجيب الهلباوى وثقته فى الله عندما حكم عليه بالإعدام، وأنه ظل يضحك، وأن روحه كانت عالية، وأنه لم يستجب لضغوط البوليس من أجل الحصول منه على معلومات تفيد فى الكشف عن بقية أعضاء الجمعية :

« . . . وكانت قوة من رجال البوليس الإنجليزى قد حضرت إلى سجن الاستئناف وقرأت صيغة الحكم على كلٍّ من الهلباوى وشمس الدين، وبعد أن تمت عملية تلاوة الحكم نزع السجانون عنهما ملابسهما، وألبسوهما الملابس الحمراء، ووضعوا كل واحد منهما فى زنزانة خاصة بالمحكوم عليهم بالإعدام، وكانت روح الهلباوى عالية جدًا، فهو يضحك، ويشجع دائمًا محمد شمس الدين، وبعد أن استبدل بحكم الإعدام عليهما الأشغال الشاقة المؤبدة ظل عدد كبير من رجال البوليس يترددون على السجن محاولين الحصول على معلومات من الهلباوى وشمس الدين تؤدى إلى الكشف عن بقية أعضاء الجمعية، لكنهم فشلوا» .

(٢٥)

ونأتى إلى ثانى الوقائع المهمة فى كفاح أحمد رمضان زيان، وهى تقديمه للمحكمة بسبب القضية التى عرفت بقضية صناعة القنابل، وهو يضمن مذكراته قصة المأزق الذى وقعت فيه «جمعية التضامن الأخوى» نتيجة إفشاء واحد من العمال الأرمن لسر صناعة القنابل التى كان أحمد محمد عمر قد تولاها بمعاونة هؤلاء الأرمن، وهو يشير إلى أن هذا الأرمنى قام بهذه الوشاية كرد فعل للمصادمات التى وقعت بين الوطنيين والأرمن :

« . . . كانت جمعية التضامن الأخوى تسير فى طريقها الثورى، ومرة كلفت أحد أعضائها أحمد محمد عمر بأن يصنع بضع قنابل يدوية ليستعملها أعضاء الجمعية ضد الضباط الإنجليز، وقد استعان أحمد محمد عمر ببعض السباكين الأرمن، وأن يضع ما ينتجه فى بيته وفى مقر نقابة الصنائع اليدوية، وكنت رئيس هذه النقابة، وكان أمين

صندوقها أحمد عبد السلام غالى، وكان وكيلها محمد السيد عطية، وهو ليس من أعضاء جمعية التضامن، وعندما حدثت بعض مظاهرات دامية فى باب سدرة بالإسكندرية بين المصريين الوطنيين وبعض الأرمن، ذهب سباك أرمنى كان يشترك مع أحمد محمد عمر فى صنع القنابل إلى مقابلة إنجرام رئيس القلم المخصوص بمحافظة الإسكندرية وأفضى إليه بالسر الذى كان يحتفظ به أحمد محمد عمر، وأراه واحدة من القنابل التى قام بصنعها، وقامت قيامة رجال الضبط والقلم المخصوص بالمحافظة، وقبضوا على أحمد محمد عمر والسباك وفتشوا بيته فعثروا على كميات من القنابل، ثم فتشوا نادى النقابة عندما وجدوا فى جيبه بطاقة عضوية النقابة فوجدوا عددًا كبيرًا من القنابل تمت مصادرتها، كما تم اعتقال أحمد محمد عمر».

(٢٦)

وقد كان من الطبيعى أن يتم القبض على أحمد رمضان زيان فورًا فى هذه القضية، إلا أنه يروى أنه تمكن بإحدى الحيل البارعة من أن ينجو من محاولة القبض الفورى عليه، وإن كان قد اضطر لتسليم نفسه بعد هذا:

«وجاء أحد أعضاء النقابة إلى منزلى بشارع المسافرخانة أمام سراى البارودى، وهى مقر مشيخة علماء الإسكندرية، وبسرعة ارتديت ملابسى وفوجئت بعدد كبير من الضباط والجنود المصريين والأجانب يحيطون بالمنزل والمنازل المجاورة، وبعضهم شهر أسلحته، ووجدت أن خروجى من المنزل أمر عسير، إذ إن بيتى من أربعة أدوار، والمنازل المحيطة به من دور واحد أو دورين ولا يمكننى أن أقفز بنفسى إليها، إذ إن فى ذلك كل الخطر على حياتى، وفى الحال أخذت الملاية اللف الخاصة بفاطمة الطباخة وقصة البرقع وارتديتهما وأخذت بعض الملابس تحت إبطى وخرجت من باب مسكنى، وما إن وصلت إلى الباب الرئيسى للمنزل حتى حنيت ظهرى فصار مقوسًا كامرأة عجوز، وهنا وخزنى جندى فى جنبى وخزة آلمتنى قائلاً: يالله اطلعى يا ولية».

«ومشيت حتى وصلت إلى شارع سيدى داود الذى يتصل بشارع سيدى الحجازى، ولما تأكدت من عدم وجود أحد يتبعنى ركبت عربة اتجهت بى إلى منزل الحداد، بجوار

سيدى البوصيرى، حيث تقيم حماتى، وقد قلت لها إننى مضطر للاختفاء بضعة أيام فبكت بكاء حارًا، كما أغمى على ابنتها الصغرى ، وغادرت المنزل إلى باب سدرة بالقرب من عمود الصوارى، حيث يسكن أحد الأعضاء بجمعية التضامن الأخوى، ولا صلة له بنقابة عمال الصنائع اليدوية، وطلبت منه أن يتصل بالملازم ثان عبد الرحيم سرور الشريف بنقطة الهماميل بالمنشية الصغرى، أو بمنزله بمحرم بك لكى يحاول مقابلتى مع الحذر الشديد، وبعد ساعتين جاءنى عبد الرحيم سرور الشريف فطلبت منه البحث عن أحمد عبد السلام غالى، ومحمد سيد عطية، وأحمد محمد عمر، وأن يطلب منهم أن ينكروا إنكارًا قاطعًا وجود أية علاقة بينهم وبين القنابل، كما طلبت من غالى وعطية أن ينفيا وجود علاقة بينهما وبين أحمد محمد عمر، وفى اليوم التالى زارنى الشريف وحمل إلىّ نبأ اتصاله بغالى ومحمد السيد عطية، وفى اليوم الثالث زارنى عبد الرحيم سرور وأخبرنى بأن إنجرام قبض على أخوى محمود ورمضان، وتهديده بأنه سيعتقل كل رجل فى العائلة إذا طال اختفائى، وقررت تسليم نفسى، وفعلاً سلمت نفسى لإنجرام الذى أكد لى أنه كان سينفذ تهديده بالقبض على كل أفراد عائلتى، وسألنى إنجرام: كنت فين؟ وأنا رايح أعلقك على المشنقة إذا ما قلتش لى كنت فين؟ وقلت له: كنت فى بيت واحدة صاحبتى، وقال لى: دى مش لها راجل؟ قلت له: راجلها متغيب فى الأرياف، وسألنى: مين هو؟ قلت له: لا يمكن أن أذكر اسمه أو اسمها، ولا حتى عنوان منزلها، إذ إن فى ذلك خراب بيتها، وفضيحة لى ولها، فلا تحاول معى، وعندك المشنقة، وكان كل ما قلته كذبا فى كذب، وكان إنجرام يتحدث اللغة العربية واللغة العامية بطلاقة».

(٢٧)

ونحن نرى أحمد رمضان زيان قد لجأ هو ومحاموه إلى كل الوسائل التى تمكنهم من الحصول على حكم مخفف من المحكمة البريطانية، وقد قادهم هذا إلى ما يرويه صاحب المذكرات نفسه من أنهم قاموا بضرب زميلهم الذى اعترف بالكرباج ومداواته حتى تظهر عليه آثار التعذيب، وهكذا تصور الاعترافات على أنها كانت وليدة التعذيب، كذلك نرى حرص هذه الجماعة على توكيل محام أجنبى يجيد الإنجليزية

واستيعاب قوانينها، وذلك على الرغم من الأتعاب الباهظة جدًا التى تقاضاها هذا الرجل، ولا ننسى أن الوقائع حدثت فى بداية القرن العشرين، ومع هذا قد حصل ذلك المحامى على ثلاثمائة جنيه:

« . . . وقد قضيت ليلة فى غرفة السجن بمحرم بك حيث الظلام والرطوبة، وحيث لا يوجد فراش ولا غطاء، وفى اليوم التالى قابلنى إنجرام فى مكتبه بكوم الدكة وحقق معى فى موضوع القنابل وعلاقتى بأحمد عمر، كما سألنى عن اليوزباشى محمد فهمى أبو لبن فنفيت له معرفتى له، ولكنه قال: أبو لبن بيقول إنه بيعرفك، قلت له: هاته، وتحديته، وكنت على ثقة بأنه لن يستطيع الإتيان بأبو لبن الذى نجحنا فى تهريبه، وأودعنى إنجرام فى سجن الحضرة، وقبض على أحمد عبد السلام غالى، وأفرج عنه، ثم قبض على محمد السيد عطية، ومحمد الشافعى، وتمت إحالتنا إلى محكمة عسكرية عليا انعقدت بمحرم بك، وكان المدعى العام مفتش الضبط بمحافظة الإسكندرية يهوديًا اسمه بلانتر، وترافع عنى الأستاذ العرارجى، وعن محمد السيد عطية الأستاذ عبد الفتاح الطويل، واستعان العرارجى والطويل بمحام إنجليزى اسمه جاوش قبض ثلاثمائة جنيه مصرى قبل المرافعة، وقد اعترف أحمد محمد عمر اعترافًا كاملاً، انصب كله فوق رأسى، وكان لابد من عمل ترتيب معين لهدم هذه الاعترافات» .

«واستقر رأيى والأستاذ العرارجى، وكان يقابلنى باستمرار فى السجن عند إبراهيم صفوت بك مأمور السجن، على أن نقول إن اعترافات أحمد محمد عمر كانت تحت تأثير الضرب والتعذيب والتجويع، وطلبنا من إبراهيم صفوت أن يحضر محمد عمر لكى يتم جلده بالكرباج لتحدث به بعض الجروح، وقبل عمر بالجلد بالكرباج بعد أن أفهمناه أن الجلد هو السبيل الوحيد لتبرئته، وفعلا تم جلده بمعرفتنا وضمدنا جراحه، وعندما انعقدت المحكمة العسكرية لسماع أقوال المدعى بلانتر ومعاينة القنابل وأحيلت القنابل إلى خبير إنجليزى وجاء دور الدفاع وترافع محمد العرارجى أولاً وفاجأ المحكمة بأن اعترافات أحمد محمد عمر كانت بتأثير التعذيب البدنى والتجويع والإغراء، وطلب من المحكمة أن تأمر بالكشف على ظهر المتهم حتى يتبين لها بالعين المجردة آثار الضرب والتعذيب، وما إن خلع عمر ملابسه وكشف عن ظهره حتى رأت المحكمة

بقايا آثار الضرب، ونظر رئيس المحكمة إلى أعضائها مندهشًا مستغربًا، واستمر العرارجي المحامي في مرافعته وكان يجيد الإنجليزية يومين كاملين، وترافع الأستاذ عبد الفتاح الطويل عن محمد السيد عطية، ثم ترافع عنا المحامي المالطي الذي كان قد تجنس بالجنسية الإنجليزية جاوش، وانتهت المحاكمة وتأجل النطق بالحكم خمسة عشر يومًا، وفي الموعد المحدد للنطق بالحكم وصل إلى سجن الحضرة ضابط كبير بصحبة أربعة ضباط آخرين وألقى الحكم علينا بالإنجليزية، ثم تلا باللغة العربية فيما بعد، وهو:

«أحمد رمضان زيان ثلاث سنوات أشغال وغرامة ٥٠٠ جنيه ومراقبة سنتين».

«محمد الشافعي: سنتين ونصف».

«محمد السيد عطية: سنتين ونصف».

«وكان الحكم ينص على أن مدة السجن التي قبل صدور الحكم لا تحتسب، بل ينفذ الحكم بأكمله من يوم صدوره، وقد قضيت المدة المحكوم عليّ بها كاملة غير منقوصة».

«كانت أفضال إبراهيم صفوت بك مأمور السجن لا تعد ولا تحصى، ليس بالنسبة لي وحدي، بل بالنسبة لزملائي أحمد مختار المتهم في قضية المنشورات ضد الخديوي، ومحمد فؤاد عثمان ضابط منطقة بوليس كوم الحنش الذي سبقت الإشارة إليه».

(٢٨)

ونأتي إلى ثالث القضايا المهمة التي تلقي هذه المذكرات بالضوء عليها، وهي قضية اغتيال السردار لي ستاك، وتتمثل في رواية أحمد رمضان أهمية خاصة؛ لأن الهلباوي الذي كشف سر الجمعية الفدائية كان في الأصل من خلية صاحب المذكرات، وقد بدأ نشاطه الفدائي في الإسكندرية حيث كان يعمل مدرسًا في الجمعية الخيرية الإسلامية على نحو ما أشار رمضان زيان نفسه، ونقلنا عنه في فقرات سابقة، وربما يدعونا هذا إلى التأمل في تردد الهلباوي فيما بعد خروجه من السجن على القاهرة وعدم رضاه بالاستقرار في الإسكندرية بعد خروجه من المعتقل.

ونحن نجد أحمد رمضان زيان حريصًا على أن يسجل المفارقة المرتبطة بنجيب الهلباوى فيما بين محاولة اغتيال السلطان حسين، وحادثة اغتيال السردار فيقول إنه إذا كانت مؤامرة اغتيال السلطان حسين قد كشفت بسبب عقب سيجارة ألقاه نجيب الهلباوى، فإن مؤامرة اغتيال السير لى ستاك سردار الجيش المصرى قد كشفت بواسطة نجيب الهلباوى نفسه.

وهو يعود بذاكرته مشيرًا إلى السبب فى اختيار الهلباوى لاغتيال السلطان حسين:

«ما إن عزمت الجمعية على اغتيال السلطان حسين كامل وحسين رشدى الذى كان يصاحبه فى صلاة الجمعة، حتى راحت تختبر الأعضاء الذين يصلحون لتلك المهمة، والذين يتميزون بالقوة والبأس والجرأة، وصدق الإخلاص، تقدم محمد نجيب الهلباوى بشجاعة، وبعزم وإقدام للتطوع لإلقاء القنبلة، ووقع اختيارنا عليه، غير أن القنبلة لم تنفجر، وكان نصيب الهلباوى ومحمد شمس الدين الإعدام الذى استبدل به الأشغال الشاقة المؤبدة».

(٢٩)

ويروى أحمد رمضان زيان بعضًا من المعاناة التى عاناها الهلباوى بعد خروجه من السجن، ويتحدث عن محاولات أعضاء الجمعية فى الإسكندرية مساعدته فى الوقت الذى لم يكن شفيق منصور يسمح له حتى بمقابلته(!!) ولقائه والحديث إليه، وفى الوقت الذى تنكر فيه النقراشى وأحمد ماهر مع قدرتهما على إلحاقه بأية وظيفة حكومية أو غير حكومية، ومن الجدير بالذكر أن هناك وجهة نظر أوردها إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته حيث أشار إلى أن وزارة سعد زغلول كانت قد هيأت وظيفة للهلباوى، ومن الجدير بالذكر أن هناك وجهة نظر ثالثة أوردها الدكتور السيد باشا فى مذكراته حين أشار إلى أنه لاحظ أن الهلباوى كان يعيش فى مستوى أعلى مما هو متوقع وفسر هذا بالأموال التى كان يحصل عليها بسبب انضوائه المبكر للعمل مع أجهزة الأمن السياسى، وهو ما يتصور السيد باشا أنه حدث نتيجة اتفاق قبله الهلباوى فى أثناء قضائه فترة السجن:

«. . . وقد ظل الهلباوى وزميله فى السجن إلى أن أفرج عنهما فى سنة ١٩٢٣م، والتحق شمس الدين بوظيفة فى مجلس النواب، وظل نجيب الهلباوى عاطلاً عن العمل، ولما كان الهلباوى من أسرة فقيرة فى بلدة أبا الوقف بالصعيد، فقد كان يتردد بين القاهرة والإسكندرية طالبًا الحصول على وظيفة، وكان ينزل فى ضيافة اليوزباشى حافظ محمد قبودان، وهو بالاستيداع، أو بمنزل عبد الله حسن عوض، وكنا نمده بالمعونات القليلة من المال، وكان محمد نجيب الهلباوى دائم الشكوى من الدكتور شفيق منصور، زميله فى الجمعية، حيث كان يتركه فى مكتبه بالساعات دون أن يقابله فى الوقت الذى يقابل فيه غيره من الناس، إلى أن يجىء وقت انصراف الدكتور شفيق منصور من مكتبه فيعتذر للهلباوى عن عدم مقابلته بدعوى ضيق ذات اليد، وقد حاولنا مرارًا أن نلحق الهلباوى بعمل ما فى الإسكندرية فلم نوفق، وحاول بعض زملائنا أن يلحقوه بعمل فى القاهرة، فلم يوفقوا أيضًا، إذ تنكر له محمود فهمى النقراشى، كما تنكر له أحمد ماهر، وكان فى إمكانهما إلحاقه بأية وظيفة، حكومية، أو غير حكومية، تأثرت نفسية الهلباوى، وخاصة عندما رأى زميله محمد شمس الدين يعمل موظفًا بمجلس النواب ويتناول مرتبًا لا بأس به بالرغم من أنه من عائلة على شىء من اليسر، ورأى نفسه وهو الفقير لا يعمل، بل ينتقل من القاهرة إلى الإسكندرية ليستجدى معونة إخوانه، وكنا من جهتنا نحاول تخفيف ألمه وحزنه فنبالغ فى حسن استقباله، ونقدم له كل ما نستطيع من عون . . وغاب عن الإسكندرية وقتا قصيرا».

(٣٠)

ويورد أحمد رمضان زيان بعض التفصيلات الملتبسة عن دور الهلباوى فى الإيقاع بالخلية التى اغتالت السردار، ونحن نرى الهلباوى فيما يرويه أحمد رمضان زيان لا يكتفى فى مؤامرته بالضحايا، وإنما هو يشرك أصدقاءه فى الإسكندرية فى المؤامرة، ومع هذا فإنه لا يعترف عليهم فى اعترافاته التفصيلية، وهو يبرر هذا لمن سأله بأن إخوانه من جمعية الإسكندرية كانوا يبرونه، على حين كان أعضاء الجمعية بالقاهرة يتجاهلونه(!!) كما نرى سلوك الهلباوى فى بداية مؤامرته لا يتناسب مع ما انتهت إليه المؤامرة، وهذا على كل حال هو شأن التآمر الطارئ الذى لا يخلو من التردد فى أثناء

تآمره، وهو ما نذهب إليه، كما أننا نميل إلى قبول كثير من عناصر رواية الدكتور السيد باشا التى تتضمن إشارات واضحة إلى قوى أخرى أسهمت فى دفع عجلة الأمور إلى ما سارت إليه بالفعل:

«. . . حضر محمد نجيب الهلباوى إلى الإسكندرية وقابل يعقوب صبرى وأسر إليه بأن ولدى عنايت سيقبض عليهما بسبب اشتراكهما فى قتل السردار، وأنه يعمل على إنقاذهما من القبض عليهما عن طريق تهريبهما إلى مرسى مطروح، ثم إلى طرابلس الغرب، وما كان يعقوب صبرى ليشك أو يرتاب فى نجيب الهلباوى وهو الذى يعرفه تمامًا، ويعرف سيرته فى الجمعية، ومواقفه، وجاءنى يعقوب صبرى يطلب دعوة عبد الله حسن عوض، واجتمعنا نحن الثلاثة حيث روى لنا يعقوب صبرى القصة التى سمعها من نجيب الهلباوى، كما أخبرنا بأن محمد نجيب الهلباوى سوف يجىء إلى الإسكندرية برفقة عبد الحميد عنايت وعبد الفتاح عنايت ووافقنا على الخطة على أن يبيت الثلاثة (الهلباوى، وعبد الحميد، وعبد الفتاح) ليلة أو ليلتين عند يعقوب صبرى، ثم ينتقلون إلى منزل عبد الله حسن عوض، وبعده إلى منزلى، وذلك حتى يتم إخفاؤهم عن الأنظار تمامًا، وبعدها نختار دليلاً ليرافقهم عبر الصحراء، واتفقنا على أن نقابل الهلباوى وولدى عنايت بجوار سينما عباس، أمام مسجد سيدى البوصيرى فى منتصف ليلة حددناها، وتوالت اجتماعاتنا، وأعددنا كل شىء بإحكام، وانتظر يعقوب صبرى بجوار سينما عباس قبل الموعد المحدد بأكثر من ساعة، وبعده بأكثر من ساعتين دون أن يصل الهلباوى وزميلاه، وانصرف يعقوب صبرى واجتمعنا والوساوس تملأ صدورنا، وقررنا الانتظار فى الليلة التالية أيضًا فلم يجىء الثلاثة، وازدادت الهواجس، وخشينا أن يكون البوليس قد قبض عليهم، وبعد ثلاثة أيام طالعتنا الصحف بالقبض على ولدى عنايت وهما فى قطار السكة الحديد عند محطة الحمام بينما كانا يرتديان ملابس العربان، هاربين من البوليس، وتذكرنا أن الحكومة قد أعلنت عن مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يدل على قتلة السردار، ثم تبين لنا فيما بعد أن محمد نجيب الهلباوى هو الذى خان الجمعية وأصبح مجندًا لخدمة القلم الخصوصى».

(٣١)

وعند هذا الحد يبدأ أحمد رمضان زيان فى الحديث بطريقة المونولوج النفسى المعبر عن الحيرة، وهو يحاول أن يقدم الإجابة التقليدية التى مال إليها أعضاء الحزب الوطنى وأعضاء الجمعيات السرية دون أن يفكروا فى أبعاد أخرى للتآمر قد تكون خافية عليهم، وهو يطرح علينا ما يبدو أنه نتيجة للحوادث التى دارت فى محاولة لتفسير هذه المعضلة :

«ووقعنا جميعًا فى حيرة بالغة، كيف يمكن أن يتحول المجاهد الوطنى، والفدائى المخلص الشجاع إلى خائن لوطنه وأهله وجماعته؟! ورحنا نتساءل عن السبب الذى دفع الهلباوى لارتكاب جريمته، والذى حال بينه وبين إحضار ولدى عنايت إلى الإسكندرية لإنقاذهما من البوليس، وتهريبهما؟ ثم ما الذى دفعه إلى أن يوقع ببعض الأعضاء ويعترف عليهم؟!».

«إن العقل لفى حيرة، كيف نفسر خيانة محمد نجيب الهلباوى وهو الذى كان رجلاً قويًا، مخلصًا، شجاعًا، يتلقى الحكم عليه بالإعدام وهو يضحك».

«وأخيرًا استقر رأينا على أن السبب الرئيسى فى خيانة الهلباوى هو أنه رأى زملاءه فى الجمعية يصبحون وزراء، بينما هو عاطل عن العمل لا يجد ما يقتات به هو وأبوه، وأسرته، لقد امتلأ قلبه بالحقد على زملائه، فتصرف ذلك التصرف الجنونى. لقد تنكر شفيق منصور، وأحمد ماهر، والنقراشى لزميلهم فى الفداء والتضحية، بينما تلقفه القلم السياسى الخصوصى ليعرض عليه النعم، وليحدد له مرتبًا كبيرًا، والغريب أن ذلك كله يحدث ومحمود فهمى النقراشى يسيطر على وزارة الداخلية».

«استجاب نجيب الهلباوى لنداء الخيانة، وحصل على مكافأة العشرة آلاف جنيه وعلى المرتب المغرى، ليهدر دم زملاء له أبرياء قال عنهم : إنهم خونة مثلى».

«ولكن لماذا لم يقم محمد نجيب الهلباوى بإحضار ولدى عنايت إلى الإسكندرية كما اتفق مع يعقوب صبرى، بينما كان فى استطاعته لو جاء بهما إلى الإسكندرية لتم القبض علينا جميعًا؟!».

«الغريب أن نجيب الهلباوى عندما سئل من بعض زملائه عن ذهابه إلى الإسكندرية ولقائه بأعضاء الجمعية البارزين عند محاولة تهريب عبد الحميدوعبد الفتاح عنايت، فكانت إجابته: «إخوانى بالإسكندرية لم يتنكروا لى، بل أغدقوا علىّ، وساعدونى قدر استطاعتهم».

(٣٢)

ويبلور أحمد رمضان زيان فى فقرة مفيدة مدى الخسارة أو النكسة التى حاقت بالحركة الوطنية السرية نتيجة لاعترافات نجيب الهلباوى، مشيرًا إلى أن هذه كانت المرة الأولى منذ إنشاء الجمعية فى ١٩٠٦م التى عرفت فيها اسم الجمعية وبعض شخصاتها المهمة. كما يحرص الحاج أحمد رمضان زيان فى هذه المذكرات على الإشارة إلى النتائج السلبية التى ترتبت على اعترافات شفيق منصور الصحيحة والزائفة على حد سواء:

«تولى طاهر نور باشا - النائب العام - التحقيق فى حادث قتل السردار، وتبين لنا أن عنده معلومات خطيرة، وعميقة عن الجمعية، هذه المعلومات لا بد أنه حصل عليها من القلم الخصوصى، والقلم السياسى. الخصوصى هذا لابد أنه تلقاها من نجيب الهلباوى، بعد أن اتضح لنا أن الهلباوى استغل ثقة ولدى عنايت ومَنْ اشتركوا فى حادث مقتل السردار به، ولذلك توقعنا القبض علينا بين آونة وأخرى، وجد طاهر باشا بين يديه أسماء هامة وخطيرة من بين أسماء الجمعية، كشفيق منصور، وسليمان حافظ، وأحمد رمضان زيان، ومصطفى حمدى، وحافظ محمد قبودان، وعبد اللطيف الصوفانى، وأحمد ماهر، والنقراشى وغيرهم وغيرهم، ولأول مرة منذ أن أنشئت الجمعية فى سنة ١٩٠٦م عرف اسم الجمعية، وعرفت بعض شخصياتها الهامة».

. . . .

«فإذا أضفنا إلى موقف الهلباوى واعترافاته التى أساءت إلى أعضاء الجمعية إساءات بالغة، اعترافات الدكتور شفيق منصور الصحيحة والزائفة، وثرثرته التى كان يحاول

بها أن ينفى التهم عن نفسه، ويلصقها بغيره، أمكننا أن نعرف الموقف السيئ الذى مر بنا جميعًا».

(٣٣)

وفى إطار حديث أحمد رمضان زيان الآسف على المصير الذى انتهى إليه العمل السرى بسبب خيانة الهلباوى، نراه يشير إلى خطورة سياسة البوليس السرى الخفية التى استهدفت إغراء أعضاء الجمعية بمبلغ المكافأة الذى رصدته الحكومة، ومن الجدير بالإشارة إليه هنا ما يرويه الدكتور سيد باشا من أن هذا البوليس السرى كان يحاول تكرار التجربة فى القضية التالية التى سميت «قضية الاغتيالات السياسية» عارضًا أموالاً مضاعفة لما دفع من قبل فى قضية السردار:

«كان مبلغ العشرة الآلاف جنيه، وهو مبلغ له قيمته فى سنة ١٩٢٥م، هو فاتحة الشهية بالنسبة للكثيرين، كان قد تحرر شيك بالمبلغ لحامله على البنك الأهلى المصرى، وكان عمر حماد وإنجرام بك يعرضانه على كثيرين منا فى الإسكندرية، وفليبدس وسليم زكى يعرضانه على الكثيرين بين رفاقنا بالقاهرة، وكانت صيغة العرض لا تكاد تختلف فى حالة عنها فى الأخرى «خذ هذا الشيك واقبضه لنفسك وتعالى هنا وقل ما عندك ولا تخف شيئًا، فأنت فى حماية الحكومة»، وقد رفضه الجميع بيما كان الأعضاء الذين عرض عليهم الشيك لا يملك الواحد منهم جنيهًا واحدًا».

(٣٤)

ويحرص أحمد رمضان زيان على أن يشير إلى حقيقة موقف شفيق منصور من التخطيط لاغتيال السردار، وتأتى إشارته سريعة وعابرة لكنها واضحة فيما تدل عليه مما يتوافق مع ما أشار إليه عبد العزيز على فى مذكراته من أن شفيق منصور لم يكن له دور فى مقتل السردار، ولم يكن موافقًا على العملية، كما أن ما يرويه أحمد رمضان زيان لا يتعارض تمامًا مع ما رواه الدكتور السيد باشا من تفسير لسير الأمور فى عملية اغتيال السردار وموقف شفيق منصور من العملية:

«وتمضى بنا الأيام بطيئة للغاية حتى أفرج عن أحمد مختار، وأفرج عنى بعد ستة أشهر من الإفراج عن أحمد مختار، وأصبحت بعد الإفراج عنى تحت مراقبة شديدة للغاية، أدخل منزلى وقت المغرب، ولا أخرج منه إلا فى الصباح فى الوقت الذى كانت فيه الجمعية تقوم باغتيال الضباط الإنجليز وتلقى الرعب فى قيادتهم، ورغمًا عن انضمام شفيق منصور وأحمد ماهر ومحمود النقراشى إلى جانب الوفد، الأمر الذى أدى إلى وجود حالة تفكك ويأس فى جماعتنا، وفكر البعض فى اغتيال سير لى ستاك سردار الجيش المصرى، ولما رجعوا إلى الدكتور شفيق منصور عارضهم، إلا أنهم أجمعوا أمرهم».

(٣٥)

ونأتى إلى قضية رابعة حشد لها البوليس السرى كل إمكاناته فى أعقاب الكشف عن حقيقة مقتل السردار، وتتعلق هذه القضية بأعضاء التنظيمات الوطنية السرية المختلفة وعلاقتهم بالاغتيالات السياسية.

وينفرد أحمد رمضان زيان برواية قصة مثيرة عن اهتمام السلطات بتقفى أثر الضابط مصطفى حمدى الذى كان قد قتل وهو يدرب أعضاء الجمعية، وإلى البحث عن الفدائى الذى بعث إلى أسرته بمبلغ مائتى جنيه بحوالة بريدية، ومن المذهل أن نعرف من هذه المذكرات أن هذا (الفدائى) كان هو سليمان حافظ نفسه:

« . . . وكان من الأمور التى وقف عندها طاهر نور باشا طويلاً ما جاء على لسان الهلباوى من أن الجمعية سبق أن بعثت بمائتى جنيه إعانة إلى والدة المرحوم مصطفى حمدى، الذى قُتل بينما كان يدرب أعضاء الجمعية فى جبل المقطم، وحصل المحقق على استمارة البريد التى بمقتضاها حول المبلغ إلى والدة مصطفى حمدى».

«وقف التحقيق طويلاً عند نقطة المائتى جنيه، وكانت اعترافات الهلباوى وشفيق منصور أن الأستاذ سليمان حافظ (المستشار ووزير الداخلية فى أوائل ثورة ١٩٥٢) هو الذى أرسل المائتى جنيه إلى والدة مصطفى حمدى، وأنه اشترك مع المرحوم عبد اللطيف الصوفانى فى دفن جثة المرحوم مصطفى حمدى، ونشطت الجمعية نشاطًا

خطيرًا فى درء الخطر عن أعضائها، فزودت الأعضاء بما يجب أن يصرحوا به فى التحقيق، وخاصة علاقاتهم ببعضهم، وجندت كثيرًا من الشهود وموهت وميعت كثيرًا من المواقف».

(٣٦)

ونأتى إلى الانفراد الذى يصور الدور الحاسم الذى لعبه خبير الخطوط على سعودى فى إبعاد الشبهة عن سليمان حافظ، ومن المدهش أن ينسب أحمد رمضان زيان السبب فى اتخاذ خبير الخطوط لهذا الموقف إلى رؤيا رآها فى المنام وتكررت على مدى يومين، وهو يشير إلى أن القصة التى سمعها تبدو خيالية، لكنه سمعها بنفسه من صاحب الشأن وهو الخبير على سعودى فى حضور سليمان حافظ نفسه:

«أمر النائب العام بتفتيش مكتب سليمان حافظ، ومكتب محمد العرارجى، وغيرهما، وكلف رجاله بأن يأتوا إليه بنماذج من خطوط سليمان حافظ والعرارجى، وغيرهما، ثم أحال هذه الخطوط إلى الخبير على سعودى الذى يعد أبرز الخبراء فى مصر، ولم تكتف الحكومة بإحالة الخطوط على الخبير، بل منته بمكافأة كبيرة إذا ما جاء تقرير الخبير إيجابيًا، ولتقرير الخبير على سعودى قصة، ولولا أننى سمعتها بأذنى من المرحوم على سعودى نفسه ومعى سليمان حافظ والعرارجى فى مكتبهما لقلت إنها قصة خيالية».

«ففى مساء يوم من أيام عام ١٩٣٧م، لا أذكره بالضبط، كلمنى سليمان حافظ من مكتبه طالبًا منى الإسراع بمقابلته، وما إن دخلت عليه حتى وجدت معه إلى جانب الأستاذ العرارجى، رجلاً قصيرًا، أسمر الوجه، نحيف الجسم، وقدمه إلى بقوله: الأستاذ على سعودى الخبير. وأضاف الأستاذ سليمان حافظ قائلاً: لقد طلب الأستاذ على أن يراك خاصة وقد مضت ثلاثة عشر عامًا على حادث مقتل السردار، وبدأ الأستاذ على سعودى يحدثنا عن الظروف التى أحاطت به أيام أن كلف بمهمة فحص الخطوط الخاصة باستمارة البريد التى أرسلت إلى والدة المرحوم مصطفى حمدى، وكنا ثلاثة، وكان هو رابعنا، وقال الأستاذ سعودى بالحرف الواحد: «طلب منى النائب

العــام طاهر نـور باشــا أن أفـحص كـافـة الخطوط التى قـدمت لى لمعـرفـة خط كـاتب الاسـتـمـارة، وقـد اكـتشفت للوهلة الأولى أن الاسـتـمـارة كـانت بخط سليـمـان حـافظ، وشرعت فى كتابة تقرير، ولما كـان من عادتى أن أكتب فى الساعات الأولى من الليل ومـا إن اسـتـغـرقت فى النوم حتى رأيت رجلاً عـمـلاقًا يقف أمامى بلحيته الطويلة، وعمامته يقول لى: «حذار أن تكتب شيئًا ما عن سليمان حافظ»، وقمت مذعورًا، وخشيت أن يكون هذا الرجل قد دخل على حجرة نومى ولم أجد أحدًا فقلت: لعلها أضغاث أحلام، وفى اليوم التالى باشرت كتابة التقرير ولم يبق فيه إلا القليل وقمت لأنام ومـا إن مضت فـترة حـتى اسـتـغـرقت فى النـوم وإذا بى أرى نفس الرجل بلحيته الطويلة وعمامته واقفًا أمامى وبيده عصا طويلة يخاطبنى بلهجة حادة، وغضب شديد: «يا علىّ، ألم أحذرك بالأمس من كتابة شىء ضد سليمان حافظ، إنك إن فعلت فسوف يلحقك ضرر لن تستطيع احتماله»، فقمت من نومى مذعورًا، ومـا إن تمالكت أعصابى وهدأت نفسى حتى عمدت إلى الورق الذى كتبته بالأمس أمزقه قطعًا صغيرة، وقدمت تقريرى سلبيًا، لم أتهم أحدًا، وضاعت علىّ المكافأة الكبيرة التى وعدت بها».

«وعندما أنهى الأستاذ على سعودى قصته سألنى: ألم يكن الأستاذ سليمان حافظ أحد الذين اشتركوا فى كتابة الاستمارة؟ وضحكت قائلاً: «بعد خمسة عشر عامًا أستطيع أن أجيبك»، وكنت أعنى بعد انتهاء المدة القانونية لزوال أثر الجريمة».

(٣٧)

ونعود من هذه القصة المثيرة لنطالع ما يرويه أحمد رمضان زيان فى فقرات مبكرة من مذكراته من أنه كان على صلة بالضابط مصطفى حمدى حين كان ذلك الرجل لايزال ملاحظًا لنقطة أبو جنزير فى الفيوم، وأنه كان يتردد عليه، وأنه كان يبرر هذا التردد ويغطيه بتجارة يقوم بها ويزعم أنه سيتزوج أخت مصطفى حمدى، لكن البوليس قبض عليه فى الإسكندرية وأودعه فى قسم محرم بك، ثم رحله إلى الفيوم ووجه إليه التهم هناك بناء على ما حدث من وقوع زكى شكرى فى يد البوليس:

«فى أوائل عام ١٩١٦م كنت دائم التردد على الفيوم وأبو جنزير فى الفيوم، كنت أقابل الحاج رياض موسى، وفى أبو جنزير كنت أقابل الضابط الملازم مصطفى حمدى ملاحظ نقطة أبو جنزير، ولكى أبرز ترددى عليه وبسببه، كنت أشترى كميات من الأرز الشعير الفيومى وأشحنها بمعرفة الحاج رياض إلى رشيد، أما مصطفى حمدى فكانت له أخت واتفقت معه على خطبتها، رغم كونى متزوجًا، وذلك من قبيل التمويه فقط».

«وفى مايو ١٩١٦م ألقى القبض علىّ واحتجزت بقسم محرم بك ثلاثة أيام، وكان إنجرام يستدعينى إلى قصره بكوم الدكة ليسألنى عن بعض الضباط أمثال اليوزباشى فهمى أبو قير الذى أمكننى تهريبه إلى تركيا عن طريق ميناء بيريه باليونان، وعن اليوزباشى أحمد نبيه قبودان، وأبو زيد مقلد وغيرهم».

«ولم ألبث فى قسم محرم بك أكثر من ثلاثة أيام حتى صحبنى اثنان من رجال البوليس السرى مكبلاً بالحديد إلى الفيوم حيث أوصلانى إلى المركز، وعرضانى على المأمور، ومعاون المركز، وقد عرفت معاون المركز، إذ كان من أهالى الإسكندرية ويقع منزله خلف منزلى بشارع جودة برأس التين، وهو يعرفنى حق المعرفة، لكنه ما إن رآنى حتى كاد يختبئ فى ملابسه، ثم تظاهر بأنه لا يعرفنى وظهر عليه الارتباك والخوف، وما إن رأيته كذلك حتى تركته وشأنه حتى لا أحرج مركزه، وقد قام بواجبه الرسمى فقيد اسمى وقام تجاهى بالإجراءات التى تتبع فى مثل هذه الظروف، أما المأمور فقد تلقانى باهتمام مشجعًا لى ومواسيًا، ثم أمر أحد رجاله بإعداد غرفة لى فى سجن المركز وأعطانى الغطاء الكافى، وطلب منه تلبية جميع رغباتى، وقد شكرته بالطبع، وفى اليوم التالى لوصولى إلى الفيوم استدعانى مفتش الداخلية بالمديرية ووجه إلىّ تهمة مساعدة الأعداء وتهريب المؤن والذخائر والضباط إلى آخره، وكان يجلس بجانبه مفتش إنجليزى ظهر أنه صاحب النهى والأمر، وشخص آخر، وقلت للمفتش: إننى لن أجيب عن أسئلتك ما دام هذان الرجلان باقيان فى غرفة التحقيق، وتكلم المحقق بالإنجليزية مع المفتش وما إن أتم كلامه حتى رأيت المفتش الإنجليزى يخرج من القاعة ووراءه الأفندى الآخر».

«وما إن خرج المفتش وصاحبه حتى طلب المحقق لى فنجان قهوة، وطلب من سكرتيره أن يحضر أوراقًا من خارج القاعة وأصبحت أنا والمحقق فقط، ورأيت المحقق

يشكرنى لأننى خلصته من هذا الكابوس، ثم سألنى : ألك نسيب يعمل مفتشًا بالداخلية؛ قلت : نعم، قال : يؤسفنى أن أخبرك أنه تبرأ منك وتنصل من معرفتك، وقلت : إذا فعل هذا فهو جبان، قال المحقق : سأساعدك، وحضر لى سكرتير التحقيق وتبين لى أن المقبوض عليهم حوالى ١٢٠ شخصًا منهم الحاج رياض موسى، ومصطفى حمدى، وزكى شكرى، وأحمد والى الجندى، وعرفت أن كل هؤلاء الـ ١٢٠ قد اعتقلوا بسبب القبض على اليوزباشى زكى شكرى، وقد نقلنا جميعًا إلى «السجن الأسود» بالجيزة».

(٣٨)

ويشير أحمد رمضان زيان بكل ارتياح إلى السبب الذى ساعده على أن ينال الإفراج السريع، وهو أن ضباط البوليس أنفسهم ومساعديهم كانوا يقدمون له ولزملائه معلومات قيمة وخطيرة مكنتهم من الخلاص من الاتهامات :

«استدعانى المحقق، كما استدعى كثيرين من زملائى، ووجه إلينا اتهامات خاصة ببعض اغتيالات للضباط الإنجليز، نفينا عن أنفسنا بالطبع هذه التهم ثم أفرج عنى وعن بعض مَنْ كانوا معى، ولذلك لسبب رئيسى وهام هو أننا كنا قد نجحنا فى تجنيد كثيرين من ضباط البوليس وجنوده، بل استطعنا أن نجند رجال البوليس السياسى ومخبريه ومرشديه فى القلم الخصوصى فى محافظة الإسكندرية لصالحنا، أذكر من بينهم طوسون زكى الذى كان يأتينى بمعلومات دقيقة وهامة وخطيرة فى الوقت نفسه، وأذكر من بينهم أحمد رفعت الذى كان على صلة باليوزباشى حافظ محمد قبودان، وكنا نستفيد استفادة بالغة من المعلومات التى تأتينا، وكذلك [بعض] الإجراءات التى ينوون اتخاذها ضدنا فنحتاط لكل شىء».

(٣٩)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فإن أحمد رمضان زيان يقدم تفصيلات مثيرة تنبئ بمدى ما كان أعضاء الجمعية يتميزون به من ذكاء مفرط استغلوه فى حماية أرواحهم من

محاولات البوليس المكثفة والمستمرة للإيقاع بهم، وهو يروى قصة الموظف الإيطالى الذى ظل مجاورًا لهم فى كبائن الإبراهيمية يدخل كابينتهم ويدخلون كابينته لمدة طويلة، ويعاملهم معاملة الأصدقاء بينما هو موظف فى البوليس السياسى. كما يروى أنهم كانوا يلجئون إلى السباحة بعيدًا عن الشاطئ حتى تتاح لهم فرصة الحديث المنفرد إلى بعضهم لنقل أخبار الشخصيات والإيقاعات والمؤامرات المحيطة بهم:

« . . . كان لا بد لنا من أن نقوم بخطوات لإحباط مؤامرة القلم الخصوصى والعمل على تضليله، وقفنا اجتماعات اللجنة الرئيسية، جعلنا الاتصالات بين أعضاء اللجنة الرئيسية على انفراد، بحيث يجتمع اثنان منهم، ويقوم أحدهما بتبليغ الثالث ما دار فى هذا الاجتماع».

«وهكذا كنا نسير على مدى ما يصل إلينا من أنباء التحقيق، وفى الوقت ذاته كنا نبالغ فى الحذر من رجال القلم الخصوصى بمحافظة الإسكندرية، وكانت أخبار التحقيق تصلنى عن طريق اثنين من رجال القلم الخصوصى بالإسكندرية، وتصل إلى اليوزباشى حافظ محمد قبودان من أحمد رفعت الذى كان يأتى من القاهرة إلى الإسكندرية لهذا الغرض فيتقابل هو وحافظ قبودان بالقهوة العثمانية لصاحبها محمد أدهم الجريتلى، وهو لم يكن من أعضاء الجمعية، لكنه كان رجلاً مخلصًا للغاية، وكان كل ما أحصل عليه من أخبار التحقيق أبلغه إلى سليمان حافظ بالطريقة التالية:

«كانت لنا كابينتان متجاورتان على شاطئ الإبراهيمية، وكنت أذهب إلى الكابينة فى الساعة الواحدة بعد ظهر كل يوم حيث يوافينى سليمان حافظ إلى كابينته فى نفس الوقت ومعه زميله محمد العرارجى، وكنت والأستاذ سليمان حافظ نجيد السباحة بعكس العرارجى، وكنا أنا وسليمان حافظ نسبح حوالى كيلومترين أو أكثر بعيدًا عن الشاطئ حيث نتحدث معا فيما وصلنا إليه من معلومات وينقلها سليمان حافظ إلى العرارجى، الذى ينقلها إلى مَنْ نريد من الأعضاء، وكان بجوارنا رجل إيطالى هو وزوجته وولداه، وبحكم الجيرة لنا نقدم لهم بعض الفاكهة والمشروبات المثلجة، كما أن الرجل الإيطالى كان يبعث إلينا - فى بعض الأحيان - بكميات وفيرة من المكرونة، وتوثقت الصلات بيننا وكنا ندخل كابينة الرجل الإيطالى، وكان هو وأولاده [يدخلون] كابينتى وكابينة سليمان حافظ، ومرة دخل سليمان حافظ كابينة الرجل

الإيطالى فوقع نظره على بطاقة صغيرة بها اسم الرجل ووظيفته، وظهر لنا أن الرجل الإيطالى ليس إلا موظفًا بالقلم السياسى «القسم الأوروبى»، واتخذنا الحيطة الشديدة، وانتهى الصيف وانتهى التحقيق وحفظنا الله والله خير الحافظين. أذكر أن الرجل الإيطالى عندما عزم على ترك كابينته دعانا: العرارجى، وسليمان حافظ، وأنا إلى وليمة غداء فى كابينته، وفى أثناء الغداء أفضى إلينا بمهمته، وذكر أنه ارتاح إلينا وأكبر فينا الوفاء والإخلاص والمحبة، كما ذكر أنه لم يستطيع أن يصل إلى أية معلومات عنا، وتولته الدهشة عندما علم أننا عرفنا وظيفته ومهمته من قبل».

(٤٠)

وفى مقابل ما يحدثنا عنه أحمد رمضان زيان من الاعتزاز بالذكاء والدهاء والقدرة والمناورة، لا تخلو الحلقات المنشورة من مذكرات هذا الرجل من التعبير الحى والصادق عن المعاناة التى لقيها الوطنيون نتيجة تعسف السلطات فى معاملتهم، وهذه فقرة مؤلمة لكنها بليغة فى وصف طريقة إعداد طعام السجون:

«كان غذاء السجن من عدس وفول وخضر، أما وجبة الإفطار فكانت عبارة عن رغيف من الأذرة العويجة يشبه قالب طوب، وقليل من الملح أو الدقة، أما وجبة الغداء فهى كروانة من العدس أو الفول يتم طهوها بالطريقة التالية: يوجد فى مطبخ السجن قزانات كبيرة تملأ بالمياه وترمى فيها أجولة الفول أو العدس بما بها من تراب وحصى وسوس وقش، ويترك الفول أو العدس إلى أن ينضح أو إلى أن يقترب من النضج، فكله زى بعضه، ثم يوضع فى جرادل توزع بالكروانات على المساجين، ومع كل كروانة رغيف، وأستغفر الله، بل قالب طوب، وتملأ الكروانة بالعدس أو الفول، وفى حالة الفول نجد طبقة على سطحها نظنها حبة البركة وما هى إلا سوس الفول، وأما العدس فهو مخلوط بالقش والحصى والأتربة».

«ووجبة العشاء كروانة من الفول أو العدس إياه، ويتخلل أيام الأسبوع مرتان فيهما خضر باللحم، أو «روح اللحم»، ولذلك كنا نحرص على أن نستحضر طعامنا من الخارج، أو نشترى غذاءنا من المسجونين الأجانب».

وهذه فقرة أخرى تبين عن تعسف ضابط السجن وقد حرص صاحب المذكرات على ذكر اسمه، كما أنه أخذ يعلق على تصرفه بما يستحق من تعقيب مستحق يعبر عن نفسية صاحب المذكرات السوية ورفضها للضيم وللعيب.

وهو يشير إلى أن روحهم الوطنية الأبية جعلتهم ينتصرون لأنفسهم وهم فى السجن، فقد أبلغوا عن مقتل أحد المساجين، واتخذت النيابة إجراءاتها وكشفت على الجثة، كما أن مأمورًا آخر كان يسىء معاملة المسجونين لقى على أيديهم العقاب الذى يستحقه، وكانت وسيلة للضغط على هذا المأمور لتحويله إلى إنسان يحسن معاملة المسجونين:

« . . . وأنا أذكر أن طبيب السجن عبد الله عزب أمر كل المسجونين فى السجن، وعددهم يزيد على الألفين وخمسمائة، بأن يخلعوا ملابسهم وملابس السجن قطعتان: قميص وبنطلون من العبك المصبوغ باللون الأزرق، وأصبح الجميع عرايا كما ولدتهم أمهاتهم بصورة تخدش الإحساس والفضيلة، وقد امتنعت وأحمد مختار ومحمد الشافعى عن خلع ملابسنا، وقد هددناه بالالتجاء إلى محامينا للاتصال بالحاكم العسكرى الذى يخضع له كل المسجونين، وكانت مشكلة عرضتنا للتعذيب لو لا أن أنقذنا منها وكيل السجن اليوزباشى محفوظ ندا».

«وأذكر أن طبيب السجن قام بضرب مسجون من كوم حمادة اسمه مرجان، فتدفق الدم من حلقه بعد ساعات وأسرعت إدارة السجن إلى دفنه دون إخطار أهله، وقد كلفنا أحد المسجونين العاديين بإبلاغ الأمر إلى رئيس نيابة الإسكندرية وبدأ التحقيق وأمر وكيل النيابة باستخراج الجثة والكشف عليها، وتم نقل الطبيب».

«وأذكر أن أحد مأمورى السجن كان يسىء معاملتنا حتى أيام رمضان ونحن صائمون، فما كان منى إلا أن أرسلت خطابًا إلى بعض زملائنا فى الجمعية لمعاقبة المأمور، وقد تم ضربه وكسرت ذراعه بواسطة أحد الأعضاء، وعندما سألنى محفوظ ندا وكيل السجن عن واقعة الاعتداء على المأمور رويت له القصة بأكملها، وكنا نثق به، وقد تحدث هو إلى المأمور ونصحه بضرورة تحسين معاملتنا وكل المسجونين، وقد استجاب لنصيحة محفوظ ندا، وتغيرت معاملته لنا تمامًا».

(٤٢)

ونأتى الآن إلى ما يرويه أحمد رمضان زيان عن بعض المغامرات التى كان لها أثر سلبى على الحركة الوطنية السرية .

يقدم أحمد رمضان زيان فى هذه المذكرات قصة المغامرة غير المحسوبة التى كان من الممكن أن تؤدى إلى كشف بعض أسرار التنظيم السرى ، ومن العجيب أن نرى البكباشى زكى شكرى يقع فى هذه الثقة المفرطة فى أحمد والى الجندى وفيمن دعاهم إلى تكوين جمعية لمساعدة الطرابلسيين ، وكانت النتيجة أن اندس بين هؤلاء عميل للبوليس السياسى وكشف محاولة زكى شكرى للهرب ، وكانت النتيجة أن حكم على زكى شكرى بالإعدام الذى خفف فيما بعد إلى الأشغال الشاقة :

«وقد طلب إلينا أن نقوم بتهريب البكباشى زكى شكرى ، وكان ضابطًا بالجيش المصرى ثم فصل لنشاطه الوطنى ، فانضم إلى الجيش التركى وأصبح شخصية مرموقة ، ومرة وصل زكى بك إلى مصر حاملاً بعض الخرائط الحربية الهامة ، وطلب إلينا تهريبه عبر مصر حيث كان يقيم فى عيادة للدكتور إسماعيل صدقى بجزيرة بدران بالقاهرة ، وكنت أقوم بمقابلة زكى شكرى وأتسلم منه بعض الرسائل الهامة لأحملها بدورى إلى عبد اللطيف بك الصوفانى الذى كان يقوم بإرسالها إلى الجهات المختصة ، وكان من عادتى أن أسافر وأعود من الإسكندرية إلى القاهرة فى قطار الصعيد الذى يقوم من الإسكندرية فى منتصف الليل ، والذى يصل إلى القاهرة فى الصباح الباكر ، وذلك ليسهل علىّ معرفة مَنْ يراقبنى أو يتبعنى من رجال البوليس ، حيث كان المارة - فى ذلك الوقت - من القلة بحيث يمكن معرفتهم» .

«ومرة وصلت إلى الإسكندرية واستقر بى المقام فى محلى التجارى بشارع سوق الترك ، وحوالى الساعة الحادية عشرة والنصف إذا بى أمام سيدة أنيقة ذات روعة وجمال ترتدى ملابس فاخرة تلقى علىّ التحية ، وتنادينى باسمى ، وأوجست منها خيفة وخشيت أن تكون جاسوسة ، ثم ألقت علىّ كلمة السر التى تعارفت مع زكى شكرى بك عليها عند زيارتى الأخيرة له ، وقد كنت مطرقًا بوجهى حياء منها ، غير أننى رفعت بصرى إليها لأنظر وجهها ، وإذا بوجهها وملامحها ودمها وزرقة عينيها هى

زكى شكرى نفسه، قلت بعد أن سألتها: من أين جئت؟ قالت: من عند زكى شكرى أخى أوفدنى إليك».

«وفكرت فى أخذها إلى مكان أمين حتى نبحث سر حضورها، وتحدثت فى الحال مع الملازم أول عبد الرحيم سرور الشريف الذى كان وقتها ضابط نقطة الهماميل بالمنشية، وأخبرته بأن يسبقنى إلى منزله بمحرم بك، إذ كان يقيم بمفرده لأنه أعزب، وكان من تعاليمنا فى الجمعية أن العضو ينفذ ما يؤمر به دون تردد أو مناقشة، ومكثت بمكتبى فترة من الوقت تكفى لأن أجد عبد الرحيم بمنزله، ومن ثم صحبت السيدة أخت زكى شكرى إلى محرم بك، وما إن دخلنا المنزل حتى رجوت الأخ عبد الرحيم سرور الشريف أن يعد غداء للسيدة، وفى أثناء تغيبه لإحضار الغداء، دار الحديث بينى وبينها على انفراد وعرفت أن اسمها سنية، وأنها حضرت من القاهرة إلى الإسكندرية بتكليف من أخيها زكى شكرى الذى قرر السفر إلى الفيوم ومنها إلى طرابلس عن طريق المنيا، وتواعدنا أنا وسنية على أن نأخذ معًا قطار الصعيد فى الليلة نفسها».

(٤٣)

وتدلنا تفصيلات ما يرويه أحمد رمضان زيان عن مناقشاته مع زكى شكرى على ما فطر عليه هذا الرجل من إجادة لمهارات العمل الفدائى، على حين لم يكن زكى شكرى يتمتع بالقدر ذاته من هذه المهارات مما قاده فيما بعد إلى ما هو متوقع من مصاعب يواجهها الذين لا يأخذون الحذر الواجب فى مثل هذه الظروف:

«... ما إن وصلت إلى القاهرة حتى توجهت فورًا للقاء زكى شكرى فى المنزل الذى يختبئ فيه بجزيرة بدران، وما إن طرقت الباب الطرقات المتفق عليها حتى فتح لى وتلقانى بلهفة شديدة، وعلمت أن أخته سنية لم تحضر بعد، وحدثته عما جرى بينى وبينها وحاولت أن أقنعه بأن يبقى فى مصر ولا يسافر، ووعدته بمخبأ فى مديرية البحيرة يكون فيه مطمئنا كل الاطمئنان، غير أنه رفض اقتراحى وصمم على السفر إلى طرابلس فقلت له: إن كان لا بد من السفر فليكن عن طريق الشيخ عبد الله شوشان بالكوم الأخضر، وهو طريق مأمون وأقرب من طريق الفيوم، وهو الطريق الذى سلكه

أخوه محمد واصف، غير أنه أصر على رأيه وذكر أن لعائلته عزبة تعرف باسم «عزبة إسحاق باشا» بالفيوم (إطسا)، ثم وصلت سنية هانم وانضمت إلى رأى أخيها، فلم يسعنى إلا التسليم وتزويده بالنصيحة وضرورة الاحتياط وعدم الاعتماد على أحد إلا إذا كان على ثقة تامة بأخلاقه، وإخلاصه، وتجاربه».

«ويهبط زكى شكرى إلى الفيوم، وبحكم وجود أطيان لعائلته هناك تعرف على أحمد والى الجندى الطالب بالحقوق وعائلته التى تمتلك أطيانًا بالفيوم. اتصل زكى شكرى بأحمد والى الجندى، وكانت تنقصه التجارب، فاتحه فى نية السفر إلى طرابلس، وتحمس أحمد والى وعمد إلى تأليف جمعية لمساعدة طرابلس، وبدون أن يدرى انضم إلى هذه الجمعية أحد رجال البوليس السرى، صمم زكى شكرى على السفر، أعد عدته، حزم متاعه وأوراقه، أقام أحمد والى الجندى ليلة سفر زكى شكرى حفل وداع وتكريم له ودعا إليها الكثير ممن اعتقد أنهم يصلحون لمثل تلك الأعمال السرية، وكان من بينهم رجل البوليس السرى ينقل أقوالهم وحركاتهم وأعمالهم وخططهم إلى الحكومة وإلى المفتش الإنجليزى لوزارة الداخلية الذى كان ينقل ما يصل إليه فورًا إلى المخابرات الإنجليزية، ويخرج زكى شكرى ممتطيًا صهوة جواد معروف لدى الخاصة والعامة فى الفيوم؛ لأنه من الخيول الأصيلة التى يملكها بدرخان بك على وكيل مديرية الفيوم، وما إن ابتعد زكى شكرى عن المدينة وأصبح فى الخلاء حتى رأى طائرة تحلق فى الجو، تمهل قليلاً، اعتقد أنه مقصود من تحركات الطائرة، جمع أوراقه فى الحال وكلها وثائق حربية وسياسية هامة، أشعل فيها النيران حتى أصبحت رمادًا، طوح به فى الهواء، ولم يبق معه إلا متاعه، بعد وقت قصير حاصرته السيارات الحربية التابعة للجيش الإنجليزى، قبض عليه، حوكم، كان الإعدام من نصيبه، استبدل بحكم الإعدام الأشغال الشاقة المؤبدة، فالأشغال الشاقة، ثم نقل إلى سجن الحضرة بالإسكندرية حيث قضينا سويًا أربع سنوات كاملة فى السجن».

(٤٤)

وبالمواكبة لهذا الحديث عن مغامرة زكى شكرى، يقدم الأستاذ صبرى أبو المجد

تعريفًا بشخصية زكى شكرى، ونلاحظ أنه كان حريصًا على أن يقحم تعليقه على المذكرات حتى إنه جعله فى متنها ويقول :

« . . . وزكى شكرى الذى ورد ذكره فى مذكرات الحاج أحمد مضان زيان مصرى عمل ضابطًا فى الجيش العثمانى بعد أن هاجر إلى تركيا لأسباب سياسية وعين واليًا للبصرة، وكان قد وفد إلى مصر فى بداية الحرب العالمية الثانية للقيام بمهمة سياسية خطيرة فى الداخل، وعندما انكشف أمره على النحو الذى ورد فى مذكرات الحاج أحمد رمضان زيان حوكم بتهمة التجسس وحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، ثم استبدل بالحكم السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وقد روى لى الأستاذ مجد الدين ناصف، أطال الله فى حياته، وهو من خيرة المجاهدين القدامى، المحاولة التى قام بها لتهريب زكى شكرى من ليمان طرة. لقد قضى زكى شكرى فترة طويلة يدرس فيها أسرار الليمان، ونظام العمل فيه، وكانت بعثة من المهندسين من قبل السلطة العسكرية الإنجليزية تمسح الأرض المجاورة لليمان لتقيم بها مخزنا للأسلحة، وقد انتهز الأستاذ مجد الدين ناصف فرصة عطلة المهندسين وارتدى زى واحد منهم وراح يباشر مع بعض زملائه الأعمال التى يباشرها هؤلاء المهندسون، وحصل على الخرائط اللازمة والخاصة برسم المحجر، ومشروع مد الخط الحديدى، وأعد العدة لتهريب زكى شكرى، ومضت الخطة فى سيرها الطبيعى، وكان زكى شكرى قد اتفق مع حارسه على أن يهرب معه، وعندما خرج زكى شكرى من سجنه عرض على الحارس ليذكره بوعده وليصطحبه معه، ولم يكن فى حسبانه أن الحارس قد استبدل به غيره، الأمر الذى كشف الخطة فى اللحظات الأخيرة حيث قبض على مجد الدين حفنى ناصف، واعتقل وأحيل إلى محكمة الجنايات برئاسة محمد صدقى باشا، وكان واحدًا من أصدقاء مجد الدين ناصف وزملائه فى الحركة الوطنية، وقد حكم على مجد الدين ناصف بالغرامة، أما زكى شكرى فقد جلدوه فى الليمان أربعا وثلاثين جلدة، وألبسوه ملابس من الخيش سنة كاملة، حتى مزقت جلده، ولم يتذكره بعد فترة طويلة، وكانت الأمور قد تبدلت فى تركيا وتغير نظام الحكم، الذى كان ينتمى إليه زكى شكرى، إلى أن اتصل مجد الدين ناصف بالدوائر التركية وذكرهم بضابطهم الذى قضى سنين عديدة يقاسى من أهوال الليمان إلى أن أفرج عنه».

(٤٥)

وبعد هذا كله فمن حق القارئ علينا أن ننقل له ما يرويه أحمد رمضان زيان عن انطباعاته وذكرياته عن المحاولة التى نسبت إلى الحزب الوطنى واستهدفت اغتيال سعد زغلول .

والشاهد أن أحمد رمضان زيان يلقى بالضوء على التخطيط لاغتيال الزعيم سعد زغلول نفسه ، وذلك دون أن يربط هذا التخطيط بالمحاولة التى قام بها عبد الخالق الدلبشانى وأشار إليها عبد العزيز على فى مذكراته ، ويبدو أن التخطيط كان يستهدف محاولة أخرى ، ونفهم من حديث أحمد رمضان زيان مدى العنت الذى يلاقيه الفدائيون الوطنيون على يد زملائهم السابقين من الفدائيين الوطنيين الذين وصلوا إلى السلطة ، وذلك من قبيل ما فعله النقراشى الذى وضع ما يشبه الكتالوج لرجال النشاط الوطنى ، وهو يتهم النقراشى وأحمد ماهر وشفيق منصور صراحة بأنهم كانوا يستغلون أعضاء الجمعية من أجل مصالحهم وأهدافهم .

كما نفهم من حديث أحمد رمضان زيان ما يدل على الماضى الوطنى والفدائى المشرف لسليمان حافظ ، الذى ساعد الثورة فى بداية عهدها مساعدات قانونية وإدارية ضخمة قبل أن يقع الشقاق بينه وبين الثورة :

« . . . وفى الوقت نفسه فكرت الجمعية بمصر والإسكندرية فى قتل سعد زغلول ، ولما علم شفيق منصور بما عزمت عليه الجمعية من اغتيال سعد زغلول ، حضر إلى الإسكندرية وقابل اليوزباشى حافظ قبودان وأسر إليه بما علمه ، وحذره من بطش الحكومة ، وخصوصًا وعلى رأس الداخلية محمود فهمى النقراشى الذى يعرف عن الجمعية كل شىء ، وأخبرنى حافظ قبودان بما دار بينه وبين الدكتور شفيق منصور ، وبعدها أجلنا موضوع اغتيال سعد زغلول إلى وقت آخر ، خاصة وأننا عرفنا أن النقراشى شكل لجنة بالداخلية للبحث عن أعضاء جمعية التضامن الأخوى ، ووضعت اللجنة كتيبًا صغيرًا به معلومات عن أكثر من مائة عضو ، وأمكن للجمعية أن تحصل على نسخة من هذا الكتيب بواسطة أحد أعضائها ، وهو فى الوقت ذاته موظف بالداخلية ، وقد قابل سليمان حافظ النقراشى فى دار وزارة

الداخليـة وفـاتحـه فى مـوضـوع الكتـيـب فـأنكره، وأبرزه سليـمـان حـافظ ومـا إن رأى النقراشى هذا الكتيب أمامه حتى اصفر وجهه، وقام سليمان حافظ وهو يقول : إن بطش ربك لشديد» .

«فى هذه الظروف، وجود سعد زغلول فى الحكم، ضعف نشاط الجمعية، واتخذ شفيق منصور والنقراشى وأحمد ماهر طريقًا لتسخير أعضاء الجمعية لأغراضهم، ولتوطيد مراكزهم» .

(٤٦)

يجدر بنا أن نذكر القارئ بما نقلناه فى هذا الباب عن أحمد رمضان زيان من انتقاده لموقف سعد زغلول من الترحيب بمكماهون، والواقع أن انتقادات زيان تمضى فى الخط الذى تعودنا عليه من الحزب الوطنى فى عداء سعد زغلول والهجوم الدائب عليه .

. . . .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فإن أحمد رمضان زيان يحرص فى هذه المذكرات على إدانة واحد من الذين أصبحوا من أقطاب الوفد وهو حمدى سيف النصر :

«كان حمدى سيف النصر مدير الفيوم الذى كان يعمل من قبل فى أم درمان، قد أصدر ذات مرة فى سنة ١٩١٦م أمرًا إلى ضباط المراكز ونقط البوليس بمديرية الفيوم بضرورة جمع ثلاثة آلاف ديك رومى أهداها إلى الجيش الإنجليزى المرابط بالفيوم . حمدى سيف النصر هذا كان يعرف كل تفاصيل قضية زكى شكرى واختفاءه فى الفيوم، ترصد لمصطفى حمدى ضابط نقطة أبو جنزير بالفيوم، ومن أعضاء جمعيتنا، وأحاله إلى مجلس تأديب حيث تم الحكم عليه بتجريده من رتبته وبحرمانه من كل حقوقه واعتقاله بالسجن الأسود بالجيزة» .

(٤٧)

ويشير أحمد رمضان زيان بفخر واعتزاز إلى الموقف الفريد الذى وقفه أمين الرافعى

عند فرض الإنجليز الحماية على مصر، وهو يذكر أن السلطان وحاشيته حاولوا إغراءه بالمال لكنه لم يستجب لهم، على الرغم من حاجته إلى المال، ويستطرد زيان من هذه الواقعة إلى انتقاد موقف حسين رشدى باشا الذى لم يحتج على إعلان الحماية ولا على خلع الخديو، وإنما قبل بحكم الإنجليز دون أن يحل نفسه من قسم الولاء الذى أقسمه للخديو عباس حلمى، وهنا يقارن زيان بين موقف رشدى من عباس حلمى وموقف القائد العسكرى الألمانى هندنبرج من الإمبراطور غليوم، مشيرًا إلى عجز رشدى عن أن يكون مثل هندنبرج الذى صمم على أن يقابل الإمبراطور غليوم حتى يحله من قسمه، وقد فعل.

ومن المهم أن نذكر هنا أن السفير حسين غالب رشدى نجل رشدى باشا قد أرسل برد على هذه الجزئية نشرته «المصور»:

«فى منتصف عام ١٩١٤م نشبت الحرب العالمية الأولى بسبب مقتل ولى عهد الصرب، ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، وكان الخديوى عباس حلمى الثانى يزور الأستانة وما إن دخلت تركيا الحرب حتى عينت معتمدًا جديدًا لها فى مصر هو مكماهون، وخلعت الخديوى عباس وأعلنت الحماية على مصر، ولم يكن هناك من احتجاج على كل ذلك من أية هيئة مصرية، أو شعبية أو حزبية، إلا احتجاج المرحوم أمين الرافعى الذى أغلق وحجب جريدة «الشعب،» وأعلن ذلك بصراحة».

«حاول السلطان حسين ورجال حاشيته إقناعه وإثناءه عن عزمه، حتى لقد وضعت السراى تحت يديه ستين ألفًا من الجنيهات رفضها بإباء وشمم، فى الوقت الذى أعلم فيه - عن يقين ثابت - بأنه لم يكن يملك وقتئذ مالاً كثيرًا ولا قليلاً، وبينما كان موقف حسين رشدى باشا رئيس الوزراء، وقائمقام الخديو موقفًا مشينًا، فلم يحتج على إعلان الحماية على مصر، ولا على خلع الخديوى، بل لم يرجع إلى الخديوى نفسه ليحله من قسمه، أذكر أنهم أرادوا فى ألمانيا أن يولوا هندنبرج القائد العسكرى الألمانى المعروف رئاسة الجمهورية، فطلب مقابلة الإمبراطور غليوم فى المنفى ليحله من القسم الذى ارتبط به، وقد قابله وأحله من قسمه، وبعد ذلك تقلد منصب رئيس الجمهورية الألمانية».

(٤٨)

وبعيدًا عن كل هذه العمليات الفدائية تتضمن مذكرات أحمد رمضان زيان المنشورة فى المصور فقرة قصيرة يحكى فيها عن رحلة إلى السودان، وتنبهنا فقرة زيان إلى مدى إهمالنا للسودان وإلى حقيقة الشعور المبكر للنخبة السودانية تجاه مصر وسياستها المتورطة مع الإنجليز:

« . . . أعرف على صدقى باشكاتب مصلحة السكة الحديد السودانية بسواكن، وهو من أبناء الإسكندرية، وكان يقيم بجهة الباب الجديد خلف مدرسة خويصة، وقد عرض على الأخ علىّ صدقى أن أقوم برحلة إلى السودان لا تكلف شيئًا، فعرضت الأمر على زملائى بالجمعية فوافقوا مرحبين على أن أزودهم ببعض المعلومات عن هذا القطر الذى سلخه الإنجليز عن مصر واستأثروا به، ولم تمض إلا فترة قصيرة على لقائى بعلى صدقى حتى أرسل إلىّ تذكرة مجانية على السكك الحديد السودانية درجة ثانية، وبارحت الإسكندرية فى نوفمبر سنة ١٩٠٨م، ووصلت إلى الشلال، ثم حملتنى الباخرة إلى وادى حلفا ونزلت من الباخرة ومعى حقائبى، ولم أبرح رصيف الباخرة حتى رأيت أمامى أحد الموظفين وبصحبته ضابط إنجليزى، وكان تحقيق كتابى، هو يسأل وأنا أجيب، ثم سمح لى بالسفر إلى عطبرة ثم إلى سواكن حيث نزلت فى ضيافة الأستاذ على صدقى، ومكثت هناك أكثر من شهر حصلت فيه على معلومات وافية عن السودان، ثم زرت الخرطوم وأم درمان حيث مكثت ستة أشهر، وقد أسفت لأن كثيرين من السودانيين البارزين الذين قابلتهم كانوا ينقمون علينا نحن المصريين؛ لأننا حاربناهم ووقفنا إلى جانب الإنجليز، وكنت أقول لهم: إننا لا نملك من الأمر فى بلادنا شيئًا، بل هو فى أيدى الإنجليز، وهم الذين يحاربونكم رغم أنفنا».

❋ ❋ ❋

كتب للمؤلف

فى التراجم

- **الدكتور محمد كامل حسين عالمًا ومفكرًا وأديبًا**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ــ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».

فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبوابًا وفصولاً لم تضمها الطبعة الأولى.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

- **مشرّفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ــ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).

الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

- **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ــ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

□ **أحمد زكى : حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ ــ ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ باشا**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ ــ ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيرًا من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ــ ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢)**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ ــ ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق. مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤.

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ ـ ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ ــ ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية. مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيرًا كبيرًا بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ **صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)**

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه. دار جهاد ثلاث طبعات ، ٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٥ .

□ **مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل**

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية. دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ **عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية**

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ ــ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٦.

■ **عاشق العلم أحمد مستجير**

سيرة حياة وفكر وإنجازات عالم الوراثة المصرى والمفكر والأديب والمترجم عميد علماء الزراعة فى عصره وعضو مجمع الخالدين.

■ **مصطفى مشرفة**

سلسلة قمم مصرية، السلسلة الثقافية لطلائع مصر، العدد ٧٣، المجلس القومى للشباب، القاهرة، فبراير ٢٠٠٧.

■ **أستاذ الجيل فى السعودية، محمد طاهر الدباغ**

سيرة حياته وفكره التربوى وإنجازاته التربوية.

فى التراجم المجمعة

■ **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

■ **كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات**

مجموعة منتقاة من الخطب والدراسات ألقيت فى تأبين بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وفى إحياء ذكرى رموز العلم والفكر والأدب فى احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها.

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ .

■ **عشرون من الخالدين :**

مجموعة دراسات ومقالات ألقيت ونشرت فى سلسلة عظماء المصريين (روز اليوسف) وأيام فى الذاكرة (الأهرام).

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكلٍّ من: بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

دراسات أدبية

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته،

وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.

دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته، ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيرًا من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقًا جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معًا.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة، بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

□ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكرًا.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه

التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

وجدانيات

■ **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صورًا فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضًا دقيقًا لتقلبات الوجدان ودواعيها وتوابعها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

فى أدب الرحلات

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة

إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقدارًا متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جنديًا من جنود الحضارة لا فارسًا من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

فى الأمن القومى والسياسى

■ **الأمن القومى لمصر، مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

مرجع ضخم يتدارس قضايا الأمن القومى المصرى من خلال قضاياه الأساسية والممارسات التاريخية لقادة أجهزته، ويستعرض مذكرات الرؤساء الأربعة الأوائل لجهاز المخابرات العامة: صلاح نصر، ومحمد حافظ إسماعيل، وأمين هويدى، وأحمد كامل، واثنين من قادة أجهزة أمن الدولة: حسن طلعت، وفؤاد علام.

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية، وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

مدارسات تاريخية ونقدية لكتب المذكرات

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء

داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية : مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

□ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية».

دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ــ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كلٍّ من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

□ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضًا بابًا عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **من أجل السلام، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين**

مدارسة تاريخية نفسية لمذكرات أربعة من المحامين المصريين من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة (عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس) عملوا بالسياسة، والحزبية، والاقتصاد، والصحافة، والأدب، وظلوا على ولائهم لمهنة المحاماة يستلهمون قيمها، ويستعينون بخبراتها، ويوظفون مهاراتها، وحين كتبوا مذكراتهم فإنهم اعتبروها أداء للمحاماة عن معتقداتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، وانحيازاتهم.

■ **يساريون فى زمن اليمين: مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى**

تأملات فكرية فى مذكرات أدبية من قادة الفكر اليسارى المصرى فى ميادين مختلفة قدر لهم أن يعايشوا صعود الفكر اليسارى ثم معاناته فى زمن التحول إلى اليمين: د. مراد غالب، ود. حامد عمار، ود. رشدى سعيد، ود. عبدالعظيم أنيس.

فى تاريخ عهد الملكية

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ - ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد

الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كلٍّ من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

تحليل تاريخى واستعراض نقدى لمذكرات أربعة من الذين شغلوا مواقع مهمة فى القصور الحاكمة وقدر لهم أن يشهدوا بأعينهم ما يجرى فى الكواليس فى فترة حافلة بالأحداث، ثم قدرت لهم حياة ممتدة أتاحت لهم أن يربطوا بين ما رأوه وما عرفوه عن تاريخ الفترات والأحداث التى عاشوها عن قرب. مذكرات : حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.

الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

فى الفكر التربوى وتاريخ الحياة العقلية

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. طبعة خاصة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفًا تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبرًا عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية

فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل المدارسة مذكرات: شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدا☆ عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

■ **الثورة والإحباط: مذكرات الأدباء وأساتذة الأدب**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب، وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون**

تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسه لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

فى الفكر التنموى

■ **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية

تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقًا من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا في المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.

دار المعارف، ٢٠٠٠.

■ **التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار**

مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التي كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ ــ ٢٠٠١) طارحًا فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمدًا على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحي متعددة في حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع في الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار في مستقبل الوطن.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبلنا في مصر : دراسات في الإعلام والبيئة والتنمية**

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة في مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيدًا عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التي صبغت بعض مناحي الحياة العامة في مصر بما يستحسن الخلاص منه في ظل فكر إنساني علمي جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية في الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة في حياة المجتمع، وفهم المشكلات في إطارها الخاص بعيدًا عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموي الذكي والمحافظ في الوقت ذاته على البيئة.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **الصحة والطب والعلاج في مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامي، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكارًا جديدة في تطوير التعليم الطبي وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة. الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥.

فى الفكر السياسى

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى — الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ - ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ - ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ . طبعة خاصة : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ١٩٩٧ .

□ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.

الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦. الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

أعمال موسوعية

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل

من خلال أية لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة. الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

فى طب القلب

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضًا للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.

دار المعارف، ٢٠٠١ .

■ **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضًا للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.

دار المعارف، ٢٠٠٢ .

تحقيق

■ **يوميات على مصطفى مشرفة.. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتبًا بارزًا واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

الكتب المسبوقة بمربع أبيض □ نفذت ولن يعاد طبعها حيث ظهرت لها كتب بديلة وافية.